شَذَا اليَاسَمِينَ

هذا الياسمين من سيرة سيد المرسلين

بَحْثٌ مُتَكَامِلٌ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ عِبَرٍ وَدُرُوسٍ مُسْتَفَادَةٍ

جَمعُ وَترتيبُ
مَنَار مَنّاع عَقـل

الطّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار الكتب والوثائق القومية (بطاقة فهرسة)

- إدارة الشئون الفنية

عقل، منار مناع

شذا الياسمين من سيرة سيد المرسلين ﷺ

تأليف: منار مناع عقل

ط: ١ - المنصورة - مكتبة الإيمان- ٢٠٠٨م

٥٠٠ ص ؛ ٢٤ × ١٧سم

تدمك: ١- ٤٤١ – ٢٩٠ - ٩٧٧

السيرة النبوية - العنوان

رقـــــم الإيداع: ١١٨٩٨ فِي ١١ / ٦ / ٢٠٠٨م

الترقيم الدولى: ١ – ٤٤١ – ٢٩٠ – ٩٧٧

مكتبة الإيمان بالمنصورة

أمام جامعة الأزهر

ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

بَيْنَ يَدَيِ الكِتَابِ

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.. أما بعد:

فإننا نحتاج فى هذا الزمان أن نتعايش مع سـيرة النبى ﷺ من أولها إلى آخرها؛ لنأخذ منها العظة والعبرة ونعيش الأسـوة والقدوة.. فهو الحبيب المصـطفى ﷺ الذى اصـطفاه الله وصـنعه، وربَّاه على عينه؛ ليربِّيَ به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان[1]، فسيرة النبى ليست مجرد قصة تتلى، وإنما هى مثال يحتذى به، ومنهج متكامل للحياة، فسـيرته شـاملة لكل النواحى الإنسـانية فى المجتمع مِمَّا يجعله القدوة الصـالحة لكل شـاب وكل زوج، وكل أب، وكل صديق، وكل داعية، وكل سياسى، وكل رئيس دولة، وهكذا.. وقد قمت بهذا البحث لسببين وهما:

السـبب الأول: سـؤال طرحه أحد الدعاة.. هل تُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ ؟ فقلت: نعم، وهذه هى الإجابة التى يقولها أي مسـلم دون التفكير فيما يتضـمنه حب النبي ﷺ من معنى - منٍ حيث اقتفاء أثره والتمسـك بسـنته ﷺ ثم اسـترسـل الداعية في الحديث قائلا: إن الذى يحب إنسـانًا يجب أن يعرف عنه كل شـيء، فهل تعرف سيرة النبى؟! وكنت - وقتها- لا أعلم الكثير عن سيرة النبى ﷺ، وقد أثر هذا السؤال في نفسى فقررت أن أعرف سيرة النبى ﷺ، وأخذت أقرأ فى كتب السـيرة، وعندما قرأت سـيرة النبى ﷺ شـعرت أنني أحب النبى بحق وليس بمجرد كلمة أقولها عندما يسألنى سائل: هل تحب النبي ﷺ ؟ وذلك من خلال ما لمسته من صفاته الكريمة، هذه الصفات التي جعلت الله - عز وجل- يخاطبه مثنيًا عليه قائلاً: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤] وكذلك من خلال ما

(١) سيرة الرسول لأبي عمار ص ٨.

تحمَّلـه النبي ﷺ من الأذى، وابتلاءات وغزوات.. إلخ من أجـل تبليغ الرسالة وأداء الأمانة والنصح للأمة.

السـبب الثاني: هذه الآية: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩] كنت كلما أقْرَؤُها أقف أمامها؛ لأتأمل حال أمتنا الإسلامية فأشعر بالحزن والأسى؛ لِمَا أراه من حال أمتنا الإسلامية فأتمنى أن أقدِّم شيئًا من أجل رفعة وعزة أُمَّتِنَا، وكنت أدعو الله كثيرًا أن يهديني لأي عمل أقدمه للإسـلام والمسـلمين إلى أن هداني الله - عز وجل- إلى هذا البحث.. وأنا إنما أبتغي بكلامي هذا أن يحرص كل مسلم على معرفه سيرة النبي؛ لينال نعمة من أعظم النعم، نعمة حب النبي ﷺ، فحب النبي يسـاعدنا على اقتفاء أثره ﷺ والتمسك بسنته؛ فالحب هو أساس الاتباع، فلا تجد مسلمًا يحب النبي بحق إلا ويقتدي به ويتمسـك بسـنته، وبذلك يقوى الإيمان في قلوبنا، ونكون مؤمنين بحق وتعود لنا عزتنا وكرامتنا، ولقد حر صت في هذا البحث على الإ شارة إلى بعض العبر والعظات التى تنطوى عليها سيرته؛ لنستفيد بها في حياتنا اليومية.

فتعالوا بنا؛ لنتعايش بقلوبنا وجوارحنا مع سيرة حبيبنا المصطفى ﷺ أسأل الله- عز وجل- العزة لنا ولأمتنا الإسـلامية، كما أسـأله أن ينفع بهذا البحث كل من يقرَؤُهُ.

وبالله التّوفيق

الفَقيرَةُ إِلَى عَفوِ رَبهِا وَرحمتِهِ

مَنَار مَناع عَقْل

٢٨ من جمادى الأولى

١٤٢٩هـ

فِي يومِ ٢ / ٦ / ٢٠٠٨ م

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

* * *

أَهَمِّيَّةُ دِرَاسَةِ السِّيرَةِ

إن الغرض من دراسة السيرة النبوية أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية فى مجموعها متجسدة في حياته؛ فهى ليست دراسة تاريخية لسيرة خليفة من الخلفاء، ولكنها ليست سوى عمل تطبيقى يُرادُ منه تجسيد الحقيقة الإسلامية كاملة في مثلها الأعلى محمد ﷺ.. ولدراسة السيرة أهمية كبيرة نحصرها فيما يلي:

١- فهم شخصية الرسول ﷺ (النبوية) من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها؛ للتأكد من أن محمدًا لَمْ يكن مجرد عبقريٍّ سمت به عبقريته بين قومه، ولكنه قبل ذلك رسول أَيَّدَهُ بوحْيٍ من عنده وتوفيقٍ من لدنه.

٢- أن يجد الإنسان بين يديه صورةً للمثل الأعلى في كلٍ شأن من شئون الحياة الفاضلة، كي يجعل فيها دستورًا؛ يتمسك به ويسير عليه، ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى في ناحية من نواحى الحياة فإنه واجد كل ذلك في حياة الرسول ﷺ على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال؛ ولذا جعله الله قدوة للإنسانية كلها إذ قال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٣- أن يجد الإنسان في دراسته سيرته ما يعينه على فهم كتاب الله تعالى وتذوق روحه ومقاصده، إذ أن كثيراً من آيات القرآن إنما تفسرها وتجليها الأحداث التى مرت برسول الله ﷺ وموقفه منها.

٤- أن تتجمع لدى المسلم من خلال دراسته سيرته أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية الصحيحة، سواء ما كان منها مُتَعَلِّقًا بالعقيدة والأحكام والأخلاق، إذ لا ريب أنَّ حياته ﷺ إنما هي صورة مجسدة نيِّرَة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه.

٥- أن يكون لدى المعلم والداعية الإسلامي نموذج حي عن طرائقِ التربية والتعليم، فلقد كان رسولُ اللهِ محمَّد ﷺ معلمًا ناصحًا ومربيًا فاضلا؛ لم يَأْلُ جهدًا في تلمس أجدى الطرق الصالحة إلى كل من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته.

وإن من أهم ما يجعل سيرته ﷺ وافية بتحقيق هذه الأهداف كلها أن حياته شـاملة لكل النواحى الإنسـانية والاجتماعية التي توجد في الإنسـان من حيث إنه فرد مستقل بذاته.. أو من حيث إنه عضو فعَّال في المجتمع(١).

٦- أن السيرة منهج حياة للفرد والأسرة والمجتمع.

٧- أننا نعرف من خلال الســيرة قدر النبي ﷺ ومكانته وكيف أن الله -جل وعلا- عصمه من الناس وأيده بالملائكة في يوم بدر والأحزاب وحُنَيْن.

٨- وكذلك نعرف من خلال السيرة قدر أصحابه رضي الله عنهم، وكيف أنهم ضحوا من أجل هذا الدين العظيم بأنفسهم ودمائهم وأموالهم وأولادهم من أجل إعلاء كلمة: (لا إله إلا الله).

٩- أن السيرة في ذاتها هي معجزة من معجزات الرسول ﷺ.

١٠- معرفة أسـباب النصـر و أسـباب الهزيمة؛ وذلك من خلال الوقوف على الغزوات وما حدث فيها.

١١- معرفة الطريق الأمثل لإزالة غربة الإســلام الثانية؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ (٢): «**بَدَأَ الإِسْــلامُ غَرِيبًا، وَسَـيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**» كان هذا الحديث بشارة عظيمة لنصرة الإسلام في عصرنا هذا، وذلك لأن الإسلام بدأ غريبا في عهد النبي فاستطاع النبي ﷺ - بفضل الله- أن يزيل غربة الإسلام في فترة وجيزة، وأن يقيم للإسلام دولة ما زال نورها يسطع في جبين الزمان؛ حتى يومنا هذا.

فكذلك سيعود الإسلام غريبًا و ستزول غربته مرة أخرى، و ستعود العزة للمسـلمين مرة أخرى.. كيف ذلك؟ من خلال دراسـة هذه السـيرة سـتعرف كيف أزال النبي ﷺ وأصـحابه غربتهم الأُولَى؟! لنزيل نحن غربتنا الثانية بإذن الله(٣).

(١) راجع فقه السيرة للبوطي ١٧ - ١٨.

(٢) (صحيح): مسلم ١٤٥، الترمذي ٢٦٢٩.

(٣) سيرة الرسول لأبي عمار محمود المصري ص ١٢ - ١٣.

العَالَمُ قَبْلَ الإِسْلَامِ:

كان يتصدر العالم قُبَيْل الإسلام دول فارس والروم ويأتي من ورائهما اليونان والهند..

- أما فارس فقد كانت حقلاً لوساوس دينية مختلفة كان فيها (الزرادشتية) والتى اعتنقها ذوو السلطة الحاكمون، وكان من فلسفتها تفضيل زواج الرجل بأمه أو أخته أو ابنته إلى جانب انحرافات خلقية مشـــينة، وكان فيها (المزدكية) وكان من فلســـفتها حل النســـاء وإباحة الأحوال وجعل الناس شـــركة فيها كاشـــتراكهم في الماء والنار والكلأ، وقد حظيت هذه الدعوة باســـتجابة عظيمة لدى أصحاب الرعونات والأهواء.

وأما الرومان فقد كانت تسيطر عليها الروح الا ستعمارية، وكانت منهمكة في خلاف ديني بينها من جهة وبين نصـَارَى الشـام ومصـر من جهة أخرى، وكانت تعتمد على قوتها العســكرية وطموحها الاســتعمارى في مغامرة عجيبة من أجل تطوير المسيحية والتلاعب بها حسبما توحي به مطامعها كما أنها في الوقت نفسه لم تكن أقل انحلالا من الفرس، فقد كانت تســـودها حياة التبذل والانحطاط الاقتصادى من جرأة كثرة الإتاوات ومضاعفة الضرائب.

- أما اليونان فكانت غارقة في خرافاتها وأساطيرها الكلامية دون أن ترقى منها إلى ثمرة أو نتيجة مفيدة.

- وأما الهند فكانت في ذلك الوقت في أحط أدوارها ديانة وخلقًا واجتماعًا بداية من مســـتهل القرن الســـادس الميلادى، فقد ســـاهمت الهند مع جارتها وشقيقاتها في التدهور الأخلاقي والاجتماعي.

- أما الجزيرة العربية فقد كانت هادئة بعيدة عن هذه الاضـــطرابات؛ وكانت طبائع أهلها أشـــبه ما تكون بالمادة الخام، فكانت تَتَراءى فيها الفطرة الإنسانية السليمة، ولذلك اختارها الله - عز وجل- مهدًا لنشأة الإسلام.

ولعل الحكمة في هذا الاختيار من نوع الحكمة التى اقتضـــت أن يكون الرســـول ﷺ أميًّا؛ حتى لا يرتاب الناس في نبوته، وحتى لا تتكاثر لديهم أسـباب الشـك في صـدق دعوته، وهنالك حكم أخرى لا تخفى على الباحث نجملها فيما يلى:

١- بها بيت الله الحرام.. أول بيت وضــع للناس للعبادة الذى بناه أبُونَا إبراهيم والرسول ﷺ من نسل سيدنا إبراهيم.

٢- البقعة الجغرافية للجزيرة العربية فى الوســط بين الأمم؛ مما يجعل انتشار الدعوة أسهل بين الأمم.

٣- اقتضت حكمة الله أن تكون اللغة العربية هى لغة الدعوة الإ سلامية؛ لِمَا تَمْتاز به من خصـــائص يعزُّ وجودها فى اللغات الأخرى.. فأجدر بها أن تكون لغة المسلمين الأولى في مختلف ربوعهم وبلادهم(١)!.

* * *

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٣٢: ٣٦ مختصرًا.

نَسَبُ النَّبِيِّ ﷺ الشَّرِيفُ وَأُسْرَتُهُ

نَسَبُ النَّبِيِّ ﷺ :

قال الإمام البخاري: (هُوَ أَبُو القَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ)[١]..

وقال الذهبي في كتابه السيرة النبوية: وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بإجماع الناس لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء[٢].

الأُسْرَةُ النَّبوِيَّةُ:

تُعْرَفُ أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية؛ نسبة إلى جده هاشم.

١ـ هَاشِم:

تولى السقاية والرفادة من بنى عبد مناف، وكان مُوسِرًا ذَا شَرَفٍ كبير، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وكان اسمه عمرو وسُمِّيَ هاشِمًا؛ لهشمه الخبز[٣]. وهو أول من سن الرحلتين لقريش..

وعندما خرج إلى الشام تاجرًا قدم المدينة وتزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي ابن النجار وأقام عندها؛ ثم خرج إلى الشام فمات بغزة من أرض فلسطين وولدت سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧مـ وسَمَّتْهُ شيبة؛ لشيبة كانت في رأسه.. وجعلت تُرَبِّيه في بيت أبيها بيثرب، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة.

وكان لهاشم أربعة بنين هُمْ: أسد وأبو صيفي ونضلة وعبد المطلب، وخمس بنات هُنَّ: الشفاء والخالدة وضعيفة ورقيَّة وجنَّة.

(١) الرحيق المختوم ص ٥٥.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٥.

(٣) هشم الخبز: كسره؛ كما في المعجم الوجيز ص ٦٥٠.

٢ـ عَبْدُ المطّلِب:

تولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد موت أخيه هاشم، وكانت قريش تسمِّيه الفيَّاض؛ لسخائه.. ولَمَّا صار شيبة فوق سبع أو ثماني سنين سمع به المطلب فرحل فى طلبه، وقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب، فقال لهم: ويحكم!.. هذا ابن أخى هاشم.

وبعد موت المطلب ولى بعده عبد المطلب، فاغتصب عمه نوفل حقه فسأل رجالاً من قريش النصرة على عمه، فأبوا، فأرسل إلى أخواله من بني النجار، فسار خاله أبو سعد بن عدى إليه وناصره؛ فاسترد حقه من عمه نوفل.

حفر بئر زمزم ووقعة الفيل:

– خلاصة الأولى:

أمر عبد المطلب فى المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها، فقام بحفرها فوجد فيه الأشياء التى دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء، أي: السيوف والدروع والغزالين من الذهب، فضرب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين صفائح من الذهب، وأقام سقاية زمزم للحجاج..

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب، وقالوا له: أشركنا، قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به؛ فخرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد هُذَيْم، وكانت بأشراف الشام، فلما كانوا فى الطريق نفذ الماء فسقى الله عبد المطلب مطرًا، ولم ينزل عليهم قطرة، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم فرجعوا، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن أتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعوه لينحَرَنَّ أحدهم عند الكعبة.

- خلاصة الثانى:

أن أبرهة الحبشى النائب العام عن النجا شى على اليمن، لَمَّا رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها وسمع بذلك رجل من كنانة، فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعذرة؛ ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش

عدده ستون ألف جندى؛ ليهدم الكعبة، واختار لنفسة فيلاً من أكبر الفيلة، وكان عدد الفيلة ٩ أو ١٢ فيلاً، ولما وصل بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقم ليتقدم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبه برك..

فبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل؛ ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص، لا تصيب منهم أحدًا إلا صارت تتقطع أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت، فخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

وكانت هذه الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين أو خمسة وخمسين - عند الأكثر- في أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١م.

٣ـ عَبْدُاللّٰهِ:

أمه فاطمة بنت عمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، فقيل: إنه أقرع بينهم أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله، فقال: اللَّهُمَّ هو أو مائة من الإبل ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على الإبل، وقيل: إنه كتب

أسماءهم في القداح، وأعطاها قيم هبل؛ فضـــرب القداح فخرج القدح على عبد الله فأخذه عبد المطلب: وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة؛ ليذبحه فمنعته قريش ولا ســـيما أخواله من بنى مخزوم وأخوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أسمع بنذرى؟! فأشـــاروا عليه أن يأتى عرافة فيســـتأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضــرب القداح على عبد الله وعلى عشــرة من الإبل؛ فإن خرجت على عبد الله يزيد عشـــرة من الإبل؛ حتى يرضـــي ربه فإن خرجت على الإبل نحرها فرجع وأقرع بين عشـــر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشرة عشرة ولا تقع

القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها فنحرت ثم تركت لا يرد عنها إنسـان ولا سبع وكانت الدية في قريش وفي العرب عشـرة من الإبل.. فجرت بعد هذه الواقعة مائة من الإبل أقرها الإســلام وروي عن النبى ﷺ أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**» يعنى: إسماعيل وأباه عبد الله.

اختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب أفضـــل امرأه فى قريش نسبًا وموضعًا، فبنى بها فى مكة..

وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرًا فمات بها، وقيل: بل خرج تاجرًا إلى الشـــام، فأقبل فى عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها وعمره خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ وبه يقول أكثر المؤرخين[١]..

وقيل بل توفى بعد مولده ﷺ بشهرين أو أكثر[٢].

(١) الرحيق المختوم ص ٥٦ - ٥٩ مختصرًا.

(٢) ابن هشام ص ١ / ١١١، الرحيق المختوم ص ٥٩.

مِيلاَدُ النَّبِيِّ ﷺ

مَوْلِدُهُ ﷺ :

قال ابن إسـحاق: ولد رسـول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشـرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل[1].

وعن ابن عباس وجابر – رضـي الله عنهما- إنهما قالا: ولد رسـول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات، فَهَذَا هو المشهور عند الجمهور.. والله أعلم.

وقد رُوِيَ أن إرهاصـات بالبعثة وقعت عند الميلاد فسـقطت أربع عشـرة شرفة من إيَوان كسرى، وخمدت النار التى يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة سـاوة بعد أن غاصـت وأنّهُ ﷺ ولد مختونًا مسـرورًا، أي: مقطوع الحبل السُّرِّيِّ.. إلى آخر ما روى عن الإرهاصات التي حدثت عند الميلاد.

وفي الحقيقة أنَّ كل ذلك لم يصح؛ ولم يأت خبر صحيح بحدوث أى شيء من ذلك، فالثابت من خلال الأحاديث الصـحيحة أنَّ أُمَّ النبيِّ ﷺ رأت نورًا يخرج منها فأضاء قصور الشام وذلك عند ولادته.

قال ﷺ : **«أنا دعوة أبي إبراهيم وبشـرى عيسـى، ورأت أمِّي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»**؛ ولَمَّا ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة، ودعا الله و شكر له، واختار له ا سم محمد – وهذا الاسـم لم يكن معروفًا فى العرب- وختنه يوم سـابعه كما كان العرب يفعلون..

وأول من أرضـعته من المراضـع – وذلك بعد أمه ﷺ بأسـبوع ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له: مسروح، وكانت قد أرضعت – قبله- حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

(١) ابن هشام ١ / ١١١.

فِي بَنِي سَعْدٍ:

كانت العادة عند الحاضـرين من العرب أن يلتمسـوا المراضـع لأولادهم ابتعادًا لهم عن أمراض الحواضر؛ ولتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسـان العربى فى مهدهم، فالتمس عبد المطلب ﷺ المراضـع واسـترضـع له امرأة من بنى سـعد بن بكر، وهى حليمة بنت أبي ذؤيب السـعدية، وزوجها الحارث بن عبد العُزَّى المكنَّى بأبى كبشة من نفس القبيلة..

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهى الشـيماء، لقَبٌ غلب على اسمها) وكانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمها إذا كانت عندهم وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسـول الله ﷺ وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعًا فى بنى سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ من جهتين؛ من جهة ثويبة ومن جهة السعدية [١].

قال ابن إسحاق: كانت حليمة تحدث: إنها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صـغير ترضـعه فى نسـوة من بنى سـعد بن بكر؛ تلتمس الرضـعاء، قالت: وذلك فى سـنة شـهباء[٢] لم تبق لنا شـيئًا؛ قالت: فخرجت على أتان قمراء[٣]، معنا شـارف[٤] لنا، والله ما تبض بقطرة[٥]، وما ننام ليلنا أجمع من صبيِّنا الذى معنا من بكائه من الجوع، ما فى ثديي ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغذيه، ولكنَّا كُنَّا نرجو الغيث والفرج.. فخرجت على أتانى تلك فلقد أدمت

(١) الرحيق المختوم ص ٦٢.
(٢) الشهباء: مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.
(٣) قمراء: بيضاء.
(٤) شارف: الناقة المسنة.
(٥) تبض بقطرة: تعطي قليلاً.

بالركب[١] حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا[٢]؛ حتى قدمنا مكة نلتمس الرَّضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعًا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذه رضيعًا؛ والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي؛ عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخذه إلا أنّي لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي؛ فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى..

ثم نام وما كنا ننام معه قبل ذلك وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل[٣] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشبعًا فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت – أنا– أتانى وحملته عليها معى فوالله

لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه من حمورهم؛ حتى إن صواحبى لَيَقُلْنَ لى: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك! اربعى علينا[٤] أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى وَاللهِ، إنها لهيَ هِيَ، فيقلن: والله إنَّ لها لشَأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعًا لبنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع؛ حتى كان

(١) أدمت: طالت بها مسافة السير.

(٢) العجف: الهزال.

(٣) الحافل: امتلأ ضرعها باللبن، وكثر لبنها.

(٤) اربعي علينا: ارفقي بنا.

الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم أسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعًا لُبَّنًا(١)، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير؛ حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا قالت: فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص على مكثه فينا، لِمَا كنا نرى من بركته، فكلمنا أمَّهُ وقالت لها: لو تركت بُنَيّ عندى؛ حتى يغلظ، فإنى أغشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا(٢).

حَادِثَةُ شَقِّ الصَّدْرِ:

وفى السنة الرابعة من مولده على قول المحققين، بعد عودته إلى بنى سعد بأشهر على قول ابن إسحاق وقع حادث شق صدره(٣).

فَعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَان فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ(٤): هَذَا حَظُّ الشَّيْطَان مِنْكَ ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْن(٥)، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرْئِي أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ وقد حدثت – أيضًا- حادثة شق الصدر مرة أخرى فى رحلة الإسراء والمعراج(٦).

(١) لُبَّنًا: بضم فتشديد: معناها ممتلئة الضرع باللبن.

(٢) ابن هشام (١ / ١١٣: ١١٥).

(٣) الرحيق المختوم ص ٦٣.

(٤) (صحيح): مسلم ١٦٢.

(٥) منتقع اللون: متغير اللون.

(٦) سيرة الرسول لأبي عمار ٦١ - ٦٢.

إِلَى أُمِّهِ الحَنُون:

وخشـيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة فردته إلى أمه، فكان عند أمه؛ حتى بلغ ست سنين.

ورأت آمنة أن تزور قبر زوجها بيثرب، فخرجت من مكة مع ولدها وأم أيمن وعبد المطلب، فمكثت شهرًا ثم قفلت، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض فى أوائل الطريق، ثم اشتد؛ حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة(١).

إِلَى جَدِّهِ العَطُوفِ

وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب الذى كان يؤثره على أولاده؛ قال ابن إسـحاق: كان يوضـع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه؛ إجلالا له، فكان رسـول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى، فواللهِ إنَّ له لشأنا، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

توفى عبد المطلب ورسول الله ﷺ ابن ثمان سنين(٢).

إِلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ

عندما أحس عبد المطلب بدنو أجله أوصـى ولده أبا طالب بكفالة الحبيب ﷺ وأوصـاه به خيرًا، وذلك لأن عبد الله - والد الرسـول ﷺ - وأبا طالب أخوان لأب وأم، فأمهما هى فاطمة بنت عمرو بن عائد، وكذلك فإنَّ عبد المطلب كان يشـعر بأنه لن يحافظ على الحبيب ﷺ ويحوطه بالرحمة التى تتدفق من قلبه والحنان إلا فاطمة بنت أسـد زوجة أبي طالب لِمَا كان يشـعر من الرحمة التي تتدفق من قلبها..

(١) الرحيق المختوم ص ٦٤.

(٢) ابن هشام ١ / ١١٨.

كان أبو طالب رحيمًا به ﷺ وكان رزقه قليلاً، فعمد النبيّ ﷺ إلى مساعدته، فا شتغل برعى الأغنام فى شعاب مكة وفجاجها، وقد ثبت فى الحديث قيامه بهذا العمل حيث روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: **«مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلا رَعَى الْغَنَمَ»**، فَقَالَ أَ صْحَابُهُ: وَأَنْتَ، فَقَالَ: **«نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ»** [١].

ولَمَّا عاش الحبيب ﷺ فى بيت عمه دخلت البركة لأول مرة هذا البيت، وبخاصـــة فى طعام الأولاد إذا أكل معهم النبى ﷺ فكان عيال أبى طالب إذا أكلوا جميعًا أو فرادى لم يشـبعوا، وإذا أكل معهم رسـول الله ﷺ شـبعوا وتبقى من طعامهم..

وكانت فاطمة بنت أســد ترعاه منذ طفولته إلى أن تزوج الســيدة خديجة رضـــى الله عنها، وكان النبى يشـــعر أن الله عوضـــه عن موت أمه بتلك الأم الرحيمة[٢].

بَحِيرَى الرَّاهِبُ:

ولَمَّا بلغ رسـول الله ﷺ اثنتي عشـرة سـنة، قيل: وشـهرين وعشـرة أيام- ارتحل به أبو طالب تاجرًا إلى الشام؛ حتى و صل إلى بُصْرَى وهى معدودة من الشـــام، وقصـــبة لحوران، وكانت فى ذلك الوقت قصـــبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان، وكان فى هذا البلد راهب عرف ببحِيرَى، واسمه فيما يقال: جرجيس، فلما نزل الركب خرج إليهم وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك فجعل يتخللهم؛ حتى جاء فأخذ بيد رســـول الله ﷺ وقال: هذا ســـيد العالمين.. هذا رســـول رب العالمين.. هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أبو طالب وأشياخ قريش: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خَرَّ ساجدًا ولا يسجدان إلا لنَبيٍّ، وإنى أعرفه بخاتم

(١) البخاري (٤ / ٥١٦)، مسلم (١ / ٦٠٥).
(٢) سيرة الرسول أبو عمار (٦٤ - ٦٦) مختصرًا.

النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.. إنَّا نجده فى كتبنا ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب أن يرده ولا يقدم به إلى الشام؛ خوفًا عليه من الروم واليهود..

فبعثه عمُّه مع بعض غلمانه إلى مكة[1]، وقيل: إن أبا طالب بعث معه أبا بكر وبلالاً[2].

حَرْبُ الفُجَّارِ:

وفى السنة العشرين من عمره ﷺ وقعت فى سوق عكاظ حرب بين قريش - ومعهم كنانة - وبين قيس عيلان تعرف بحرب الفجار، وسببها: أن أحد بنى كنانة اسمه البراض اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان وكان قائد قريش وكنانة كلها حَرْب بن أُمَيَّة؛ لمكانته فيهم سنًّا وشرفًا، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة؛ حتى إذا كان فى وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس؛ ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين؛ فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد, فاصطلحوا على ذلك ووضعوا الحرب؛ وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر؛ وسمِّيت بحرب الفجار؛ لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها[3] وقد شهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم؛ أخرجه أعمامه معهم.. وقال رسول الله ﷺ : «**كنت أنبل على أعمامى**» أي: أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها[4].

(١) الرحيق المختوم ص ٦٥.
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦٨.
(٣) الرحيق المختوم ٦٥ - ٦٦.
(٤) ابن هشام ١ / ١٢٤.

حِلْفُ الفُضُولِ

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول فى ذي القعدة فى شهر حرام تداعت إليه قبائل من قريش بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العُزَّى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان التيمى لسنِّه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألاَّ يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه.. وكانوا على من ظلمه؛ حتى ترد عليه مظلمته، و شهد هذا الحلف رسول الله ﷺ؛ وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: **«لقد شهدت فى دار عبد الله بن حدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت»**.

وهذا الحلف روحه تنافى الحمية الجاهلية التى كانت العصبية تثيرها، ويقال فى سبب هذا الحلف: إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة واشتراها منه العاص بن وائل السهمى، وحبس عنه حقه؛ فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوم وجمحًا وسهمًا وعديًا، فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبى قبيس ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعًا صوته، فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؛ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول، فعقدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه حق الزبيدي.

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْصِمُ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ أَقْذَارِ الجَاهِلِيَّةِ:

لقد عصم الله (عز وجل) نبيه ﷺ من أقذار الجاهلية؛ لتكون حياته صفحة بيضاء ليس فيها شائبة، فهو القدوة للكون كله في كل مكان وزمان.

فمن ذلك أن الله – عز وجل– صانه عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام وأنه ﷺ لم يكن يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب وعن علي بن أبى طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما هممت بشيء مما كان أهل**

الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته قلت ليلة للغلام الذي يرعى الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي؛ حتى أدخل مكة، وأسمر بها كما يسمر الشباب فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع فضرب الله على أذني، فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي فسألني فأخبرته ثم قلت: ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة[١] ثم ما هممت بسوء»[٢].

تِجَارَتُهُ بِمَالِ خَدِيجَةَ وَزَوَاجُهُ مِنْهَا:

قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالهم وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه

فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك

وخرج معه غلامها ميسرة؛ حتى قدم الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذى نزل تحت الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت الشجرة قط إلا نبي.

(١) رواه الطبري وغيره وصححه الحاكم وتبعه الذهبي وضعفه ابن كثير.
(٢) سيرة الرسول لأبي عمار ٦٨ - ٦٩، الرحيق المختوم ٦٨ - ٦٩.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها، وا شترى ما أراد أن يشترى، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة - فيما يزعمون- إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى مَلَكَيْنِ يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره (١).

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة فى مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بِمَا رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما فى نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضى بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وأصدقها عشرين بكراً، وكان سنُّهُ إذ ذاك خَمْسًا وعشرين وسنُّها أربعين سنة، وكانت - يومئذ- أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلاً، وهى أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم(٢).

اشْتِرَاكُهُ ﷺ فِي بِنَاءِ الكَعْبَةِ:

قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها؛ حرصًا على مكانتها واتفقوا على ألاَّ يدخلوا فى بنائها إلا طيِّبًا، فلا يدخلون فيها مهر بغيّ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى فأخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم ناحية الركنين، ولَمَّا لم يصبه شيء تبعه الناس فى الهدم فى

(١) ابن هشام ١ / ١٢٥.
(٢) ابن هشام ١ / ١٢٥.

اليوم الثانى، ولم يزالوا فى الهدم؛ حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ فى البناء فجزأوا الكعبة وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها وتولى البناء بنَّاء رومى اسمه: باقوم.

ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، و شاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداءً فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه؛ حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذ بيده، فوضعه فى مكانه.

فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا بُنِيَتْ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الْحِجَارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ [1]: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنْ الْحِجَارَةِ؛ فَخَرَّ إِلَى الْأَرْضِ وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «**إِزَارِي إِزَارِي فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ**» وفى رواية: فما رؤيت له عورة بعد ذلك[2].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

تنطوي هذه الفترة من حياته ﷺ على العديد من الحكم والعبر منها:

١- ليس من قبيل الصدفة أن يولد ﷺ يتيمًا، ثم لم يلبث أن فقد جده أيضًا، فينشأ النشأة الأولى من حياته بعيدًا عن تربية الأب ورعايته محرومًا من عاطفة الأم وحنوها.

(١) (صحيح) البخاري ٣٨٢٩.

(٢) الرحيق المختوم ٦٧ - ٦٩.

لقد اختار الله – عز وجل– لنبيه ﷺ هذه النشـــأة لحكم باهرة؛ لعل من أهمها أن لا يكون للمبطلين ســـبيل إلى إدخال الريبة القلوب أو إيهام للناس بأن محمدًا ﷺ إنما ر ضع لبان دعوته ور سالته التى نادى بها منذ صباه بإر شاد وتوجيه من أبيه وجده،ولم لا؟ إن جده عبد المطلب كان صدراً فى قومه، فلقد كانت إليه الرفادة والسقاية(١).

ومن الطبيعى أن يربى الجد حفيده أو الأب ابنه على ما يحفظ لديه هذا الميراث..

– ولَمَّا توفى جده وانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب الذى امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث ســنوات؛ كان من تتمة هذه الحكمة أن لا يســـلم عمه؛ حتى لا يتوهم أن لعمه مدخلاً فى دعوته، وأن المســألة مســألة قبيلة وأســرة وزعامة ومنصب.

٢– تُعَدُّ حادثة شق الصدر التى حصلت له ﷺ أثناء وجوده فى مضارب بنى ســعد من إرهاصــات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل؛ وليســت الحكمة من هذه الحادثة والله أعلم؛ ا ستئصال غدة الشرِّ في جسم ر سول الله ﷺ؛ إذ لو كان الشر منبعه غدة فى الجسم أو علقة فى بعض أنحائه؛ لأمكن أن يصـــبح الشـــرير خيِّرًا بعملية جراحية، ولكن يبدو أن الحكمة هى إعلان أمر الر سول ﷺ وتهيّؤه للعصمة والوحى منذ صغره بو سائل مادية؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس وتصـــديقهم برســـالته؛ إنها إذًا عملية تطهير معنوى؛ ولكنها اتخذت هذا الشكل المادى الحسى؛ ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم(٢).

(١) شيء كانت قريش تتعاون فيه فيجمعون مالا كثيرا؛ يشترون به طعاما ونبيذا ويطعمون الناس ويسقونهم أيام الحج.
(٢) فقه السيرة للبوطي ٥٠ - ٥٢.

٣- وفي رعى الغنم ما فيه من تهيئة الله - سبحانه وتعالى- لنبيه لتلقى الرسالة والقيام بأمر الدعوة؛ وفي حديث النبى ﷺ : «**مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلا رَعَى الْغَنَمَ**» يبين أنه ما من نبى إلا ورعى الغنم؛ ولعل الحكمة فى إلهام الأنبياء من رعى الأغنام قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكفلونه من القيام بأمر أمتهم، ولأنَّ فى مخالطتها ما يُحصِّل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها فى المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح؛ ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق؛ وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلفوا القيام بذلك من أول وهلة لِمَا يحصل لهم من التدرج على ذلك برعى الغنم، وخُصَّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر؛ لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهى أسرع انقيادًا من غيرها [1].

وفى إقباله ﷺ على رعى الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق ثلاث دلالات مهمة:

١- الذوق الرفيع والإحساس اللذان جمل الله - تعالى- بهما نبيَّه محمَّدًا ﷺ، لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة، وكان له فى الحنو والشفقة كالأب الشفوق، ولكنه ﷺ ما إن أنس فى نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونة الإنفاق عن عمه، وربما كانت الفائدة التى يجنيها من وراء عمله الذى اختاره الله له فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبى طالب، ولكنه على كل تعبير أخلاقى رفيع عن الشكر، وبذل للوسع، وشهامة فى الطبع، وبر فى المعاملة.

(١) سيرة الرسول لأبي عمار ٦٤ - ٦٥.

٢- وتتعلق ببيان نوع الحياة التى يرتضيها الله - تعالى- لعباده الصالحين فى دار الدنيا، لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية أن تهيِّئ للنبى ﷺ وهو فى صدر حياته من

أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعيًا وراء القوت، ولكن الحكمة الإلهيه تريد منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكد يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبنى جنسه، و شر المال ما أصابه الإنسان وهو مستَلْقٍ على ظهره دون أن يرى أى تعب فى سبيله، ودون أن يبذل أى فائدة للمجتمعً فى مقابله.

٣- إن صاحب أى دعوة، لن تقوم لدعوته أى قيمة فى الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم.

ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد فى معيشته على جهده الشخصى أو مورد شريف لا ا ستجداء فيه؛ حتى لا تكون عليه لأحد منَّة أو فضل فى دنياه فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق فى وجهه غير مبال بالموقع الذى قد تقع من نفسه.

فقد أراد الله - عز وجل- أن لا يكون فى شيء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أى تأثير سلبى، فيما بعد البعثة [1].

نُزُولُ الوَحْيِ فِي غَارِ حِرَاء

وَلَمَّا قاربت سنه الأربعين حُبِّبَ إليه الخلاء، فقد كان محمَّد ﷺ يهجر مكة كل عام؛ ليقضى شهر رمضان في غار حراء على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة في رأس جبل من هذه الجبال المشرفة على مكة والتى ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل، ويبدأ السكون الشامل المستغرق في هذه القمة السامقة المنزوية، كان محمّد ﷺ يأخذ زاد الليالى الطّوال ثم ينقطع عن العالمين متجها بفؤاده المشوق إلى رب العالمين!.

(١) فقه السيرة للبوطي ٥٤ - ٥٥.

وفي هذا الغار النائى كان محمد ﷺ يتعبد، ويصـــقل قلبه، وينقى روحه ويقترب من الحق جهده ويتبعد عن الباطل وسعه؛ حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية انعكست بها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة، فأمسى لا يرى رؤيا إلى جاءت كفلق الصبح(١).

بدْء الوَحْيِ:

روى الإمام البخارى عن السيدة عائشة تصف كيفية بدء الوحى:

عَنْ عَائِشَــةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ(٢): أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَار حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: «**اقْرَأْ قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَــلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَــلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ١ - ٣] **فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِــيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِــلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِــبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّــيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ (٣) فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَــدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ**

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٨٠ مختصرًا.

(٢) (صحيح) البخاري ٤.

(٣) الكل: الثقل ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، كسب المعدوم: هو إعطاء الفقير تبرعا، النوائب: الحوادث.

الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا بْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا بْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا[1] لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ» [2].

فَتْرَةُ الوَحْيِ:

اختلف فى الزمن الذى فتر فيه الوحى فقيل: ثلاث سنوات؛ وقيل أقل من ذلك؛ والراجح ما رواه البيهقى من أن المدة كانت ستة أشهر[3].

وعن جندب بن عبد الله الجبلى ر ضى الله عنه قال: (ا شتكى ر سول الله ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثًا فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا تركك؛ فأنزل الله: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الضحى: ١ - ٤].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ ﴾ [المدثر: ١- ٥] قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلاةُ وَهِيَ الأَوْثَانُ».

(١) جذعا: شابا قويا.

(٢) فقه السيرة للبوطي ٦٦ - ٦٧، الرحيق المختوم ٧٥ - ٧٦.

(٣) وذكر ابن هشام أن فترة الوحي كانت أيامًا.

كَيْفَ كَانَ يَأْتِي الوَحْيُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟

لقد ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله- مراتب الوحى الذى كان يتنزل على النبى ﷺ فقال: وكمل الله له من مراتب الوحى مراتب عديدة:

إحداها: الرؤيا الصـــادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

الثانية: ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبى ﷺ : «**إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس؛ حتى تستكمل رزقها وتستوعب أجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**» (1).

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه؛ حتى يعي عنه ما يقول له، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

الرابعة: أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك؛ حتى أن جبينه ليتفصد عرقًا فى اليوم الشديد البارد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان ركبها، ولقد جاءه الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضُّهَا.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التى خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [النجم: ٣ - ١٦].

(١) صحيح الجامع ٢٠٨٥.

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهى تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب، وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف(1).

* * *

(1) سيرة الرسول أبو عمار ٨٣ - ٨٤.

حَيَاةُ النّبِيِّ ﷺ فِي ظِلَاَلِ النُّبُوَّةِ

تنقسم حياة رسول الله ﷺ بعد أن شرَّفَهُ الله بالنبوة والرسالة إلى عهدين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهما:

العهد المكى: ثلاث عشرة سنة تقريبًا.

العهد المدنى: عشر سنوات كاملة.

ثم يشتمل كل من العهدين على عدة مراحل لكل مرحلة منها خصائص تمتاز بها عن غيرها.

ويمكن تقسيم العهد المكى إلى ثلاث مراحل:

١- مرحلة الدعوة السريَّة ثلاث سنوات.

٢- مرحلة إعلان الدعوة فى أهل مكة: من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة.

٣- مرحلة إعلان الدعوة خارج مكة وفشوها فيهم من أواخر السنة العاشرة من النبوة وقد شملت العهد المدنى وامتدت إلى آخر حياته ﷺ.

أما مراحل العهد المدنى فسيجيء تفصيلها فى موضعه(١).

المَرْحَلَةُ الأُولَى: الدَّعْوَةُ سِرًّا

ثَلَاَثُ سَنَوَاتٍ مِنَ الدَّعْوَةِ السّرّيّةِ:

بدأ النبى ﷺ يستجيب لأمر الله بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر – فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام؛ ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرًّا حذرًا من وقع المفاجأة على قريش التى كانت متعصبة لشركها ووثنيتها فلم يكن ﷺ يظهر الدعوة فى المجالس العمومية لقريش(٢).

(١) الرحيق المختوم ص ٧٣.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٧٥.

الرَّعِيلُ الأَوَّلُ:

وكان من الطبيعى أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به من أهل بيته وأصدقائه فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الحق والخير، ويعرفونه بتحرى الصدق والصلاح؛ فأجابه من هؤلاء جمع عرفوا فى التاريخ الإسلامى بالسابقين الأولين، وفى مقدمتهم زوجة النبى ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ومولاه زيد بن حارثة وابن عمه على بن أبى طالب وكان صبيًّا يعيش فى كفالة الرسول ﷺ و صديقه الحميم أبو بكر الصديق أسلم هؤلاء فى أول يوم للدعوة.

ثم نشط أبو بكر فى الدعوة إلى الإسلام وكان رجلاً مألفًا محببًا سهلاً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته فجعل يدعو من يثق به من قومه مِمَّن يغشاه، ويجلس إليه فأسلم بدعوته عثمان بن عفان والزبير بن عوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله؛ فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام[1].

دَارُ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ:

ثم لَمَّا أربى الذين دخلوا فى الإسلام على الثلاثين؛ ما بين رجل وامرأة – اختار لهم رسول الله ﷺ دار أحدهم وهو الأرقم بن أبى الأرقم؛ ليلتقى بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم وكانت حصيلة الدعوة فى هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة دخلوا فى الإسلام عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن له بين قريش[2].

(١) الرحيق المختوم ص ٨٠.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٧٦.

الصَّــلاَةُ:

ومـن أوائـل مـا نـزل مـن الأحكـام الأمـر بالصـلاة، قـال ابـن حجـر: كان ﷺ قبـل الإسـراء يصـلى قطعًـا وكـذلك أصـحابه، ولكـن اختلـف هـل فرض شيء قبل

الصــلوات الخمــس مــن الصــلاة أم لا؟ فقيــل: إن الفــرض كانــت صلاة قبل طلـوع الشـمس وقبـل غروبهـا.. انتهـى.وروى الحـارث بـن أبـى أسـامة مـن طريـق ابـن لهيعـة موصـولاً عـن زيـد بـن حارثـة أنَّ رسـول الله ﷺ فـى أول مـا أوحـى إليـه أتـاه جبريـل فعلمـه الوضـوء؛ فلمـا فـرغ مـن الوضوء أخذ غرفة من مـاء فنضـح بهـا فرجـه، وقـد رواه ابـن ماجـه بمعنـاه وروى نحوه عن الـبراء بـن عـازب وابـن عبـاس وفـى حـديث ابـن عبـاس: وكان ذلك من أول الفريضة.

وقد ذكر ابن هشام أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا فى الشـعاب فاسـتخفوا بصـلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبى ﷺ وعليًّا يـصليان مرة فكلمهما فى ذلك، ولَمَّا عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات، وهكذا مرَّت ثلاثة أعوام والدعوة لم تزل مقصـــورة على الأفراد ولم يجهر بها النبى ﷺ فى المجامع والنوادى إلا أنها عرفت لدى قريش؛ وفشـا ذكر الإسـلام بمكة وتحدث به الناس، وقد تنكر له بعضـــهم أحيانًا واعتدوا على بعض المؤمنين إلا أنهم لم يهتموا به كثيرًا؛ حيث لم يتعرض رسـول الله ﷺ لدينهم ولم يتكلم فى آلهتهم[1].

(١) الرحيق المختوم ٨١ - ٨٢.

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

أهم الله الرسول ﷺ؛ والإلهام للرسول نوع من الوحى إليه أن يبدأ الدعوة فى فترتها الأولى بســرِّية وتكتُّم، وأن لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصفى لها ويؤمن بها؛ تعليمًا للدعاة من بعده وإرشادًا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التى ينبغى أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده.. وعلى أن لا يذهب الإنسان فى التمسك بهذه الأسباب مذهبًا يعطيها معنى التأثير والفاعلية فى تصوره وتفكيره؛ فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام[1].

وفى هذا درس لأصحاب الدعوة الإسلامية فى كل عصر أن يستعملوا المرونة فى كيفية الدعوة حسبما تقتضيه الظروف وحال العصر الذى يعيشون فيه بما يتفق مع مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية.

المرْحَلَةُ الثّانِيَةُ: الدَّعْوَةُ جَهْرًا

أَوَّلُ أَمْرٍ بِإِظْهَارِ الدَّعْوَةِ:

لَمَّا تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون وتتحمل عبء تبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها نزل الوحى يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة ومجابهة الباطل بالحسنى.

وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وقد ورد فى سياق ذكرت فيه أولاً قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بنى إسرائيل وقصة نجاتهم من فرعون وقومه وإغراق آل فرعون معه؛ وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التى مرَّ بها موسى

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٧٦.

عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله، وكأن هذا التفصيل جيء به مع أمر الرسول ﷺ بجهر الدعوة إلى الله؛ ليكون أمامه وأمام أصحابه مثال لما سـيلقونه من التكذيب والاضـطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ البداية، ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسـل من قوم نوح، وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب الأيكة - عدا ما ذكر من أمر فرعون وقومه؛ ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب عاقبة أمرهم وما سـيلقونه من مؤاخذة الله إن اسـتمروا عليه، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم وليس للمكذبين.

الدَّعْوَةُ فِي الأَقْرَبِينَ:

ودعا رسول الله ﷺ عشيرته بنى هاشم بعد نزول هذه الآية؛ فجاءوا معهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا نحو خمسـة وأربعين رجلاً، فلما أراد أن يتكلم رسـول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أن آخذك فحسبك بنو أبيك؛ وإن أقمت على

ما أنت عليه فهو أيسـر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب؛ فما رأيت أحدًا جاء على بنى أبيه بشر مما جئت به فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم فى المجلس.

ثم دعاهم ثانية وقال: «**الحمد لله أحمده وأسـتعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» ثم قال: «**إن الرائد لا يكذب والله الذى لا إله إلا هو إنى رسـول الله إليكم خاصـة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون؛ وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا**».

فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقًا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أنى أسـرعهم إلى ما تحب فامضِ لِمَا أمرت به؛ فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسى لا

تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب، فقال أبو لهب: هذا والله السـوأة؛ خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا.

عَلَى جَبَلِ الصَّفَا:

وصعد النبى ﷺ ذات يوم على الصفا ثم هتف: «**يا صباحاه**» وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم.

ثم جعل ينادى بطون قريش و يدعوهم قبيلة قبيلة: «**يا بنى فهر، يا بنى عدي، يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد مناف، يا بنى عبد المطلب" فلما سمعوا قالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد، فأسرع الناس إليه حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسـل رسـولاً؛ لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش، فلما اجتمعوا قال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى بسـفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصـدقيَّ؟ قالوا: نعم.. ما جربنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صـدقًا. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شـديد إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله أى: يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع؛ لئلاَّ يدهمهم العدو ، فخشى أن يسبقوه فجعل ينادى: يا صباحاه**».

ثم دَعَاهم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى الحق وأنذرهم من عذاب الله؛ فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي كَعْبِ ابْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ؛ فَإِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا**» أى: سأصلها حسب حقها..

ولَمَّا تَمَّ هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أى ردة فعل سوى أن أبا لهب واجه النبى بالسوء وقال: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد: ١ - ٥] كانت هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم وأن عصبة القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله، ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه فى أرجاء مكة؛ حتى نزل قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤].

فقام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام فى مجامع المشركين ونواديهم يتلو عليهم كتاب الله ويقول لهم: ما قالته الرسل لأقوامهم: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم فكان ﷺ بفناء الكعبة نهارًا جهارًا وعلى رُءُوس الأشهاد وقد نالت دعوته مزيدًا من القبول ودخل الناس فى دين الله واحدًا بعد واحدٍ وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد واشمأزت قريش من كل ذلك؛ وساءهم ما كانوا يبصرون(١).

خُطَّةُ قُرَيْشٍ فِي مُقَاوَمَةِ الدَّعْوَةِ:

وخلال هذه الأيام اقترب موسم الحج فاجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة وكان ذا سنٍّ فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا

(١) الرحيق المختوم ٨٣ - ٨٥، نقلاً من صحيح البخاري ومسلم.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقول به قال: بل أنتم فقولوا أسمع قالوا: نقول كاهن قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه(1)؛ قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا بتخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر قال: ما هو بشاعر، وعرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر قال: فما هو بساحر، لقد رأينا السحار بسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنا لقوله لحلاوة، وإنا أصله لعذق، وإن فرعه لجناه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحرًا، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره؛ فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة قوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) ﴾ [المدثر: 11 - 25].

أما رســـول الله ﷺ فخرج يتبع الناس فى منازلهم وفى عكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم إلى الله وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صـــابئ كذاب؛ فصـدرت العرب من ذلك الموسـم بأمر رسـول الله ﷺ وانتشـر ذكره فى بلاد العرب كلها (2).

* * *

(1) زمزمة: صوت خافت.

(2) ابن هشام 1 / 180 - 182، الرحيق المختوم 85 - 86.

السِّمَاتُ البَارِزَةُ لِهَذِهِ المرْحَلَةِ

١- محاولة القضاء على الدعوة بشتى الأساليب.

٢- كثرة الإيذاء للنبى ﷺ وأصحابه.

٣- النبى ﷺ يربى أصحابه على الصبر على الإيذاء.

٤- النبى يربى أصحابه على العقيدة الصحيحة.

٥- المشركون يعرضون المال والمناصب على النبى ﷺ فلا يقبلها.

٦- النبى ﷺ يبشر أصحابه بنصر الله والتمكين لدينه[1].

السِّمَةُ الأُولَى: مُحَاوَلَةُ القَضَاءِ عَلَى الدَّعْوَةِ بِشَتَّى الأَسَالِيبِ:

لَمَّا فرغت قريش من الحج فكرت فى أساليب تقضى بها على هذه الدعوة فى مهدها وتتلخص هذه الأساليب فيما يلى:

١- السخرية والتحقير والاستهزاء والتكذيب والتضحيك:

قصدوا بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية فرموا النبى ﷺ بتهم هازلة وشتائم سفيهة فكانوا ينادونه بالمجنون: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر: ٦] ويصمونه بالسحر والكذب: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص: ٤] وكانوا كما قص الله علينا: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المطففين: ٣٠ - ٣٣].

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء؛ حتَّى أثَّر ذلك فى نفس رسول الله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر: ٩٧] ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٨ - ٩٩].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٠١.

٢- إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة:

وقد أكثرو من ذلك وتفننوا فيه؛ بحيث لا يبقى لعامة الناس مجال للتدبر فى دعوته والتفكير فيها فكانوا يقولون عن القرآن: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان: ٤] وقالوا عن النبى: إنه شاعر؛ وكلامه شعر قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

وقالوا أيضًا اعتقادًا منهم: إن منصب النبوة أجَلُّ وأعظم من أن يعطى لبشر:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: ٧] فقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [إبراهيم: ١١] كما أنهم أنكروا البعث بعد الموت فكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧﴾ [الصافات: ١٦ - ١٧] فردَّ الله تعالى عليهم: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٣- الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن ومعارضته بأساطير الأولين:□

كان المشـــركون يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشـغب والضـوضـاء، ويتغنون ويلعبون إذا رأوا أن النبى ﷺ يتهيأ للدعوة أو إذا رأوه يصلى ويتلو القرآن قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصـلت: ٢٦] حتى إنَّ النبى ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن فى مجامعهم ونواديهم إلا فى أواخر السنة الخامسة من النبوة؛

وذلك عن طريق المفاجأة دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة، وكان النضر بن الحارث أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وأسفنديار؛ فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا

للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر يقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ثم يقول: بِمَاذا محمد أحسن حديثًا منى؟

٤- مساومات وتنازلات:

ولَمَّا فشلت قريش فى مفاوضاتها المبنية على الإغراء والترغيب والتهديد وخاب أبو جهل فيما أبداه من الرعونة وقصد الفتك - كما سيأتى ذكره بعد - رأوا أن يساوموه ﷺ فى أمور الدين ويلتقوا به فى منتصف الطريق فيتركوا بعض ما هم عليه ويطالبوا النبى ﷺ بترك بعض ما هو عليه وظنوا أنهم بهذا الطريق سيصيبون الحق إن كان ما يدعو إليه النبى ﷺ حقًّا.

روى ابن إسحاق بسنده قال: اعترض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالكعبة الأسود ابن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمي وكانوا ذوى أسنان فى قومهم - فقالوا: يا محمد هَلُمَّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد؛ فنشترك نحن وأنت فى الأمر؛ فإن كان الذى تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ - ٦] (١).

(١) باختصار من الرحيق المختوم ٨٦: ٩٠ - ١٠٩.

وَفْدُ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ:

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا؛ فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقًا وردهم ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله، ويدعو إليه، ولكن لم تصبر قريش طويلاً حين رأته ﷺ ماضيًا فى عمله ودعوته إلى الله بل أكثرت ذكره وتذامرت فيه؛ حتى قررت مراجعة أبى طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق.

قُرَيْشٌ يُهَدِّدُونَ أَبَا طَالِبٍ:

وجاءت سادات قريش إلى أبى طالب فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنَّا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا؛ حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك؛ حتى يهلك أحد الفريقين..

عَظُمَ على أبى طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد فبعث إلى رسول الله وقال له: يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى، فقالوا لى كذا وكذا فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله وأنه ضعف عن نصرته فقال: «**يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر؛ فلن أتركه حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ثم استعبر وبكى وقام؛ فلمَّا ولى ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له: اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا**».

قريش بين يدى أبي طالب مرة أخرى:

ولَمَّا رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض فى عمله عرفت أن أبا طالب قد أَبى خُذْلان رسول الله ﷺ وأن مجمع لفراقهم وعداوتهم فى ذلك فذهبوا إليه

بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله؛ فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تسوموننى أتعطونى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبدًا فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا فقال: والله ما أنصفتمونى ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم عليّ فاصنع ما بدا لك.

ولَمَّا فشلت قريش فى هذه المفاوضات ولم توفق فى إقناع أبى طالب بمنع رسول الله ﷺ وكفه عن الدعوة إلى الله قررت أن يختار سبيلاً قد حاولت تجنبه والابتعاد منه مخافة مغبته، وما يؤول إليه وهو سبيل الاعتداء على ذات الرسول ﷺ [1].

السِّمَةُ الثّانِيَةُ: كَثْرَةُ الإِيذَاءِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ:

فى هذه المرحلة كان المسلمون يتعرضون لأشد أنواع الإيذاء من كفار قريش، وها هي بعض صور الإيذاء التى تعرض لها النبى ﷺ وأصحابه[2].

أَوَّلاً: إِيذَاءُ قُرَيْشٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ

إيذاء أبي لهب للنبى ﷺ :

كان أبو لهب فى مقدمة من أرادوا إيذاء النبى ﷺ، وكان قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة؛ فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة، حتى طلقاهما..

(١) الرحيق المختوم ٩٣ - ٩٤.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٠٥.

ولَمَّا مات عبد الله – الابن الثانى لرسول الله ﷺ استبشر أبو لهب وذهب إلى المشـركين يبشـرهم بأن محمدًا صـار أبتر فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣] وقد كان أبو لهب يجول خلف النبى ﷺ فى موســم الحج والأســـواق؛ لتكذيبه، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربى ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب بل كان يضربه بالحجر؛ حتى يدمى عيناه[(١)].

إِيذَاءُ أُمِّ جَمِيلٍ امْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ :

وكانت امرأة أبى لهب أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبى ســفيان لا تقلّ عن زوجها فى عداوة النبى ﷺ فقد كانت تحمل الشــوك وتضــعه فى طريق النبى ﷺ وعلى بابه ليلاً وكانت امرأة ســليطة تبســط فيه لســانها وتطيل عليه الافتراء والدس وتؤجج نار الفتنة،

وتثير حربًا شــعواء على النبى ﷺ؛ ولذلك وصــفها القرآن بحمالة الحطب، ولما سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت ر سول الله ﷺ وهو جالس فى المســجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصـديق وفى يدها فهر، أى: بمقدار ملء الكف من حجارة؛ فلما وقفت عليهما أخذ الله ببـصرها عن ر سول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر فقالت: يا أبا بكر أين صـــاحبك؟! قد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضــــربت بهذا الفهر فاه، أما والله إنى لشـــاعرة؛ ثم قالت: مُذَمَّما عـصينا.. وأمره أبينا.. ودينه قلينا، ثم انـصرفت فقال أبو بكر: يا ر سول الله ﷺ أما تراها رأتك؟"قال: «**ما رأتنى لقد أخذ الله ببصرها عنى**»[(٢)].

إِيذَاءُ أَبِي جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ :

عن أبى هرير رضـــى الله عنه قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه[(٣)]بين أظهركم؟! قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك

(١) الرحيق المختوم ص ٩٤ مختصرًا.

(٢) رواه البيهقي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.. سيرة الرسول أبو عمار ١٠٧ - ١٠٨.

(٣) يعفر وجهه أي: يسجد ويلصق وجهه بالتراب.

لأطأن على رقبته أو لأعفرنَّ وجهه فى التراب قال: فأتى رســـول الله ﷺ وهو يصــــلى، زعم ليطأ على رقبته قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه[1] ويتقى بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة، فقال رســول الله ﷺ : **«لو دنا منِّي لاختطفته الملائكة عضــوًا عضوًا»** [2].

وعن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ فجاء أبو جهل فقال: أَلَمْ أَنْهَكَ عن هذا؟ أَلَمْ أَنْهَكَ عن هذا؟ فانصـــرف النبى ﷺ فزبره[3] فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨) ﴾ [العلق: ١٧ - ١٨] قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله[4].

إِيذَاءُ عُقْبَة بنِ أَبِي معيْط لِلْنَبِيِّ ﷺ :

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: "بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت وأبو جهل وأ صحاب له جلوس وقد نحرت جزور[5] بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى ســـلا[6] جزور بنى فلان؛ فيأخذه فيضـــعه فى كتفي محمد إذا سجد.

فانبعث أ شقى القوم، أى: عقبة بن أبى معيط؛ فأخذه فلما سجد النبى ﷺ و ضعه بين كتفيه قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رســول الله ﷺ والنبى ســاجد ما يرفع رأسه؛ حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهى جويرية [7] فطرحته عنه، ثم أقبلت تشتمهم فلما قضى النبى صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم.

(١) ينكص على عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.
(٢) أخرجه مسلم.
(٣) فزبره: نهره.
(٤) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٠٦.
(٥) جزور: الناقة.
(٦) سلا: اللفافة التي تكون في تطن الناقة وسائر الحيوانات.. وهي من الآدمي المشيمة.
(٧) جويرية: شابة لم تكبر بعد.

وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ**»[1].

إِيذَاءُ أُمَيَّة بنِ خَلَفٍ لِلْنَّبِيِّ ﷺ :

كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه وفيه نزل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: ١ - ٩] قال ابن هشام الهمزة: الذى يشتم الرجل علانية ويكسر عينيه ويغمز به، واللمزة: الذى يعيب الناس سرًّا ويؤذيهم.

إِيذَاءُ الأَخْنَسِ بنِ شُرَيْقٍ الثَّقَفِيِّ لِلْنَّبِيِّ ﷺ :

كان الأخنس بن شريق ممن ينال من رسول الله ﷺ وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه وهى فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم: ١٠ - ١٣][2].

ثانيًا: إيذاُء قُرَيْشٍ لأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ :

وإذا كانت هذه الاعتداءات على النبى ﷺ وله من الجلال والوقار فى نفوس العامة والخاصة فكيف بالصحابة الكرام لا سيما الضعفاء منهم وسوف نسوق شيئًا من ذلك يكون فيه سلوى وعزاء للدعاة إلى الله - عز وجل- فى هذه الأزمنة الغابرة تثبت أقدامهم على الطريق وتعطيهم القدوة والمثل.

(١) البخاري ٢٤٠.

(٢) الرحيق المختوم ص ٩٦.

مَا حَدَثَ لِعُثْمَانَ رضى الله عنه:

كان عم عثمان بن عفان يلفه فى حصـــير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته، وروى أنه عندما أســـلم أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه رباطًا؛ وأقســـم ألا يحله إلا إذا ترك الإســـلام فأقســـم عثمان على عدم تركه الإسلام، فلما رأى عمه صلابته فى دينه تركه.

مَا حَدَثَ لِمُصْعَب بنِ عُمَيْرٍ رضى الله عنه:

ولَمَّا علمت أم مصـــعب بن عمير بإســـلامه أجاعته وأخرجته من بيتها، وكان من أنعم الناس عيشًا فتخشف جلده تخشف الحية؛ وحتى حمله أصحابه على قسيهم لشدة ما به من الجهد[١].

مَا حَدَثَ لِبلالٍ رضى الله عنه:

كان بلال مولى أمية بن خلف الجمحى فكان أمية يضـــع فى عنقه حبلاً ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به فى جبال مكة ويجرونه حتى كان الجبل يؤثر فى عنقه وهو يقول: أحد أحد، وكان أمية يشده شدًّا؛ ثم يضربه بالعصا ويلجئه إلى الجلوس فى حر الشمس كما كان يكرهه على الجوع؛ وأ شد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى الرمضـــاء فى بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا؛ حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو فى ذلك: أحد أحد ويقول: لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها.

ما حدث لآل ياسر رضي الله عنهم:

وكان عمار بن ياسر رضى الله عنه مولى لبنى مخزوم؛ أسلم هو وأبوه وأمه فكان المشـــركون وعلى رأســـهم أبو جهل يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضـــاء فيعذبونهم بحرها ومر بهم النبى ﷺ وهم يعذبون فقال: **«صـــبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة»**..

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ١١٤.

فمات ياســـر فى العذاب وطعن أبو جهل سمية أم عمار فى قبلها بحربة فماتت وهى أول شهيدة فى الإسلام، وهي سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة وكانت عجوزا كبيرة ضعيفة، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضـــع الصـــخر الأحمر على صـــدره أخرى، وبغطه فى الماء؛ حتى كان يفقد وعيه، وقالوا له: لا نتركك؛ حتى تسب محمدًا أو تقول فى اللات والعزى خيرًا فوافقهم على ذلك مكرهًا وجاء باكيًا معتذرًا إلى النبى ﷺ فأنزل الله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل: ١٠٦].

ما حدث لخبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رضى الله عنه:

وكان خبَّابُ بن الأرتِّ مولى لأم أَنْمَار بنت ســباع الخزاعية وكان حدادًا؛ فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأســـه؛ ليكفر بمحمد ﷺ فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانا وتســـليما وكان المشركون أيضًا يعذبونه فيلوون عنقه ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار ثم سحبوه عليها فما أطفأها إلا ودك ظهره.

مَا حَدَثَ لِزَنِّيرَةَ رضى الله عنها:

وكانت زنيرة أَمَةً رُوميَّةً قد أسلمت؛ فعذبت فى الله وأصيبت فى بصرها حتى عميت، فقيل لها: أصـــابتك اللات والعزى فقالت: لا والله ما أصـــابتنى وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد وقد ردَّ الله بصرها فقالت قريش: هذا بعض سِحْرُ محمَّدٍ[١].

(١) الرحيق المختوم ٩٠ - ٩١.

السِّمَةُ الثّالِثَةُ: النَّبِيُّ ﷺ يُرَبِّي أَصْحَابَهُ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى الإِيذَاءِ:

كان النبى ﷺ يكلم أصحابه كثيرًا عن نعمة الصبر على الأذى؛ ليصبروا على أذى المشركين، ويرجوا الثوب من رب العالمين، قال ﷺ : **«حُفَّتْ الجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»** (1).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (2):**«أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ؛ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ؛ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ؛ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»**.

وعن أبى سعيد وأبى هريرة قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **«مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حُزْنٍ وَلا أَذًى وَلا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»** (3).

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لابُدَّ فَاعِلاً فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي»** (4) **وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»** (5).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله: **«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»**(6).

وعن أنس رضى الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ؛ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** (7).

(1) مسلم ٢٨٢٣.

(2) أحمد ١٦١٠، الترمذى ٢٣٩٨، صحيح الجامع ٩٩٢.

(3) البخارى ٥٦٤٢، مسلم ٢٥٧٣.

(4) الضر: من مرض أو فاقة أو محنة، عبر في الحياة بقوله (ما كانت) لأنها حاصلة، ولما كانت الوفاة غير حاصلة الآن حسُنَ أن يأتي بصيغة الشرط.

(5) البخارى ٥٦٧١، مسلم ٢٦٨٠، أبو داود ٣١٠٨.

(6) أحمد ٧١، البخارى ٥٦٤٥، مالك ١٧٥٢.

(7) الترمذى ٢٣٩٦، ابن ماجة ٤٠٣١.

وَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**إِنَّ عِظَمَ الجْزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**» (١).

وقال ﷺ : «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله؛ حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة**» (٢).

بتلك الكلمات العذبة كان النبى ﷺ يربط على قلوب أصحابه مما يجعلهم يتحملون الأذى والابتلاء؛ من أجل الفوز بالمغفرة والرحمة والجنة من الله جَلَّ وَعَلاَ.

السِّمَةُ الرَّابِعَةُ: النَّبِيُّ ﷺ يُرَبِّي أَصْحَابَهُ عَلَى العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ:

لقد سكب النبى ﷺ التوحيد الخالص فى قلوب أصحابه من أول وهلة فكان يغذى أرواحهم برغائب الإيمان، ويزكى نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن ويربيهم تربية دقيقة عميقة، يحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح ونقاء القلب ونظافة الخلق والتحرر من سلطان الماديات والمقاومة للشهوات والنزوع إلى رب الأرض والسموات؛ فازدادوا رسوخًا فى الدين وعزوفًا من الشهوات وتفانيًا فى سبيل المرضاة وحنينًا إلى الجنة وحرصًا على العلم وفقهًا فى الدين ومحاسبة للنفس وتقيدًا بالصبر والهدوء والوقار.

ولقد كان القرآن الكريم طيلة الفترة المكية يتحدث عن العقيدة علمًا وعملاً مرة من خلال قصص الأنبياء - عليهم السلام- ودعوة أقوامهم إلى التوحيد، ومرة من خلال المحاجة المباشرة ومع المشركين وهلهلة عقيدتهم وتسفيهها وغير ذلك من الأساليب المختلفة.

(١) أبو داود ٤٤٥٦، صحيح الجامع ٢١١٠.

(٢) رواه الترمذي في الزهد وحسنه الألباني، راجع: سيرة الرسول أبو عمار ١١٨ - ١٢٠.

ولقد كان فى مقدور الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام- البدء مع أقوامهم من غير هذا الطريق الشاق الذى كلفهم العناء والبلاء والذى قد يبدو ولأوَّل وهلة أنه الأسهل؛ كأن تبدأ الدعوة فى جمع الناس على أهداف قبليَّة وعصبيَّة أو أهداف اجتماعية طبقية أو أهداف أخلاقية سلوكية؛ فإذا اجتمعوا على هذه الرايات بلغوهم العقيدة وطالبوهم بالتزامها ورفض ما سواها!.

هذا هو تصور البشر القاصر الجاهل ولكن ربَّ البشر – سبحانه – والذى هو أعلم بخلقه لم يرد هذا الطريق، ولو بدأ لأوَّل وهلة أنه الأيسر، إنه سبحانه وتعالى أراد البدء بدعوة الناس إلى عبادته وتوحيده – سبحانه وتعالى- وخلع كل ما يعبد من دون الله؛ حتى إذا امتلأت القلوب بمعرفة الله وتوحيده والخوف منه جاءت الأوامر والنواهى والأحكام وقد استعدت النفوس لقبولها؛ وأذعنت لتنفيذها، ولو نزل من أول الأمر لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، ولو نزل لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا.

لما تقررت فى القلوب: "لا إله إلا الله" صنع الله بها وبأهلها كل شيء، وأعطى أهل التوحيد فوق ما يخطر على بالهم وأعظم مما تتمناه قلوبهم.

فبنعمة التوحيد تطهرت النفوس والأخلاق وزكت القلوب والأرواح دون أن يحتاج الأمر حتى للحدود التى شرعها الله- إلا فى الندرة النادرة؛ لأن الرقابة قامت هناك فى الضمائر، ولأن الطمع فى رضا الله وثوابه والخوف من غضبه وعقابه قد قام مقام الرقابة ومكان العقوبات.

وارتفعت البشرية فى نظامها وفى أخلاقها وفى حياتها كلها إلى القمة السامقة التى لم ترتفع إليها من قبل قط والتى لم ترتفع إليها من بعد إلا فى ظل الإسلام وفيما سبق ردّ على من يستعجل فى إقامة الدولة الإسلامية قبل استقرار العقيدة فى القلوب وتخلصها من ركام الشرك بشتى صوره؛ لأنه لا قيمة لنظام إسلامى يقوم والناس الذين سيحكمهم النظام الإسلامى لم يستعدوا بعد لقبوله ولم يتخلصوا من رواسب الجاهلية وأدران الشرك.

إنه يجب أن تســتقر العقيدة فى قلوب الداعين إليها أولاً ثم يدعون الناس إليها علمًا وعملاً لا مجرد عقيدة نظرية لا رصيد لها فى القلوب ولا فى الواقع ولا شك أن هذا

الأمر يحتاج إلى وقت طويل وجهد مرير وصـــراع مع الباطل وأهله؛ حتى تتهيأ النفوس لنصر الله - عز وجل- فى وقته الذى يختاره الله - سبحانه.

إن ميزة الإســـلام أنها عقيدة حيَّة إيجابية ما إن تســـتقر فى القلب؛ حتَّى تحوله إلى شـــعلة وحركة وجهاد وتضـــحية، وهذا هو الذى يظهر للمتأمل فى دعوة الأنبياء عليهم الصـلاة والسـلام حيث علموا العقيدة وعملوا بمقتضـاها ودعوا إليها وصــبروا على الأذى فى ســبيلها، وضــحوا من أجلها بكل نفس ونفيس[1].

الهِجْرَةُ الأُولَى إِلَى الحَبَشَة:

كانت بداية الاعتداءات فى أواســـط أو أواخر الســـنة الرابعة من النبوة بدأت ضـعيفة ثم لم تزل تشـتد يومًا فيومًا وشـهرًا فشـهرًا؛ حتى تفاقمت فى أواســـط الســـنة الخامســـة ونبا بهم المقام فى مكة، وأخذوا يفكرون فى حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم وفى هذه الظروف نزلت سورة الزمر، تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].

وكان رســول الله ﷺ قد علم أن أصــحمة النجاشــى ملك الحبشــة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد فأمر المســلمين أن يهاجروا إلى الحبشــة فرارًا بدينهم من الفتن.

(١) سيرة الرسول أبو عمار مختصرا ١٢٧ - ١٢٩.

وفى رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة كان مكونًا من اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال النبى ﷺ فيهما: «**إنهما أول بيت هاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام**».

وكان رحيل هؤلاء تسللاً فى ظلمة الليل؛ حتى لا تفطن لهم قريش، خرجوا إلى البحر ويمموا ميناء شعيبة، وقيدت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش فخرجت فى آثارهم لكن لَمَّا بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون فى الحبشة فى أحسن جوار.

سُجُودُ المشْرِكِينَ مَعَ المسْلِمِينَ وَعَوْدَةُ المهَاجِرِينَ:

وفى رمضان من نفس السنة خرج النبى ﷺ إلى الحرم وفيه جمع كبير من قريش؛ فيهم ساداتهم وكبراؤهم فقام فيهم وفاجأهم بتلاوة سورة النجم ولم يكن أولئك الكفار سمعوا كلام الله من قبل؛ لأنهم كانوا مستمرِّين على ما تواصى به بعضهم بعضًا من قولهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].

فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام إلهيٌّ خلابٌ وكان أروع كلام سمعوه قط أخذ مشاعرهم ونسوا ما كانوا فيه فما من أحد إلا وهو مُصْغٍ إليه؛ لا يخطر بباله شيء سواه؛ حتى إذا تلافى خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ثم قرأ: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النجم: ٥٩ - ٦٢] ثم سجد لم يتمالك أحد نفسه؛ حتى خرَّ ساجدًا..

وفى الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد فى نفوس المستكبرين والمستهزئين فما تمالكوا إلا أن يخروا لله ساجدين، وسقط فى أيديهم لَمَّا أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى

جهدهم فى محوه وإفنائه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب؛ فمن لم يحضر هذا المشهد من المشركين وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنها ما كانوا يرددونه هم دائمًا من قولهم: "تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهم لترتجى".

جاءوا بهذا الإفك المبين؛ ليعتذروا عن سجودهم مع النبى ﷺ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يألفون الكذب ويطيلون الدَّسَّ والافتراء.

وبلغ هذا الخبر مهاجري الحبشة ولكن فى صورة تختلف تمامًا عن صورته الحقيقية بلغهم أن قريش أسلمت فرجعوا إلى مكة فى شوال من نفس السنة فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار؛ وعرفوا جلية الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة ولم يدخل فى مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيًا أو فى جوار رجل من قريش.

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائرهم فقد كان صعباً على قريش ما بلغها من النجاشى من حسن الجوار، ولَمْ يَرَ رسول الله ﷺ بُدًّا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

الهِجْرَةُ الثّانِيَةُ إِلَى الحَبَشَة:

واستعد المسلمون للهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع؛ ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها بيد أن المسلمين كانوا أسرع ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشى الحبشة قبل أن يدركوا.

وفى هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمَّار فإنه يشك فيه، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة.

مَكِيدَةُ قُرَيْشٍ بِمُهَاجِرِى الحَبَشَة:

عَزَّ على المشـــركين أن يجد المهاجرون مأمنًا لأنفســـهم ودينهم فاختاروا رجلين جلدين لَبِيبَيْنِ وهما: عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة قبل أن يسلما، وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة وزوداهم بالحُجَج التى يَطْرُدُ بها أولئك المسلمين.

وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشى بإقصائهم حضرا إلى النجاشى وقدما له الهدايا ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان ســفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه؛ لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشـــراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشـــائرهم؛ لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، وقالت البطارقة: صـــدقا أيها الملك فأســـلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم..

ولكن رأى النجاشـــى أنه لابد من تمحيص القضـــية وسماع أطرافها جميعًا فأرسـل إلى المسـلمين ودعاهم فحضـروا وكانوا قد أجمعوا على الصـدق كائنًا ما كان فقال لهم النجاشى: ما

هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل؟ قال جعفر بن أبى طالب وكان هو المتكلم عن المســـلمين: أيها الملك كنَّا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصـــنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك؛ حتى بعث الله إلينا رسولاً منَّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصـــدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات.

وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشـــرك به شـــيئًا وأمرنا بالصـــلاة والزكاة والصيام، فعدَّدَ عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنَّا به واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله؛ فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نســـتحل ما كنا نســـتحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضـــيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من ســـواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك..

فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به من الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم.. فقال له النجاشى: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١] فبكى، والله النجاشـــى؛ حتى اخضـــلت لحيته، وبكت أســـاقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال لهم النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى؛ ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون يخاطب عمرو بن العاص وصـــاحبه فخرجا، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبى ربيعة: والله لآتينَّه غدًا عنهم بما أســـتأصـــل به خضـــراءهم، فقال له عبد الله بن أبى ربيعة: لا تفعل؛ فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا ولكن أصر عمرو على رأيه..

فلما كان الغد قال للنجاشى أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا؛ فأرســـل إليهم النجاشـــى يســـألهم عن قولهم فى المســـيح ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصدق كائنًا ما كان فلما دخلوا عليه وسألهم قال له جعفر: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشى عودًا من الأرض ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته فقال: وإن نخرتم والله..

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى، والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم.

ما أحب أن لى دبرًا من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم، والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها؛ فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىَّ ملكى فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه..

قالت أم سلمة التى تروى هذه القصة: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار(١).

الشّدَّةُ فِي التَّعْذِيبِ وَمُحَاوَلَةَ القَضَاءِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

ولما أخفق المشركون في مكيدتهم وفشلوا فى استرداد المهاجرين استشاطوا غضبًا وكادوا يتميزون غيظًا؛ فاشتدت ضراوتهم وانقضوا على بقية المسلمين، ومدوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ بالسوء، وظهرت منهم تصرفات تدل على أنهم أرادوا القضاء على رسول الله ﷺ؛ ليستأصلوا جذور الفتنة التى أقضت مضاجعهم حسب زعمهم..

ومما روت لنا كتب السنة والسيرة من الأحداث التى تشهد القرائن بأنها وقعت فى هذه الفترة أن عتيبة بن أبى لهب أتى يومًا رسول الله ﷺ فقال: أنا أكفر بـ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النجم: ١] وبالذي ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه وتفل فى وجهه ﷺ إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبى ﷺ وقال: «**اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك**» وقد استجيب دعاؤه ﷺ فقد خرج عتيبة إثر ذلك فى نفر من

(١) الرحيق المختوم ٩٨ - ١٠١.

قريش فلما نزلوا بالزرقاء من الشـام طاف بهم الأسـد تلك الليلة فجعل عتيبة يقول: يا ويل أخى هو والله آكلى كما دعا محمد عليَّ، قتلنى وهو بمكة، وأنا بالشام، ثم جعلوه بينهم وناموا من حوله، ولكن جاء الأسد وتخطاهم إليه فضغم رأسه، وفى رواية البخارى عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص أخبرنى بأشد شيء صنعه المشركون بالنبى ﷺ قال: بينما النبى ﷺ فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضـع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقًا شـديدًا فأقبل أبو بكر؛ حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبى ﷺ وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربى الله[1]؟.

إسْلاَمُ حَمْزَةَ رضى الله عنه:

وفى هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان ظهر برق أضـاء الطريق وهو إسلام حمزة ابن عبد المطلب.

روى ابن إسحاق عن سبب إسلامه رضى الله عنه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصـفا فآذاه وشـتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضـعيف لأمره؛ فلم يكلمه رسـول الله ﷺ ومولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ثم انصرف عنه فعمد إلى ناس من قريش عند الكعبة، فجلس معهم فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضـى الله عنه أن أقبل متوشـحًا قوسـه راجعًا من قنص له[2]، وكان صـاحب قنص يرميه ويخرج له وكان إذا رجع من قنصـه لم يصـل إلى أهله؛ حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسـلم وتحدث معهم، وكان أعزَّ فتًى فى قريش وأشد شكيمة؛ فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفًا من أبى الحكم بن هشام وجده ها هنا جالسًا فآذاه وسبه؛ وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ.

(١) الرحيق المختوم ملخصًا ١٠١ - ١٠٢.
(٢) القنص: الصيد

فاحتمل حمزة الغضـــب لما أراد الله به من كرامته فخرج يســـعى ولم يقف على أحد معدًّا لأبى جهل إذ لقيه أن يوقع به فلما دخل المســـجد نظر إليه جالسًا فى القوم، فأقبل

نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فرد ذلك عليَّ إن ا ستطعت؛ فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة؛ لينصـــروا أبا جهل فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى والله فقد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا، وتم [١] حمزة رضى الله عنه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رســـول الله قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة ســـيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[٢].

إِسْلَامُ عُمَر بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وخلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان أضـاء برق آخر أشـد بريقًا وإضاءة من الأول ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب؛ أسلم فى ذى الحجة سنة ســت من النبوة بعد ثلاثة أيام من إســلام حمزة رضــى الله عنه، وكان النبى ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه..

فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر وصـــححه وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود وأنس أن النبى ﷺ قال: «**اللهم أعز الإســلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام**» فكان أحبهما إلى الله عمر رضى الله عنه، وخلاصة الروايات مع الجمع بينهما فى إســلامه رضــى الله عنه أنه التجأ ليلة إلى البيت خارج بيته فجاء إلى الحرم ودخل فى ســتر الكعبة والنبى ﷺ قائم يصــلى، وقد استفتح سورة (الحاقة) فجعل عمر يستمع إلى القرآن ويعجب من تأليفه قال:

(١) تم: المراد أتم إسلامه.
(٢) ابن هشام (١ / ١٨٥ - ١٨٦).

فقلت، أي: فى نفسى: هذا والله شاعر كما قالت قريش قال فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣] قال: فوقع الإسلام فى قلبى كان هذا أول وقع نواة الإسلام فى قلبه، لكن كانت قشرة النزاعات الجاهلية وعصبية التقليد التعاظم بدين الآباء هى غالبة على مخ الحقيقة التى كان يتهمس بها قلبه؛ فبقى مجدًا فى عمله ضد الإسلام غير مكترث بالشعور الذى يكمن وراء هذه القشرة.

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه؛ يريد القضاء على النبى ﷺ، لقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوى ورجل من بنى زهرة أو رجل من بنى مخزوم فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدًا قال: كيف تأمن من بنى هاشم ومن بنى زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذى أنت عليه! قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك الذى أنت عليه فمشى عمر دامرًا [(١)] حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما إياها وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن؛ فلما سمع خباب حس عمر توارى فى البيت، وسترت فاطمة أخت عمر الصحيفة وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما؛ فلما دخل عليهما قال: ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال: فلعلكما قد صبوتما فقال له: ختنه: يا عمر أرأيت إن كان الحق فى غير دينك فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأً شديدًا فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده فدمى وجهها.

وفى رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها فقالت وهى غضبى: يا عمر إن كان الحق فى غير دينك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

(١) دامرًا: في وجهه شر.

فلما يئس عمر ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحيا وقال: أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فاقرؤه؛ فقالت أخته: إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل فقام فاغتسل ثم أخذ الكتاب فقرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال: أسماء طيبة طاهرة ثم قرأ: (طه) حتى انتهى إلى قوله: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١ - ١٤].

فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! دلونى على محمد، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال: أبشـــر يا عمر؛ فإنى أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس: «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو جهل بن هشام**» (١).

ورسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا؛ فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم انطلق؛ حتى أتى الدار فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب فرآه متوشحًا السيف فأخبر رسول الله ﷺ واستجمع القوم فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر، فقال: وعمر! افتحوا له الباب؛ فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه فخرج إلى عمر حتى لقيه فى الحجرة فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السـيف ثم جبذه جبذة شديدة فقال: «**أما أنت منتهيًا يا عمر؛ حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما**

(١) رواه الترمذي أبواب المناقب، مناقب عمر بن الخطاب.

نزل بالوليد بن المغيرة؟ اللهم هذا عمر بن الخطاب؛ اللهم أعز الإســـلام بعمر بن الخطاب» فقال عمر: أشـهد أن لا إله إلا الله وأنك رسـول الله، وأسـلم فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد.

كان عمر ر ضى الله عنه ذا شكيمة لا يرام، وقد أثار إ سلامه ضجة بين المشركين وشعورًا لهم بالذلة والهوان وكسا المسلمين عزة وشرفًا وسرورًا.

روى ابن إ سحاق بسنده عن عمر قال: لما أ سلمت تذكرت أى أهل مكة أ شد لر سول الله ﷺ عداوة قال: قلت: أبو جهل فأتيت حتى ضربت عليه بابه فخرج إليَّ وقال: أهلاً وســهلاً.. ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرســوله محمد وصــدقت ما بما جاء به، قال: فضــرب الباب فى وجهى وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به، وفى رواية لابن إسـحاق عن نافع عن ابن عمر قال: لما أ سلم عمر بن الخطاب لم تعلم قريش بإ سلامه فقال: أي أهل مكة أنشـأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحى فخرج إليه وأنا معه أعقل ما أرى وأسمع فأتاه فقال: يا جميل إنى قد أســلمت، قال: فوالله ما رد عليه كلمة حتى قام عامدًا إلى المسجد فنادى بأعلى صوته: أن يا قريش إن ابن الخطاب قد صـبا، فقال عمر- وهو خلفه- كذب؛ ولكنى قد أسـلمت وآمنت بالله وصدقت رسوله..

فثاروا إليه فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح- أى أعيا- عمر- فقعد وقاموا على رأســه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل، لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا..

وبعد ذلك زحف المشــركون إلى بيته يريدون قتله روى البخارى عن عبد الله بن عمر قال: بينما هو أى عمر فى الدار خائفًا إذ جاءه العاص بن وائل الســهمى أبو عمرو وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير؛ وهو من بنى ســهم وهم حلفاؤنا فى الجاهلية فقال له: ما لك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت قال: لا سبيل إليك بعد أن قالها آمنت فخرج العاص

فلقى الناس قد ســـال بهم الوادى فقال: أين تريدون؟ فقالوا: هذا ابن الخطاب الذى قد صبا قال: لا سبيل إليه فكر الناس، وفى لفظ فى رواية ابن إسحاق: والله لكأنما كانوا ثوبًا كشط عنه..

هذا بالنسـبة إلى المشـركين أما بالنسـبة إلى المسـلمين فروى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب لأى شيء سميت الفاروق؟ قال: أ سلم حمزة قبلى بثلاثة أيام، ثم قص عليه قصـة إسـلامه وقال فى آخره قلت – أى حين أســلمت: يا رســول الله ألســنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال:"بلى والذى نفســى بيده إنكم على الحق، وإن متم وإن حييتم" قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لنخرجنَّ فأخرجناه فى صفين حمزة فى أحدهما وأنا فى الآخر له كديد ككديد الطحين؛ حتى دخلنا المســجد قال: فنظرت إلى قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها؛ فسمانى رسول الله "الفاروق" يومئذ، وكان ابن مســعود رضــى الله عنه يقول: ما كنا نقدر أن نصــلى عند الكعبة حتى أسلم عمر[(١)].

السِّمَةُ الخَامِسَةُ: المشْرِكُونَ يَعْرِضُونَ المَالَ وَالمنَاصِبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلاَ يَقْبَلُهَا:

وبعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما أدرك المشـركون أن عليهم تغيير معاملتهم مع النبى ﷺ والمؤمنين؛ فاختاروا أسـلوب المساومات وتقديم الرغائب والمغريات.

قال ابن إســحاق: حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان ســيدًا قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ورســول الله ﷺ جالس فى المسـجد وحده: يا معشـر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا؛ لعله يقبل بعضـها فنعطيه أيها شـاء ويكف عنا؟! وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون فقالوا:

(١) الرحيق المختوم مختصرًا (١٠٣ - ١٠٦).

بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رســـول الله ﷺ فقال: يا بن أخى إنك منا حيث قد علمت من البســطة [1] فى العشـــيرة والمكان فى النســب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم؛ فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها؛ لعلك تقبل منها بعضــها قال: فقال له رسول الله ﷺ : «**قل يا أبا الوليد أسمع**» قال: يا بن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت تريد به شرفا سوَّدناك علينا؛ حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا؛ حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له حتى إذا فرغ عتبة ورســـول الله ﷺ يســتمع منه قال: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟!**» قال: نعم قال: «**فاسمع منى**» قال: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾ [فصلت: ١ - ٥].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليها يســمع منه ثم انتهى رســول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: «**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك**»، فقام عتبة إلى أصــحابه فقال بعضــهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟! قال: ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط

(١) البسطة: الشرف والفضيلة.

والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.. يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه؛ فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1].

وفى روايات أخرى أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٣] قال: حسبك.. حسبك، ووضع يده على فم رسول الله ﷺ وناشده بالرحم أن يكف وذلك مخافة أن يقع النذير لعلمه أن محمدًا ﷺ إذا قال شيئًا لم يكذب؛ فخشى أن ينزل بهم العذاب فقام إلى القوم وقال ما قال[2].

رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ يُفَاوِضُونَ رَسُولَ اللَّهِ:

وكأن رجاء قريش لم ينقطع بما أجاب به النبى ﷺ عتبة على اقتراحاته؛ لأنه لم يكن صريحًا فى الرفض أو القبول بل تلا عليه النبى ﷺ آيات لم يفهمها عتبة ورجع من حيث جاء فتشاور رؤساء قريش فيما بينهم، وفكروا فى كل جوانب القضية ودرسوا كل المواقف بروية وتريث، ثم اجتمعوا يومًا عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس، وأرسلوا إلى النبى ﷺ يدعونه فجاء مسرعًا يرجو خيرًا، فلما جلس إليهم قالوا له مثل ما قال عتبة، وعرضوا عليه نفس المطالب التى عرضها عتبة؛ وكأنهم ظنوا أنه لم يثق بجدية هذا العرض حين عرضه عتبة وحده فإذا عرضوا هم أجمعون يثق ويقبل؛ ولكن قال لهم رسول الله ﷺ : «**ما بى ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتابًا وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليَّ أصبر لأمر الله؛ حتى يحكم الله بينى وبينكم**» أو كما قال، فانتقلوا إلى نقطة أخرى وطلبوا منه أن

(١) ابن هشام (١/ ١٨٦ - ١٨٧).

(٢) ابن كثير ٣ (٢٥٤ - ٢٥٥) تفسير الآية المذكورة، الرحيق المختوم ١٠٧.

يسأل ربه أن يسير عنهم الجبال، ويبسط لهم البلاد ويفجر فيها الأنهار، ويحى لهم الموتى، ولا سيما قصى بن كلاب؛ فإن صدقوه يؤمنون به فأجاب بنفس ما سبق من الجواب..

فانتقلوا إلى نقطة ثالثة وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث له ملكا يصدقه ويراجعونه فيه وأن يجعل له جنات وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة فأجابهم بنفس الجواب.

فانتقلوا إلى نقطة رابعة وطلبوا منه العذاب أن يسقط عليهم السماء كسفًا كما يقول ويتوعد فقال: «**ذلك إلى الله إن شاء فعل**» فقالوا: أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك ونطلب منك؛ حتى يعلمك ما تراجعنا به وما هو صانع بنا إذا لم يقبل؟! وأخيرًا هددوه أشد التهديد وقالوا: أما والله لا نتركك وما فعلت بنا؛ حتى نهلك أو تهلكنا فقام رسول الله عنهم وانصرف إلى أهله حزينًا لما فاته ما طمع من قومه[1].

عَزْمُ أَبِي جَهْلٍ عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا و شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا و شتم آلهتنا وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله أو كما قال؛ فإذا سجد فى صلاته فضخت به[2] رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبدًا فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلته إلى الشام فكان إذا صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود وجعل الكعبة بينه

(١) الرحيق المختوم ص ١٠٨.

(٢) فضخت: كسرت.

وبين الشـــام فقام رســـول الله ﷺ يصـــلى وقد غدت قريش فجلســـوا فى أنديتهم ينتظرون؛ ما أبو جهل فاعل؛ فلما ســـجد رســـول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا منتقعًا لونه [(١)]

مرعوبًا قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل؛ لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصـــرته[(٢)]ولا أنيابه لفحل قط؛ فهم بى أن يأكلنى قال ابن إســـحاق: فذكر لى أن رســـول الله ﷺ قال: **«ذلك جبريل عليه الســـلام، لو دنا لأخذه»** [(٣)].

اتِّصَالُ قُرَيْشٍ بِاليَهُودِ:

لما فشلت قريش فى هذه المفاوضات والمساومات قرروا الاتصال باليهود؛ حتى يتأكدوا من أمره ﷺ قال ابن إســـحاق عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضـــر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم: سـلوهم عن محمد، وصـفوا لهم صـفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا؛ حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رســـول الله ﷺ، ووصـــفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم؛ لتخبرونا عن صاحبنا هذا قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ســـلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، و سلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هيه؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى، فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم؛ فأقبل

(١) منتقعًا: متغيرا لونه.

(٢) قصرة: أصل العنق.

(٣) ابن هشام (١/ ١٩٠ - ١٩١).

النضـــر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشـــر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد؛ قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم ﷺ : «**أخبركم غدًا عما ســألتم عنه**» ولم يســتثن[1] فانصـــرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة[2] لا يحدث الله له فى ذلك وحيًا

ولا يأتيه جبريل عليه الســلام؛ حتى أرجف[3] أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رســول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشــق عليه ما يتكلم به أهل مكة؛ ثم جاءه جبريل عليه الســلام من الله - عز وجل- بســورة أصــحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سـألوه عنه من خبر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإســراء: ٨٥] [4] وتبين لقريش أ نه ﷺ على حق وصدق ولكن أبى الظالمون إلا كفورًا.

مَوْقِفُ أَبِي طَالِبٍ وَعَشِيرَتِهِ:

أما أبو طالب فإنه لما واجه مطالبة قريش بتســليم النبى ﷺ لهم؛ ليقتلوه ثم رأى فى تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفار ذمته جمع بنى هاشــم وبنى المطلب ودعاهم إلى القيام بحفظ النبى ﷺ فأجابوه إلى ذلك كلهم مسلمهم وكافرهم؛ حمية للجوار العربى، وتعاقدوا عليه عند الكعبة إلا ما كان من أخيه أبى لهب؛ فإنه فارقهم وكان مع قريش[5].

(١) ولم يستثن: لم يقل: إن شاء الله.
(٢) في رواية أخرى أن انقطاع الوحي كان ثلاثة أيام.
(٣) أرجف: كثرة أقاويلهم دون أن يرجحوا قولاً على آخر.
(٤) ابن كثير (٢ / ٤٠٨) تفسير الآيات.
(٥) الرحيق المختوم ص ١١١.

المقَاطَعَةُ العَامَّةُ:

زادت حيرة المشــركين إذ نفدت بهم الحيل، ووجدوا بنى هاشــم وبنى المطلب مصــممين على حفظ نبى الله ﷺ والقيام دونه كائنًا ما كان، فاجتمعوا فى خيف بنى كنانة من وادى المحصب فتحالفوا على بنى ها شم وبنى المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسـوهم ولا يخالطوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم؛ حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق ألا يقبلوا من بنى هاشم صلحًا أبدًا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل.

قال ابن القيم: يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن ها شم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن ها شم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلَّت يده.

تم هذا الميثاق وعلقت الصــحيفة فى جوف الكعبة فانحاز بنو هاشــم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب، وحبســوا فى شــعب أبى طالب وذلك فيما يقال ليلة هلال المحرم سـنة سـبع من البعثة، وقد قيل غير ذلك، واشــتد الحصــار وقطعت عنهم الميرة والمادة فلم يكن المشــركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشـتروه حتى بلغهم الجهد والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يســمع من وراء الشِّعب أصــوات نســائهم وصــبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًّا وكانوا لا يخرجون من الشعب؛ لاشتراء الحوائج إلا فى الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التى ترد مكة من خارجها ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم فى الســلعة قيمتها حتى لا يستطيعون شراءها[١].

(١) المصدر نفسه ص ١١٢.

نَقْضُ الصَّحِيفَةِ:

وكانت قريش بين راض وكاره لهذه المقاطعة، وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوى الرحمة من قريش فكان أحدهم يوقر البعير زادًا ثم يضربه فى اتجاه الشعب، ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين، فيخفف شيئًا مما بهم من إعياء وفاقة.

قال ابن كثير رحمه الله: ثم سعى فى نقض تلك الصحيفة أقوام من قريش فكان القائم فى أمر ذلك هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى مشى فى ذلك إلى المطعم بن عدى وجماعة من قريش فأجابوه إلى ذلك [١].

ثم أخبر رسول الله ﷺ عمه أبا طالب أن الله - عز وجل- أرسل على تلك الصحيفة الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جود وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل؛ فخرج أبو طالب إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبًا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت، وبعد أن دار

الكلام بين القوم وبين أبي جهل قام المطعم إلى الصحيفة؛ ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا "باسمك اللهم" وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله، ثم نقض الصحيفة وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته ولكنهم كما أخبر الله عنهم: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر: ٢] أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفرًا إلى كفرهم [٢].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٤٨.

(٢) الرحيق المحتوم ص ١١٤.

آخِرُ وَفْدِ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ:

خرج رسول الله ﷺ من الشعب وجعل يعمل على شاكلته، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين والصد عن سبيل الله، وأما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه وبدأ المرض يلاحقه وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم فى العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبى ﷺ بين يديه.

قال ابن إسحاق وغيره: لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريش ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فليأخذ على ابن أخيه، وليعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا [1] أمرنا.

وفى لفظ: فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه شيء فتعيرنا به العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه.

مشوا إلى أبى طالب فكلموه، وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب فى رجال من أشرافهم وهم خمسة وعشرون تقريبًا فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه؛ فخذ له منَّا وخُذْ لنا منه؛ ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخى، هؤلاء

(١) ابتزه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه.

أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك ثم أخبره بالذى قالوا له، وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر، فقال لهم رسول الله ﷺ : «**أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم**» وفى لفظ أنه قال مخاطبًا لأبى طالب: «**يَا عَمِّ أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُؤَدِّي الْعَجَمُ إِلَيْهِمْ الْجِزْيَةَ**» وفى لفظ آخر قال: «**أي عمّ أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟**» قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «**أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم**» ولفظ رواية ابن إسحاق: «**كلمة واحدة تعطونها؛ تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم**» فلما قال هذه المقالة توقفوا وتحيروا ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد؛ ثم قال أبو جهل: ما هى وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها؟ قال: تقولون: «**لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه**» فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! إن أمرك لعجب؛ ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم؛ حتى يحكم الله بينكم وبينه ثم تفرقوا وفى هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ١ - ٧] [١].

(١) الرحيق المختوم ١١٥ - ١١٦.

السِّمَةُ السَّادِسَةُ: النَّبِيُّ ﷺ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِنَصْرِ اللَّهِ وَالتَّمْكِينِ لِدِينِهِ

كان النبى ﷺ يبشر أصحابه بنصر الله – عز وجل– ويبث الثقة واليقين فى قلوبهم بأن الكون كله سيدين لله وستعلو راية: "لا إله إلا الله" خفاقة عالية وكان أصحابه فى هذا الوقت مستضعفين يعذبون فى رمضاء مكة؛ حتى جاءه خباب يشكو له هذا البلاء الذى تعرض له؛ فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُول اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً

لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ[1]: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: **«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»**.

فمع كل هذا البلاء كان النبى ﷺ يثبت قلوب أصحابه بتلك البشريات العظيمة بل كان القرآن يتنزل فى تلك الفترة العصيبة؛ ليبشرهم بنصر الله – عز وجل– قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١] قال تعالى: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٥] قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٦ – ٣٧].

فالله – جل وعلا– لا يسلم أولياءه لأعدائه، وإن ظهر أعداؤه فى وقت فهذا كله بتقدير الله، ولكن العاقبة دائمًا تكون لأهل الإيمان والتوحيد وقد وردت أحاديث توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره؛ بحيث لا يدع

(١) البخاري ٣٦١٢.

مجالاً للشك في أن المستقبل للإ سلام بإذن الله وتوفيقه، وها أنا أ سوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سببًا؛ لشحذ العاملين للإسلام ومحجة على اليائسين المتواكلين؛ فَعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [1]:«**إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ**

يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»... وَعَنْ تَمِيم الدَّارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ[2]:«**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلامَ وَذُلا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ**».

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً يَكُفُّ حَدِيثَهُ فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ فَقَالَ: يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُول اللَّهِ ﷺ فِي الأُمَرَاءِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [3]:«**تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ**».

(١) مسلم (١٦/ ١٣)، الفتن وأشراط الساعة والترمذي (٢٢/٩) الفتن وأبو داود ٤٢٣٢.

(٢) أحمد ٤/ ١٠٣، والحاكم (٤/ ٤٣٠، ٤٣١).

(٣) أحمد ٢٧٣/٤ وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٨٩) رجاله ثقات وهو في الصحيحة رقم ٥. نقلا من سيرة الرسول لأبي عمار.

فعلى الرغم من هذا الظلام الحالك الذى تعيشـــه الأمة فوالله إنا لمتفائلون وموقنون بنصر الله فهو وعد الله ووعد رسول الله ﷺ بالنصر لهذا الدين، وإن ما نحن فيه ما هو إلا حالة مؤقتة ليميز الله الخبيث من الطيب فى زمن عمَّت فيه الفتنة وطمَّت، فكان لابد من البلاء والتمحيص؛ فأبشـــروا يا شـــباب الصحوة بنصر الله، فالنصر قادم إن شاء الله تعالى ولكن علينا أن نكون عبادًا لله؛ لنكون أهلاً لنصر الله عز وجل[1].

* * *

(١) سيرة الرسول أبو عمار ١٣١ - ١٣٣ مختصرًا.

عَامُ الحُزْنِ

وَفَاةُ أَبِي طَالِبٍ:

ألح المرض بأبى طالب فلم يلبث أن وافته المنية وكانت وفاته فى رجب سنة عشر من النبوة بعد الخروج من الشعب بستة أشهر وقيل: توفى فى رمضان قبل وفاة خديجة رضى الله عنها بثلاثة أيام [1].

عن المسيب – رضى الله عنه– لَمَّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال رسول الله ﷺ : «**يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله**» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية يا أبا طالب: أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة؛ حتى قال أبو طالب آخره ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ : «**أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**» فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣] وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ[2]: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ».

(١) الرحيق المختوم ص ١١٧.

(٢) البخاري ٣٨٨٥. مناقب الأنصار، مسلم ٢٠٩ - ٢١٠الإيمان.

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال للنبى ﷺ وذكر عنده عمه فقال[1]: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ، قَال: **«هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»** [2] [3].

وَفَاةُ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

وبعد وفاة أبى طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام على اختلاف القولين توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها- وكانت وفاتها فى شهر رمضان فى السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال، ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره.

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ وبقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه وتؤازره فى أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه فى مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها؛ فعَنْ مَسْرُوق عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ قَالَتْ[4]: فَغِرْتُ يَوْمًا فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ؛ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا قَالَ: **«مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ»**.

وفى الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه قَالَ: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي: **«وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لا صَخَبَ فِيهِ وَلا نَصَبَ»** [5].

(١) البخاري ٣٨٨٣ مناقب الأنصار، مسلم ٢٠٩ الإيمان.

(٢) الضحضاح: الضحضاح من الماء ما يبلغ الكعب، وهو ضد الغمرة، والمعنى أنه خفف عنه العذاب، ومعنى لولا أنا: لولا شفاعتي لـه.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ١٥٠ - ١٥٢.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١١٨).

(٥) الرحيق المختوم ١١٧ - ١١٨.

وعَن ابْنِ عَبَّاس رضى الله عنه قَالَ[1]: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**».

تَجَرُّؤُ قُرَيْشٍ عَلَى النَّبِيِّ بَعْدَ وَفَاةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ:

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة فاهتزت مشاعر الحزن والألم فى قلب رسول الله ﷺ ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه؛ فإنهم تجرأوا عليه وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبى طالب فازداد غمًّا على غم، قال ابن إسحاق: لما هلك أبو

طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنَثَر على رأسه ترابًا ودخل بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب، وهى تبكى ورسول الله ﷺ يقول لها: «**لا تبكى يابنية؛ فإن الله مانع أباك**» قال: ويقول بين ذلك: «**ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب**» ولأجل توالى مثل هذه الآلام فى هذا العام سُمِّي بعام الحزن وعرف به فى السيرة والتاريخ[2].

زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِسودَةَ ثُمَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

لقد كان أصحاب الحبيب يعرفون قدر خديجة – رضى الله عنها – عند النبى ﷺ، فعندما ماتت كانوا يرجون أن يرزقه الله – عز وجل– بما يخفف عنه من آلامه وأحزانه؛ ولكن لم يكن أي واحد منهم يجرؤ أبدًا أن يكلم النبى ﷺ فى أمر الزواج؛ فشاء الحق – جلا وعلا– أن تتجرأ واحدة من فضليات نساء الصحابة

(١) رواه أحمد في مسنده ٢٨٩٦.
(٢) الرحيق المختوم ص ١١٨.

ألا وهى خولة بنت حكيم؛ لتعرض هذا الأمر على رســول الله ﷺ من أجل إدخال الفرح والسرور على قلبه المحزون.

عن عائشـــة رضـــى الله عنها قالت: لَمَّا هَلَكَتْ خَدِيجَةُ جَاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُون قَالَتْ يَا رَسُـولَ اللَّهِ أَلا تَزَوَّجُ قَالَ: «مَنْ؟ قَالَتْ إِنْ شِئْتَ بِكْرًا وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا قَالَ فَمَنْ الْبِكْرُ قَالَتْ ابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكَ عَائِشَــةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: وَمَنْ الثَّيِّبُ؟ قَالَتْ: سَـوْدَةُ ابْنَةُ زَمْعَةَ قَدْ آمَنَتْ بِكَ وَاتَّبَعَتْكَ عَلَى مَا تَقُولُ قَالَ: فَاذْهَبِي فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ فَدَخَلَتْ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَتْ: يَا أُمَّ رُومَانَ مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ– عَلَيْكُمْ مِنْ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ قَالَتْ: وَمَا

ذَاكَ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْطُبُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ قَالَتْ: انْتَظِرِي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى يَأْتِيَ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْطُبُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ قَالَ: وَهَلْ تَصْلُحُ لَهُ إِنَّمَا هِيَ ابْنَةُ أَخِيهِ؟ فَرَجَعَتْ إِلَى رَسُــولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ قَالَ: ارْجِعِي إِلَيْهِ فَقُولِي لَهُ: أَنَا أَخُوكَ وَأَنْتَ أَخِي فِي الإِسْلامِ وَابْنَتُكَ تَصْلُحُ لِي فَرَجَعَتْ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ قَالَ: انْتَظِرِي وَخَرَجَ قَالَتْ أُمُّ رُومَانَ: إِنَّ مُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ قَدْ كَانَ ذَكَرَهَا عَلَى ابْنِهِ فَوَاللَّهِ مَا وَعَدَ مَوْعِدًا قَطُّ فَأَخْلَفَهُ لأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى مُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ وَعِنْدَهُ امْرَأَتُهُ أُمُّ الْفَتَى فَقَالَتْ: يَا بْنَ أَبِي قُحَافَةَ لَعَلَّكَ مُصْبٍ صَاحِبَنَا مُدْخِلُهُ فِي دِينِكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ إِنْ تَزَوَّجَ إِلَيْكَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِلْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ آقَوْلَ هَذِهِ تَقُولُ قَالَ: إِنَّهَا تَقُولُ ذَلِكَ فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ فِي نَفْسِـــهِ مِنْ عِدَتِهِ الَّتِي وَعَدَهُ فَرَجَعَ فَقَالَ لِخَوْلَةَ: ادْعِي لِي رَسُـولَ اللَّهِ ﷺ فَدَعَتْهُ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ وَعَائِشَــةُ يَوْمَئِذٍ بِنْتُ سِـتِّ سِـنِينَ ثُمَّ خَرَجَتْ فَدَخَلَتْ عَلَى سَـوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ فَقَالَتْ مَاذَا: أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكِ مِنْ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ؟ قَالَتْ: مَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: أَرْسَـــلَنِي رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ أَخْطُبُكِ عَلَيْهِ قَالَتْ: وَدِدْتُ ادْخُلِي إِلَى أَبِي فَاذْكُرِي ذَاكَ لَهُ وَكَانَ شَــيْخًا كَبِيرًا قَدْ أَدْرَكَهُ السِّـــنُّ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ الْحَجِّ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَحَيَّتْهُ بِتَحِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقَالَتْ: خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ قَالَ: فَمَا شَأْنُكِ؟

قَالَتْ: أَرْسَلَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَخْطُبُ عَلَيْهِ سَوْدَةَ قَالَ: كُفْءٌ كَرِيمٌ مَاذَا تَقُولُ صَاحِبَتُكِ؟ قَالَتْ: تُحِبُّ ذَاكَ قَالَ: ادْعُهَا لِي فَدَعَيْتُهَا قَالَ: أَيْ بُنَيَّةُ إِنَّ هَذِهِ تَزْعُمُ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ أَرْسَلَ يَخْطُبُكِ وَهُوَ كُفْءٌ كَرِيمٌ أَتُحِبِّينَ أَنْ أُزَوِّجَكِ بِهِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: ادْعِيهِ لِي فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ فَجَاءَهَا أَخُوهَا عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ مِنْ الْحَجِّ فَجَعَلَ يَحْثِي فِي رَأْسِهِ التُّرَابَ فَقَالَ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ: لَعَمْرُكَ إِنِّي لَسَفِيهٌ يَوْمَ أَحْثِي فِي رَأْسِي التُّرَابَ أَنْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَنَزَلْنَا فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فِي السُّنْحِ(١) قَالَتْ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ بَيْتَنَا وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ الأَنْصَارِ وَنِسَاءٌ فَجَاءَتْنِي أُمِّي وَإِنِّي لَفِي أُرْجُوحَةٍ بَيْنَ عَذْقَيْنِ(٢) تَرْجَحُ بِي فَأَنْزَلَتْنِي مِنْ الأُرْجُوحَةِ وَلِي جُمَيْمَةٌ(٣) فَفَرَقَتْهَا وَمَسَحَتْ وَجْهِي بِشَيْءٍ

مِنْ مَاءٍ ثُمَّ أَقْبَلَتْ تَقُودُنِي حَتَّى وَقَفَتْ بِي عِنْدَ الْبَابِ وَإِنِّي لأَنْهَجُ حَتَّى سَكَنَ مِنْ نَفْسِي ثُمَّ دَخَلَتْ بِي فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ عَلَى سَرِيرٍ فِي بَيْتِنَا وَعِنْدَهُ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مِنْ الأَنْصَارِ فَأَجْلَسَتْنِي فِي حِجْرِهِ ثُمَّ قَالَتْ: هَؤُلاءِ أَهْلُكِ فَبَارَكَ اللَّهُ لَكِ فِيهِمْ وَبَارَكَ لَهُمْ فِيكِ، فَوَثَبَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فَخَرَجُوا وَبَنَى بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِنَا مَا نُحِرَتْ عَلَيَّ جَزُورٌ وَلا ذُبِحَتْ عَلَيَّ شَاةٌ حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْنَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ بِجَفْنَةٍ(٤) كَانَ يُرْسِلُ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَارَ إِلَى نِسَائِهِ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ» (٥) (٦).

وهذا يدلنا أن محبة رسول الله ﷺ ليست فى مجرد الاتباع له بل المحبة له هى أساس الاتباع وباعثه؛ فلولا المحبة العاطفية فى القلب لما وجد وازع يحمل على الاتباع فى العمل(٧).

(١) مكان بعوالي المدينة فيه منازل بني الحارث بن الخزرج.
(٢) العذق: النخلة.
(٣) جميمة: الشعر الذي يسقط بين المنكبين.
(٤) الجفنة: القصعة التي فيها الطعام.
(٥) سيرة الرسول أبو عمار ١٥٢ - ١٥٤.
(٦) رواه أحمد في مسنده ٢٥٢٤١.
(٧) فقه السيرة للبوطي ١٤٣ - ١٤٧.

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

تنطوى هذه الفترة من حياته ﷺ على العديد والعديد من العبر والعظات والدروس المستفادة نذكر منها ما يلى:-

١- كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ:

وهنا كان لا بُدَّ لنا من الوقوف على أمرين مُهمَّين ألا وهما:

أولاً: لقد كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوى قرباه؛ اكتفاءً بعموم أمره الآخر وهو قوله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤] إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرباه فى عموم الدين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار، فما الحكمة من خصوصية الأمر بإنذار العشيرة؟!.

والجواب: أنَّ فى هذا إلماحا إلى درجة المسئولية التى تتعلق بكل مسلم عمومًا وأصحاب الدعوة خصوصًا، فأدنى درجة فى المسئولية هى مسئولية الشخص عن نفسه..

أما الدرجة التى تليها فهى مسئولية المسلم عن أهله، ومن يلوذون به من ذوى قرباه.

وتوجيهًا إلى القيام بحق هذه المسئولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به..

وهذه الدرجة من المسئولية يشترك فى ضرورة تحمل أعبائها كل مسلم صاحب أسرة أو قربى، وليس من اختلاف بين دعوة الرسول فى قومه ودعوة المسلم فى أسرته بين أقاربه إلا أن الأول يدعو إلى شرع جديد مُنَزَّل عليه من الله، وهذا يدعو بدعوة الرسول الذى بعث إليه، فهو يبلغ عنه وينطق بلسانه.

وكما لا يجوز للنبى أو الرسول فى قومه أن يقعد عن تبليغهم ما أوحى إليه، فكذلك لا يجوز لرب الأسرة أن يقعد عنٍ تبليغ أهله وأسرته ذلك، بل يجب أن يحملهم على اتباع ذلك حملاً ويلزمهم به إلزامًا.

أما الدرجة الثالثة: فهى مسئولية العالم عن حيه أو بلدته، ومسئولية الحاكم عن دولته وقومه.

ثانيًا: ومن الطبيعى أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأربعين إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فَبَدْءُ الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لابد أن يكون له أثر خاص لِمَا لهذا البلد من مركز دينى خطير، فَجلْبُهَا إلى حظيرة الإسلام لابد أن يكون له وقع كبير على بقية القبائل؛ على أن هذا لا يعنى أن رسالة الإسلام فى أدوارها الأولى محدودة بقريش؛ لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن، اتخذ الدعوة فى قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية، والواقع أن كثيرًا من الآيات المكية كانت تنص على القرآن: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التكوير: ٢٧] (١).

٢- سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ:

أول ما قد يخطر فى بال المتأمل، حينما يرى قصة ما لقيه رسول الله ﷺ وأصحابه من المشركين، من صنوف الإيذاء والتعذيب هو أن يتساءل: فيم هذا العذاب الذى لقيه النبى ﷺ وأصحابه وهم على الحق؟! ولماذا لم يعصمهم الله - عز وجل- منه وهم جنوده وفيهم رسوله يدعون إلى دينه ويجاهدون فى سبيله.

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٩٤ - ٩٥.

والجواب: أن أول صفة للإنسان فى الدنيا أنه مكلف، أى: أنه مطالب من قبل الله – عز وجل– بحمل ما فيه كلفة ومشـــقه؛ وأمر الدعوة إلى الإســـلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى؛ إذ لا معنى للعبودية – الله تعالى– إن لم يكن ثمَّةَ تكليف، وعبودية الإنسان لله – عز وجل– ضرورة من

ضـــرورات ألوهيته – ســـبحانه وتعالى– فلا معنى للإيمان إن لم ندرك عبوديتنا له.

فقد استلزمت العبودية – إذن– التكليف، واستلزم التكليف تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، ومن أجل هذا كان واجب عباد الله فى هذه الدنيا تحقيق أمرين اثنين:

أولهما: التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامى الصحيح.

ثانيهما: سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر وبذل المهَج والمال من أجل تحقيق ذلك.

أى أن الله – عز وجل– كلفنا بالإيمان بالغاية، وكلفنا إلى جانب ذلك بسلوك الوسيلة الشاقة الطويلة إلى هذه الغاية مهما بلغت المسألة فى خطورتها وصعوبتها، ولو شاء الله لجعل السبيل إلى إقامة المجتمع الإسلامى بعد الإيمان به، سـهلا مُعبَّدًا، ولكن السـير فى هذه السـبيل لا يدل حينئذ على شـيء من عبودية السالك لله – عز وجل– وعلى أنه قد باع حياته وماله له – عز وجل– يوم أن أعلن الإيمان به وعلى أن جميع أهوائه تابعة ومنقادة لما جاء به الرسـول ﷺ ولأمكن حينئذ أن يلتقى على هذه الجادَّة[1] المؤمن والمنافق والصـــادق والكاذب، فلا يتمحص الواحد منهم عن الآخر.

(١) الجادة: وسط الطريق، والطريق الأعظم الذي يجمع كل الطرق.

فلو تُركَ الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط، لاستوىَ الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والابتلاء، هما الميزان الذى يميز الصادق عن الكاذب، و صدق الله القائل فى محكم كتابه: ﴿ الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ② وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ③ ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] والقائل: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وإذا كانت هذه هى سنة الله في عباده، فلن تجد لسنة الله تبديلاً؛ حتى مع أنبيائه وأصفيائه، من أجل ذلك أُوذِيَ رسول الله ﷺ وأوذى من قبله جميع الأنبياء والرسل، ومن أجل ذلك أوذي أصحاب رسول الله ﷺ حتى مات منهم من مات تحت العذاب، وعمى من عمى، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله عز وجل.

ولذا لا ينبغى للمسلم أن يتوهم اليأس، إذا ما عانى شيئًا من المشقة أو المحنة، بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدين، أى أن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيدا من الضر والنكبات سعيًا إلى تحقيق أمر ربهم عز وجل، وتأمل فإنك ستجد برهانَ هذا جليًّا فى قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤] (١).

٣- إِذَا فُقِدَ الدِّينُ أَوْ غُلِبَ عَلَيْهِ، لَمْ يُغْنِ مِنْ وَرَائِهِ الوَطَنُ وَالمَالُ وَالأَرْضُ:

إن الدين والاستمساك به وإقامة دعائمه، أساس ومصدر لكل قوة، وهو السياج لحفظ كل حق من مال وأرض وحرية وكرامة، ومن أجل هذا كان واجب الدعاة إلى الإسلام والمجاهدين فى سبيله أن يجندوا كل إمكاناتهم

(١) فقه السيرة للبوطي ٨٥ - ٨٦ مختصرًا.

لحماية الدين ومبادئه، وأن يجعلوا من الوطن والأرض والمال والحياة وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها، حتى إذا اقتضى الأمر، بذل ذلك كله فى سبيلها وجب بذله.

ذلك أن الدين إذا فقد أو غلب عليه، لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضًا من ورائه، أما إذا قوى شأنه وقامت فى المجتمع دعائمه ورسخت فى الأفئدة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب فى سبيله من مال وأرض ووطن يعود.. يعود أقوى من ذى قبل حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة.

ولقد جرت سنة الله فى الكون على مر التاريخ أن تكون القوى المعنوية هى الحافظة للمكاسب والقوى المادية، فمهما كانت الأمة غنية فى خلقها وعقيدتها السليمة ومبادئها الاجتماعية الصحيحة، فإن سلطانها المادى يغدو أكثر تماسكا وأرسخ بقاءً وأمنع جانبًا، ومهما كانت فقيرة فى خلقها مضطربة فى عقيدتها تائهة أو جانحة فى نظمها ومبادئها؛ فإن سلطانها المادى يغدو أقرب إلى الاضمحلال ومكتسباتها المادية أسرع إلى الزوال.

وقد تصادف أن تجد أمة تائهة فى عقيدتها عن جادة الصواب منحطة فى مستواها الخلقى والاجتماعى، وهى مع ذلك واقفة على قدميها من حيث القوة والسلطان المادى، ولكنها فى الحقيقة تمر بسرعة نحو هاوية سحيقة، ومثل هذه الحركة تبصرها عين التاريخ الساهرة لا عين الإنسان الغافل نظرًا لقصر عمر الإنسان أمام طول عمر التاريخ.

وقد تصادف أن تجد أُمَّةً قد تعرَّتْ عن كل مقوماتها المادية من ثروة ومال ووطن فى سبيل الحفاظ على العقيدة الصحيحة.. وفى سبيل النظام الاجتماعى السليم، ولكن ما هى إلا فترة قصيرة؛ حتى تجد أرباب هذه

العقيدة الصحيحة وما يتبعها من الخلق والنظام الاجتماعى السليم قد استحوذوا على وطنهم المسلوب، ومالهم المغصوب، وعادت إليهم قوتهم مضاعفة..

ولذا فقد كان من أسس الدعوة إلى الإسلام التضحية بالمال والوطن والحياة فى سبيلة،فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال والوطن والحياة..

ومن أجل هذا شرع مبدأ الهجرة فى الإسلام، فأشار الرسول ﷺ على أصحابه- بعد أن نالهم من أذى المشركين ما خشى عليهم معه الفتنة فى الدين إلى الهجرة والخروج من الوطن[1].

حِكْمَةُ اللَّهِ فِي أَنْ يَفْقِدَ الرَّسُولُ ﷺ عَمَّهُ وَزَوْجَتَهُ خَدِيجَةَ:

١- لو أن أبا طالب بقى إلى جانب ابن أخيه يحميه إلى أن تقوم الدولة الإسلامية فى المدينة لتوهم البعض أنه كان وراء هذه الدعوة، وَلجَاَءَ من يطيل ويطنب فى بيان الحظ الحسن الذى تهيأ للرسول ﷺ أثناء قيامه بالدعوة، بسبب حماية عمه له، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله، فأوذوا وهو محفوظ الجانب، وتعذبوا وهو مستريح البال.

٢- كما تتجلى حقيقتان هامتان فى فقدان النبى لعمه أبى طالب وزوجته خديجة رضى الله عنها:

أولاً: أن الحماية والعناية والنصر من الله عز وجل، ولقد تعهد الله أن يعصم رسوله من المشركين والأعداء، فسواء كان ثمَّة من يحميه من الناس أو لم يكن، فهو معصوم من الناس وستبلغ دعوته منتهاها من النصر والتوفيق.

ثانيًا: ليس معنى العصمة من الناس أن لا يرى منهم إيذاءً أو عذابًا، وإنما معنى العصمة التى تعهد بها الله عز وجل بقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ [المائدة: ٦٧] العصمة من القتل ومن أى صد أو عدوان من شأنه

(١) فقه السيرة للبوطي ١٠٠ - ١٠١ بتصرف.

إيقاف الدعوة الإسلامية فقد قضت حكمة الله - تعالى- أن يذوق الأنبياء من ذلك قدرًا غير يسير، وذلك لا يُنَافِى العصمة التى وعد بها أنبياءه ورسله.

ولذلك يقول الله - عز وجل- لنبيه بعد قوله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٥].

ومن الحكم الجليلة لما قضت به سنة الله عز وجل، من أن يلاقى الرسول ﷺ ما لاقى من المحنة فى طريق الدعوة، أن يستسلمها ويستخفّ بها عامة المسلمين فى كل عصر ممن أنيطت بهم مسئولية الدعوة الإسلامية، فلو أن النبى ﷺ نجح فى دعوته بدون أى مشقة أو جهد، لطمع أصحابه والمسلمون من بعده بأن يستريحوا كما استراح، ولاستقلوا المصائب والمحن التى قد يجدونها فى طريقهم إلى الدعوة الإسلامية[١].

المَرْحَلُة الثّالِثَةُ: دَعْوَةُ الإِسْلاَمِ خَارِجَ مَكَّةَ

الرَّسُولُ ﷺ فِي الطَّائِفِ:

لَمَّا هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النُّصْرَة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله - عز وجل- ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد يا ليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى، فدعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال لهم أحدهم: هو يمرط [٢] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن

(١) فقه السيرة للبوطي ١٠٥ - ١٠٦، باختصار.
(٢) يمرط: يمزق.

كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ عندهم و قد يئس من خير ثقيف، و قال لهم: «**إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى**» وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه، فيذئرهم [1]ذلك عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به؛ حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سماطين[2] وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه؛ حتى اختضب نعلاه بالدماء.

وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه؛ حتى أصابه شجاج فى رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى أَلْجَؤُوُه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلة [3] من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار [4].

تَوَجُّهُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى رَبِّهِ بِالشَّكْوَى:

فلما اطمأن قلب رسول الله ﷺ قال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى إلى من تكلنى، إلى بعيد يتهجمنى** [5] **أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى؛ حتى ترضى, ولا حول ولا قوة إلا بك**» [6].

(١) يذئرهم: يجرئهم ويثيرهم.
(٢) سماطين: صفين.
(٣) حبلة: شجر العنب.
(٤) ابن هشام (١ / ٢٥٧ - ٢٥٨)، الرحيق المختوم ١٢٥.
(٥) يتجهمه: استقبله بوجه كريه غير مرحب ولا راغب فيه.
(٦) ابن هشام (١ / ٢٥٨ - ٢٥٩).

إِسْلاَمُ عَدَّاسٍ:

فلما رآه ابنا ربيعة، وما لقى، تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا، يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ، ثم قال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: «**باسم الله**» ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ : «**ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟**» قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ : «**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**» فقال له عداس، وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله ﷺ : «**ذاك أخى، كان نبيًّا وأنا نبى**» فأكَبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدى، ما فى الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، دينك خير من دينه[1].

اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ- يُرْسِلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ جِبْرِيلَ وَمَلَكَ الجِبَالِ:

عن عائشة - رضى الله عنها- قالت: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ [2]: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَ شَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ ﷺ : «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ**[3]

(١) ابن هشام (١ / ٢٥٩).

(٢) البخاري٣٢٣١، مسلم ١٧٩٥.

(٣) قرن الثعالب: قرن المنازل.

فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ(1) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» (2).

إِسْلَامُ نَفَرٍ مِنَ الجِنِّ:

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف؛ حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى، فمر به نفر من الجن، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١] وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن: ١ - ١٥].

(١) الأخشبين: هما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيقعان.

(٢) سيرة الرسول - أبو عمار ١٦٢، ١٦٣ نقلاً من البخاري ومسلم.

عَوْدَةُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ:

ثم عاد رســـول الله ﷺ إلى مكة ومعه زيد بن حارثة، فقال له زيد: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني: قريشـًا، فقال: «**يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه**».

وســار رســول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شـــريق؛ ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدى، فقال المطعم: نعم، ثم تســلَّح ودعا بنيه وقومه، فقال: البســوا وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدًا، ثم بعث إلى رســـول الله ﷺ : أن ادخل، فدخل رســـول الله ﷺ ومعه زيد؛ حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رســـول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل: إن أبا جهل ســأل مطعمًا: أمُجِيرٌ أنت أم متابع؟ أي: مسـلم؟ قال: بل مُجِير، قال: قد أجرنا من أجرت[1].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

خرج رســـول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصـــرة من ثقيف، ولكنه رأى منهم الكثير من العذاب... ونستطيع أن نستخلص من ذهابه ﷺ الأمور التالية:

١- إن ما كان يلاقيه النبى ﷺ من مختلف ألوان المحنة، لا ســيما هذا الذى رآه فى ذهابه إلى الطائف، إنما كان من جملة أعماله التبليغية للناس، فكما أنه جاء يبلغنا العقيدة الصحيحة عن الكون وخالقه، وأحكام العبادات والأخلاق

(١) الرحيق المختوم ١٢٧ - ١٢٨.

والمعاملات، كذلك جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم الله به من واجب الصبر، ويبين لهم كيفية تطبيق الصبر والمصابرة اللذين أمر بهما في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٢- استقبال رسول الله ﷺ تلك المحن راضيًا صابرًا محتسبًا وكان بوسعه أن ينتقم من الذين آذوه، ودليل ذلك حديث السيدة عائشة.

٣- للمحن والمصائب حكم، من أهمها أنها تسوق صاحبها إلى باب الله - تعالى- وتلبسه جلباب العبودية له، فليس إذا بين الصبر على المكاره والشكوى إلى الله تعالى، بل الواقع أن رسول الله ﷺ كان يعلمنا فى حياته كلا الأمرين، فكان بصبره الشديد على المحن يعلمنا أن هذه هى وظيفة المسلمين عامة والدعاة إلى الله خاصة، وكان بطول ضراعته والتجائه إلى الله - تعالى- يعلمنا وظيفة العبودية ومقتضياتها.

٤- إذا تأملت فى مشاهد سيرته ﷺ مع قومه، وجدت أن ما كان يجده ﷺ من الأذى فى هذه المشاهد قد يكون قاسيًا شديدًا؛ بيد أنك واجد فى كل مشهد منها ما يعتبر ردًّا إلهيًّا على ذلك الإيذاء؛ كى يكون فى ذلك مواساة و سلوى للرسول ﷺ، وكى لا يتجمع فى النفس من عوامل التألم والضجر ما يدخل إليها اليأس ففى مشهد هجرته ﷺ إلى

الطائف، وما قد اكتنفها من العذاب المضنى - عذاب الإيذاء وعذاب الخيبة - تجد ردًّا إلهيًّا واضحًا على سفاهة أولئك الذين آذوه ولحقوا به واعتذارًا له عن سفاهتهم وغلظتهم، تجد ذلك فى مظهر الرجل النَّصرانى (عداس) حينما جاء يسعى إليه وفى يده طبق فيه عنب ثم انكبَّ فجعل يقبل رأسه ويديه ورجليه عندما أخبره أنه نبى(١).

(١) فقه السيرة البوطي ١٠٩ - ١١١ مختصرًا.

كذلك النصر الغيبى الذى أمده الله عليه من فوق سبع سموات بإرسال جبريل وملك الجبال، وكذلك إسلام نفر من الجن كان هذا نصرًا آخرَ أمدَّهُ الله من كنوز غيبه المكنون بِجُنوده التى لا يعلمها إلا هو.. ثم إن الآيات التى نزلت بصدد هذا الحادث كانت فى طيها بشائر بنجاح دعوته ﷺ، وأن أى قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٢].

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الجن: ١١ – ١٢].

أمام هذه النصرة والبشائر أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التى كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودًا مدحورًا؛ حتى صمم على العودة إلى مكة وعلى القيام باستئناف خطته الأولى فى عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجِدٍّ وحماس[1].

٥- ما كان يفعله زيد بن حارثة – رضى الله عنه- من وقاية للرسول ﷺ بنفسه من حجارة السفهاء؛ حتى إنه شُجَّ فى رأسه عدة شجاج نموذج لِمَا ينبغى أن يكون عليه حال المسلم بالنسبة لقائد الدعوة من حماية له بنفسه ودفاعه عنه، وإن اقتضى ذلك التضحية بحياته وكذلك نموذج لحب الصحابة للرسول ﷺ [2].

(١) الرحيق المختوم ١٢٦ - ١٢٧ مختصرًا.
(٢) فقه السيرة للبوطي ١١١ - ١١٢.

عَرْضُ الإِسْلاَمِ عَلَى القَبَائِلِ وَالأَفْرَادِ:

عاد النبى ﷺ إلى مكة؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد، وكان يعرض نفسه فى موسم الحج من كل سنة على القبائل التى تتوافد إلى البيت الحرام، يتلو عليهم كتاب الله ويدعوهم إلى توحيد الله فلا يستجيب له أحد[1].

قال الزهرى: وكان ممن يسمَّى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صَعْصَعَة، ومُحَارب بن خَصَفَة، وفَزارَة، وغَسَّان، ومُرَّة، وحنيفة، وسُلَيْم، وعَبْس، وبنُو نصر، وبنُو البكاء، وكِنْدَة، وكَلْب، والحارث ابن كَعْب، وعُذْرَة، والحَضَارِمَة، فلم يستجب منهم أحد..

كان عرض النبى ﷺ الإسلام على القبائل ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة، ولكن الأكثر كان فى السنة العاشرة[2].

عَرْضُ الإِسْلاَمِ عَلَى الأَفْرَادِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ مَكَّةَ:

كما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل، عرضة على الأفراد ومنهم:

١ـ إِسْلاَمُ إِيَاس بنِ مُعَاذ:

قال ابن إسحاق: عن محمود بن لبيد قال: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «**هل لكم فى خير مما جئتم له؟**» فقالوا له: وما ذاك؟ قال: «**أنا رسول الله بعثنى إلى العباد؛ أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليَّ الكتاب**».

(١) فقه السيرة للبوطي ١٢٢.

(٢) الرحيق المختوم ص ١٢٩.

ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ؟ وكان غلامًا حدثًا: أى قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيســر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء،

فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعَمْرى لقد جئنا لغير هذا فصــمت إياس، وقام رســول الله ﷺ عنهم، وانصــرفوا إَلى المدينة وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج.

ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرنى من حضـره من قومه عند موته: أنهم لم يزالوا يسـمعونه يهلل الله - تعالى- ويكبر ويحمد ويسـبحه حتى مات، فما كانوا يشـكون أنه قد مات مسـلمًا، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع(١).

٢ـ إِسْلَاَمُ سُوَيْدِ بنِ الصَّامِتِ:

كان شـاعرًا لبيبًا من سـكان يثرب يسـميه قومه الكامل، لجلده وشـعره و شرفه و نسبه، جاء مكة حاجًّا أو معتمرًا، فدعاه ر سول الله ﷺ إلى الإ سلام فقال: لعل الذى معك مثل الذى معى، فقال له رســول الله ﷺ : «**وما الذى معك؟**» قال: حكمة لقمان، قال: «**اعرضها علىَّ**» فعر ضها فقال له ر سول الله ﷺ : «**إن هذا الكلام حسـن، والذى معى أفضـل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى على، هو هدى ونور**» فتلا عليه رسـول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسـلام، فأسـلم.. وقال: إنَّ هذا لقول حســن، فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم بعاث، وكان إسلامه فى أوائل سنة ١١ من النبوة (٢).

(١) ابن هشام (١ / ٢٦٤).

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٧٤.

٣ـ إِسْلاَمُ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ:

رَوَى البُخَارِيُّ قَالَ ابْنُ عَبَّاس[١]: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِإِسْلامِ أَبِي ذَرٍّ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كُنْتُ رَجُلاً مِنْ غِفَار فَبَلَغَنَا أَنَّ رَجُلاً قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقُلْتُ لأخِي: انْطَلِقْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ كَلِّمْهُ وَأْتِنِي بِخَبَرِهِ فَانْطَلَقَ فَلَقِيَهُ ثُمَّ رَجَعَ فَقُلْتُ: مَا عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَى عَنْ الشَّرِّ فَقُلْتُ لَهُ: لَمْ تَشْفِنِي مِنْ الْخَبَرِ فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصًا ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى مَكَّةَ فَجَعَلْتُ لا أَعْرِفُهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ وَأَشْرَبُ

مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: فَانْطَلِقْ إِلَى الْمَنْزِل قَالَ: فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ لا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلا أُخْبِرُهُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لأسْأَلَ عَنْهُ وَلَيْس أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدُ قَالَ: قُلْتُ: لا قَالَ: انْطَلِقْ مَعِي قَالَ فَقَالَ: مَا أَمْرُكَ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنْ كَتَمْتَ عَلَيَّ أَخْبَرْتُكَ قَالَ: فَإِنِّي أَفْعَلُ قَالَ: قُلْتُ لَهُ بَلَغَنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِنْ الْخَبَرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ فَقَالَ لَهُ: أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشَدْتَ هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي ادْخُلْ حَيْثُ أَدْخُلُ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نَعْلِي وَامْضِ أَنْتَ فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: اعْرِضْ عَلَيَّ الإِسْلامَ فَعَرَضَهُ فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي فَقَالَ لِي: «**يَا أَبَا ذَرٍّ اكْتُمْ هَذَا الأمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ**» فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْش إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ فَقَامُوا فَضُرِبْتُ لأمُوتَ فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: وَيْلَكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلاً مِنْ غِفَارَ وَمَتْجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ

(١) (صحيح) البخاري ٣٥٢٢.

عَلَى غِفَارَ فَأَقْلَعُوا عَنِّي فَلَمَّا أَنْ أَ صْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالأَمْسِ فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ فَصُنِعَ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بِالأَمْسِ وَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالأَمْسِ قَالَ: فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤- إِسْلَامُ الطُّفَيْلِ بنِ عَمْرٍو الدَّوْسِيِّ:

كـان رجـلاً شـريفًا وشـاعرًا لبيبًـا رئـيس قبيلـة دوس، وكانـت لقبيلتـه إمارة أو شبه إمارة فـى بعـض نـواحى الـيمن، قـدم مكـة فـى عـام ١١ مـن النبـوة؛ فاسـتقبله أهلـها قبـل وصـوله إليهـا، وبـذلوا لـه أجـل تحيـة وأكـرم تقدير، وقـالوا لـه: يـا طفيـل إنـك قـدمت بلادنـا وهـذا الرجـل الـذى بـين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا

وشـتت أمرنـا، وإنمـا قولـه كالسـحر يفـرق بـين الرجـل وأبيـه وبـين الرجل وأخيه وبـين الرجـل وزوجـه، وإنـا نخشـى عليـك وعلـى قومـك مـا قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعنَّ منه شيئًا.

يقول الطفيل: فوالله ما زالوا بى؛ حتى أجمعت ألا أسمع منه شـيئًا ولا أكلمه حشوت أذنى حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا فرقًا من أن يبلغنى شيء من قوله، قال: فغدوت إلى المسـجد فإذا هو قائم يصـلى عند الكعبة، فقمت قريبًا منه؛ فأبى الله إلا أن يسـمعنى بعض قوله، فسـمعت كلامًا حسـنًا فقلت فى نفسى: واثكل أمى؛ والله إنى رجل لبيبٌ شاعرٌ، ما يخفى على الحسن من القبيح؛ فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسـنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصـرف إلى بيته فاتبعته؛ حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمى وتخويف الناس إياى وسد الأذن بالكرسف.. ثم سماع بعض كلامه وقلت له: اعرض علىَّ أمرك، فعرض على الإسـلام وتلا على القرآن، فوالله ما سمعت قولاً قط أحسـن منه، ولا أمرًا أعدل منه فأسـلمت وشـهدت شـهادة الحق، وقلت له: إنى مطاع فى قومى، وراجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام؛ فادع الله أن يجعل لى آية فدعا.

وكانت آيته أنه لَمَّا دنا من قومه جعل الله نورًا فى وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم فى غير وجه، أخشى أن يقولوا: هذه مثله، فتحول النور إلى سوطه، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه فى الإسلام لكن لم يزل بهم؛ حتى هاجر بعد الخندق[1] ومعه سبعون أو ثمانون بيتًا من قومه، وقد أبلى فى الإسلام بلاءً حسنًا وقُتِلَ شهيدًا يوم اليمامة.

٥ - إِسْلاَمُ ضُمَادِ الأَزْدِيّ:

كان من أزد شنوءة من اليمن، وكان يرقى من هذا الريح؛ قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إنّ محمدًا مجنون، فقال: لو أني أتيت هذا الرجل؛ لعل الله يشفيه على يدي،

فلقيه، فقال: يا محمد إنى أرقى من هذا الريح، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ : **«إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. أما بعد ، فقال: أعد على كلماتك هؤلاء»** فأعادهن عليه رسول ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء؛ فما سمعت مثل كلمات هؤلاء ولقد بلغن قاموس[2] البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام فبايعه[3].

سِتُّ نَسَمَاتٍ طَيِّبَة مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ:

وفى موسم الحج من سنة ١١ من النبوة.. يوليو سنة٦٢٠م، وجدت الدعوة الإسلامية بذورًا صالحة سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات؛ اتقى المسلمون فى ظلالها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة أعوام.

(١) بل وبعد الحديبية فقد قدم المدينة رسول الله بخيبر.

(٢) قاموس البحر: أبعد موضع فيه غورًا.

(٣) الرحيق المختوم ١٣١ - ١٣٢.

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل فى ظلال الليل؛ حتى لا يحول بينه وبينهم لأحد من أهل مكة المشركين.

خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعلى فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم فى الإسلام، وقد دارت بين أبى بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة غير أنهم توقفوا فى قبول الإسلام.

ثم مر ر سول الله ﷺ بعقبة منى فسمع أ صوات رجال يتكلمون فعمدهم؛ حتى لحقهم وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج وهم:

أسعد بن زرارة (من بنى النجار).

عوف بن الحارث بن رفاعة، ابن عفراء (من بنى النجار).

رافع بن مالك بن العجلان (من بنى زريق).

قطبة بن عامر بن حديدة (من بنى سلمة).

عقبة بن عامر بن نابى (من بنى حرام بن كعل).

جابر بن عبد الله بن رئاب (من بنى عبيد بن غنم) [١].

قال ابن إسحاق: فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**من أنتم؟**» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «**أمن موالى يهود؟**» قالوا: نعم، قال: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالوا: بلى؛ فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٧٥.

وكانوا قد غزوهم[1] ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيًّا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود؛ فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم؛ فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[2].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

الدرس المستفاد من إسلام ستة من الأنصار هو:

أن الصبر أينع، والجهد أثمر، واستغلظ زرع الدعوة وأخذ يستوى على سوقه؛ ليعطى النتيجة والغلال.

إحدى عشرة سنة من المعاناة وعدم الاستقرار وتربص قريش بقتله ﷺ فى كل دقيقة و شعوره بالغربة الهائلة بين قومه وكافة الجماعات والقبائل المحيطة به فلا ينقص ذلك شيئًا من عزيمته ولا يضعف شيئًا من قوته و سعيه فلا ييأس ولا يضجر ولا يؤثر ذلك على شى من أنسه بربه عز وجل.

إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل فى سبيل الله وحده هى الثمن والطريق إلى نشأة مد إسلامى عظيم ينتشر فى مشرق العالم وغربه تتساقط أمامه قوة الروم والفرس وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات.

(١) غزوهم: غلبوهم.

(٢) ابن هشام (١/ ٢٦٤ - ٢٦٥).

ثمن من الجهاد والصبر والتعب وخوض الشدائد؛ كان من السهل جدًّا على الله - عز وجل- أن يقيم المجتمع الإسلامى بدونه، ولكن تلك هى سنة الله فى عباده أراد أن يتحقق فيهم التعبد له اختيارًا كما تحققت فيهم صفة العبودية له اختيارًا.

ولا يتحقق التعبد بدون بذل جهد وليمحص الصادق من المنافق بدون عذاب أو استشهاد، والآن فلنتأمل فى هذه الثمار التى أخذت تبدو على رأس إحدى عشرة سنة من دعوة الرسول ﷺ وطبيعتها وكيفية نموها:

أولا: جاءت هذه الثمار المنتظرة من خارج قريش بعيدة عن قومه ﷺ رغم جواره معهم واحتكاكه بهم فلماذا؟ لقد اقتضت حكمة الله الباهرة أن تسير الدعوة الإسلامية فى سبيل لا تدع أى شك للمتأمل فى طبيعتها ومصدرها؛ حتى يسهل الإيمان بها ولا يقع بها أى التباس بينهما وبين غيرها من الدعوات الأخرى.

من أجل ذلك كان الرسول ﷺ أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ومن أجل ذلك بعث في أمة من الأميين الذين لم يقتبسوا حضارة، ولم يعرفوا بمدينة أو ثقافة معينة، ومن أجل ذلك جعله الله مثال الخلق الكريم والأمانة والنزاهة.

* * *

الإِسْرَاءُ وَالمعْرَاجُ

يقصد بالإسراء الرحلة التى أكرم الله بها نبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج به إلى طبقات السماوات العلا ثم الوصول به إلى حد انقطعت عنده علوم الخلائق.

وقد اختلف فى ضبط تاريخ هذه المعجزة هل كانت فى العام العاشر من بعثته ﷺ، أم بعد ذلك.. والذى رواه بن سعد فى طبقاته الكبرى أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا(١).

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسده وروحه ﷺ ودليل ذلك استعظام مشركى قريش لذلك، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له؛ لأن الرؤيا لا حدود لها ولا تستدعى الاستعظام والاستنكار(٢).

قِصَّةُ الإِسْرَاءِ وَالمعْرَاجِ:

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ(٣): «**أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ فَرَكِبْتُهُ فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ فِيهَا الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ قَالَ جِبْرِيلُ: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ فَقِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ فَقِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ: فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الْخَالَةِ يَحْيَى**

(١) فقه السيرة للبوطي ص ١١٥.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ١٢١.

(٣) (صحيح) أحمد ١٢٠٩٦.

وَعِيسَى فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ فَقِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ فَقِيلَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ الْبَابُ فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ فَقِيلَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ فَقِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلام فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلالِ فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ مَا أَوْحَى وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلاةً فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَقُلْتُ: أَيْ رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى وَيَحُطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلاةً وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً

وَاحِدَةً فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأمَّتِكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَاكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى لَقَدْ اسْتَحَيْتُ وَلَكِنْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ».

هَلْ رَأى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟!

ذكر ابن القيم خلافًا في رؤيته ﷺ ربّه تبارك وتعالى؛ ثم ذكر كلامًا لابن تيمية بهذا الصدد، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلاً، وهو قول لم يقله أحد من الصحابة، وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقاً ورؤيته بالفؤاد فالأول لا ينافى الثانى[1]، وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالا: إن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [النجم: ١٣ - ١٤] إنما هو جبريل، وصح عن أبى ذر أنه سأله: هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور أنَّى أراه**» أى: حال بينى وبين رؤيته النور كما قال فى لفظ آخر: «**رأيت نورًا**» [2] وقد جاء فى بعض الطرق أن صدره ﷺ شُقَّ فى هذه المرة أيضًا [3].

بَعْضُ مَا رَآَهُ النَّبِيُّ ﷺ :

عن قَتَادَةَ حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ[4]:«**بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ قُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَإِذَا طِينُهُ أَوْ طِيبُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ**».

ورأى أربعة أنهار يخرجن من أصل سدرة المنتهى؛ نهران ظاهران ونهران باطنان فالظاهران: هما النيل والفرات عنصرهما والباطنان: نهران في الجنة ولعل رؤية النيل والفرات كانت إشارة إلى تمكن الإسلام من هذين القطرين والله أعلم.

(١) الرحيق المختوم ص ١٣٦.

(٢) سيرة الرسول لأبي عمار ص ١٦٩.

(٣) الرحيق المختوم ص ١٣٦.

(٤) البخاري ٦٥٨١.

عن أبى سعبد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : «**رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل[1] فى أيديهم قطع من نار كالأفهار[2] يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلمًا**».

قال: «**ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة[3] حين يعرضون على النار يطئوهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك.قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا**».

قال: «**ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم ثمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن[4] يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب.قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن، قال: ثم رأيت نساء معلقات بثديهن فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم**».

ورأى عيرًا من أهل مكة فى الإياب والذهاب، وقد دلهم على بعير نَدَّ لهم، وشرب ماءهم من إناء مغطًّى وهم نائمون، ثم ترك الإناء مغطى، وقد صار ذلك دليلاً على صدق دعواه فى صباح ليلة الإسراء[5].

اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ- يُجَلِّى بَيْتَ المقْدِسِ لِلنَّبِيِّ ﷺ :

فلما أصبح رسول الله ﷺ فى قومه أخبرهم بما أراه الله – عز وجل– من آياته الكبرى، فا شتد تكذيبهم له وأذاهم و ضراوتهم عليه، و سألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلاه الله له؛ حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آيا ته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئًا، وأخبرهم عن عيرهم فى مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها وأخبرهم عن البعير الذى يقدمها، وكان الأمر

(١) شفاه المشافر في الإبل كالشفاه بالنسبة للإنسان.

(٢) الأفهار: الأحجار.

(٣) العطش.

(٤) المهزول الضعيف.

(٥) ابن هشام ١ - ٢٥١، الرحيق المختوم ص ١٣٧، سيرة الرسول أبو عمار ص ١٧٠.

كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبى الظالمون إلا كفورًا.

مَوْقِفُ الصّدّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي قِصَّةِ الإِسْرَاءِ وَالمعْرَاجِ:

ولما كانت رحلة الإسراء والمعراج جاء المشركون إلى أبى بكر فقالوا له: إن صاحبك يزعم أنه أسرى به إلى المسجد الأقصى فى الليلة الماضية، ونحن نقطع أكباد الإبل إليها فى شهر كامل فقال أبو بكر: إن كان قال فقد صدق، وفى رواية: وبادر الصديق إلى التصديق وقال: إنى لأ صدقه فى خبر السماء بكرة وعشيَّة، أفلا أصدقه فى بيت المقدس؟! ولذلك يقال: إن أبا بكر سُمِّى صدِّيقًا من حادثة الإسراء والمعراج؛ لأن النبى ﷺ قال ليلة أسرى به لجبريل: «**إن قومى لا يصدقونى**» فقال له جبريل: يصدقك أبو بكر وهو الصديق[1].

وفى صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها، وكان ﷺ قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحًا، ومثليهما مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام[2].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

تنطوى حادثة الإسراء والمعراج على العديد من العبر والعظات منها:

١- معجزة الإسراء والمعراج تؤكد نبوته ﷺ لأن المعجزات الخارقة لا تتسنَّى إلا للأنبياء.

جاءت ضيافة الإسراء والمعراج للرسول ﷺ بعد المحن الكثيرة التى لاقاها من قريش وفى رحلة الطائف تكريم من الله عز وجل له وتجديد لعزيمته.

إسراؤه ﷺ إلى بيت المقدس بيان لمدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله عز وجل وكذلك ضرورة حفاظ المسلمين على هذه الأرض المقدسة فى كل عصر.

(١) سيرة الرسول أبو عمار ١٦٩ - ١٧١.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ١١٦.

وفى اختيار النبى ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل عليه السلام دلالة رمزية على أن الإسلام هو دين الفطرة[1].

بَيْعَةُ العَقَبَةِ الأُولَى:

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا فى موسم الحج سنة ١١ من النبوة، ووعدوا رسول الله ﷺ بإبلاغ رسالته فى قومهم.

وكان من جراء ذلك أن جاء فى الموسم التالى موسم الحج سنة ١٢ من النبوة يوليو سنة ٦٢١م - اثنا عشر رجلاً فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله ﷺ فى العام السابق - والسادس الذى لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رئاب- وسبعة سواهم، وهم:

معاذ بن الحارث بن عفراء من بنى النجار (من الخزرج)

ذكوان بن عبد القيس من بنى زريق (،،،،)

عبادة بن الصامت من بنى غنم (،،،،)

يزيد بن ثعلبة من حلفاء بنى غنم (،،،،)

العباس بن عبادة بن نضلة من بنى سالم (،،،،)

أبو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الأشهل (من الأوس)

عويمر بن ساعدة من بنى عمرو بن عوف (،،،،)

التقى هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى فبايعوه بيعة النساء أي: وفق بيعتهن التى نزلت بعد الحديبية.

روى البخارى عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وهو مِنَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا تَسْرِقُوا وَلا تَزْنُوا وَلا**

(١) فقه السيرة للبوطي مختصرا ١١٦ - ١٢٢.

تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ[١]، **قال: فبايعته، وفي نسخة: فبايعناه على ذلك»**[٢].

سَفِيرُ الدَّعْوَةِ الأُولَى إِلَى المَدِينَةِ:

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبى ﷺ مع هؤلاء المبايعين مصعب بن عمير - أول سفير فى الإسلام - ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين، ويقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك فكان يسمى بمقرئ المدينة وقد نزل على أسعد بن زرارة.

قال ابن إسحاق: فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة: أنه كان يصلى بهم وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض[٣].

نَجَاحُ مُصْعَب فِي مُهَمَّتِهِ:

قال ابن إسحاق: حدثنى عبد الله بن المغيرة بن معيقب وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل حائطًا من حوائط بنى ظفر، قالا: على بئر يقال لها بئر مَرَق فجلسا فى الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا؛ ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما على أن يأتيا دارينا؛

(١) البخاري ٣٨٩٢.

(٢) الرحيق المختوم ص ١٣٩.

(٣) ابن هشام ١ / ٢٦٩، الرحيق المختوم ١٣٩ / ١٤٠.

فإنه لولا أن أســعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أسـيد بن حضـير حربته ثم أقبل إليها فلما رآه أســعد بن زرارة قال لمصـعب بن عمير: هذا ســيد قومه قد جاءك فاصـدق الله فيه، قال مصـعب: إن يجلس أكلمه، قال: فوقف عليهما متشـتمًا فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصـعب: أو تجلس فتسـمع فإن رضـيت أمرًا قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره، قال: أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإســلام وقرأ عليهما القرآن فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسـلام قبل أن يتكلم فى إشـراقه وتسـهله، ثم قال: ما أحسـن هذا الكلام وأجمله! كيف تصــنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتســل فتتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى فقام فاغتسل وطهر ثوبه وتشــهد شــهادة الحق ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما: إن ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم فلما نظر إليه سعد ابن معاذ مقبلاً؛ قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم؛ فلما وقف على النادى قال له ســعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسـًا وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة؛ ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفِرُوك.

قال: فقام ســعد مغضــبًا مبادرًا تخوفًا للذى ذكر له من بنى حارثة فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شــيئًا ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتمًا ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة (أما والله) لولا ما بينى وبينك

من القرابة ما رمت[1]. هذا منى، أتغشـــانا فى دارينا بما نكره - وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد من وراء قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، قال له مصـعب: أو تقعد فتسـمع فإن رضـــيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره قال ســـعد: أنصـفت ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسـلام قبل أن يتكلم لإشـراقه وتسهله ثم قالا لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟.

قالا: تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين قال: فقام فاغتســل وطهر ثوبه وتشـــهد شـهادة الحق ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم ســـعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشـــهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا (وأو صلنا) وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة [2].

قال: فإن كلام رجالكم ونسـائكم عليَّ حرام؛ حتى تؤمنوا بالله ورسـوله، قالا: فوالله ما أمســـى فى دار بنى عبد الأشـــهل رجل ولا امرأة إلا مســـلمًا ومسـلمة ورجع أسـعد ومصـعب إلى منزل أسـعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإســلام؛ حتى لم تبق دار من دور الأنصـار إلا فيها رجال ونسـاء مســـلمون إلا ما كان من بنى أمية بن زيد، وخطمة ووائل، وواقف، وهم من الأوس بن حارثة وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأســـلت واسمه صـــيفى وكان شاعرًا لهم قائدًا يستمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإ سلام؛ حتى كان بعد الخندق[3]. وقبل حلول موسم الحج التالى- أي: حج السنة الثالثة

(١) رامت الشيء أي: طلبته.

(٢) منجح الفعال وظف المطالب، والنقيبة: النفس وقيل الطبيعة أو الخليقة.

(٣) ابن هشام ١ / ٢٦٩ - ٢٧٢، سيرة الرسول أبو عمار ١٧٧ - ١٧٩.

عشـرة - عاد مصـعب بن عمير إلى مكة يحمل إلى رسـول الله ﷺ بشـائر الفوز ويقص عليه خبر قبائل يثرب وما فيها من مواهب الخير وما لها من قوة ومنعة[1].

بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثّانِيَةِ:

في موسـم الحج في السـنة الثالثة عشـرة من النبوة - يونيو سـنة ٦٢٢م- حضر لأداء منا سك الحج بضع و سبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءلوا فيما بينهم؛ حتى متى نترك رسـول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟! فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصـالات سـرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسـط أيام التشـريق في الشـعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل.

وقد وصـف كعب بن مالك الأنصـاري هذا الاجتماع قائلاً: خرجنا إلى الحج وواعدنا رسـول الله ﷺ بالعقبة من أوسـط أيام التشـريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا ر سول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سـيد من سـادتنا، وشـريف من أشـرافنا أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشـركين أمرنا - فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من سادتنا، و شريف من أ شرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا، ثم دعوناه إلى الإسـلام، وأخبرناه بميعاد رسـول الله ﷺ إيانا العقبة، فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبًا.

قال كعب: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا؛ حتى إذا مضـى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا مستخفين؛

(١) الرحيق المختوم ص ١٤١.

حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان من نسائنا وهما نسيبة بنت كعب – أم عمارة من بنى مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو– أم منيع – من بنى سلمة[١].

العَبَّاسُ يَتَوَثَّقُ للنَّبِيِّ ﷺ :

قال كعب: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس، فقال: – يا معشر الخزرج– وكان العرب إنما يسمون الأنصار خزرجًا؛ فخزرجها وأوسها كلاهما، إن محمدًا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه؛ فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله ﷺ فخذ لربك ولنفسك ما أحببت [٢].

عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الأَنْصَارِ:

روى الإمام أحمد عن جابر مفصلاً قال جابر: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلامَ نُبَايِعُكَ قَالَ: «**تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لائِمٍ وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنَّةُ**»[٣].

(١) الرحيق المختوم ص ١٤٢.
(٢) ابن هشام ١ / ٢٧٤ - ٢٧٥.
(٣) مسند أحمد ١٤٢٤٣.

وفى رواية كعب البند الأخير فقط من هذه البنود ففيه قال كعب: فتكلم رسـول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسـلام ثم قال: **«أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نســاءكم وأبناءكم»** فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع أزرنا منه[1].

فبايعنا يا رسـول ﷺ فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة[2] ورثناها كابرًا عن كابر قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعنى: اليهود، فهل عسـيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسـم رسـول الله ﷺ ثم قال: **«بل الدم الدم[3]، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»** [4].

التَّأْكِيدُ مِنْ خُطُورَةِ البَيْعَةِ:

قال ابن إســحاق: حدثنى عاصــم بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسـودِ من الناس؛ فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصـيبة وأشـرافكم قتلاً أسـلمتموه؛ فمن الآن فهو الله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال[5] وقتل الأ شراف فخذوه؛ فهو والله خير الدنيا والآخرة قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله ﷺ إن نحن وفينا (بذلك)؟

(١) الأزر: الثياب والمقصود النساء أو الأنفس.

(٢) الحلقة: السلاح.

(٣) الدم الدم والهدم الهدم: دمي دمك، وما تهدمه أنت أهدمه أنا.

(٤) ابن هشام ١ / ٢٧٥، الرحيق المختوم ١٤٣ - ١٤٤.

(٥) نهكة الأموال: نقصها.

قال: «**الجنة**» قالوا: ابسط يدك فبسط يده فبايعوه [1] وفى رواية جابر قال: فقمنا نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة – وهو أصغر السبعين– فقال: رويدًا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف؛ فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله[2].

عَقْدُ البَيْعَةِ:

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر – بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة – قال: فقالوا: يا أسعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها.

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل وتأكد منه – وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير – فكان هو السابق إلى هذه البيعة، قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرازة كان أول من ضرب على يده، وبعد ذلك بدأت البيعة العامة قال جابر: فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً، فما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط[3].

نقبَاءُ القَوْمِ:

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ أن يختاروا اثنى عشر زعيمًا يكونون نقباء على قومهم يكفلون المسئولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: «**أخرجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيبًا؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم**» فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا تسعة من الخزرج؛ وثلاثة من الأوس وهاك أسماؤهم:

(١) ابن هشام ١ / ٢٧٦.

(٢) الرحيق المختوم ١٤٤ - ١٤٥.

(٣) الرحيق المختوم ١٤٤ - ١٤٥.

نُقَبَاءُ الخَزْرَجِ:

١- أسعد بن زرارة بن عدس.

٢- سعد بن الربيع بن عمرو.

٣- عبد الله بن رواحة بن ثعلبة.

٤- رافع بن مالك بن العجلان.

٥- البراء بن معرور بن صخر.

٦- عبد الله بن عمرو بن حرام.

٧- عبادة بن الصامت بن قيس.

٨- سعد بن عبادة بن دليم.

٩- المنذر بن عمرو بن خنيس.

نُقَبَاءُ الأَوْسِ

١- أسيد بن حضير بن سماك.

٢- سعد بن خثيمة بن الحارث.

٣- رفاعة بن عبد المنذر بن زبير.

ولما تم اختيار هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبى ﷺ ميثاقًا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين قال لهم: «**أنتم على قومكم بما فيهم كفلاً، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى**» يعنى: المسلمين قالوا: «**نعم**» [1].

شَيْطَانٌ يَكْشِفُ المعَاهَدَة:

قال كعب: فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الحباحب[2] هل لكم فى مذمم والصباة معه [3] قد

(١) الرحيق المختوم ١٤٥.

(٢) المنازل.

(٣) الصباة: جمع صابي، وهو الصابئ وكان يطلق على من خرج من الشرك إلى الإسلام.

اجتمعوا على حربكم قال: فقال رســـول الله ﷺ : «**هذا أزب العقبة**[١] **هذا ابن أزيب؛ أتسمع عدو الله أما والله لأفرغن لك**».

فِطْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَحِكْمَتُهُ:

قال كعب: ثم قال ر سول الله ﷺ : «**ارفضوا إلى رحالكم**» [٢] قال: فقال له العباس بن عبادة بن نضـــلة: والله الذى بعثك بالحق: إن شــئت لنميلنَّ على أهل منى غدًا بأ سيافنا؟ قال: فقال ر سول الله ﷺ : «**لم نؤمر بذلك؛ ولكن ارجعوا إلى رحالكم**» قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها؛ حتى أصبحنا[٣].

قُرَيْشٌ تُقَدِّمُ الاحْتِجَاجَ إِلَى رُؤَسَاءِ يَثْرِبَ:

لما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضـــجة وســـاورتهم القلاقل والأحزان؛ لأنهم كانوا على معرفة تامة بعواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم، فما إن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى أهل يثرب؛ ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة قال الوفد: "يا معشـــر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتكم إلى صـــاحبنا هذا تســـتخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا؛ وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم".

ولما كان مشـــركو الخزرج لا يعرفون شـــيئًا عن هذه البيعة؛ لأنها تمت فى ســـرية تامة فى ظلام الليل انبعث هؤلاء المشـــركون يحلفون بالله ما كان من شيء وما علمناه؛ حتى أتوا عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول فجعل يقول: هذا باطل وما كان هذا، وما كان قومى ليفتاتوا علي بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤمرونى.

(١) اسم شيطانها.

(٢) ارفضوا: تفرقوا.

(٣) ابن هشام ١ / ٢٧٧.

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى ثم لاذوا بالصمت فلم يتحدث أحد منهم بنفى أو إثبات، ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين فرجعوا خائبين.

تَأَكُّدُ الخَبَرِ لَدَى قُرَيْشٍ وَمُطَارَدَة المبَايِعِينَ:

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر؛ لكنهم لم يزالوا يتنطسونه(١)؛ حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح والبيعة قد تمت فعلاً، وذلك بعدما نفر الحجيج إلى أوطانهم فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين ولكن بعد فوات الأوان إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردوهما، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فألقوا القبض عليه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره؛ حتى أدخلوه مكة فجاء المطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه فإذا هو قد طلع عليهم فوصل القوم جميعًا إلى المدينة(٢).

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

من الدروس المستفادة من بيعتى العقبة الأولى والثانية:

لعل أصحاب الفكر المتسرع الذين يظنون أن الإسلام يمكن أن يمكَّنَ له بضربة خاطفة يعتبرون بما حدث فى بيعة العقبة الثانية وكيف أن الأنصار وهم أهل حرب ودراية وقد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل الوادى فيقتلونهم فنهاهم ﷺ عن ذلك، وقال: «**إنى لم أومر بذلك**» فتعجل الثمار قد يضيع الجهد المبذول ولا تؤتى الحركة

(١) يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه.

(٢) الرحيق المختوم ١٤٦ - ١٤٧.

الإســلامية ثمارهــا وتكــون النتيجــة خســارة الأفــراد الموجــودين وضـياع دعـوتهم فـى سـبيل مصـلحة متوهمـة، وهـذا شـاهد لقـول النبـى ﷺ لخباب: «**ولكنكم قوم تستعجلون**»(١).

بـدأ الإسـلام فـى يثـرب بإسـلام سـتة مـن الأنصـار الـذين عـادوا إلى يثرب وكانوا سبب فـى إسـلام سـبعة آخـرين، وفـى العـام التـالى عـادوا إلى مكـة اثـني عشـر نفـرًا وذلـك فـى بيعـة العقبـة الأولى ثـم عـادوا إلى يثـرب ومعهــم مصــعب بــن عمــير واســتمروا فــى الــدعوة إلى الإســلام؛ حتــى عــادوا إلى مكــة فــى الســنة التاليــة بضــعة وســبعين بيــنهم امرأتــان، وذلــك فــى بيعــة العقبــة الثانيــة وهكــذا يتــبين لنــا أن الــدعوة إلى الإســلام فريضــة على كل مسلم ومسلمة وليست مهمة الأنبياء والدعاة فقط.

٣- اقتضــت رحمــة الله بعبــادة أن لا يحملــهم واجــب القتــال إلى أن توجــد لهــم دار ولــذلك فــرض الجهــاد فــى البيعــة الثانيــة وليســت الأولى بعدما انتشر الإسلام فى المدينة.

٤- بيعة العقبة الثانية كانت المقدمة الأولى لهجرته ﷺ إلى المدينة بعد سماع المشركين بخبر البيعة وما ترتب عليه من ترتب الأمر على الرسول ﷺ وإجماعهم الرأى على قتله والتخلص منه.

* * *

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٨٦.

الهِجْرَةُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المدِينَةِ

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ونجح الإ سلام فى تأ سيس وطن له و سط صحراء تموج بالكفر والجهالة – وهو أخطر كسب حصل عليه الإ سلام منذ بداية دعوته – أذن رســـول الله للمســـلمين بالهجرة إلى هذا الوطن(١) فهاجر الصحابة تاركين الوطن والأهل والمال فى مكة ليسلم لهم الدين.

النَّبِيُّ ﷺ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَوْطِنَ الهِجْرَةِ:

لم يكن اختيار يثرب دارًا للهجرة مما اقتضته ظروف الدعوة فحسب؛ وإنما كان ذلك بوحى من الله جلا وعلا.

عَنْ أَبِي مُوسَى أُرَاهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ثُمَّ هَزَزْتُهُ بِأُخْرَى فَعَادَ أَحْسَــنَ مَا كَانَ فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقَرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْخَيْرِ وَثَوَابِ الصِّدْقِ الَّذِي آتَانَا اللَّهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ**» (٢).

وعن عائشـــة رضـــى الله عنها قالت: قال رســـول الله ﷺ : «**قد رأيت دار هجرتكم, أريت سبخة(٣) ذات نخل بين لابتين، وهما حرتان**» (٤) (٥).

فخرج من كان مهاجرًا قبل المدينة حين ذكر ذلك رســـول الله، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين(٦).

(١) الرحيق المختوم ١٤٨.
(٢) أخرجه البخاري٣٦٢٢، ومسلم٢٢٧٢.
(٣) سبخة: الأرض المالحة ولا تنبت إلا بعض الشجر.
(٤) الحرة: الأرض ذات الحجارة السود.
(٥) أخرجه البخاري وأحمد والحاكم.
(٦) سيرة الرسول أبو عمار ١٨٧ - ١٨٨.

السَّابِقُونَ إِلَى الهِجْرَةِ:

١- كان من أول المهاجرين أبو سـلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسـنة على ما قاله ابن إسـحاق - وزوجته وابنه, فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد؟ فأخذوا منه زوجته، وغضب آل أبى سلمة لرجلهم فقالوا: لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده، وذهبوا به وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة.

وكانت أم سلمة رضى الله عنها بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكى؛ حتى تمسى ومضى على ذلك نحو سنة فرَقَّ لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسـكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها فقالوا لها: الحقى بزوجك إن شئت؛ فاسترجعت ابنها من عصبته وخرجت تريد المدينة- رحلة تبلغ حوالى خمسمائة كيلو متر تمر بين شواهق الجبال ومهالك الأودية - وليس معها أحد من خلق الله؛ حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة وبعد أن عرف حالها شـيعها؛ حتى أقدمها إلى المدينة فلما نظر إلى قباء قال: زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعًا إلى مكة[١].

٢- ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبى سـلمة عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبى حشـمة فهى أول ظعينة[٢] قدمت المدينة ثم قدم أصـحاب رسـول الله أرسـالاً فنزلوا على الأنصـار فى دورهم فآووهم ونصروهم وآسوهم[٣].

(١) الرحيق المختوم ١٤٨.

(٢) ظعينة المرأة التي في الهودج.

(٣) فقه السيرة للبوطي ١٣٦ - ١٣٧.

هَجْرَةُ عُمَر بنِ الخَطَّابِ وَقِصَّة عياش مَعَهُ:

قال ابن إسحاق: حدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب قال: اتَّعدتُ لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبى ربيعة وهشام ابن العاص بن وائل السهمى التناضب[1] من أضاة بنى غفار فوق سرف وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبى ربيعة عند التناضب وحبس عنا هشام وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا فى بنى عمرو بن عوف بقباء وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام بن عياش بن أبى ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما؛ حتى قدما علينا المدينة ورسول الله بمكة فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط؛ حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك فرق لها؛ فقلت له: يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، فقال: أبر قسم أمى ولِي هنالك مال فآخذه فقلت: والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً فلك نصف مالى ولا تذهب معهما قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما فلما أبى إلا ذلك قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها؛ فإن رابك من القوم ريب فانجح عليها.

فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا بن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا؛ أفلا تعقبنى على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ وأناخ ليتحول عليهما، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

(١) التناضب: اسم موضع قريب من مكة.

قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفًا ولا عدلاً ولا توبةً قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفى قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣ – ٥٥].

قال عمر: فكتبتها بيدى فى صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص فقال هشام: فلما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى[١] أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها؛ حتى قلت: اللهم فهمنيها، قال: فألقى الله تعالى فى قلبى أنها أنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول فى أنفسنا ويقال فينا قال: فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه فلحقت برسول الله وهو بالمدينة[٢].

هِجْرَةٌ رغْمِ أُنُوفِ المشْرِكِينَ:

عندما أراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يهاجر إلى المدينة وقف أمام المشركين موقفًا أذل فيه أنوفهم وأظهر عجزهم وألقى الرعب فى قلوبهم.

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال لى على بن أبى طالب: ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا متخفيًا إلا عمر بن الخطاب؛ فإنه لَمَّا هَمَّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه، وانتضى فى يديه أسهمًا واختصر عنزته[٣] ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا ثم أتى المقام فصلى ركعتين ثم

(١) بذي طوى: مكان أسفل مكة.
(٢) ابن هشام ١ / ٢٨٧ - ٢٨٨.
(٣) عنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا.

وقف على الحلق واحدة واحدة وقال: لهم شاهت[1] الوجوه؛ لا يرغم الله إلا هذه المعاطس[2] من أراد أن تثكله أمه ويوتم ولده ويرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى.

قال على: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه[3].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

كانت فتنة المسلمين من أ صحاب النبى ﷺ فى مكة فتنة الإيذاء والتعذيب وما يرونه من المشركين من ألوان الهزء والسخرية.

فلما أذن لهم الرسول بالهجرة أصبحت فتنتهم فى ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم.

ولقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم أمام الفتنة الأولى والثانية قابلوا المحن والشدائد بصبر ثابت وعزم عنيد.

وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الذى أخلص الدين لله: لا يبالى بالوطن ولا بالمال والنسب فى سبيل أن يسلم له دينه؛ هذا من أصحاب رسول الله ﷺ فى مكة، أما أهل المدينة الذين آووهم فى بيوتهم وواسوهم ونصروهم فقد قدموا المثل الصادق للأخوة الإسلامية والمحبة فى الله عز وجل[4].

موقف عمر بن الخطاب مع عياش أثناء هجرتهما إلى المدينة فلما قرر عياش العودة إلى مكة؛ ليبر قسم أمه أعطاه عمر بن الخطاب بعيره حتى يعود عليها للمدينة، ثم كتب الآيات القرآنية التى نزلت فى

(١) شاهت: قبحت.

(٢) المعاطس: الأنوف.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٩٢.

(٤) فقه السيرة للبوطي مختصرًا.

القوم الذين عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم.

هذا الموقف يبين لنا ما يجب أن يكون عليه الصـــاحب مع صـــاحبه بأن يساعده على طاعة الله.

* * *

هِجْرَةُ النَّبِيِّ ﷺ

تَأَخُّرُ عَلِيٍّ وَأَبِي بَكْرٍ فِي الهِجْرَةِ:

أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا على بن أبى طالب وأبا بكر الصديق، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فيقول له رسول الله ﷺ : **«لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا»** فيطمع أبو بكر أن يكونه[1].

الإِذْنُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالهِجْرَةِ

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأمر بالهجرة وأنزل عليه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٠] [2].

فِي دَارِ النَّدْوَةِ

وبينما كان النبى ﷺ يعد نفسه للهجرة، وإذا بالمشركين يدبرون تلك المؤامرة الحقيرة لقتل النبى ﷺ، قال الشيخ الغزالى: واجتمعت طواغيت"مكة" فى دار الندوة؛ ليتخذوا قرارًا حاسمًا فى هذا الأمر فرأى بعضهم أن توضع القيود فى يد محمد ﷺ ويشد وثاقه ويرمى به فى السجن لا يصله منه إلا الطعام ويترك على ذلك حتى يموت، ورأى آخر أن ينفى من مكة فلا يدخلها وتنفض قريش يديها من أمره وقد استبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما واستقر الرأى على الاقتراح الذى أبداه "أبو جهل" قال أبو جهل: أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابًا نسيبًا وسطًا فتيًّا، ثم نعطى كل فتى سيفًا صارمًا

(١) ابن هشام ١ / ٢٩٥.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٩٥.

ثم يضربونه - جميعا- ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها، ولا أظن بنى هاشم يقوون على حرب قريش كافة فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها.

ورضى المؤتمرون بهذا الحل للمشكلة التى حيرتهم وانصرفوا؛ ليقوموا على إنقاذه وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠] (١).

بَيْنَ تَدْبِيرِ قُرَيْشٍ وَتَدْبِيرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

وكان هذا مكرًا من قريش ولكنهم ماكروا بذلك الله - سبحانه وتعالى- فخيبهم من حيث لا يشعرون؛ فقد نزل جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ بوحى من ربه تبارك وتعالى فأخبره بمؤامرة قريش وأن الله قد أذن له فى الخروج، وحدد له وقت الهجرة وبين له خطة الرد على قريش فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه، وذهب النبى ﷺ فى الهاجرة (٢) إلى أبى بكر رضى الله عنه؛ ليبرم معه مراحل الهجرة.

قالت عائشة فيما يروى البخارى: فبينما نحن يومًا جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر: فداء له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبى ﷺ : لأبى بكر: «**أخرج من عندك**» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله؟ قال: «**فإن قد أذن لى فى الخروج**»، فقال أبو بكر: الصحبة بأبى أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ : «**نعم**» فقال أبو بكر: فخذ بأبى أنت يا رسول الله ﷺ إحدى راحلتى هاتين؛ راحلتان كانتا عنده علفهما؛ ليصحب رسول الله ﷺ فى الهجرة - قال رسول الله ﷺ : «**بالثمن**».

(١) سيرة الرسول أبو عمار ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) الهاجرة حين يستريح الناس في بيوتهم.

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز وضعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب؛ فبذلك سميت ذات النطاقين[1].

وانطلق رسول الله ﷺ إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدى عن رســـول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده الناس، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شيء يخشى عليه إلا استودعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمون من صدقه وأمانته[2].

الرَّسُولُ ﷺ يُغَادِرُ بَيْتَهُ:

وفى ليلة الهجرة اجتمع المشركون على باب رسول الله ﷺ يرصدونه متى ينام فيثبون عليه؛ فلما رأى رســـول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبى طالب: **«نَمْ على فراشى وتسج[3] ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»** وكان رسول الله ﷺ ينام فى برده ذلك إذا نام.

ثم خرج عليهم رســـول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب فى يده وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤسهم وهو يتلو هـذه الآيـات من: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾ [يس: ١ – ٩].

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات ولم يبق منهم رجل إلا وقد سقط على رأسه التراب ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خيبكم الله! قد والله خرج

(١) النطاق: في طبقات ابن سعد أنها شقت نطاقها فأوكأت بقطعة من الجراب وشدت فم الجراب بالباقي فسميت ذات النطاقين.

(٢) فقه السيرة للبوطي ١٣٩ - ١٤٠، الرحيق المختوم ١٥٣.

(٣) تسج: غطِّ به جسدك ووجهك.

عليكم محمد وانطلق لحاجته أفما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًّا على الفراش – مسجّى ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده؛ فلم يبرحوا كذلك؛ حتى أصبحوا فقام على رضى الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا(١).

فِى غَارِ ثَوْرٍ:

غادر رسول الله ﷺ بيته فى ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة الموافق ١٢/ ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م إلى بيت رفيقه أبى بكر، ثم خرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته؛ ثم عمد إلى غار ثور– جبل أسفل مكة فدخلاه (٢) ولَمَّا علم النبى ﷺ أن قريشًا ستجدُّ فى الطلب وأن الطريق الذى ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسى المتجه شمالاً، فسلك الطريق الذى يضاده تماما وهو الطريق الواقع جنوب مكة والمتجه نحو اليمن؛ ولَمَّا انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: والله لا تدخله؛ حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابنى دونك فدخل فكسحه، ووجد فى جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدها به وبقى منها اثنان فألقمهما رجليه ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه فى حجر أبى بكر، ونام فلدغ أبو بكر فى رجله من الجحر ولم يتحرك مَخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: **«ما لك يا أبا بكر؟»** قال: لُدِغت فداك أبى وأمى فتَفَلَ رسول الله ﷺ فذهب ما يجده.

(١) ابن هشام ١ / ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٢) ابن هشام ١ / ٣٠٠.

وكمنا فى الغار ثلاث ليال ليلة الجمعه وليلة السبت وليلة الأحد، وكان عبد الله بن أبى بكر يبيت عندهما قالت عائشة: وهو غلام شاب ثقف[١] لقن[٢] فيدلج[٣] من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرًا يكتادان[٤] به إلا وعاه؛ حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام وكان يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل، وهو لبن منحتهما ورضيفهما؛ حتى ينعق [٥] بها عامر بن فهيرة يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث، وكان عامر بن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبى بكر بعد ذهابه إلى مكة؛ ليعفى عليه[٦].

مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات ر سول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة، فأول ما فعلوا بهذا الـ صدد أنهم ضربوا عليًّا و سحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة علهم يظفرون بخبرهما.

ولما لم يحصلوا من عليٍّ على جدوى جاءوا إلى بيت أبى بكر، وقرعوا بابه فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر فقالوا لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدرى والله أين أبى؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا- فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها، وقررت قريش فى جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التى يمكن بها القبض على الرجلين؛ فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (فى جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدها إلى قريش حيَّين أو ميتَين كائنًا من كان.

(١) ثقف: حاذق.

(٢) لقن: سريع الفهم.

(٣) فيدلج: فيخرج.

(٤) يكتادان: يطلب لهما فيه المكروه وهو من الكيد.

(٥) ينعق: يصيح.

(٦) الرحيق المختوم ١٥٥ - ١٥٦.

وانطلق مشـركو مكة فى آثار المهاجرين يرصـدون الطرق، ويفتشـون كل مهرب وراحوا ينقبون جبال مكة وكهوفها؛ حتى وصـــلوا إلى باب الغار وأنصـــت الرســول ﷺ وصــاحبه إلى أقدام المطاردين تخفق إلى جوارهم فأخذ الروع أبا بكر وهمس يحدث رسـول الله ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، فقال الرسول: «**يا أبا بكر.. ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» [(١)].

فِى الطَّرِيقِ إِلَى المَدِينَةِ:

وحين خمدت نار الطلب وتوقفت أعمال دوريات التفتيش وهدأت ثائرات قريش بعد ا ستمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى تهيأ ر سول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة.

وكان قد اســـتأجر عبد الله بن أريقط الليثى وكان هاديًا خريتًا [(٢)] وكان على دين كفار قريش وأمناه على ذلك وســـلما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما.

فلما كانت ليلةً الاثنين - غرة ربيع الأول سنة١هـــ/ ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢هـــ جاءهما عبد الله بن أريقظ بالراحلتين ثم ارتحل ر سول الله ﷺ وأبو بكر - ر ضى الله عنه- وارتحل معهما عامر بن فهيرة وأخذ بهم الدليل - عبد الله بن أريقط - على طريق السواحل.

وأول ما ســلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن فى اتجاه الجنوب نحو اليمين ثم اتجه غربًا نحو الســـاحل حتى وصـــل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر و سلك طريقًا لم يكن يـ سلكه أحد إلا نادرًا[(٣)].

(١) الرحيق المختوم ١٥٦، سيرة الرسول أبو عمار ٢٠١.

(٢) خريتا: ماهرا بالطريق.

(٣) الرحيق المختوم ص ١٥٧ مختصرًا.

بَعْضُ مَا وَقَعَ فِي الطَّرِيقِ:

عن أنس رضـــى الله عنه قال: أقبل نبى الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف ونبى الله ﷺ شاب لا يعرف قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذى بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهدينى السـبيل، قال: فيحسـب الحاسـب أنه إنما يعنى: الطريق، وإنما يعنى: سبيل الخير.

فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم فقال: يا رسـول الله هذا فارس قد لحق بنا؛ فالتفت نبى الله ﷺ فقال: **«اللهم اصـــرعه»** فصـــرعه الفرس، ثم قامت تحمهم فقال: يا نبى الله ﷺ مُرْنِى بما شـئت، قال: **«قف مكانك لا تتركَنَّ أحدًا يلحق بنا»** قال: فكان أول النهار جاهدًا على نبى الله ﷺ وكان آخر النهار مسلحة له [1].

وفى اليوم الثانى أو الثالث مَرَّ بخيمتى أم معبد الخزاعية وكانت امرأة برزة جلدة، تحتبى بفناء الخيمة ثم تسـقى وتطعم مَنْ مَرَّ بها فسـألاها: هل عندها شـيء؟ فقالت: والله لو كان عندنا شـيء ما أعوزكم القرى والشـتاء عازب وكانت سنة شهباء.

فنظر رسـول الله ﷺ إلى شـاة فى كسـر الخيمة فقال: **«ما هذه الشـاة يا أم معبد؟»**. قالت: شـاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: **«هل بها من لبن؟»** قالت: هى أجهد من ذلك فقال: **«أتأذنين لى أن أحلبها؟»** قالت: نعم بأبى وأمى إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فمسح رسـول الله ﷺ بيده ضـرعها وسمَّى الله ودعا فتفاجت عليه، ودرَّت فَدَعَا بإناء لها يربض[2] الرهط فحلب فيه؛ حتى علته الرغوة فسـقاها فشـربت؛ حتى رويت وسـقى أصـحابه حتى رووا ثم شـرب وحلب فيه ثانيًا؛ حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها فارتحلوا فما لبث أن جاء

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٢٠٦.
(٢) يربض: يسقى.

زوجها أبو معبد يسوق أعنُزًا عجافًا يتساوكن هزلاً فلما رأى اللبن عجب قال: من أين لك هذا؟ والشاة عازب ولا حلوبة فى البيت؟ فقالت: لا والله.. إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا قال: إنى والله أراه صاحب قريش الذى تطلبه، صفيه لى يا أم معبد فوصفته بصفاته الكريمة و صفًا بديعًا كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا؛ لقد همت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه ولا يرون القائل:

جزى الله رب العرش خير جزائه	**رفيقين حلا خيمتى أم معبد**
هما نزلا بالبر وارتحلا به	**وأفلح من أمسى رفيق محمد**
فيا ليقصى ما زوى الله عنكم	**به من فعال لا يحاذى وسؤدد**
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم	**ومقعدها للمؤمنين بمرصد**
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها	**فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد**

قالت أسماء: ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذا أقبل رجل من الجن أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه حتى خرج من أعلاها قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ وأن وجهه إلى المدينة(١).

من حديث سراقة بن مالك بن جعشم رضى الله عنه قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج إذ أقبل رجل منهم؛ حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إنى قد رأيت آنفا(٢) أسودة(٣) بالساحل أراها محمدًا وأصحابه قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت:

(١) الرحيق المختوم ١٥٨ - ١٥٩.
(٢) آنفا: حالا.
(٣) أسودة: أشخاص

إنهم ليســـوا بهم ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيينا ثم لبثت فى المجلس ســـاعة ثم قمت قد خلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرســـى وهى من وراء أكمة[1]- فتحبســـها على، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضـت عالية؛ حتى أتيت بفرسـى فركبتها فرفعتها تقرب بي؛ حتى دنوت منه فعثرت بي فرسي فخررت عنها [2] فقمت فأهويت يدى إلى كنانتى؛ فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الذى أكره.

فركبت فرســـى - وعصـــيت الأزلام- تقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت[3] يدا فرسى فى الأرض؛ حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضـــت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان[4] ساطع فى السماء مثل الدخان فاســـتقســـمت بالأزلام فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا؛ فركبت فرســـى حتى جئتهما ووقع فى نفســـى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضـــت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ولم يسألانى إلا أن قال: «**أخف عنا**» فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من آدم ثم مضى رسول الله ﷺ [5].

(١) أكمة: ربوة مرتفعة أو تلة.

(٢) فخررت عنها: سقطت عنها.

(٣) ساخت: غاصت.

(٤) عثان: غبار ساطع إلى السماء.

(٥) سيرة الرسول أبو عمار ٢٠٥ - ٢٠٦.

وفى الطريق لقى النبى ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمى ومعه نحو ثمانين بيتًا فأسلم وأسلموا وصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخر فصلوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه؛ حتى قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد، وعن عبد الله بن بريدة أن النبى ﷺ كان يتفاءل ولا يتطير فركب بريدة فى سبعين راكبًا من أهل

بيته من بنى سهم فلقى النبى ﷺ فقال له: «**ممن أنت؟**» قال: من أسلم، فقال: لأبى بكر: سلمنا ثم قال: «**مِنْ بنى مَنْ؟**» قال: من بنى سهم قال: «**خرج سهمك**» [1].

٥- ومر رسول الله ﷺ بأبى أوس تميم بن حجر أو بأبى تميم أوس بن حجر الأسلمى بقحداوات بين الجحفة وهرشى - بالعرج- وكان قد أبطأ عليه بعض ظهره فكان هو وأبو بكر على جمل واحد؛ فحمله أوس على فحل من إبله وبعث معهما غلامًا له اسمه مسعود وقال: اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ولا تفارقهما؛ فسلك بهما الطريق حتى أدخلهما المدينة ثم رد رسول الله مسعودًا إلى سيده، وأمره أن يأمر أوسًا أن يسمَّ - إبله فى أعناقها قيد الفرس وهو حلقتان ومد بينهما مدًّا؛ فهى سمتهم، ولَمَّا أتى المشركون يوم أحد أرسل أوس غلامه مسعود بن هنيدة من العرج على قدميه إلى رسول الله ﷺ يخبره بهم - ذكره ابن ماكولا عن الطبرى وقد أسلم بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة وكان يسكن العرج[2].

٦- وفى الطريق - فى بطن رئم - لقى رسول رسول الله - الزبير وهو فى ركب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام؛ فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثيابًا بياضًا[3].

(١) الرحيق المختوم ص ١٦٠.

(٢) الرحيق المختوم ص ١٦٠.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٢١١.

قُدُومُ النَّبِيِّ ﷺ قبَاء:

وسمع المسلمون بالمدينة بِمَخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه؛ حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم فلما آووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود إلى أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبّضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صـــوته: يا معاشـــر العرب هذا جدكم الذى تنتظرون فثار المســـلمون إلى الســـلاح فتلقوا رســـول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول – سنة ١٤ من النبوة– فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر؛ حتى أصابت الشـــمس رســـول الله ﷺ فأقبل أبو بكر؛ حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رســـول الله ﷺ عند ذلك، قال الإمام ابن المقيم: وسمعت الرَّجّة والتكبير فى بنى عمرو بن عوف وكبر المســـلمون فرحًا بقدومه وخرجوا للقائه فتلقوه وحيّوه بتحية النبوة فأحدقوا به مطيفين حوله والسـكينة تغشـاه والوحى ينزل عليه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤] (١) ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم؛ وقيل: بل على سعد بن خيثمة والأول أثبت، ومكث على بن أبى طالب رضى الله عنه بمكة ثلاثًا؛ حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ثم هاجر ماشيًا على قدميه حتى لحقهما بقباء ونزل على كلثوم بن الهدم(٢).

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٢١١.

(٢) الرحيق المختوم ص ١٦١.

بِنَاءُ مَسْجِدِ قبَاء:

قال ابن إســحاق: فأقام رســول الله ﷺ بقباء فى بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس، وأسـس مسـجده ومسـجد قباء هو أول مسجد بنى فى الإسلام (١).

فلما كان اليوم ا لخامس يوم الجمعة ركب بأمر الله له وأبو بكر ردفه وأرسل إلى بنى النجار أخواله فجاءوا متقلدين سيوفهم فسار نحو المدينة وهم حوله وأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فجمع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى وكانوا مائة رجل(٢).

الدُّخُولُ فِي المدِينَةِ:

ثم ســـار النبى ﷺ بعد الجمعة حتى دخل المدينة، ومن ذلك اليوم سمِّيَت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ ويعبر عنها بالمدينة مختصرًا، وكان يومًا مشهودًا أغر فقد ارتجت البيوت والسـكك بأصـوات الحمد والتسـبيح وتغنت بنات الأنصار بغاية الفرح والسرور:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع (٣)
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبًا يا خير داع

والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: «**خلّوا سبيلها؛ فإنها مأمورة**» فلم تزل سائرة؛ حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم

(١) ابن هشام ١ / ٣٠٨.
(٢) المصدر الأول ١٦١ - ١٦٢.
(٣) الرحيق المختوم ص ١٦٢.

فبركت ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً ثم التفتت ورجعت فى موضعها الأول فنزل عنها، وذلك فى ديار بنى النجار أخواله ﷺ وكان من توفيق الله لها فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ فى النزول عليهم وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله فأدخله بيته فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**المرء مع رحله**» وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فكانت عنده وفى رواية أنس عند البخارى قال نبى الله ﷺ : «**أى بيوت أهلنا أقرب؟**» فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله ﷺ؛ هذه دارى، وهذا بابى قال: «**فانطلق فهيئ لنا مَقِيلاً**» قال: قومَا على بركة الله [1].

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي أَيُّوب :

قال ابن إسحاق: عن أبى رهم السماعى: قال: حدثنى أبو أيوب قال: لَمَّا نزل عليَّ رسول الله ﷺ فى بيتى نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو فقلت له: يا نبى الله بأبى أنت وأمى إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتى، فاظهر أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل، فقال: «**يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سُفل البيت**».

قال: فكان رسول الله ﷺ فى سُفله وكنا فوقه فى المسكن؛ فلقد انكسر حُبّ [2] لنا فيه ماء قمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء؛ تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

قال: وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه؛ نبتغى بذلك البركة حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً أو ثومًا فرده رسول الله ﷺ ولم أر لديه فيه أثرًا قال: فجئته فزعًا فقلت: يا رسول الله ﷺ بأبى أنت وأمى رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك؛ نبتغى بذلك

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٢١٥ - ٢١٦.

(٢) الجرة أو الضخمة منها.

البركة قال: «**إني وجدت فيه ريح هذه الشـــجرة، وأنا رجل أناجى، فأما أنتم فكلوه**» قال: فأكلناه ولم نصنع له تلك الشـجرة بعد، قال ابن إسـحاق: فأقام رسول الله ﷺ فى بيت أبى أيوب؛ حتى بنى له مسجده ومساكنه ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبى أيوب رضى الله عنه(١).

إِصَابَةُ المهَاجِرِينَ بِحُمَّى المدِينَةِ:

وبعد أيام وصـلت إليه زوجته سـودة وبنتاه فاطمة وأم كلثوم وأسـامة بن زيد وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر ومنهم عائشـة وبقيت زينب عند أبى العاص لم يمكنها من الخروج.

قالت عائشـــة: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله فكان بطحان يجرى نجلاً أى: ماء آجنًا.

وقَالَتْ لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلالٌ فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ(٢):

كُـلُّ امْرِئٍ مُصَـــبَّحٌ فِي أَهْلِـهِ ... وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِـــرَاكِ نَعْلِـهِ

وَكَانَ بِلالٌ إِذَا أُقْلِعَ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ يَقُولُ:

أَلا لَيْتَ شِـعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِوَادٍ ... وَحَـوْلِي إِذْخِـرٌ وَجَـلِيـلُ
وَهَـلْ أَرِدَنْ يَـوْمًـا مِـيَـاهَ مَجَنَّـةٍ ... وَهَـلْ يَبْـدُوَنْ لِي شَـــامَـةٌ وَطَفِيـلُ

قَالَ: اللَّهُمَّ الْعَنْ شَـــيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِـنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ، ثُمَّ قَالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا وَصَحِّحْهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ**» (٣)..

(١) ابن هشام (١ / ٣١٠ - ٣١١).
(٢) البخاري ١٨٨٩.
(٣) الرحيق المختوم ١٦٢ - ١٦٣

فاستجاب الله تعالى دعاء النبي وأخرج الحمى إلى الجحفة.

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: **«رَأَيْتُ كَأَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ ثَائِرَةَ الرَّأْسِ خَرَجَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ؛ حَتَّى قَامَتْ بِمَهْيَعَةَ وَهِيَ الْجُحْفَةُ فَأَوَّلْتُ أَنَّ وَبَاءَ الْمَدِينَةِ نُقِلَ إِلَيْهَا»** [(١) (٢)].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

تحمل هجرته ﷺ الكثير من العبر والدلائل والمعجزات ومنها ما يلى:

١- من أبرز ما يظهر لنا من قصة هجرته ﷺ استبقاؤه لأبى بكر رضى الله عنه دون غيره من الصحابة؛ كى يكون رفيقه فى هذه الرحلة وقد استنبط العلماء من ذلك مدى محبة الرسول ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه وأنه أقرب أصحابه إليه وأولاهم بالخلافة من بعده، ولقد عززت هذه الدلالة أمور كثيرة أخرى مثل استخلافه ﷺ له فى الصلاة بالناس عند مرضه، وإصراره على أن لا يصلى عنه غيره ومثل قوله فى الحديث الصحيح: **«لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»** [(٣)].

ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه - كما رأينا- على مستوى هذه المزية التى أكرمه الله بها، فقد كان مثال الصاحب الصادق بل والمضحى بروحه؛ وكل ما يملك ما أجل رسول الله ﷺ ولقد رأينا كيف أبى إلا أن يسبق رسول الله ﷺ فى دخول الغار؛ كى يجعل نفسه فداءً له ﷺ فيما إذا كان فيه سبع أو حية أو أى مكروه ينال الإنسان منه الأذى، ورأينا كيف جند أمواله وابنه وابنته ومولاه وراعى أغنامه فى سبيل خدمة رسول الله ﷺ فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة.

(١) البخاري ٧٠٣٨.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٢٢١.

(٣) مسلم ٧ / ١٠٥.

ولعمرى إن هذا ما ينبغى أن يكون عليه شأن كل مسلم آمن بالله ورسوله ولذا يقول رسول الله ﷺ : «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[1].

٢- قد يخطر فى بال المسلم أن يقارن بين هجرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهجرة النبى ﷺ ويتساءل: لماذا هاجر عمر علانية متحديًا المشركين دون أى خوف ووجل على حين هاجر رسول الله ﷺ مستخفيًا محتاطًا لنفسه؟ أيكون عمر بن الخطاب أشد جرأة من النبى ﷺ ؟!.

والجواب: أن عمر بن الخطاب أو أى مسلم آخر غير رسول الله ﷺ يعتبر تصرفه تصرفًا شخصيًّا لا حجة تشريعية فيه؛ فله أن يتخير من الطرق والوسائل والأساليب ما يحلو له وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى.

أما رسول الله ﷺ فهو مشرِّع؛ أي: أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعًا لنا؛ لذلك كانت سنته هى المصدر الثانى من مصادر التشريع، مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريره فلو أنه فعل كما فعل عمر لحسب الناس أن هذا هو الواجب! وأنه لا يجوز أخذ الحيطة والحذر والتخفى عند الخوف مع أن الله عز وجل أقام شريعته فى هذه الدنيا على مقتضى الأسباب ومسبباتها، وإن كان الواقع الذى - لا شك فيه- أن ذلك بتسبيب الله تعالى وإرادته.

لأجل ذلك استعمل الرسول ﷺ كل الأسباب والوسائل المادية التى يهتدى إليها العقل البشرى فى مثل هذا العمل؛ حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل إلا اعتدَّ بها واستعملها؛ ليوضح بذلك أن الإيمان بالله - عز وجل- لا ينافى استعمال الأسباب المادية التى أرادت حكمة الله عز وجل أن تكون أسبابًا.

(١) متفق عليه.

وفى تخلف على رضـــى الله عنه عن النبى ﷺ فى أداء الودائع التى كانت عنده إلى أصــحابها دلالة باهرة على التناقض العجيب الذى كان المشــركون واقعين فيه، ففى الوقت الذى كانوا يكذبونه ويرونه ساحرًا أو مخادعًا لم يكونوا يجدون من حولهم من هو خير منه أمانة وصــدقًا فكانوا لا يضـعون حوائجهم وأموالهم التى يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدل على أن كفرهم لم يكن بسبب الشك لديهم فى صدقه، وإنما هو بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذى جاء به وخوفا على زعامتهم وطغيانهم.

٤- ثم إننا نلمح فى النشــاط الذى كان يبذله عبد الله بن أبى بكر رضــى الله عنه ذاهبًا آيبًا بين الغار ومكة؛ يتحســس الأخبار وينقلها إلى رســول الله - عز و جل- وأبيه، وفيما عمدت إليه أخته أ سماء من ا لجد في تهيئة الزاد والرحلة وا شتراكها في إعداد العدة لتلك الرحلة نلمح في ذلك صورة مما يجب أن يكون عليه الشباب المسلم ذكورًا ونساءً في سبيل الله عز وجل، ومن أجل تحقيق مبادئ الإســلام وإقامة المجتمع الإســلامى فلا يكفى أن يكون الإنســان منطويًا على نفســه مقتصــرًا على عبادته؛ بل عليه أن يســتنفد طاقاته وأوجه نشاطه كلها؛ سعيًا فى سبيل الإسلام.

أما ما حدث لسراقة وفرسه وهو يلحق برسول الله ﷺ فينبغى أن لا يفوتنا أنها معجزة خارقة لرسول الله ﷺ؛ اتفق أئمة الحديث على صحتها ونقلها وفى مقدمتهم البخارى ومسلم.

ومن أبرز المعجزات الخارقة فى قصــة هجرته ﷺ خروجه ﷺ من بيئته وقد أحاط به المشركون يتربصون به؛ ليقتلوه فقد علق النوم بأعينهم جميعًا؛ حتى لم يحس به أحد منهم، وكان من تتمَّة الســخرية بتآمرهم على حياته ما امتلأت به رؤوسهم من التراب الذى ألقاه رسول الله ﷺ على رسولهم إذ خرج من بينهم وهو يتلو قو له تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس: ٩].

لقد كانت هذه المعجزة بمثابة الإعلان لهؤلاء المشـــركين وغيرهم فى كل عصر ووقت بأن ما قد يلاقيه الرسول وصحبه من ألوان الاضطهاد والعذاب على أيديهم مدَّة من الزمن فى ســـبيل دينه لا يعنى أنه قد تخلى عنهم، وأن النصـــر قد ابتعد عن متناولهم فلا ينبغى للمشـــركين وعامة أعداء الدين أن يفرحوا ويستبشروا بذلك؛ فإن نصر الله قريب، وإن وسائل هذا النصر توشك أن تتحقق بين كل لحظة وأخرى.

وتكشف لنا الصورة التى استقبلت بها المدينة المنورة رسول الله ﷺ عن مدى المحبة الشديدة التى كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً.

وهذا يدلنا أن محبة رسول الله ﷺ ليست في مجرد الاتباع له؛ بل المحبة له هي أســاس الاتباع وباعثه فلولا المحبة العاطفية في القلب لما وجد وازع يحمل على الاتباع في العمل(١).

إلى هنا ينتهي القسـم الأول من حياته ﷺ بعد النبوة - العهد المكي- ونبدأ في القسم الثاني - العهد المدني- حتى وفاته ﷺ وبالله التوفيق.

* * *

(١) فقه السيرة للبوطي ١٤٣ - ١٤٧.

العَهْدُ المَدَنِيُّ

مَرَاحِلُ الدَّعْوَةِ وَالجِهَادِ فِي العَهْدِ المَدَنِيِّ:

يمكن تقسيم العهد المدنى إلى ثلاث مراحل:

١ـ مَرْحَلَةُ تَأْسِيسِ المجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ وَتَمْكِينِ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ:

وقد أثيرت فى هذه المرحلة القلاقل والفتن من الداخل وزحف الأعداء من الخارج؛ ليستأصلوا شأفة المسلمين، ويقلعوا الدعوة من جذورها وقد انتهت هذه المرحلة بتغلب المسلمين وسيطرتهم على الموقف مع عقد صلح الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة.

٢ـ مَرْحَلَةُ الصُّلْحِ مَعَ العَدُوِّ الأَكْبَرِ:

والفراغ لدعوة ملوك الأرض إلى الإسلام وللقضاء على أطراف المؤمرات، وقد انتهت هذه المرحلة بفتح مكة فى رمضان سنة ثمان من الهجرة.

٣ـ مَرْحَلَةُ اسْتِقْبَالِ الوُفُودِ وَدُخُولِ النَّاسِ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا:

وقد امتدت هذه المرحلة إلى وفاة الرسول ﷺ فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة[1].

* * *

(١) الرحيق المختوم ص ١٦٧.

المَرْحَلَةُ الأُولَى: بِنَاءُ المجْتَمَعِ الجَدِيدِ

أُسُسُ المجْتَمَعِ الجَدِيدِ:

لقد كانت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة تعنى نشأة أول دار إسلام إذ ذاك على وجه الأرض؛ وقد كان ذلك إيذانًا بظهور الدولة الإسلامية بإشراف منشئها الأول محمد ﷺ؛ ولذا كان أول عمل قام به الرسول ﷺ أن أقام الأسس الهامة لهذه الدولة ولقد كانت هذه الأسس ممثلة فى هذه الأعمال الثلاثة التالية:

أولاً: بناء المسجد.

ثانيًا: المؤاخاة بين المسلمين عامة والمهاجرين والأنصار خاصة.

ثالثًا: كتابة وثيقة (دستور) حددت نظام حياة المسلمين فيما بينهم وأوضحت علاقتهم مع غيرهم بصورة عامة واليهود بصورة خاصة[1].

أَوَّلاً: بِنَاءُ المسْجِدِ:

بعد وصول النبى ﷺ إلى المدينة وانتقاله إلى بيت أبى أيوب شرع فى بناء المسجد النبوى واختار له المكان الذى بركت فيه ناقته ﷺ فا شتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم فى بنائه بنفسه فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول: **«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»** وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة فى العمل؛ حتى إن أحدهم ليقول: لئن قعدنا والنبى يعمل لذلك منا العمل المضلل.

وكانت فى ذلك المكان قبور المشركين وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقد؛ فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل والشجرة فقطعت، وصفت فى قبلة المسجد وكانت القبلة إلى بيت المقدس وجعلت عضادتاه من حجارة وأقيمت حيطانه من اللبن والطين؛ وجعل سقفه

(١) فقه السيرة للبوطي ١٥١.

من جريد النخل وعمده الجذوع وفرشت أرضه بالرمال والحصباء، وجعلت ثلاثة أبواب، وطوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع.

والجانبان مثل ذلك أو دونه وكان أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع، وبنى بجانبه بيوتًا بالحجر واللبن وسقفها بالجريد والجذوع، وهى حجرات أزواجه ﷺ وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبى أيوب، ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما نافرت بينها النزاعات الجاهلية وحروبها وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات وبرلمان لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون، وقد شرع الأذان فى أوائل الهجرة وقد تشرف برؤيته فى المنام عبد الله بن زيد بن عبد ربه - رضى الله عنه- وقد وافقت رؤياه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- فأقره النبى ﷺ [(١)].

ثَانِيًا: المؤَاخَاةُ بَيْنَ المسْلِمِينَ:

قال ابن القيم: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً؛ نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر[(٢)].

(١) الرحيق المختوم ١٧٤ - ١٧٥.

(٢)الرحيق المختوم ١٧٤ - ١٧٥.

فجعل جعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين، وجعل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين، وجعل أبا بكر الصديق رضى الله عنه و خارجة بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين.. وهكذا[1] عن أبى هريرة - رضى الله عنه- قال: قالت الأنصار للنبى ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال: «**لا**» فقالوا: أتكفونا المؤنة ونشرككم فى الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا.

وعن أنس - رضى الله عنه- أنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع؛ وكان كثير المال فقال سعد: قد علمت الأنصار أنى من أكثرها مالاً؛ سأقسم مالى بينى وبينك شطرين- نصفين- ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقتها؛ حتى إذا حلت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئًا من سمن وأقط[2] فلم يلبث إلا يسيرًا؛ حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وضر من صفرة فقال له رسول الله ﷺ : «**مهيم**» [3] قال تزوجت امرأة من الأنصار قال: «**ما سقت فيها**» ؟" قال وزن نواة من ذهب - أو نواة من ذهب- فقال: «**أَوْلِمْ ولو بشاة**» [4] وظلت عقود هذا الإخاء مقدمة على حقوف القرابة إلى موقعة بدر الكبرى حيث نزل فى أعقابها قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٥] فنسخت هذة الآية ما كان قبلها وانقطع أثر المؤاخاة الإسلامية فى الميراث، ورجع كل إنسان فى ذلك إلى نسبه وذوى رحمه وأصبح المؤمنون كلهم إخوة[5].

(١) فقه السيرة للبوطي ١٥٥ - ١٥٦.
(٢) الأقط: قطع الجبن.
(٣) مهيم: ما شأنك؟!.
(٤) سيرة الرسول أبو عمار ٢٢٥ - ٢٢٦.
(٥) فقه السيرة البوطي ١٥٦.

ثَالِثًا: كِتَابَةُ وَثِيقَةٍ بَيْنَ المسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ:

وكما قام رســـول الله ﷺ بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين قام بعقد معاهدة أزاح بها ما كان بينهم من حزازات فى الجاهلية وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة، واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة وفيما يلى بنودها ملخصًا:

هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمســـلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم:

١- إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٢- المهاجرون من قريش على ربعتهم[١] يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم نفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحًا[٣] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل.

٤- وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٤] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

٥- وإن أيديهم عليه جميعًا ولوكان ولد أحدهم.

٦- ولا يقتل مؤمن مؤمنًا فى كافر.

٧- ولا ينصر كافر على مؤمن.

٨- وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

(١) ربعتهم: حالهم قبل الإسلام.

(٢) عانيهم: أسيرهم.

(٣) مفرحا: المثقل من الدين والعيال.

(٤) دسيعة: عطية.

٩- وإن من تبعنا من يهود فإن له النصـــرة والأســـوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

١٠- وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

١١- وإن المؤمنين يبئ [١] بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله.

١٢- وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن.

١٣- وإنه من اعتبط[٢] مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضـــى ولى المقتول.

١٤- وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

١٥- وإنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

١٦- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شـــيء فإن مردَّه إلى الله - عز وجل- وإلى محمد ﷺ [٣].

أَثَرُ المَعْنَوِيَّاتِ فِي المجْتَمَعِ:

بهذه الحكمة وبهذا التدبير أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد كانت صـــورته الظاهرة بيانًا وآثارًا للمعانى التى كان يتمتع أولئك الأمجاد بفضـــل صـــحبة النبى ﷺ، وكان النبى ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية وتزكية النفوس والحث على مكارم الأخلاق ويؤدبهم بآداب الود والإخاء والمجد والشـــرف والعبادة والطاعة.

(١) يبئ: يمنع ويكف.

(٢) اعتبط: قتله بلا جناية.

(٣) الرحيق المختوم ١٧٦ - ١٧٧.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِــيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً ســأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الاسْلامِ خَيْرٌ قَالَ[1]: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**».

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ[2]: قَدِمَ رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَلَمَّا اســتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُــوا السَّــلامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَــلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ**».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَســُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ[3]:«**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**».

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ[4]:«**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ**».

عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ[5]:«**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**».

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ[6]:«**الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ**».

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ[7]:«**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ**» بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ.

(١) رواه البخاري ١٢.

(٢) رواه الترمذي ١٣٣٤، ابن ماجة ٣٢٥١.

(٣) رواه مسلم ٤٦.

(٤) رواه البخاري ١٠.

(٥) رواه البخاري ١٣.

(٦) رواه مسلم ٢٥٨٦.

(٧) رواه البخاري ٢٤٤٦.

عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ[1]:‹‹**لا تَبَاغَضُوا وَلا تَحَاسَدُوا وَلا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ**››.

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ[2]:‹‹**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**››.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ[3]:‹‹**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتْهُ**››.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ[4]:‹‹**سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فِسْقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**››.

وكان يجعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة ويعدها شعبة من شعب الإيمان، وكان يحثهم على الإنفاق ويذكر من فضائله ما يقع موقعه من القلوب فكان يقول:

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [5]:‹‹**الصَّلاةُ بُرْهَانٌ وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ**››.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ[6]:‹‹**أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَإٍ سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ**››.

(١) رواه البخاري ٦٠٦٥.
(٢) رواه البخاري ٢٤٤٢.
(٣) رواه أحمد ٦٤٥٨.
(٤) رواه أحمد ٤١٦٧.
(٥) رواه الترمذي ٦١٤.
(٦) رواه الترمذي ٢٤٤٩.

عن عَدِيّ بْن حَاتِمٍ رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَــمِعْتُ رَسُــولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ[1]:«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

وبجانب هذا كان يحث حثًا شـديدًا على الاسـتعفاف عن المسـألة، ويذكر فضـــائل الصـــبر والقناعة، ويبين لهم ما فى العبادات من الفضـــائل والأجر والثواب عند الله؛ حتى وصـــلوا إلى أعلى قمة من الكمال عرفت فى تاريخ البشر بعد الأنبياء.

بمثل هذا ا ستطاع النبى ﷺ أن يبنى مجتمعًا جديدًا أروع وأ شرف مجتمع عرفه التاريخ[2].

مُعَاهَدَةٌ مَعَ اليَهُودِ:

بعد أن أرســى رســول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد وأمة إســلامية جديدة بإقامة الوحدة العقدية والسـياسـية والنظامية بين المسـلمين بدأ بتنظيم علاقاته بغير المســلمين وكان قصــده بذلك توفير الأمن والســلام والسـعادة والخير للبشـــرية جمعاء، وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المســـلمين هم اليهود؛ فعقد رسول الله ﷺ معهم معاهدة أهم بنودها ما يلى:

١- إن يهود بنى عوف أ مة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمســـلمين دينهم مواليهم وأنفسهم وكذلك لغير بنى عوف من اليهود.

٢- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤- وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٥- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٦- وإن النصر للمظلوم.

(١) رواه البخاري ٦٠٢٣.

(٢) الرحيق المختوم ١٧٧ - ١٧٨.

٧- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٨- وإن يثرب حرام جوفها؛ لأهل هذه الصحيفة.

٩- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو ا شتجار يخاف فساده؛ فإن مرده إلى الله - عز وجل- وإلى محمد رسول الله ﷺ.

١٠- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

١٢- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

١١- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[1].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

١- أهمية المسجد فى المجتمع الإسلامى؛ فالتقاء المسلمين فى اليوم خمس مرات يؤدى إلى تحقيق العدل والمساواة والتآلف والتآخى بين المسلمين.

٢- إن أى دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخى والمحبة المتبادلة؛ ولذلك حرص ر سول الله ﷺ على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ لتتآلف الأمة وتنهض.

٣- إن التآخى لا بد أن يكون مسبوقًا بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها؛ فالتآخى بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم خصوصًا إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين فى الحياة العملية، ومن أجل ذلك فقد جعل رسول الله ﷺ أساس الأخوة التى جمع عليها أفئدة أصحابه العقيدة الإسلامية التى جاءهم بها من عند الله، والتى تضع الناس كلهم فى مصاف العبودية الخالصة لله - تعالى- دون الاعتبار لأى

(١) الرحيق المختوم ١٨٠.

٤- فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح؛ إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتتهم العقائد والأفكار المختلفة فأصبح كل منهم ملكًا لأنانيته وأثرته وأهوائه(١).

٥- تحمل الوثيقة التى كتبها رسول الله ﷺ مع المسلمين ومع اليهود دلالات مهمة نلخصها فيما يلى:

أ- إن كلمة الدستور هى أقرب إطلاق مناسب فى اصطلاح العنصر الحديث على هذه الوثيقة؛ وهى إذا كانت بمثابة إعلان دستور فإنه شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أى دستور حديث يعنى بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة فى الداخل والخارج أى فيما يتعلق بعلاقة أفراد الدولة مع بعض وفيما يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين.

وهذا دليل على أن المجتمع الإسلامى قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة، وهكذا يؤكد أن الإسلام دين يجمع ما بين العمل والعبادة وليس العبادة فقط.

ب- يدلنا البند الأول من الوثيقة على أن الإسلام - هو وحده- الذى يؤلف وحدة المسلمين وهو وحده الذى يجعل منهم أمة واحدة وعلى أن جميع الفوارق والمميزات فيما بينهم تذوب وتضمحل ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة.

جـ- يدلنا البند الثانى والثالث على أن من أهم سمات المجتمع الإسلامى ظهور معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين بأجلى صوره وأشكاله فهم - جميعًا- مسئولون عن بعضهم فى شئون دنياهم وآخرتهم، وإن عامة أحكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم على أساس هذه المسئولية وتحدد الطرائق التنفيذية لمبدأ التكافل والتضامن فيما بين المسلمين.

(١) فقه السيرة للبوطي ١٥٦ - ١٥٧.

د- يدلنا البند السادس على مدى الدقة فى المساواة بين المسلمين لا من حيث إنها شعار براق للدعاية والعرض؛ بل من حيث ركن من الأركان الشرعية الهامة للمجتمع الإسلامى، ولتطبيق هذه المساواة بين المسلمين ما قرر النبى ﷺ فى هذا البند بقوله: ذمة الله واحدة يجير عليها أدناهم، ومعنى ذلك: أن ذمة المسلم أيا كان محترمة وجواره محفوظ لا ينبغى أن يجار عليه فيه، فمن أدخل من المسلمين أحدًا فى جواره، فليس لغيره حاكمًا أو محكومًا أن ينتهك حرمة جواره هذا والمرأة المسلمة لا تختلف فى هذا عن الرجل إطلاقًا.

روى الشيخان وغيرهما أن أم هانئ بنت أبى طالب ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فقالت: يا رسول الله ﷺ زعم ابن أمى عليٌّ أنه قاتل رجلاً أجرته: فلان ابن هبيرة فقال رسول الله ﷺ : **«قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»**.

هـ- يدلنا البند التاسع فى معاهدة اليهود على أن الحكم العدل الذى لا ينبغى للمسلمين أن يهرعوا إلى غيره فى سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشئونهم إنما هو شريعة الله - تعالى- وحكمه وهو ما تضمنه كتاب الله - تعالى- وسنة رسوله ﷺ.

و- كما تدل معاهدة الرسول ﷺ مع اليهود على مدى العدالة التى اتسمت بها معاملة النبى ﷺ فيما بين المسلمين واليهود ولو لم تتغلب على اليهود طبيعتهم من حب للمكر والغدر والخديعة؛ فما هى إلا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعًا بما تضمنته بنود هذه الوثيقة التى التزموا بها فخرجوا على الرسول ﷺ والمسلمين بألوان من الغدر والخيانة[1].

(١) فقه السيرة للبوطي مختصرًا ١٦٠ - ١٦٣.

أَهَمُّ الأَحْدَاثِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي العَامِ الأَوَّلِ الهِجْرِيِّ:

- بِنَاءُ النَّبِيِّ ﷺ بِالسَّيِّدَةِ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا):

تزوجها رسول الله ﷺ فى شوال، وعمرها ست سنين، وبنى بها فى شوال فى السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين [١].

* * *

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٢٦.

الكِفَاحُ الدَّامِي

اتّصَالُ قُرَيْشٍ بِعَبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيِّ ابنِ سَلُولٍ:

قد أسلفنا ما كان يأتى به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين وما فعلوا بهم عند الهجرة مما استحقوا لأجلها المصادرة والقتال إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيهم ويمتنعوا عن عدوانهم بل زادهم غيظًا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنًا ومقرًّا بالمدينة؛ فكتبوا إلى عبد الله بن أبى ابن سلول وكان إذ ذاك مشركًا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة؛ فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه وكادوا يجعلونه ملكًا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم فى كلمات باتة: إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا وَإِنَّا نُقْسِمُ بِاللَّهِ لَتُقَاتِلُنَّهُ أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَهُمْ فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ تَفَرَّقُوا.

امتنع عبد الله بن أبى ابن سلول عن إرادة القتال عند ذاك لما رأى خورًا فى أصحابه ولكن يبدو أنه كان متواطئًا مع قريش فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين وكان يضم معه اليهود؛ ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هى حكمة النبى ﷺ التى كانت تطفئ نار شرهم حينًا بعد حين(١).

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٠.

إِعْلَانُ عَزِيمَةِ الصَّدّ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ:

ثـم إن سـعد بـن معـاذ انطلـق إلى مكـة معتمـرًا فنـزل علـى أميـة بـن خلـف بمكـة فقـال لأميـة: انظـر لى سـاعة خلـوة لعلـي أن أطـوف بالبيـت فخرج به قريبًا من نصـف النهـار فلقيهمـا أبـو جهـل فقـال: يـا أبـا صـفوان مـن هـذا معـك؟ فقـال: هـذا سـعد، فقـال لـه أبـو جهـل: ألا أراك تطـوف بمكـة آمنًـا وقـد آويـتم الصـباة وزعمـتم أنكـم تنصـرونهم وتعينـونهم؛ أمـا والله لـولا أنـك مـع أبـى صـفوان مـا رجعـت إلى أهلـك سـالمًا فقـال لـه سـعد:- ورفـع صـوته عليـه: أمـا والله لـئن منعتنـى هـذا لأمنعـك مـا هـو أشد عليك منه طريقك على أهل المدينة[1].

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ:

ثم إن قريشًا أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب وسنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم فى عقر داركم.

ولم يكن هذا كله وعيدًا مجردًا فقد تأكد عند رسول الله ﷺ من مكان قريش وإرادتها على الشـر ما كان لأجله؛ لا يبيت إلا سـاهرًا أو فى حرس من الصحابة فقد روى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت: سهر رسـول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: «**ليت رجلاً صـالحًا من أصـحابى يحرسـنى الليلة**» قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشـخشـة سـلاح فقال: «**من هذا؟**» قال: سـعد بن أبى وقاص، فقال له رسـول الله ﷺ : «**ما جاء بك؟**» وقع فى نفسـى خوف على رسـول الله ﷺ فجئت أحرسـه فدعا له رسـول الله ﷺ ثم نام[2] ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالى بل كان ذلك أمرًا مستمرًا،

(١) الرحيق المختوم ١٨٢.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

فقد روى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ [المائدة: ٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة وقال: «**يا أيها الناس انصرفوا عنى فقد عصمنى الله عز وجل**» [١].

ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول الله ﷺ بل على المسلمين كافة، فقد روى أُبيٌّ ابن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه [٢].

الإِذْنُ بِالقِتَالِ:

فى هذه الظروف الخطيرة التى كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة وتنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم، ولا يمتنعون عن تمردهم بحال أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ﴾ [الحج: ٣٩] وأنزل معه آيات يبيِّن لهم فيها أنَّ هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾ [الحج: ٤١].

الإذن مقتصرًا على قتال قريش ثم تطور فيما بعد مع تغير الظروف؛ حتى وصل إلى مرحلة الوجوب وجاوز قريشًا إلى غيرهم [٣].

(١) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٢.

(٣) الرحيق المختوم ١٨٣ - ١٨٤.

الغَزَوَاتُ وَالسّرَايَا قَبْلَ بَدْرٍ[1]:

ولما نزل الإذن بالقتال رأى ر سول الله ﷺ أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيسى الذى تسلكه قريش من مكة إلى الشام فى تجاراتهم واختار لذلك خطتين:

الأولى: عقد معاهدات مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة.

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق.

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال

وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية وكان المطلوب منها كما أشرنا:

- الا ستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة

- عقد المعاهدات مع القبائل التى مساكنها على هذه الطرق.

- إشعار مشركى يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.

- إنذار قريش عقبى طيشها؛ حتى تفيق من غيها الذى لا يزال يتوغل فى أعماقها؛ لعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأ سباب معايشها، فتجنح إلى السلم وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين فى عقر دارهم وعن الصد عن سبيل الله وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين فى مكة؛ حتى يصير المسلمون أحرارًا فى إبلاغ رسالة الله فى ربوع الجزيرة[2].

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي بنفسه غزوة حارب فيها أم لم يحارب، وما خرج فيه أحد قادته سرية.
(٢) الرحيق المختوم ١٨٣ - ١٨٤.

فِيمَا يَلِي أَحْوَالُ هَذِهِ السّرَايَا بِإِيجَازٍ :

١- غزوة الأبواء:

هى أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ وتعرف بغزوة ودان أيضًا- وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية - ولم يقع قتال فى هذه الغزوة بل تمت موادعة[١] بنى ضمرة - من كنانة- وكان الذى وادعه منهم عليهم سيدهم مخشى بن عمرو الضمرى وكانت هذه الغزوة فى صفر٢هـ، وكان عدد المسلمين مائتين بين راكب وراجل[٢].

٢- سرية عبيدة بن الحارث:

وهى أول راية عقدها ﷺ وكان عدد السرية ستين من المهاجرين، وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مائتين ما بين راكب وراجل - وكان قائد المشركين عكرمة بن أبى جهل وقيل: أبو سفيان بن حرب - وحصلت مناوشات بين الطرفين على ماء رابغ، وقد رمى سعد بن أبى وقاص بسهم؛ فكان أول سهم رمى به فى الإسلام، وكانت السرية بعد رجوعه من الأبواء[٣].

٣- سرية حمزة بن عبد المطلب:

بعث ر سول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين فلقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان حليفًا للفريقين فانصرف القوم عن بعض فلم يقتتلوا [٤].

(١) موادعة: معاهدة.

(٢) ابن هشام (١ / ٣٥٨ - ٣٥٩)، السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٢٤).

(٣) ابن هشام (١ / ٣٥٩ - ٣٦٠)، السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٢٤).

(٤) ابن هشام (١ / ٣٦٠).

٤- غزوة بواط :

خرج رسـول الله ﷺ فى شـهر ربيع الأول من السـنة الثانية للهجرة فى مائتين من أصـحابه، وكان مقصـده أن يعترض عيرًا لقريش كان فيها أمية بن خلف فى مائة رجل وألفين وخمسـمائة بعير فلم يلق النبى ﷺ كيدًا فرجع إلى المدينة [١].

٥- غزوة العشيرة:

غزا الرسول ﷺ قريشًا لاعتراض قوافلها التجارية وكان معه مائة وخمسون من أصـحابه فبلغ العشـيرة بناحية ينبع، فأقام بها جمادى الأولى، وليالى من جمادى الآخرة وفاتته العير ووادع فى هذه الغزوة بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم عاد إلى المدينة، ولم يلق حربًا [٢].

٦- سرية سعد بن أبى وقاص إلى الخرار:

بلغ النبى ﷺ أن عيرًا لقريش فى طريقها إلى مكة، وأنها قد أخذت طريق الخرار[٣] فانتدب سعد بن أبي وقاص لقيادة سرية لاعتراضها يقول سعد: "فخرجت فى عشرين رجلاً أو إحدى وعشرين على أقدامنا نكمن بالنهار ونسير بالليل؛ حتى صبحناها صبح خمس فنجد العير قد مرَّت بالأمس، وقد كان النبى ﷺ عهد إليَّ ألا أجاوز الخرار ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم"[٤].

٧- غزوة سفوان:

سببها أن كُرز بن جابر الفهرى أغار على سرح [٥] المدينة فخرج رسول الله ﷺ فى طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة؛ حتى بلغ واديًا يقال له: سفوان من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر؛ فلم يدركه وهى غزوة بدر الأولى

(١) السيرة النبوية للصلابي (١ /٤٤٣).
(٢) ابن هشام (١ / ٣٦٣)، سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٦.
(٣) الخرار: موضع بالحجاز قرب الجحفة.
(٤) سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٦.
(٥) سرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة[1].

٨- سرية عبد الله بن جحش:

فى رجب سنة ٢هـــ بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين إلى نخلة[2] وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابًا، وأمره أن ينظر فيه؛ حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحد.

فســار عبد الله يومين ثم قرأ الكتاب فإذا فيه: "إذا نظرت فى كتابى هذا فامض؛ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم" فقال: سمعًا وطاعة ثم قال لأصــحابه: قد أمرنى رســول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحدًا منكم فمن كان منكم يريد الشــهادة فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد غيرَ أنه لما كان فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه متخلفًا فى طلبه.

وســار عبد الله بن جحش؛ حتى نزل بنخلة فمرت عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة وفيها عمرو بن الحضــرمى وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة فتشاور المسلمون وقالوا: نحن فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ثم اجتمعوا على اللقاء؛ فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله، وأســروا عثمان والحكم وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأســيرين إلى المدينة وقد عزلوا من ذلك الخمس لرسول الله ﷺ وهو أول خمس فى الإسلام،

(١) ابن هشام (١ / ٣٦٣).

(٢) نخلة: اسم مكان.

والحضـــرمى أول قتيل فى الإســـلام، وعثمان والحكم أول أســـيرين فى الإسلام أنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه وقال: **«ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام»** وتوقف عن التصرف فى العير والأسيرين.

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله، وكثر فى ذلك القيل والقال؛ حتى نزل الوحى حاسمًا هذه الأقاويل وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٧] أى: إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم وفتنتهم للمسلمين في دينهم حتى يردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم أكبر عند الله من القتل؛ فلما نزل القرآن بهذا الأمر قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت قريش للرسول ﷺ فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال ﷺ : **«لا نفديكموهما؛ حتى يقدم صاحبانا – يعنى: سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان– فإن نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم»** فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله ﷺ منهم(1).

النّتَائِجُ وَالدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ مِنَ الغَزَوَاتِ وَالسّرَايَا:

١- إشـــراك الرســـول ﷺ للمهاجرين فى هذه الغزوات والســـرايا إحياءً لقضيتهم فى أنفسهم أولاً وإنهاكًا للاقتصاد القريشى ومحاصرته واستعادة لبعض الحقوق المسلوبة.

٢- حققت هذه الغزوات والسرايا نتائج وأهدافًا مهمة منها:

(١) ابن هشام (١ / ٣٦٣ - ٣٦٦)، الرحيق المختوم ١٨٧ - ١٨٨.

(١) إدراك أعداء الإسلام لقوة المسلمين؛ فالجيش الإسلامى لا يتوقف ليلاً ونهارًا مما جعل الجميع يعمل ألف حساب قبل أن تحدثه نفسه بغزو المدينة أو مناصرة أحد من الأعداء عليها.

(ب) ضرب المصالح الاقتصادية لقريش وقطع طرق تجارتها خصوصًا إلى الشام.

(ج) كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب فقد حالف رسول الله ﷺ قبيلة (جهينة) وغيرها من القبائل كانت تتعاون مع قريش فأصبحت هذه القبائل تمثل خطرًا على قريش.

كما قام النبى ﷺ بتحجيم دور الأعراب الذين يفرضون إتاوات على القبائل المارة بمناطق نفوذهم ولكن رسول الله ﷺ طاردهم فى غزوة سفوان (بدر الصغرى) فلم يستطيعوا مهاجمة المدينة ودخلوا فى اتفاقات مع المسلمين.

(د) تدريب الصحابة على إتقان فنون القتال وقد ساعد ذلك على إعداد الذين ساهموا فى تحقيق الكثير من الفتوحات مثل أبى عبيدة بن الجراح قائد فتوحات الشام سعد بن أبى وقاص صاحب القادسية وفاتح المدائن وغيرهم الكثير.

(هـ) حققت سرية عبد الله بن جحش نتائج مهمة وفيها دروس وعبر وفوائد عظيمة منها:

١- كتب رسول الله ﷺ كتابًا لعبد الله بن جحش وأمره أن لاينظر فيه حتى يسير يومين لبيان أهمية إخفاء الخطط الحربية ومنها خط السير حتى يكون الجيش فى أمان من الأعداء.

كما تظهر آثار التربية النبوية فى هذه السرية من خلال طاعة قائد السرية لأوامر رسول الله ﷺ دون تردد معطيًا من نفسه القدوة الحسنة لجنوده وهو يقول لهم: فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع؛ فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ وساروا إلى منطقة أعدائهم

و تجاوزو ها؛ حتى أصـــبحوا من ورائهم و هذا دليل على قوة إ يمانهم وتضــحيتهم بأنفســهم فى ســبيل الله كما يدل على مدى الدقة التى تمت بها العملية.

٢- ا ستغلال قريش للقتال فى الشهر الحرام وقامت بالتشهير بر سول الله ﷺ وأصحابه وقالت قريش:" قد ا ستحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال.

كما قام اليهود - كعادتهم- بتصـــعيد الموقف وقالوا: إن الحرب واقعة لا محالة بين المســلمين وقريش إلى أن نزلت الآيات ترد بقوة على دعايات قريش المغرضة موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال؛ ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك حرمات الله وصد عن سبيله.

٣- حرص القائد على سلامة جنوده:

فعندما تخلف سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بسبب بحثهما عن بعير لهما رفض ر سول الله ﷺ أن يرد الأ سيرين لقريش قبل أن يعود سعد وعتبة؛ مخافة أن توقع قريش أى ضرر بهما؛ حرصًا عليهما [١].

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٤٤ - ٤٥٥).

غَزْوَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى

تشتمل غزوة بدر على أربعة عناصر رئيسية:

١- مرحلة ما قبل المعركة.

٢- فى قلب المعركة.

٣- ما بعد المعركة.

٤- النتائج والدروس المستفادة من المعركة.

أَوَّلاً: مَرْحَلَةُ مَا قُبَيْلِ المعْرَكَة:

- سبب الغزوة:

بلغ المسلمين تحرك قافلة تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالاً عظيمة لقريش تقدر بحوالى ٥٠ ألف دينار يقودها أبو سفيان بن حرب ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلاً، فأرسل رسول الله ﷺ بسبس بن عمرو؛ لجمع المعلومات عن القافلة فلما عاد بسبس بالخبر اليقين ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج وقال لهم: «**هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**» وكان خروجه من المدينة فى اليوم الثانى عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ولم تكن نية رسول الله ﷺ قتالاً، وإنما كان قصده عير قريش وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفى الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة وخاصة أن جزءًا من الأموال الموجودة فى القوافل القرشية ملك للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلمًا وعدوانًا.

وقد تخلف كثير من الصحابة فى المدينة وهم يحسبون أن مضى رسول الله ﷺ فى هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه فى السرايا والغزوات الماضية، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه فى هذه الغزوة [1].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣ - ٤)، الرحيق المختوم ١٩٠.

قُوَّةُ الجَيْشِ الإِسْلاَمِيِّ وَتَوْزِيعُ القِيَادَاتِ:

وا ستعد ر سول الله ﷺ للخروج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً (٣١٣ أو٣١٤ أو٣١٧رجلاً)، ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و٦١من الأوس و١٧٠ من الخزرج..

ولم يستعد لهذا الخروج استعدادًا بليغًا فلم يكن معهم إلا فرس أو فرسان؛ فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد بن الأسود الكندى، و كان معهم سبعون بعيرًا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله ﷺ وعلى ومرثد بن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرًا واحدًا.

وا ستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم كلثوم فلما كان بالروحاء ردَّ أبا لبابة بن عبد المنذر واستعمله على المدينة، ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير وكان اللواء أبيض وقسم جيشه إلى كتيبتين:

١- كتيبة المهاجرين: وأعطى رايتها على بن أبى طالب ويقال لها: العقاب.

٢- كتيبة الأنصار: وأعطى رايتها سعد بن معاذ (و كانت الرايتان سوداوين).

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو- الفارسين- وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة، وظلت القيادة العامة فى يده ﷺ كقائد أعلى الجيش [١].

الجَيْشُ الإِسْلاَمِيُّ يَتَحَرَّكُ نَحْوَ بَدْرٍ:

وسار رسول الله ﷺ فى هذا الجيش غير المتأهب فخرج من نقب المدينة ومضى على الطريق الرئيسى المؤدى إلى مكة؛ حتى بلغ بئر الروحاء فلما ارتحل منها ترك طريق مكة إلى اليسار وانحرف ذات اليمين على النازية يريد

(١) الرحيق المختوم ١٩٠ - ١٩١.

بدرًا ومر على مضيق الصفراء وبالقرب من الصفراء بعث بسبس بن عمرو الجهنى، وعدى بن أبى الزغباء الجهنى إلى بدر يتحسسان له أخبار العير[1].

حِرْصُ أَبِي سُفْيَانَ وَوُصُولُ رَسُولِهِ إِلَى مَكَّةَ:

بلغ أبا سفيان خبر مسير النبى ﷺ بأصحابه من المدينة؛ لاعتراض قافلته فبادر إلى تحويل مسارها إلى الطريق الساحلى، وقد كان حذرًا يسأل عن أخبار المسلمين وعن تحركاتهم فقد تقدم إلى بدر بنفسه وسأل من كان هناك هل رأيتم من أحد؟ قالوا: لا، إلا رجلين قال: أرونى مناخ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر ففته فإذا هو فيه النوى فقال: هذا والله علائف يثرب فشعر بخطورة الموقف، فأرسل عمرو بن ضمضم الغفارى الذى وصل إلى مكة، وأخذ يصرخ ببطن الوادى واقفًا على بعيره وجدع أنف [2] بعيره، وحول رحله وشق قميصه وهو ينادى بأعلى صوته: يا معشر قريش اللطيمة [3] اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها الغوث.. الغوث[4].

اسْتِعْدَادُ أَهْلِ مَكَّةَ لِلْغَزْوِ:

تحفز الناس سراعًا فكانوا بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة مقابل دين عليه، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى فلم يخرج منهم أحد[5].

(١)الرحيق المختوم ١٩٠ - ١٩١.
(٢) جدع أنفه: القطع البائن في الأنف والأذن ونحوها.
(٣) اللطيمة: الإبل التي تحمل الطيب.
(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥ - ٦).
(٥) ابن هشام (١ / ٣٧١)، الرحيق المختوم ص ١٩١.

قوَامُ الجَيْشِ المَكِّيِّ:

كان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل فى بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة درع وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش فكانوا ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا من الإبل(١).

إبْلِيسُ يُغْرِى قُرَيْشًا بِالخُرُوجِ:

لَمَّا أجمعت قريش المسير ذكرت الذى كان بينها وبين بنى بكر من عداوة؛ فكان ذلك يثنيهم فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك، وكان من أشراف بنى كنانة فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه فخرجوا سراعًا(٢).

نَجَاةُ أَبِي سُفْيَانَ:

استطاع أبو سفيان النجاة بقافلته وأرسل إلى قريش طالبًا منهم العودة فقال أبو جهل ابن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، وكانت موسم من مواسم العرب - فنقيم عليه ثلاثًا فننحر الجزر (٣) ونطعم الطعام ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان(٤) وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها فامضوا (٥).

هَمُّ الجَيْشِ المَكِّيِّ بِالرُّجُوعِ وَوَقُوعُ الانْشِقَاقِ فِيهِ:

ولما تلقى جيش مكة هذه الرسالة هم بالرجوع لولا مقولة أبى جهل إلا أن الأخنس ابن شريق حليف بنى زهرة رفض الاستمرار وعاد ببنى زهرة،

(١) الرحيق المختوم ص ١٩٢.
(٢) ابن هشام (١ / ٣٧٢ - ٣٧٣).
(٣) الجزر: ما يذبح من الإبل.
(٤) القيان: الجواري المغنيات.
(٥) ابن هشام (١ / ٣٧٩ - ٣٨٠).

وكانوا حوالى ثلاثمائة رجل، وأرادت بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال: لا تفارقنا هذه العصــابة حتى نرجع فســار الجيش وقوامه ألف مقاتل؛ حتى نزلوا بالعدوة القصوى على حدود وادى بدر[1].

مُشَاوَرَةُ النَّبِيِّ ﷺ لأَصْحَابِهِ:

لَمَّا بلغ النبى ﷺ نجاة القافلة وإصرار زعماء مكة على القتال استشار رسول الله ﷺ أصحابه فى الأمر، وأبدى بعضهم عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش؛ حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال: ٥ – ٨].

أما قادة الجيش فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رســول الله ﷺ امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون؛ فوالذى بعثك بالحق لو ســرت بنا إلى برك الغماد[2] لجالدنا معك من دونه؛ حتى تبلغه فدعا له رسول الله ﷺ.

وبعد ذلك عاد رســول الله ﷺ فقال: «**أشـيروا على أيها الناس**» وكان يريد الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن فى ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسـول ﷺ خارج المدينة فأدرك الصـحابى سـعد بن معاذ مقصـد النبى ﷺ من ذلك فنهض قائلا: والله يكأنك تريدنا يا رســول الله؟ قال ﷺ: «**أجل**» فقال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق

(١) الرحيق المختوم ١٩٢ - ١٩٣ مختصرًا.

(٢) برك الغماد: موضع بناحية اليمن، وقيل: مدينة بالحبشة.

وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك؛ فامض يا رسول الله ﷺ لما أردت، فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك؛ ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء؛ لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك فَسِرْ على بركة الله.

فسرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: «**سيروا وأبشروا؛ فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم**» [1].

مُوَاصَلَةُ السَّيْرِ وَجَمْعُ المعْلُومَاتِ عَنِ العَدُوِّ:

واصل رسول الله ﷺ سيره للقاء العدو، ونزل بالقرب من بدر، وهناك قام ﷺ بنفسه ومعه أبو بكر باستكشاف أحوال الجيش المكى، وبينما هما يتجولان فى تلك المنطقة لقيا شيخًا من العرب فسأله رسول الله ﷺ عن جيش قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه من أخبارهم فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبرانى مِمَّن أنتما؟ فقال له: رسول الله ﷺ : «**إذا أخبرتنا أخبرناك**» فقال: أو ذاك بذا؟ قال ﷺ : «**نعم**» فقال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا؛ فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى به جيش المسلمين، وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذى فيه جيش المشركين فعلاً، ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما فأخبرانى من أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ وأبو بكر: «**نحن من ماء**»، ثم انصرف النبي وأبو بكر عن الشيخ وبقى هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ وفى مساء ذلك اليوم الذى خرج فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر؛ لمعرفة أخبار عن جيش قريش [2].

(١) ابن هشام (١ / ٣٧٥ - ٣٧٦)، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٦ - ٨).

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٨ - ٩).

فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ وهو فى الصلاة فاستخبرهما القوم فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء؛ فكره القوم ورجوا أن يكون لأبى سفيان فضربوهما ضربًا موجعًا حتى اضطر الغلامان أن يقولا: نحن لأبى سفيان فتركوهما.

ولما فرغ رسول الله ﷺ قال لهم كالعاتب: **«إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله؛ إنهما لقريش»** ثم خاطب الغلامين قائلا: **«أخبرانى عن قريش»** قالا: هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى فقال لهما: **«كم القوم؟»** قالا: كثير، قال: **«ما عدتهم»** ؟" قالا: لا ندرى، قال: **«كم ينحرون كل يوم»** ؟ "قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ : **«القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف»** ثم قال لهما: **«فمن فيهم من أشراف قريش»** ؟ قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو البخترى بن هشام وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدى، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف فى رجال سمياهم، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: **«هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»** (١).

مَشُورَةُ الحُبابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

خرج رسول الله ﷺ بجيشه؛ ليسبق المشركين إلى ماء بدر، فنزل أدنى ماء من ماء بدر فقام الحباب بن المنذر وقال:يا رسول الله ﷺ أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله الله؛ ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ : **«بل هو الرأى والحرب والمكيدة؟»** فقال: يا رسول الله ﷺ فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور(٢) ما وراء من القلب(٣) ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم

(١) الرحيق المختوم ١٩٤ - ١٩٥.
(٢) غور: خرب أو هدم.
(٣) القلب: الآبار.

فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ : «**لقد أشرت بالرأي**» فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار؛ حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضًا على القليب الذى عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية [1].

بِنَاءُ العَرِيشِ:

واقترح سعد بن معاذ بناء عريش قائلا: يا نبى الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه؟ ونعدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن أشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، ثم بُني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه[2].

نِعَمُ اللَّهِ عَلَى المسْلِمِينَ قَبْلَ القِتَالِ:

قد أنعم الله على عباده المؤمنين ببعض النعم قبل أن يلتحموا مع أعدائهم قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال: ١١].

فأنعم عليهم بالنعاس؛ ليقويهم على القتال ويزيل الرعب من قلوبهم كما أنعم عليهم بالمطر فى وقت لم يكن المعتاد فيه نزول المطر.

عن ابن عباس قال: إن المشركين من قريش لما خرجوا؛ لينصروا العير وليقاتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه؛ فأصاب المؤمنين الظمأ فجعلوا يصلون مجنبين محدثين حتى تعاطوا ذلك فى صدورهم فأنزل

(١) ابن هشام (١ / ٣٨٠ - ٣٨١).

(٢) ابن هشام (١ / ٣٨١).

الله من السماء ماء؛ حتى سال الوادى فشرب المؤمنون وملأوا الأ سقية، وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله فى ذلك طهورًا وثبت به الأقدام وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها فثبتت(١).

مَوْقِفُ المشْرِكِينَ لَمَّا قَدِمُوا إِلَى بَدْرٍ:

لما وصل جيش مكة إلى بدر دب فيهم الخلاف وتزعزعت صفوفهم الداخلية، فعن ابن عباس رضى الله عنه قال: لما نزل المسلمون وأقبل المشركون نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة وهو على جمل أحمر فقال: «**إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا**» وهو يقول: «**يا قوم أطيعونى فى هؤلاء القوم فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك فى قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه فاجعلوا حقها برأسى وارجعوا**»، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره(٢) حين رأى محمدًا وأ صحابه؛ إنما محمد وأ صحابه أكلة جزور لو قد التقينا.

فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه؛ أما والله إنى لأرى قومًا يضربونكم ضربًا أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعى، وكأن وجههم السيوف، ثم دعا أخاه وابنه فخرج يمشى بينهما ودعا بالمبارزة (٣).

* * *

(١) ابن كثير ٢/٩٠.

(٢) سحرك: رئتك، يقال ذلك للجبان.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٢ - ١٣)، سيرة الرسول أبو عمار ٢٥٢ - ٢٥٣.

ثَانِيًا: فِي قَلْبِ المعْرَكَةِ

خُطَّةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي المعْرَكَةِ:

ابتكر رسول الله ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدر أسلوباً جديداً في مقاتلة أعداء الله وهذا الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ٤ ﴾ [الصف: ٤].

قاتل ﷺ بنظام الصفوف، وهذا الأسلوب لم يكن معروفًا من قبل على أن تكون الصفوف الأولى من أصحاب الرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف التى خلفها من أصحاب النبال لتسديدها من المهاجمين على الأعداء.

أمر رسول الله ﷺ أصحابه برمى الأعداء إذا اقتربوا منهم؛ لأن الرمى يكون أقرب إلى الإصابة فى هذه الحالة: **«إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل»** كما أمرهم ﷺ بالاقتصاد فى الرمى: **«واستبقوا نبلكم»** ونهاهم ﷺ عن سل السيوف إلى أن تتداخل السيوف: **«ولا تسلوا السيوف؛ حتى يغشوكم»** كما حرص رسول الله ﷺ على الاستفاده من الظروف الطبيعية فى المعركة؛ حيث جعل الشمس خلفه واستقبل المغرب حتى لا تؤثر الشمس على رؤية الصحابة [(١)].

سَوادُ بنُ غزيةَ فِي الصُّفُوفِ:

وبينما رسول الله ﷺ يعدل الصفوف كان فى يده سهم يعدل به الصف فرأى رجلاً اسمه سواد بن غزية؛ وقد خرج من الصف فطعنه ﷺ فى بطنه وقال له: **«استو يا سواد»** فقال: يا رسول أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى، فكشف ﷺ عن بطنه وقال: **«استقد»** فاعتنقه فقبل بطنه فقال: **«ما حملك على هذا يا سواد؟»** قال: يا رسول الله ﷺ حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك فدعا له رسول الله ﷺ بخير[(٢)].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٩ - ٢٠).

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٩ - ٢٠).

تَحْرِيضُ المسْلِمِينَ عَلَى القِتَالِ:

كان ﷺ يربى أصحابه على أن يكونوا أصحاب إرادات قوية فيملأ قلوبهم شـــجاعة وجرأة وأملاً فى النصـــر على الأعداء، وكان يحثهم على القتال ويحرضـــهم عليه؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٥] وفى غزوة بدر الكبرى قال ﷺ لأصـحابه: «**قوموا إلى جنة عرضـها السـماوات والأرض**» فقال عمير بن الحمام الأنصارى: يا رسـول الله ﷺ جنة عرضـها السـماوات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخ بخ فقال ﷺ : «**ما يحملك على قولك: بخ بخ**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**» فأخرج تمرات من قرنه [١] فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم؛ حتى قتل.

كما كان ﷺ يبشر أصحابه بقتل صناديد المشركين قائلا: «**هذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله**» وكان ﷺ يبشرهم بالنصر قبل بدء القتال قائلاً: «**والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صـابرًا محتسـبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**» [٢].

دُعَاءُ الرّسُولِ ﷺ وَاسْتِغَاثَتُهُ:

لما نظم الرسول ﷺ جيشه وأصدر أوامره لهم وحرضهم على القتال رجع إلى العريش الذى بني له ومعه صاحبه أبو بكر رضى الله عنه، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه اتجه الرسول ﷺ إلى ربه ينا شده النصـــر قائلا فى دعائه: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ**

(١) قرنه: جعبة النشاب.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢ - ٢٤).

مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ» فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩].

وروى ابن إسحاق أنه ﷺ قال[1]: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتني**».

جَيْشُ المسْلِمِينَ وَالشَّرَارَةُ الأُولَى لِلْمَعْرَكَةِ:

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل فى ذلك اليوم فقال: "اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فأحنه الغداة، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم وفى ذلك أنزل الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٩].

وكان أول من أشعل نار المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومى كان رجلاً شرسًا سيئ الخلق، خرج قائلا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه فلما خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فلما التقيا ضربه حمزة فأطن[2] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب[3] رجله دمًا نحو أصحابه ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبر يمينه وأتبعه حمزه فضربه؛ حتى قتله فى الحوض[4].

(١) المصدر نفسه (٢ / ٢٤).

(٢) فأطن: أطار.

(٣) تشخب: تسيل بصوت.

(٤) الرحيق المختوم ١٩٩ - ٢٠٠.

التِقَاءُ الفَرِيقَيْنِ:

وبعد ذلك خرج ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فلما انفصلوا من الصف دعوا إلى المبارزة فخرج إليهم ثلاثة من شبان الأنصار عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: أكفاء كرام ما لنا بكم حاجة؛ وإنما نريد بنى عمنا ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا.. أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله ﷺ : «**قم يا عبيدة بن الحارث وقم يا حمزة وقم يا على**» فلما قدموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم: فأخبروهم فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فبارزه عبيدة وكان أسن القوم عتبة ابن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز على الوليد، فأما حمزة وعلى فلم يمهلا قرينهما أن قتلاهما وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كر على وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة، وقد قطعت رجله فلم يزل مريضًا؛ حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر حينما كان المسلمون فى طريقهم إلى المدينة، وقد قال عنه ﷺ : «**أشهد إنك شهيد**» وفى هؤلاء الستة نزل قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٤].

فاستشاط غضب المشركين وكروا على المسلمين كرة رجل واحد، أما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم واستغاثوه تلقوا هجمات المشركين المتتالية وهم مرابطون فى موقعهم واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين

خســـائر فادحة وهم يقولون: أحد أحد، وكانت وقعة بدر صـــبيحة يوم الجمعة سبع عشرة من شهر رمضان[1].

نُزُولُ المَلاَئِكَةِ:

ثبت من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ومرويات عدد من الصحابة البدريين شهود الملائكة موقعة بدر قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٦].

وعن ابن عباس - رضـــى الله عنهما- إن النبى ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**» [2] وفى رواية ابن إ سحاق قال ر سول الله ﷺ : «**أبشـــر يا أبا بكر أتاك نصـــر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرســـه يقوده وعلى ثناياه النقع**» [3].

وعن علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال: جاء رجل من الأنصار قصير بالعباس ابن عبد المطلب أســيرًا فقال العباس: يا رســـول الله إن هذا والله ما أسرنى؛ لقد أسرنى رجل أجلح[4] من أحسن وجهًا على فرس أبلق[5] ما أراه

(١) ابن هشام (١ / ٣٨٥ - ٣٨٦).

(٢) البخاري ٣٩٩٥.

(٣) النقع: الغبار، رواه ابن هشام وسنده حسن.

(٤) أجلح: الذي انحسر شعره على جانبي رأسه.

(٥) أبلق: الذي ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

فى القوم فقال الأنصارى: أنا أسرته يا رسول الله فقال ﷺ : «**اسكت فقد أيدك الله بملَكٍ كريم**» [1] وعن أبى داود المازنى قال: إنى لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى فعرفت أنه قتله غيرى[2].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه و صوت الفارس يقول: أقدم حيزوم[3] فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا فنظر إليه فإذا هو خطم أنفه[4]، و شق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ : صدقت ذلك مدد السماء الثالثة[5].

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى:

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش وهو يثب فى الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥] ثم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشًا وقال: «**شاهت الوجوه**» ورمى بها فى وجوههم فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم فى رمية الرسول ﷺ وفى ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: ١٧] [6].

(١) رواه أبو داود وإسناده صحيح.
(٢) أخرجه ابن هشام وغيره في المسند.
(٣) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك.
(٤) خطم أنفه: الأثر على الأنف.
(٥) أخرجه مسلم، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٩ - ٣١)، سيرة الرسول أبو عمار ٢٦١ - ٢٦٣.
(٦) ابن كثير (٢ / ٩٣ - ٩٤).

انْسِحَابُ إِبْلِيسَ مِنْ مَيْدَانِ المعْرَكَةِ:

لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين فرَّ ونكص على عقبيه[1] وتشبث به الحارث بن هشام وهو يظنه سراقة بن مالك، فوكز فى صدر الحارث فألقاه، ثم خرج هاربًا، وقال له المشركون: إلى أين يا سراقة؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا لا تفارقنا؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨] ثم فر حتى ألقى نفسه فى البحر[2].

نَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ أَصْحَابَهُ عَنْ قَتْلِ بَعْضِ المشْرِكِينَ:

نهى رسول الله ﷺ أصحابه عن قتل رجال من بنى هاشم قد أخرجوا كرهًا، كما نهى عن قتل العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ؛ لأنه أخرج مستكرهًا، ونهى عن قتل أبى البخترى بن هاشم؛ لأنه كان ألف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان يؤذيه وكان ممن قام بنقض الصحيفة التى كتبتها قريش على بنى هاشم وبنى عبد المطلب[3].

* * *

(١) نكص على عقبيه: رجع كما كان قد اعتزمه.

(٢) الرحيق المختوم ٢٠٢.

(٣) ابن هشام (١ / ٣٨٩ - ٣٩٠).

مَشَاهِدُ مِنَ المعْرَكَةِ

أَوَّلاً: مَصَارِعُ الطُّغَاةِ:

مَصْرِعُ أَبِي جَهْلٍ:

قال عبد الرحمن بن عوف - رضـى الله عنه: إنى لفى الصـف يوم بدر إذ التفتُّ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن، فكأنى لم آمن بمكانهما؛ إذ قال لى أحدهما سـرًا من صـاحبه: يا عم أرنى أبا جهل، فقلت: يا بن أخى فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، قال: والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سـوادى سـواده؛ حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك قال: وغمزنى الآخر فقال لى مثلها فلم أنشب[1] أن نظرت الى أبى جهل يجول فى الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه، قال: فابتدراه فضرباه؛ حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فقال: **«أيكما قتله؟»** فقال: كل واحد منهما: أنا قتلته قال: **«هل مسحتما سيفيكما»** فقالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال: **«كلاكما قتله»** وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء.

وقال ابن إسـحاق: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم وأبو جهل فى مثل الحَرَجة أي: الشـجر الملتف؛ نظرًا لإحاطة المشـركين بسـيوفهم ورماحهم حوله لحفظه؛ وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شـأنى فصـمدت[2] نحوه فلما أمكننى حملت عليه فضـربته ضربة أطنت قدمه[3] بنصف ساقه؛ فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح[4] من تحت مرضخة[5] النوى حين يضرب بها، قال: وضربنى ابنه

(١) أنشب: ألبث.

(٢) صمدت نحوه: قصدت.

(٣) أطنت قدمه: أطارتها.

(٤) تطيح: تذهب.

(٥) مرضخة: الحجر يكسر به النوى.

عكرمة على عاتقى فطرح يدى فتعلقت بجلدة من جنبى وأجهضنى القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومى وإنى لأ سحبها خلفى؛ فلما آذتنى وضعت عليها قدمى، ثم تمطيت بها عليها؛ حتى طرحتها، ثم مر بأبى جهل - وهو عقير- معوذ بن عفراء فضربه؛ حتى أثبته فتركه وبه رمق وقاتل معوذ حتى قتل.

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ : **«من ينظر ما صنع أبو جهل»** فتفرق الناس فى طلبه فوجده عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه- وبه آخر رمق فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته؛ ليحتز رأسه، وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزانى؟ أأعمد من رجل قتلتموه؟ أو هل ففوق رجل قتلتموه[1]؟ وقال: فلو غير أكار[2] قتلنى ثم قال: أخبرنى لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله.

ثم قال لابن مسعود: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رُويعِيَّ الغنم! وكان ابن مسعود من رعاة الغنم فى مكة، وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبى جهل فقال: **«الله الذى لا إله إلا هو؟»** فرددها ثلاثا ثم قال: **«الله أكبر.. الحمد لله الذى صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه»** فانطلقنا فأريته إياه فقال: **«هذا فرعون هذه الأمة»** [3].

مَصْرَعُ أُمَيَّةَ بنِ خَلَف:

قال عبد الرحمن بن عوف: لما كان يوم بدر مررت بأمية بن خلف ومعه ابنه علي وهو آخذ بيده، ومعى أدراع لى قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآنى قال: يا عبد عمرو- عبد عمرو اسم عبد الرحمن بن عوف قبل الإسلام- فلما أسلم سمِّيَ: عبد الرحمن، وكان أمية بن خلف يرفض أن يناديه بعبد الرحمن

(١) أي: ليس عليَّ عار فلن أبعد أن أكون رجلا قتله قومه.

(٢) الأكار: الجرات.

(٣) الرحيق المختوم ٢٠٣ - ٢٠٤.

قائلاً: أنا لا أعرف الرحمن، فاتفقا على أن يناديه بعبد الإله - فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ؟ فأنا خير لك من هذه الأدراع التى معك؟ قلت: نعم ها الله؟ قال: فطرحت الأدراع من يدى، وأخذت بيده ويد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط أما لكم حاجة فى اللبن [1] ؟ قال: ثم خرجت أمشى بهما.

قال عبد الرحمن بن عوف: قال لى أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما: يا عبد الإله من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب قال:ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل، قال عبد الرحمن بن عوف: فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى، وكان أمية هو الذى يعذب بلالاً بمكة، فقال بلال: رأس الكفر أمية ابن خلف لا نجوت إن نجا، قلت: أى بلال أسيرى، قال: لا نجوت إن نجا، قلت: أتسمع يا بن السوداء، قال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة[2]وأنا أذب عنه قال: فأخلف[3] رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط فقلت: انج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئًا قال: فهبروهما[4] بأسيافهم؛ حتى فرغوا منها فكان عبد الرحمن، يقول: يرحم الله بلالاً ذهبت أدراعى وفجعنى بأسيرى[5].

(١) أي: أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن.

(٢) المسكة: حلقة كالأسوار.

(٣) أخلف سيفه: سله في غمده.

(٤) هبروهما: قطعوهما.

(٥) الرحيق المختوم ٢٠٤ - ٢٠٥، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٧ - ٣٨).

ثَانِيًا: مِنْ مَشَاهِدِ العَظَمَةِ وَالإِيمَانِ فِي المَعْرَكَةِ:

اسْتِشْهَادُ حَارِثَةَ بنِ سُرَاقَةَ:

عن أنس رضـى الله عنه قال: أصـيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبى ﷺ، فعن أَنَس بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سـُرَاقَةَ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَلا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصـَابَهُ سـَهْمٌ غَرْبٌ فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صـَبَرْتُ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ قَالَ[1]:«**يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ وَإِنَّ ابْنَكِ أَصـَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى**».

اسْتِشْهَادُ عَوْف بنِ الحَارِثِ:

قال ابن إسحاق حدثنى عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عوف بن الحارث؛ وهو ابن عفراء قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «**غمسه يده فى العدو حاسرًا**» فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم؛ حتى قتل، وهذا يدل على حرص الصحابة على رضوان الله عز وجل[2].

اسْتِشْهَادُ سَعْد بنِ خَيْثَمَةَ ثُمَّ أَبِيهِ:

قال الحافظ بن حجر: قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سـعد بن خيثمة وأبوه، فخرج سـهم سـعد فقال له أبوه: يا بنى آثرنى اليوم، فقال سـعد: يا أبت لو كان غير الجنة فعلت، فخرج سـعد إلى بدر فقتل بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد[3].

(١) البخاري ٢٨٠٩، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٠ - ٤٢).

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٠ - ٤٢).

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٠ - ٤٢).

اسْتِشْهَادُ عُمَيْر بنِ أَبِي وَقَّاصٍ:

لما سار رسـول الله ﷺ إلى بـدر وعـرض عليـه جـيش بـدر ردَّ عمـير بـن أبـى وقـاص فبكـى عمـير، فأجـازه فعقـد عليـه حمائـل سـيفه، ولقـد كـان عمير يتوارى؛ حتى لا يراه رسول الله ﷺ فقال سعد: رأيت أخى عمير بـن أبـى وقـاص قبـل أن يعرضـنا رسـول الله ﷺ يـوم بـدر يتـوارى، فقلـت: مـا لـك يـا أخـى؟ قـال: إنـى أخـاف أن يرانـى رسـول الله ﷺ فيستصـغرنى ويردنـى، وأنـا أحـب الخـروج؛ لعـل الله يرزقنـى الشـهادة، وقد استشهد بالفعل [١].

قَتْلُ عُمَر بنِ الخَطَّابِ خَالَهُ العَاصَ بنَ هشَام:

قتل عمر بن الخطاب – ر ضى الله عنه– يومئذ خاله العاص بن هـشام بن المغيرة؛ ولم يلتفت إلى قرابته منه ولكن حين رجع إلى المدينة قال للعباس عم الر سول ﷺ وهو فى الأ سر: يا عباس أسلم؛ فوالله أن تسلم أحب إليَّ من أن يسلم الخطاب وما ذاك إلا لما رأيت ر سول الله ﷺ يعجبه إسلامك، وهذا يدل على تضحية الصحابة من أجل الإسلام كما يدل على مدى حبهم لرسول الله ﷺ [٢].

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٠ - ٤٢).

(٢) الرحيق المختوم ٢٠٥ - ٢٠٦.

ثَالِثًا: مَا بَعْدَ المعْرَكَةِ

طَرْحُ قَتْلَى المشْرِكِينَ فِي القَلِيبِ[1]:

لما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ؛ حتى وقف على قتلى المشركين فَقَالَ: «**يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**» فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَسْمَعُون وَأَنَّى يُجِيبُون وَقَدْ جَيَّفُوا قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ**» [2].

مَكَّةُ تَتَلَقَّى أَنْبَاءَ الهَزِيمَةِ:

فر المشركون من ساحة بدر فى صورة غير منظمة، واتجهوا صوب مكة مذعورين؛ وكان أول من قدم بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة و شيبة ابنا ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف فى رجال من الزعماء سماهم؛ فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر: والله إن يعقل هذا فاسألوه عنى، قالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: ها هو ذا جالس فى الحجر وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : كنت غلامًا للعباس وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل وأسلمت، وكان العباس يكتم إسلامه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر فلما جاءه الخبر كبته الله وأخزاه، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزًّا وكنت رجلاً ضعيفًا، أعمل الأقداح أنحتها فى حجرة زمزم؛ فوالله إنى لجالس فيها أنحت أقداحى وعندى أم

(١) القليب: البئر لم تطو.

(٢) مسلم ٢٨٧٥، ابن هشام (١ / ٣٩٦ - ٣٩٧).

الفضـل جالسـة وقد سـرنا ما جاءنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشـــر حتى جلس على طنب الحجرة [1] فكان ظهره إلى ظهرى، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أبو لهب: هلم إليَّ، فعندك لعمرى الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه فقال: يا بن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس؟ قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شـاءوا ويأسـروننا كيف شـاءوا؟ وايم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجال بيض على خيل بُلق بين السـماء والأرض والله ما تليق [2] شيئًا، ولا يقوم لها شيء، قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدى ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضـرب بها وجهى ضربة شديدة، فثاورته فاحتملنى فضرب بى الأرض، ثم برك عليَّ يضربنى، وكنت رجلاً ضـعيفًا، فقامت أم الفضـل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلعت[3] في رأسه شجة منكرة وقالت: استضعفته أن غاب عنه سـيده، فقام موليًا ذليلاً فوالله ما عاش إلا سـبع ليال؛ حتى رماه الله بالعدسة (وهى قرحة تتشاءم بها العرب) فقتلته فتركه بنوه، وبقى ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ولا يحاول دفنه فلما خافوا السـبة فى تركه حفروا له، ثم دفعوه بعود فى حفرته وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه، هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة فى ميدان بدر، وقد أثر ذلك فيهم أثرًا سيئًا جدًّا؛ حتى منعوا النياحة على القتلى؛ لئلا يشمت بهم المسلمون[4].

المدِينَةُ تَتَلَقَّى أَنْبَاءَ النَّصْرِ:

لما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة ليعجل لهم البشـرى أرسـل عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية وأرسـل زيد بن حارثة بشيرًا إلى أهل السافلة.

(١) طنب الحجرة: طرفها.
(٢) تليق: أي لا تبقي شيئا.
(٣) فلعت: شقت.
(٤) الرحيق المختوم ٢٠٧ - ٢٠٨.

وكان اليهود والمنافقون قد أشاعوا فى المدينة إشاعة كاذبة عن مقتل النبى ﷺ؛ حتى أن أحد المنافقين لما رأى زيد بن حارثة راكبًا القصواء ناقة الرسول ﷺ قال: لقد قتل محمد وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب وجاء فلاًّ [1] فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون وأخذوا يسمعون منهما الخبر؛ حتى تأكد لديهم فتح المسلمين فعمت البهجة والسرور واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيرًا وتقدم رءوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة إلى طريق بدر؛ ليهنئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين، قال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التى كانت عند عثمان بن عفان كان رسول الله ﷺ خلفنى عليها مع عثمان[2].

الأَنْفَالُ:

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم، ولما اشتد الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد الجميع ما بأيديهم ففعلوا ثم نزل الوحى بحل هذه المشكلة[3].

عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبى ﷺ فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله العدو فانطلقت طائفة فى آثارهم يطاردون ويقتلون وأكبت طائفة على طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة؛ حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب.

(١) فلاًّ: منهزمًا.

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٠٨.

(٣) الرحيق المختوم ص ٢١٠.

وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق بها منا.. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا؛ نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١] فقسمها رسول الله ﷺ على وفاق بين المسلمين(١).

الأَسْرَى:

لما بلغ برسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه فى الأسرى، فعن ابن عباس – رضى الله عنهما– قال: فَلَمَّا أَسَرُوا الأَسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «**مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاءِ الاسَارَى**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**مَا تَرَى يَا بْنَ الْخَطَّابِ**» قُلْتُ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَإِنَّ هَؤُلاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ** » وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٦٩] (٢) وكان الفداء من أربعة آلاف

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٧ - ٤٨).

درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون؛ فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشـــرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم فإذا حذقوا فهو فداء[(١)].

الوَصِيَّةُ بِإِكْرَامِ الأَسْرَى:

ولما رجع ﷺ إلى المدينة فرق الأسرى بين أصحابه وقال لهم: «**استوصوا بهم خيرا**» وبهذه التوصـــية النبوية الكريمة ظهر تحقيق قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإنســـان: ٨] قال أبو العاص بن الربيع: كنت فى رهط من الأنصار – جزاهم الله خيرًا– كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثرونى بالخير وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل والتمر زادهم؛ حتى إن الرجل لتقع فى يده كســـرة فيدفعها إليَّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد وكانوا يحملوننا ويمشون [(٢)].

فِدَاءُ العَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ:

بعثت قريش إلى ر سول الله ﷺ فى فداء أ سراهم، ففدى كل قوم أ سيرهم بما رضوا وقال العباس: يا رسول الله ﷺ، قد كنت مسلمًا، فقال رسول الله ﷺ : «**الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفســـك وابنى أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بن الحارث بن فهر**».

قال: ما ذاك عندى يا رســـول الله قال: «**فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضـل؟ فقلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفنته لبنى الفضـل وعبد الله وقثم**»، قال: والله يا رســـول الله إنى لأعلم أنك رســـول الله ﷺ، إن هذا الشـــيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضـــل؛ فاحســـب لى يا رســـول الله ما أ صبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى فقال ر سول الله ﷺ : «**ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك**».

(١) الرحيق المختوم ٢١٠ - ٢١١.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥١).

ففدى نفســه وابنى أخويه وحليفه فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٠ - ٧١] قال العباس: فأعطانى الله مكان العشــرين أوقية فى الإســلام عشـرين عبدًا كلهم فى يده مال؛ يضـرب به ما أرجو من مغفرة الله [١].

فِدَاءُ أَبِي العَاصِ بنِ الرَّبِيعِ:

قالت عائشــة رضــى الله عنها: لما بعث أهل مكة فى فداء أســراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال، وبعثت به بقلادة لها كانت لخديجة - رضـــى الله عنها- أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رســول الله ﷺ رقَّ لها رقة شـديدة وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا**» فقالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوه وردوا عليها الذى لها، وكان ر سول الله ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يخلى سبيل زينب إليه وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: «**كونا ببطن يأجج** [٢] **حتى تمر بكما زينب فتصحباها؛ حتى تأتيا بها**» [٣].

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٢).
(٢) اسم مكان على ثمانية أميال من مكة.
(٣)السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٣).

رَابِعًا: النَّتَائِجُ وَالدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ مِنَ المعْرَكَةِ

أَوَّلاً: نَتَائِجُ المعْرَكَةِ انْتِصَارُ المسْلِمِينَ:

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلاً، وأسر منهم سبعون أكثرهم من قادة قريش وزعمائها، بينما استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً؛ منهم ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار كما ترتب على هذا الانتصار أن قويت شوكة المسلمين وأصبحوا مرهوبين فى المدينة ومن حولها وتعززت مكانة الرسول ﷺ فى المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها ولم يعد المتشككون فى الدعوة الجديدة والمشركون فى المدينة يتجرءون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام؛ لذا ظهر النفاق فأعلن فريق منهم إسلامهم ظاهرًا أمام النبى ﷺ وأبقوا على الكفر باطنًا، وفيهم قال تعالى: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [النساء: ١٤٣].

كما ازدادت الثقة بالله - سبحانه وتعالى- وبرسوله الكريم ﷺ، ودخل عدد كبير من مشركى قريش فى الإسلام، وانتعش حال المسلمين المادى والاقتصادى بما أفاء الله عليهم من الغنائم [١].

خَسَارَةُ قُرَيْشٍ:

أما قريش فكانت خسارتها فادحة، فإضافة إلى أن مقتل أبى جهل بن هشام وأمية ابن خلف وعتبة بن ربيعة وغيرهم من زعماء الكفر الذين كانوا من أشد القريشين شجاعة وقوة وبأسًا، لم يكن خسارة حربية لقريش فحسب؛ فإنه كان خسارة معنوية أيضًا ذلك أن المدينة لم تعد تهدد تجارتها فقط بل أصبحت تهدد أيضًا سيادتها ونفوذها فى الحجاز كله[٢].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣١ - ٥٩).

(٢) المصدر السابق نفسه (٢ / ٦٠ - ٦١).

نَقْضُ اليَهُودِ عَهْدَهُم:

أما اليهود فقد هالهم أن ينتصر المسلمون فى بدر، وأن تقوى شكوتهم فيها وأن يعز الإسلام ويظهر على دينهم ويكون لرسوله دونهم الحظوة والمكانة، فصمموا على نقض العهد الذى عاهدوا عليه النبى ﷺ، عندما قدم المدينة فأظهروا عداوتهم للإسلام والمسلمين وبدأوا يتحرشون بالنبى ﷺ والمسلمين، وعملوا على القضاء على الإسلام بكل الوسائل المتاحة لديهم وما كان النبى ﷺ ليخفى عليه شىء من ذلك، فقد كان يراقبهم عن حذر ويقظة؛ حتى استحقوا بالمقررات الخلقية والحرمات التى يعتز بها المسلمون واستعلنوا بالعداوة فلم يكن بدٌّ من حربهم وإجلائهم عن المدينة (١).

مُحَاوَلَةُ اغْتِيَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِسْلاَمُ عُمَيْرِ بنِ وَهْبٍ:

قال ابن إسحاق: عن عروة بن الزبير قال: جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش فى الحجر بيسير، وكان عمير شيطانًا من الشياطين، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر؛ فذكر أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان: والله إن فى العيش بعدهم خيرًا.

قال له عمير: صدقت والله؛ أما والله لولا دين عليَّ ليس له عندى قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد؛ حتى أقتله فإن لى قبلهم علة؛ ابنى أسير فى أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان وقال: عليَّ دينك؛ أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا لا يسعنى شيء، ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم شأنى و شأنك، قال: أفعل، قال: ثم أمر عمير بسيفه فشحذ (٢) له و سُمَّ، ثم انطلق؛ حتى قدم المدينة فبينما عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٦١ - ٦٢).

(٢) شحذ السيف: أحد أسنانه.

عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لِشَرٍّ وهو الذى حرش [1] بيننا وحزرنا [2] للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه قال: «**فأدخله عليَّ**» قال: فأقبل عمر؛ حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث؛ فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال: «**أرسله يا عمر ادنُ يا عمير**» فدنا ثم قال: انعموا صباحًا - كانت تحية أهل الجاهلية بينهم- فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام تحية أهل الجنة.

فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد قال: «**فما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه قال: «**فما بال السيف فى عنقك؟**» قال قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنَّا شيئًا؟ قال: «**اصدقنى ما الذى جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلك قال: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دين على وعيال عندى لخرجت؛ حتى أقتل محمدًا فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له، والله حائل بينك وبين ذلك**».

(١) الحرش: أفسد وأغرى بعضهم ببعض.
(٢) الحزر: تقدير العدو تخمينًا.

قال عمير: أشهد أنك رسول الله قد كنا يا رسول الله ﷺ نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان؛ فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ: «**فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره**» ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله ﷺ إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله - عز وجل- وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة؛ فأدعوهم إلى الله - تعالى- وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام؛ لعل الله يهديهم فأذن له رسول الله ﷺ [١].

* * *

(١) ابن هشام (١ / ٤٠٨ - ٤١٠).

ثَانِيًا: الدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ مِنَ المعْرَكَةِ

تنطوى غزوة بدر على العديد والعديد من العبر والعظات والدروس والمعجزات نذكر منها ما يلى:

١- يدلنا السبب الأول لغزوة بدر أن الدافع الأصلى لخروج المسلمين مع رسـول الله ﷺ لم يكن القتال والحرب وإنما كان الدافع الاستيلاء على عير قريش القادمة من الشام تحت إشراف أبى سفيان، وعلى الرغم من مشروعية هذا القصد لأن عامة ممتلكات الحربيين تعتبر بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة؛ فلهم أن يستولوا عليها بالإضافة إلى أنها تعتبر تعويضًا للمهاجرين عن ممتلكاتهم التى بقيت فى مكة، واستولى عليها المشركون من ورائهم إلا أن الله أراد لعباده المؤمنين قصـدًا أرفع من ذلك وأليق بوظيفتهم التى خلقوا من أجلها ألا وهى الدعوة إلى دين الله والجهاد فى سبيل ذلك والتضحية بالروح والمال فى سبيل إعلاء كلمة الله [١].

٢- التزام النبى ﷺ مبدأ التشاور مع أصحابه فى كل أمر لا نص فيه من كلام الله تعالى، وقد ظهر ذلك فى غزوة بدر فى التشـاور فى أمر القتال والأسرى[٢].

رغبة الرسول ﷺ معرفة رأى الأنصار فى القتال؛ لأن المعاهدة التى بينه ﷺ وبينهم داخل المدينة وليس خارجها، فأراد رسول الله ﷺ أن يعرف رأيهم فى القتال؛ لأنه ليس من حقه أن يجبرهم على القتال معه والدفاع عنه إلا فى داخل المدينة كما تنص على ذلك المعاهدة ولدى التأمل فيما أجاب به سعد بن معاذ نعلم أن المبايعة التى ارتبط بها الأنصار مع رسول الله ﷺ فى مكة قبل الهجرة لم تكن إلا مبايعة مع الله تعالى، ولم يكونوا يتصورون وهم يلتزمون الدفاع عن رسول الله ﷺ حينما يهاجر إليهم إلا دفاعًا عن دين الله - تعالى- وشريعته،

(١) فقه السيرة للبوطي (١٧٠ - ١٧٥) مختصرًا.

(٢)فقه السيرة للبوطي (١٧٠ - ١٧٥) مختصرًا.

فليست القضية مسألة نصوص معينة اتفقوا مع الرسول عليها فهم لا يريدون أن يلتزموا بما وراءها، وإنما المسألة هى أنهم وقعوا تحت صك عظيم تضمن قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١] [(١)].

٣- أهمية التضرع لله و شدة الا ستعانة به فعلى الرغم من أن الر سول ﷺ كان يطمئن أصحابه بالنصر، وكان يثق فى وعد الله له بالنصر إلا أن النبى ﷺ أخذ يناشد ربه بالنصر الذى وعده؛ حتى سقط رداؤه وأشفق عليه أبو بكر قائلاً: كفى يا رسول الله؛ إن الله منجز لك ما وعد.

ذلك لأن الدعاء هو لب العبادة التى خلق من أجلها الإنسان وذلك هو ثمن النصر فى كل حال، فما النصر مهما توفرت الو سائل والأ سباب إلا من عند الله وما كل أنواع المصائب والمحن المختلفة التى تهدد الإنسان فى هذه الحياة أو تنزل به إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته وتصرف آماله وفكره إلى عظمة الله - سبحانه وتعالى- وباهر قدرته؛ كى يفر إليه - سبحانه وتعالى- بالدعاء[(٢)].

٤- ظهر فى غزوة بدر مدى الولاء والتضحية من أجل الإسلام فترى الابن يلتقى بأبيه والأخ بأخيه:

١- كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة فى صف المسلمين، وكان أبو عتبة وأخوه الوليد وعمه شيبة فى صف المشركين وقد قتلوا جميعًا فى المبارزة الأولى.

٢- كان أبو بكر الصديق فى صف المسلمين وابنه عبد الرحمن فى صف المشركين.

(١) فقه السيرة للبوطي (١٧٠ - ١٧٥) مختصرًا.

(٢) فقه السيرة للبوطي (١٧٠ - ١٧٥) مختصرًا.

٣- كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير فى صف المشركين ثم وقع أسيرًا فى يد أحد الأنصار فقال مصعب للأنصار: شد يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخى هذه وصيتك بى؟ فقال مصعب: إنه أخى دونك، وهكذا نرى كيف كانت الإخوة فى الله أقوى من إخوة النسب والقرابة [١].

٥- نزلت سورة الأنفال فى غزوة بدر لما اختلف المسلمون فى النفل وقد بينت السورة أن هذه الغنائم لله وللرسول ﷺ ثم أمر الله المؤمنين بثلاثة أوامر بالتقوى وإصلاح ذات البين والطاعة لله والرسول ﷺ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١].

وهي أمور مهمة جدا فى موضوع الجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهادًا والجهاد يحتاج إلى وحدة صف، ومن ثمَّ فلا بُدَّ من إصلاح ذات البين.

ثم بين الله - عز وجل- أن الطاعة لله ولرسوله ﷺ علامة الإيمان، ثم بين الله - عز وجل- صفات المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

فلم تذكر الآيات شيئًا من أعمال المؤمنين فى بدر، ولكن ذكرت عتابًا أليمًا يحمل المؤمنين على الرجوع إلى أنفسهم والاستحياء من ربهم، وإنه لا يجب عليهم الاختلاف فى الأنفال؛ ولكن عليهم التحلى بصفات المؤمنين حقًّا وهذا ما يجب أن يكون عليه المؤمنون فى كل وقت؛ لإرضاء الله وتحقيق النصر [٢].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢/٧٠ - ٧١) مختصرًا.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٣ - ٤٥) مختصرًا.

٦- وصية الرسول ﷺ بإكرام الأسرى دليل على سمو الإسلام فى المجال الأخلاقى؛ حيث نال أعداء الإسلام من معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق التى تتمثل فى خلق الإيثار كما طلب الرسول ﷺ من عمه العباس الفداء وأغلا، وهنا يتعلم المسلمون درسًا فى عدم محاباة ذوى القربى(١).

٧- اشتملت غزوة بدر على العديد من المعجزات منها:

١- إمداد الله المسلمين بالملائكة وهى معجزة من أعظم معجزات النصر والتأييد والنصر للمسلمين الصادقين لتطمئن قلوبهم(٢).

٢- إخباره ﷺ عن بعض المغيبات بوحى من الله منها:

أ- قتل أمية بن خلف:

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ(٣): انْطَلَقَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُعْتَمِرًا قَالَ: فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ أَبِي صَفْوَانَ وَكَانَ أُمَيَّةُ إِذَا انْطَلَقَ إِلَى الشَّأْمِ فَمَرَّ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ فَقَالَ أُمَيَّةُ لِسَعْدٍ انْتَظِرْ حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ وَغَفَلَ النَّاسُ انْطَلَقْتُ فَطُفْتُ فَبَيْنَا سَعْدٌ يَطُوفُ إِذَا أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ؟ فَقَالَ سَعْدٌ: أَنَا سَعْدٌ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: تَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ آمِنًا وَقَدْ آوَيْتُمْ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ فَتَلاحَيَا بَيْنَهُمَا(٤) فَقَالَ أُمَيَّةُ لسَعْدٍ: لا تَرْفَعْ صَوْتَكَ عَلَى أَبِي الْحَكَمِ فَإِنَّهُ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَادِي ثُمَّ قَالَ سَعْدٌ: وَاللَّهِ لَئِنْ مَنَعْتَنِي أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ لأَقْطَعَنَّ مَتْجَرَكَ بِالشَّامِ قَالَ: فَجَعَلَ أُمَيَّةُ يَقُولُ لِسَعْدٍ: لا تَرْفَعْ صَوْتَكَ وَجَعَلَ يُمْسِكُهُ فَغَضِبَ سَعْدٌ فَقَالَ: دَعْنَا عَنْكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ مُحَمَّدًا ﷺ يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلُكَ قَالَ: إِيَّايَ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: وَاللَّهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ إِذَا حَدَّثَ فَرَجَعَ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ: أَمَا تَعْلَمِينَ مَا قَالَ لِي أَخِي

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥١ - ٥٣) مختصرًا.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ١٧٥.

(٣) رواه البخاري ٣٦٣٢.

(٤) تلاحيا: تلاوما وتنازعا.

الْيَثْرِبِيُّ؟ قَالَتْ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنَّه سَـمِعَ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلِي قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ قَالَ: فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى بَدْرٍ وَجَاءَ الصَّرِيخُ قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: أَمَا ذَكَرْتَ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِبِيُّ قَالَ: فَأَرَادَ أَنْ لا يَخْرُجَ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: إِنَّكَ مِنْ أَشْرَافِ الْوَادِي فَسِرْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ فَسَارَ مَعَهُمْ فَقَتَلَهُ اللَّهُ.

ب- مصـارع الطغاة حدد رسـول ﷺ مصـارع الطغاة في بدر، قال عمر: فوالذي بعثك بالحق ما أخطأوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ.

ج- إخبار العباس ابن عبد المطلب بالمال الذى دفنه، وإعلام عمير بن وهب بالحديث الذى حدث بينه وبين صفوان.

٨- ومن المعجزات ما ذكره ابن القيم في زاد المعاد أن سـيف عكَّاشـة بن محصـن انقطع يومئذ، فأعطاه النبى ﷺ جذلاً من حطب فقال: «**دونك هذا**» فلما أخذه عُكَّاشة، وهزَّه عاد فى يده سيفًا طويلاً شديدًا أبيض؛ فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل فى الردة أيام أبى بكر.

٩- قال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسـهم يوم بدر، ففقئت عينى فبصـق فيها رسول الله ﷺ ودعا لى فما آذانى منها شيء [1].

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٧٢ - ٧٥).

أَهَمُّ الأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ غَزْوَتَي بَدْرٍ وَأُحُدٍ

أَوَّلاً: النَّشَاطُ العَسْكَرِيُّ:

١- غَزْوَةُ بَنِي سُلَيْمٍ بِالكدرِ:

غزا النبى ﷺ بعد سبع ليال من عودته إلى المدينة من غزوة بدر، وبلغ ماء الكدر فى ديار بنى سليم الذى قصدهم بغزوته هذه، وكان سبب تلك الغزوة تجمع أفراد بنى سليم؛ لمقاتلة المسلمين والاعتداء عليهم بعد معركة بدر مباشرة، ولكن رسول الله ﷺ فاجأهم بهجوم سريع غير متوقع، فهرب بنو سليم وتفرقوا على رؤوس الجبال وبقيت إبلهم مع راع لها يدعى يسارًا؛ فاستاق رسول الله ﷺ الإبل راعيها، وعند موضع صرار على بُعد ثلاثة أميال من المدينة قسم النبى ﷺ الإبل التى كان عددها خمسمائة بعير على أصحابه فأصاب الواحد منهم بعيرين، ونال النبى ﷺ خمسها وكان يسار من نصيبه، ولكنه أعتقه بعد ذلك[1] وأقام النبى ﷺ فى ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة[2].

٢- غَزْوَةُ السَّوِيْق:

كان أبو سفيان قد نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة؛ حتى يغزو محمدًا ﷺ، فخرج فى مائتى راكب من قريش؛ ليبر يمينه، فسلك النجدية؛ حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حُيى بن أخطب، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له بابه وخافه فانصرف عنه إلى سَلاَّم بن مِشْكم وكان سيد بنى النضير فى

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٧٩).

(٢) الرحيق المختوم ٢١٣ - ٢١٤.

زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه [1] وبطن له[2] من خبر الناس ثم خرج فى عقب ليلته؛ حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها يقال لها: العريض فحرقوا فى الأصوار [3] من نخل بها، ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفًا له فى حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين[4].

فتعقبه رسول الله ﷺ فى مائتى رجل من المهاجرين والأنصار، ولكنه لم يتمكن من إدراكهم؛ لأن أبا سفيان ورجاله قد جدّوا فى الهرب، وجعلوا يتخففون من أثقالهم ويلقون السويق[5] التى كانوا يحملونها لغدائهم، وكان المسلمون يمرون بهذه الجرب فيأخذونها؛ حتى رجعوا بسويق كثيرة؛ لذا سميت هذه الغزوة بغزوة: السويق، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حربًا [6].

٣- غَزْوَةُ ذِي أمر:

هى أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد وقادها فى المحرم سنة ٣هـ، وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جمعًا كبيرًا من بنى ثعلبة ومحارب تجمعوا يريدون الإغارة على أطراف المدينة فندب رسول الله ﷺ، وخرج فى أربعمائة وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل واستخلف على المدينة عثمان بن عفان.

وفى أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له: جبار من بنى ثعلبة، فأدخل على رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فضمه إلى بلال وصار دليلاً لجيش

(١) قراه: صنع له طعام الضيف.
(٢) بطن له: أي أعلمه من سرهم.
(٣) الأصوار: جماعة النخل الصغار.
(٤) ابن هشام (١ / ٤١١ - ٤١٢).
(٥) السويق: هو أن تحمص الحنطة أو الشعير ثم تطحن وتمزج باللبن أو العسل أو السمن.
(٦) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٧٩ - ٨٠).

المسـلمين إلى أرض العدو، وتفرق الأعداء فى رؤوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة، أما النبى ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم وهو الماء المسمى:"بذى أمر" فأقام هناك صفرًا كله - من سنة ٣هـــ أو قريبًا من ذلك؛ ليبشـر الأعراب بقوة المسـلمين، ويسـتولى عليهم الرعب والرهبة ثم رجع إلى المدينة [(١)].

٤- غَزْوَةُ بحْرَان:

أقام رسول الله ﷺ ربيعًا الأول ثم خرج يريد قريشًا واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، فبلغ بحران معدنًا بالحجاز من ناحية الفرع، ولم يلق حربًا فأقام هنالك ربيعًا الآخر وجمادى الأولى ثم انصرف إلى المدينة[(٢)].

سَرِيَّةُ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ إِلَى القردة:

بعد هزيمة قريش فى بدر أخذوا يبحثون عن طريق آخر لتجارتهم للشـام، فأشـار بعضـهم إلى طريق نجد العراق فسـلكوا طريق العراق بالفعل، وخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وحويط بن عبد العزى، ومعهم فضة وبضائع كثيرة بما قيمته مائة ألف درهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلامى يدعى: سليط بن النعمان رضى الله عنه فبعث زيد بن حارثة فى مائة راكب؛ لاعتراض القافلة فلقيها زيد عند ماء يقال له: القردة ماء من مياه نجد، ففر رجالها مذعورين، وأصـاب المسـلمون العير وما عليها وأسـروا دليلها فرات بن حيان الذى أسـلم بين يدى النبى ﷺ وعادوا إلى المدينة، وأخذ رسـول الله ﷺ خمسـها، ووزع الباقى بين أفراد السرية[(٣)].

(١) الرحيق المختوم ٢١٩

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٢٩٣.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٨٢).

٥- غَزْوَةُ بَنِي قيْنقَاع:

لَمَّا علم يهود بنى قينقاع بانتصار المسلمين فى غزوة بدر أظهروا الغضب والحسد، ولم يلتزموا بالمعاهدة التى أبرمها الرسول ﷺ معهم، فجمعهم رسول الله ﷺ بسوق بنى قينقاع ثم قال: **«يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم»** قالوا: يا محمد إنك ترى أنا قومك لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت عنهم فرصة، وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس فأنزل الله فيهم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣].

سَبَبُ الغَزْوَةِ:

قال ابن هشام عن أبى عون قال: إن امرأة من العرب قدمت بجلب [(١)] لها فباعته، بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًّا وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع[(٢)].

(١) الجلب: كل ما يجلب من الإبل والغنم والمتاع.
(٢) ابن هشام (١ / ٤١٣ - ٤١٤).

حِصَارُ الرَّسُولِ ﷺ لَهُم:

وحين علم الرسـول ﷺ بذلك سـار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنـصار وحمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه- واسـتخلف ﷺ على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر العمرى، وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ تحصنوا فى حصونهم فحاصرهم النبى ﷺ خمس عشرة ليلة، واستمر الحصار؛ حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب، واضطروا للنزول على حكمه ﷺ فأمر بهم فربطوا[1].

مَوْقِفُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولٍ:

فقام إليه عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول فقال: يا محمد أحسن فى موالى وكانوا حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسـول الله ﷺ فكرر ابن أبى مقالته؛ فأعرض عنه فأدخل يده فى جيب درعه، فقال له رسول الله ﷺ : «**أرسلنى**» وغضب رسول الله؛ حتى رأوا لوجهه ظللاً[2] ثم قال: «**ويحك أرسـلنى**» قال: لا والله لا أرسلك؛ حتى تحسن فى موالى أربعمائة حاسر[3] وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم فى غداة واحدة؛ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر؛ فقال رسول الله ﷺ : «**هم لك**».

تَبَرُّؤُ ابنِ الصَّامِتِ مِنْ حِلْفِهِمْ:

لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ مشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بنى عوف لهم من حلفهم مثل الذى لهم من عبد الله بن أبي فخلعهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله - عز وجل- وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٨٣ - ٨٤).
(٢) ظللا: جمع ظلة وهي السحابة، استعارة لتغير الوجه عند الغضب.
(٣) الحاسر: الذي لا درع لـه ولا خوذة.

الكفار وولايتهم فأنزل الله - عز وجل- فيه وفى عبد الله بن أبي: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٦] (١).

مَقْتَلُ كَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ:

كان كعب بن الأشـراف من أشـد اليهود حنقًا على الإسـلام والمسـلمين وإيذاءً لرسول الله ﷺ، وكان من قبيلة طيء من بنى نبهان وأمه من بنى النضير، وكان غنيًّا مترفًا معروفًا بجماله فى العرب شـاعرًا من شـعرائها، ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين وقتل صناديد قريش فى بدر قال: أحق هذا هؤلاء أشـراف العرب وملوك الناس، والله إن كان محمد أصـاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ولما تأكد لديه الخبر انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ويمدح عدوهم ويحرضهم عليه ولم يرض بهذا القدر؛ حتى ركب إلى قريش فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى وجعل ينشد الأشعار، يبكى فيها على أصحاب القليب من قتلى المشـركين يثير بذلك حفائظهم ويذكى حقدهم على النبى ﷺ ويدعوهم إلى حربه.

(١) ابن هشام (١ / ٤١٤ - ٤١٦).

وعندما كان بمكة سـأله أبو سـفيان والمشـركون، أديننا أحب إليك أم دينٍ محمد وأصـحابه وأى الفريقين أهدى سـبيلاً؟! فقال: أنتم أهدى منهم سـبيلاً وأفضـل، وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء: ٥١] (١).

إن ابن الأشـراف بهجائه النبي وإظهاره مع أعداء المسـلمين ورثاء قتلاهم وتحريضهم على قتل المسلمين يكون قد نقض العهد وصار محاربًا مهدور الدم؛ ولذلك أمر النبي ﷺ بقتله، رَوَى البُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (٢): «**مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ؟! فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ**» فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: فَأْذَنْ لِي أَنْ أَقُولَ شَيْئًا، قَالَ: «**قُلْ**»، فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَنَا صَدَقَةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَنَّانَا، وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتَسْلِفُكَ، قَالَ: وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمَلُّنَّهُ، قَالَ: إِنَّا قَدْ اتَّبَعْنَاهُ؛ فَلا نُحِبُّ أَنْ نَدَعَهُ؛ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ تُسْلِفَنَا وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ، فَقَالَ: أُرَى فِيهِ وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ، فَقَالَ: نَعَم.. ارْهَنُونِي، قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ تُرِيدُ، قَالَ: ارْهَنُونِي نِسَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا وَأَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ؟! قَالَ: فَارْهَنُونِي أَبْنَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ أَبْنَاءَنَا فَيُسَبُّ أَحَدُهُمْ؛ فَيُقَالُ رُهِنَ بِوَسْقٍ أَوْ وَسْقَيْنِ، هَذَا عَارٌ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَرْهَنُكَ اللأْمَةَ، قَالَ سُفْيَانُ: يَعْنِي السِّلاحَ، فَوَاعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ فَجَاءَهُ لَيْلاً وَمَعَهُ أَبُو نَائِلَةَ، وَهُوَ أَخُو كَعْبٍ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْحِصْنِ فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: أَيْنَ تَخْرُجُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟! فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ مُحَمَّدُ ابْنُ مَسْلَمَةَ وَأَخِي أَبُو نَائِلَةَ، وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو قَالَتْ: أَسْمَعُ صَوْتًا؛ كَأَنَّهُ يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُ، قَالَ: إِنَّمَا هُوَ أَخِي مُحَمَّدُ بْنُ

(١) الرحيق المختوم ص ٢٢٠.

(٢) (صحيح): البخاري ٤٠٣٧.

مَسْلَمَةَ وَرَضِيعِي أَبُو نَائِلَةَ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ بِلَيْلٍ لأَجَابَ، قَالَ: وَيُدْخِلُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مَعَهُ رَجُلَيْنِ(١)، قِيلَ لِسُفْيَانَ سَمَّاهُمْ عَمْرٌو قَالَ: سَمَّى بَعْضَهُمْ، قَالَ عَمْرٌو: جَاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْنِ وَقَالَ غَيْرُ عَمْرو: أَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ وَالْحَارِثُ ابْنُ أَوْسٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، قَالَ عَمْرٌو جَاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْنِ فَقَالَ: إِذَا مَا جَاءَ فَإِنِّي قَائِلٌ بِشَعَرِهِ فَأَشَمُّهُ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي اسْتَمْكَنْتُ مِنْ رَأْسِهِ فَدُونَكُمْ فَاضْرِبُوهُ، وَقَالَ مَرَّةً: ثُمَّ أُشِمُّكُمْ فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ مُتَوَشِّحًا؛ وَهُوَ يَنْفَحُ مِنْهُ رِيحُ الطِّيبِ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ رِيحًا أَيْ أَطْيَبَ وَقَالَ غَيْرُ عَمْرو قَالَ: عِنْدِي أَعْطَرُ نِسَاءِ الْعَرَبِ وَأَكْمَلُ الْعَرَبِ، قَالَ عَمْرٌو: فَقَالَ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ رَأْسَكَ؟! قَالَ: نَعَمْ فَشَمَّهُ ثُمَّ أَشَمَّ أَصْحَابَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذَنُ لِي؟! قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهُ، قَالَ: دُونَكُمْ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ(٢).

ولما علمت اليهود بمصرع كعب بن الأشراف دب الرعب فى قلوبهم، وخافوا على أنفسهم فلم يحركوا ساكنًا لقتل طاغيتهم بل لزموا الهدوء وتظاهروا بإيفاء العهود واستكانوا(٣).

* * *

(١) في كتب السيرة أن الذين قاموا بقتله خمسة نفر هم: محمد بن مسلمة أبو نائلة وهو سلكان بن سلامة وعباد ابن بشر والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر هؤلاء قدموا أبا نائلة؛ ليحدث كعب بن الأشراف.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٩١ - ٩٢).

(٣) الرحيق المختوم ص ٢٢٢.

ثَانِيًا: المنَاسِبَاتُ الاجْتِمَاعِيَّةُ

زَوَاجُ النَّبِيِّ بِحَفْصَة بِنْتِ عُمَر بنِ الخَطَّابِ:

عن ابن عمر – رضى الله عنه- أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: حين تأيمت [١] حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمى، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفى فى المدينة فقال عمر: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر فى أمرى فلبثت ليالى ثم لقينى فقال: قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا، قال عمر: فلقيت أبا بكر – رضى الله عنه- فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر فصمت أبو بكر فلم يرجع إليه شيئًا، فكنت عليه أوجد منى على عثمان، فلبثت ليالى ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقينى أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا قال عمر: قلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت على إلا أنى كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها[٢].

زَوَاجُ عَلِيٍّ بِفَاطِمَةَ رضى الله عنها:

قال ﷺ : «**إن الله أمرنى أن أزوج فاطمة من عليّ**» [٣]، عن علي بن أبى طالب – كرم الله وجهه- قال: خطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت مولاة لى: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ ؟ قلت: لا، قالت: فقد خطبت فما يمنعك أن تأتى رسول الله ﷺ فيزوجك فقلت: وعند شيء أتزوج به فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوَّجك قال: فوالله ما زلت ترجِّينى؛ حتى دخلت على رسول الله ﷺ فلما أن قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما

(١) تأيمت: مات عنها زوجها.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٢٨٧.

(٣) قال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني ١٥٥.

استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة فقال رسول الله ﷺ : «**ما جاء بك**» ؟: «**ألك حاجة؟**» فسكتُّ، فقال: «**لعلك جئت تخطب فاطمة**» فقلت: نعم، فقال: وهل: «**عندك من شيء تستحلها به؟**» فقالت: لا والله يا رسول الله فقال: «**ما فعلت درع سلحتكما؟ فوالله الذى نفسى على بيده إنها لحطيمة ما قيمتها أربعة دراهم**» فقلت: عندى، فقال: «**فابعث إليها بها فاستحلها بها" "قد زوجتكها**» فإنها كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ وقد جهز رسول الله ﷺ فاطمة فى خميل [1] وقربه ووسادة آدم [2] حشوها إذخر[3] [4].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

١- تدلنا غزوة بنى قينقاع على طبيعة اليهود من الغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود كما تدلنا على حقدهم الدفين على المسلمين والذى ظهر بانتصار المسلمين فى غزوة بدر[5].

٢- يظهر فقه النبى السياسى فى تعامله مع ابن سلول حينما لبى طلبه؛ فلعل هذا الموقف يغسل قلبه ويزيل الغشاوة عنه، فتتم هدايته، ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أبى يصلحون بصلاحه فيتماسك الصف ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام، وهناك بعد آخر حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنة فى مجتمع المؤمنين؛ حيث أن بعض الأنصار حديث عهد بالإسلام ويخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبى؛ لسمعته الكبيرة فيهم، ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءاته تجنبًا للفتنة وإظهارًا لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثم يفر الناس من حوله ولايتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحًا باهرًا

(١) خميل: القطيفة.

(٢) الأدم: الجلد.

(٣) الإذخر: حشيشة رطبة طيبة الرائحة.

(٤) سيرة الرسول أبو عمار ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٥) فقه السيرة للبوطي ١٧٩ - ١٨٠، مختصرًا.

فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس؛ حتى أقرب الناس إليه ومنهم ولده عبد الله فكانوا إذا تكلم أسكتوه وتضايقوا من كلامه بل أرادوا قتله كما سيأتى بإذن الله (1).

٣- إن فى مقتل ابن الأشرف دروسًا وعبرًا كثيرة:

جاء فى السيرة لابن هشام أن محمد بن مسلمة مكث ثلاثة أيام بعد أن استعد؛ لقتل كعب بن الأشراف لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له: «**لم تركت الطعام والشراب؟**» فقال: يا رسول الله ﷺ قلت قولاً لا أدرى هل أفينَّ لك به أم لا؟ فقال رسول الله ﷺ : «**إنما عليك الجهد**» فقال: لا بُدَّ لنا من أن نقول قال: «**قولوا ما بدا لكم**» نلاحظ هنا قيمة الكلمة عند الصحابة؛ حيث إن محمد بن مسلمة امتنع عن الطعام وأصابه الغم والحزن؛ لأنه قال قولاً يخشى أن لا يستطيع الوفاء به قول رسول الله ﷺ : «**إنما عليك الجهد**» توجيه نبوى كريم أن النصر لا يأتى إلاَّ بعد بذل الجهد والصبر عند الابتلاء قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩].

وعلى المسلم أن يفرغ كل ما فى وسعه من جهد فكرى وطاقة جسمية فى سبيل تحقيق ما وعده ثم يتوكل على الله بعد ذلك فى النتائج.

وفى قوله ﷺ : «**قولوا ما بدا لكم**» فقه عظيم يوضحه قوله ﷺ : «**الحرب خدعة**» (2).

٤- مهر فاطمة بنت النبى ﷺ :

إنها فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين، وعلى الرغم من ذلك كان مهرها (درع) عليّ الحُطمية، وأهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من آدم؛ حشوها ليف وقربة ومنخل وقدح ورحى وجرابات، ودخلت عليه وما

(1) السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٨٥.

(2) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٩٢ - ٩٥) مختصرًا.

لها فراش غير جلد كبش ينامان عليه بالليل، وتعلف عليه الناضح بالنهار، وكانت هى خادمة نفســها، قال ابن الجوزى: تالله ما ضــرّها ذلك، أذهب الله عنها وعن بيتها الرجز وطهرها تطهيرًا [1].

* * *

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٢٨٨ - ٢٨٩.

غَزْوَةُ أُحُدٍ

أَوَّلاً: مَا قَبْلَ المعْرَكَةِ.. أَسْبَابُ الغَزْوَةِ:

كَانَتْ لِغَزْوَةِ أُحُدٍ أَسْبَابٌ عَدِيدَةٌ مِنْهَا:

١ـ السَّبَبُ الدِّينِيُّ:

كان المشركون ينفقون أموالهم فى الصد عن سبيل الله ومنع الناس من الدخول فى الإسلام والسعى للقضاء على الإسلام والمسلمين قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٢ـ السَّبَبُ الاجْتِمَاعِيُّ:

كان للهزيمة الكبيرة فى بدر وقتل السادة الأشراف من قريش وقع كبير من الخزى والعار الذى لحق بهم وجعلهم يشعرون بالمذلة والهزيمة؛ ولذلك بذلوا قصارى جهدهم فى غسل هذه الذلة والمهانة التى لصقت بهم، ولذلك شرعوا فى جمع المال لحرب رسول الله ﷺ فور عودتهم من بدر[١] وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان والتى كانت سببا لمعركة بدر وقالوا للذين كانت فيهم أموالهم: يا معشر قريش إن محمدًا قد وتركم[٢] وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه؛ لعلنا أن ندرك منه ثأرًا فأجابوا لذلك فباعوها، وكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار[٣].

٣ـ السَّبَبُ الاقْتِصَادِيُّ:

كانت حركة السرايا التى تقوم بها الدولة الإسلامية قد أثرت على اقتصاد قريش وفرضت عليهم حصارًا اقتصاديًا قويًا، وكان الاقتصاد المكى قائما على

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٠١ - ١٠٢).

(٢) وتركم: ظلمكم.

(٣) الرحيق المختوم ص ٢٢٥.

رحلتى الشتاء والصيف رحلة الشتاء إلى اليمن وتحمل إليها بضائع الشام ومحاصيلها ورحلة الصيف إلى الشام تحمل إليها محاصيل اليمن وبضائعها وقطع أحد جناحى هاتين الرحلتين ضر للجناح الآخر.

٤ـ السَّبَبُ السِّيَاسِيُّ:

أخذت سيادة قريش فى الانهيار بعد غزوة بدر تزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمة لها فلابد من رد الاعتبار والحفاظ على زعامتها مهما كلفها الأمر من جهود ومال وضحايا [١].

قوَامُ الجَيْشِ المَكِّيِّ وَسِيَادَتُهُ:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء؛ حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة، وكان سلاح النقليات فى هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس جنبوها طول الطريق، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع، وكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان بن حرب وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبى جهل، أما اللواء فكان إلى بنى عبد الدار.

تَحَرُّكُ الجَيْشِ المَكِّيِّ نَحْوَ المدِينَةِ:

تحرك الجيش المكى بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة؛ حتى إذا اقترب من المدينة سلك وادى العقيق ثم انحرف منه إلى ذات اليمين؛ حتى نزل قريبًا من أحد فى مكان يقال له: عينين فى بطن السبخة من قناة على شفير الوادى الذى يقع شمالى المدينة بجنب أحد فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٠٢ - ١٠٣).

الاسْتِخْبَارَاتُ النَّبَوِيَّةُ تَكْشِفُ حَرَكَةَ العَدُوِّ:

١- وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية؛ فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبى ﷺ ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة وجد فى السير؛ حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة التى تبلغ مسافتها نحو خمسمائة كيلو متر فى ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى النبى ﷺ وهو فى مسجد قباء قرأ الرسالة على النبى أبى بن كعب[١].

٢- لم يكتف النبى ﷺ بمعلومات المخابرات المكية بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن فأرسل النبى ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر فدخل بين جيش مكة فسأله النبى ﷺ : «**ما رأيت؟**» قال: رأيت يا رسول الله عددًا حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتى فرس ورأيت دروعًا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع قال: «**هل رأيت ظعنا**» ؟ قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار[٢] فقال رسول الله ﷺ : «**أردن أن يحرضن القوم، ويذكرنهم قتلى بدر، هكذا جاءنى خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفًا؛ حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول**» كما أرسل ﷺ أنسًا ومؤنسًا ابنى فضالة يتنصتان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها وعادا فأخبراه بخبر القوم.

وبعد أن تأكد من المعلومات حصر ﷺ تلك المعلومات على المستوى القيادى خوفًا من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة؛ ولذلك حين قرأ أبى بن كعب رسالة العباس أمره ﷺ بكتمان الأمر وعاد مسرعًا إلى المدينة[٣].

(١) الرحيق المختوم ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢) الأكبار: جمع كبر، وهو الطبل الذي لـه وجه واحد.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٠٤ - ١٠٥).

مُشَاوَرَةُ النَّبِيِّ ﷺ لأَصْحَابِهِ وَالرُّؤْيَا الَّتِي رَآهَا:

بعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفار قريش جمع أصـــحابه؛ لتبادل الرأى وأخبرهم عن رؤيا رآها قال: «**إنى قد رأيت والله خيرًا، رأيت بقرا يذبح ورأيت فى ذباب سـيفى ثُلما** [(١)] **ورأيت أني أدخلت يدى فى درع حصـينة**» وقد تأول ﷺ البقر بنفر من أصـحابه يقتلون وتأول الثلمة فى سـيفه برجل يصـاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة.

ثم قدم ﷺ رأيه إلى أ صحابه ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحـصنوا بها؛ فإن أقام المشـركون بمعسـكرهم أقاموا بشـر مقام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت، ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين، فقال رجال من المـسلمين ممن فاته الخروج يوم بدر ومن غيرهم: اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعُفنا؟.

فلم يزل الناس برسـول الله ﷺ؛ حتى دخل بيته فلبس لأمته [(٢)] فلما خرج عليهم ر سول الله ﷺ قالوا: يا ر سول الله ا ستكر هناك، ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك فقال ﷺ [(٣)]: فَقَالَ: «**ما ينبغي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا؛ حَتَّى يُقَاتِلَ**».

خُرُوجُ جَيْشِ المسْلِمِينَ إِلَى أُحُدٍ:

خرج رسـول الله ﷺ فى ألف من أصـحابه لملاقاة أعدائه، وقد تحرك بعد منتصف الليل؛ حيث يكون الجو هادئًا والحركة قليلة، وفى هذا الوقت بالذات يكون الأعداء فى نوم عميق من مشقة السفر.

(١) الثلم: الكسر.

(٢) لأمته: درعه.

(٣) رواه أحمد ٢١٥٩، ابن هشام (١ / ٤٢٢ / ٤٢٣).

كما اختار ﷺ الطريق الذى تتوافر فيه السرية قال ﷺ لأصحابه: «**من رجل يخرج على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟**» فأبدى أبو خيثمة - رضى الله عنه- استعداده قائلا: أنا يا رسول الله فنفذ به فى حرة بني حارثة وبين أموالهم؛ حتى سلك به فى مال لمربع بن قيظى، وكان رجلاً منافقا ضرير البصر، فلما أحس برسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين قام يحثى فى وجوههم التراب، وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطى، وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب بيده ثم قال: والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك، فابتدره القوم؛ ليقتلوه فقال ﷺ : «**لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر**» وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بنى الأشهل(١) قبل نهى رسول الله ﷺ عنه فضربه بالقوس فى رأسه فشجه(٢).

انْسِحَابُ ابنِ سَلُولٍ بِثُلُثِ الجَيْشِ:

عندما وصل جيش المسلمين الشواط، انسحب عبد الله بن أبى ابن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا - أيها الناس- فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق.

واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم؛ أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه(٣) وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧] (٤).

(١) بنو الأشهل: حي من الأنصار.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٠٨ - ١٠٩).

(٣) ابن هشام (١ / ٤٢٣).

(٤) السيرة النبوية للصلابي الجزء الثاني.

واقترح بعض الصــحابة الاســتعانة باليهود بناء على ما بينهم من ميثاق التناصر فقال رسول الله ﷺ : «**لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك**» (١).

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه؛ وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوى إلى هذا المكان معنى، ولو كان هذا هو الســبب لانعزل عن الجيش منذ بداية ســيره، بل كان هدفه الرئيسى من هذا التمرد فى ذلك الظرف الدقيق أن يحدث البلبلة والاضطراب فى جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم؛ حتى ينحاز عامة الجيش عن النبى ﷺ وتنهار معنويات من يبقى معه بينما يتشــجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر؛ فيكون ذلك أســرع للقضــاء على النبى ﷺ وأصــحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه.

وكاد المنافق ينجح فى تحقيق بعض ما كان يهدف إليه؛ فقد همت طائفتان: بنو حارثة من الأوس وبنو ســلمة من الخزرج أن تفشــلا، ولكن الله تولاهما فثبتتا بعدما ســرى فيهما الاضــطراب، وهمتا بالرجوع والانســحاب وعنهما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢] (٢).

اسْتِعْرَاضُ الجَيْشِ:

عندما وصــل ﷺ إلى مقام يقال له: الشــيخان اســتعرض جيشــه؛ فرَدَّ من اســتصــغره ولم يره مطيقًا للقتال، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد وأسيد بن ظهير وزيد بن ثابت وزيد بن أرقم وعرابة بن أوس وعمرو بن حزم وأبو سعيد الخدرى وزيد بن حارثة الأنصارى وسعد بن حبة، ويذكر فى هؤلاء البراء بن عازب لكن حديثه فى البخارى يدل على شــهوده القتال ذلك اليوم.

(١) فقه السيرة للبوطي ص ١٨٥.

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٢٩.

وأجاز رافع بن خديج وسمرة بن جندب على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهرًا فى رماية النبل فأجازه فقال سمرة: أنا أقوى من رافع أنا أصرعه فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه فتصارعا فصرع سمرة رافعًا فأجازه أيضًا [1].

خُطَّةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمَعْرَكَةِ:

و ضع الر سول ﷺ خطة محكمة لمواجهة المشركين من قريش؛ حيث اختار الموقع المنا سب، فقد أدرك ﷺ أهمية جبل أحد لحماية جيش المسلمين، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد جعل الرسول ﷺ ظهورهم إلى الجبل، ووجوههم إلى المدينة وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب وأعطى اللواء أفراد الكتيبة وهذه الكتائب هى:

١- كتيبة المهاجرين وأعطى لواءها مصعب بن عمير - رضى الله عنه.

٢- كتيبة الأوس من الأنصار وأعطى لواءها أسيد بن حضير - رضى الله عنه.

٣- كتيبة الخزرج من الأنصار أعطى لواءها الحباب بن المنذر - رضى الله عنه- وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير، ووضعهم فوق جبل عينين المقابل لجبل أحد وذلك يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين [2] وقال لقائدهم: «**انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك**» و قال للر ماة[3]:«**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ فَهَزَمُوهُمْ**» قَالَ: فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ قَدْ بَدَتْ خَلاخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الْغَنِيمَةَ

(١) المصدر نفسه ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١١٢ - ١١٤).

(٣) (صحيح): البخاري ٣٠٣٩.

أَيْ قَوْمِ الْغَنِيمَةَ ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ فَذَاكَ إِذ يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً سَبْعِينَ أَسِيرًا وَسَبْعِينَ قَتِيلاً فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاءِ فَقَدْ قُتِلُوا فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ قَالَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ أُعْلُ هُبَلْ أُعْلُ هُبَلْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَلا تُجِيبُوا لَهُ»** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ قَالَ: **«قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»** قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلا عُزَّى لَكُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَلا تُجِيبُوا لَهُ»** قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ قَالَ: **«قُولُوا: اللَّهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ»**.

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو، وعلى الميسرة الزبير بن العوام يسانده المقداد بن الأسود، وكان إلى الزبير مهمة الصمود فى وجه فرسان خالد بن الوليد، وجعل فى مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يزنون بالآلاف [1].

قام ﷺ بصف أصحابه على هيئة صفوف الصلاة جعل رسول الله ﷺ يمشى على رجليه يسوى تلك الصفوف ويبوئ أصحابه للقتال، يقول: تقدم يا فلان وتأخر يا فلان فهو يقودهم؛ حتى استوت الصفوف فوضع ﷺ فى مقدمة

(١) الرحيق المختوم ٢٣٠ - ٢٣١.

الضفوف الأ شداء؛ لكى يفتحوا الطريق لمن خلفهم وقد أخذ الر سول ﷺ بهذا الأسلوب؛ لأنه أبلغ في قتال الأعداء ثم أمرهم قائلا: «**لا يقاتلن أحد؛ حتى نأمره بالقتال**» (١).

تَحْرِيضُ النَّبِيِّ ﷺ أَصْحَابَهُ عَلَى القِتَالِ

كان ﷺ من هديه أن يحرض أصحابه على قتال الأعداء، ويحثهم على التحلى بالصبر فى ميادين القتال؛ لكى تقوى روحهم المعنوية ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم، فخطب فيهم يوم أحد قائلا: «**يأيها الناس أوصيكم بما أوصانى الله فى كتابه من العمل بطاعته والتناهى عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه، ثم وطَّن نفسه له على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله رشده، فإن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله وعليكم بالذى آمركم؛ فإنى حريص على رشدكم فإن الاختلاف والتنازع والتشبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحب الله، ولا يعطى عليه النصر ولا الظفر**» (٢).

كما أخذ النبى ﷺ ينفث روح البسالة فى أصحابه؛ حتى جرد سيفًا باترًا ونادى أصحابه: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**» فقام إليه رجال فأمسكه عنهم؛ حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بنى ساعدة فقال: يا رسول الله ﷺ قال: «**أن تشرب به العدو حتى ينحنى**» قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعًا يختال عند العرب، وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ١١٤ - ١١٥).
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ١١٣)

فاعتصب بها على الناس أنه سيقاتل فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك، فعصب بها رأسه وجعل يتبختر بها الصفين، وعندما رآه رسول الله ﷺ قال: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن**» [1]، فَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ سَيْفًا يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ[2]: «**مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ؟**» فَأَخَذَهُ قَوْمٌ فَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «**مَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟**» فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكٌ: أَنَا آخُذُ بِحَقِّهِ فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ هَامَ الْمُشْرِكِينَ.

تَعْبِئَةُ الجَيْشِ المَكِّيِّ:

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف، فكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان بن حرب الذى تمركز فى قلب الجيش، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد وكان إذ ذاك مشركًا، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبى ربيعة.

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بنى عبد الدار، وأخذ أبو سفيان يحرض أصحابه على اللواء قائلاً: يا بنى عبد الدار قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، وإذا زالت زالوا فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فغضب بنو عبد الدار وهموا به وتواعدوه، وقالوا له: نحن نسلم إليك لواءنا، ستعلم - غدًا- إذا التقينا كيف نصنع؟!.

وقد ثبتوا عند احتدام المعركة؛ حتى أبيدو عن بكرة أبيهم، وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة فى المعركة تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان، فكن يتجولن فى الصفوف ويضربن الدفوف يستنهضن الرجال، ويحرضن على القتال[3].

(١) ابن هشام ١ / ٤٢٦.

(٢) (صحيح): رواه أحمد ١١٨٢٦.

(٣) الرحيق المختوم ٢٣١ - ٢٣٢.

ثَانيًا: فِي قَلْبِ المعْرَكَةِ

مُنَاوَرَاتٌ سِيَاسِيَّةٌ مِنْ قِبَلِ قُرَيْشٍ:

حاول أبو سفيان قبل نشوب المعركة إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين؛ فأرسل إلى الأنصار يقول لهم: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم؛ فلا حاجة لنا إلى قتالكم، فرد عليه الأنصار ردًّا عنيفًا وأسمعوه ما يكره، ولما فشلت المحاولة الأولى لجأت قريش إلى محاولة أخرى عن طريق عميل خائن يسمى: أبا عامر الفاسق واسمه عبد عمرو بن صيفى، وكان يسمى: الراهب، فسماه رسول الله ﷺ : «**الفاسق**»، وكان رأس الأوس فى الجاهلية فلما جاء الإسلام جاهر بالعداوة للرسول ﷺ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على النبى ﷺ ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه فنادى قومه وقال: يا معشر الأوس أنا أبو عامر فقالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق، فقال: لقد أصاب قومى بعدى شر ولما بدأ القتال قاتلهم قتالاً شديدًا وراضخهم بالحجارة (١).

بدْءُ القِتَالِ:

بدأ القتال وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبى طلحة العبدرى وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة، خرج وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة فأحجم عنه الناس؛ لفرط شجاعته ولكن تقدم إليه الزبير ولم يمهله، بل وثب إليه وثبة الليث؛ حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه، وذبحه بسيفه ورأى النبى ﷺ هذا الصراع الرائع فكبر، وكبر المسلمون، وأثنى على الزبير وقال فى حقه: «**إن لكل نبى حواريًّا؛ وحواريّ الزبير**» (٢).

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ١١٧).

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٣٣.

نَقْلُ المعْرَكَةِ حَوْلَ اللِّوَاءِ وَإِبَادَةُ حَمْلَتِهِ:

ثم اندلعت نيران المعركة واشتد القتال بين الفريقين فى كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبى طلحة وتقدم للقتال وهو يقول:

إن على أهل اللواء حقًّا ... أن تخضب الصعدة [1] أو تندقَّا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة ترت يده مع كتفه؛ حتى وصلت إلى سرته فبانت رئته، ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبى طلحة فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم أصاب حنجرته فأدلع[2] لسانه ومات لحينه.

وقيل: بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز فتقدم إليه على بن أبى طالب فاختلفا ضربتين فضربه على فقتله، ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبى طلحة فرماه عاصم ابن ثابت بن أبى الأفلح بسهم فقتله.

فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبى طلحة فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبى طلحة فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته، وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح بسهم فقضى عليه..

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد بيت أبى طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار قتلوا جميعًا حول لواء المشركين، ثم حمله من بنى عبد الدار أرطأة بن شرحبيل فقتله علي بن أبي طالب وقيل حمزة بن عبدالمطلب ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان، وكان منافقًا قاتل مع المسلمين حمية لا عن الإسلام، ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدرى فقتله قزمان أيضًا ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدرى فقتله قزمان أيضًا.

(١) الصعدة: القناة.

(٢) أدلع: أخرج.

فهؤلاء عشرة من بنى عبد الدار – من حملة اللواء- أبيدوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء فتقدم غلام لهم حبشى – اسمه صُؤاب- فحمل اللواء وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله، فقد قاتل حتى قطعت يداه فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط حتى قتل، وهو يقول: اللهم هل أعزرت؟ يعنى: هل أعذرت؟ وبعد أن قتل صُؤاب سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله فبقى ساقطًا [1].

القِتَالُ فِي سَائِرِ نِقَاطِ المعْرَكَةِ:

وبينما كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين كان القتال المرير يجرى فى سائر نقاط المعركة، وقاتل المسلمون وهم يقولون: "أمت، أمت" كان ذلك شعارًا لهم يوم أحد.

فاقتتل الناس وحميت الحرب وقاتل أبو دجانة حتى أمعن فى الناس وقد وصف الزبير بن العوام ما فعله أبو دجانة قائلاً: وجدت فى نفسى حين سألت ر سول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش، وقد قمت إليه فسألته إياه قبله، فأعطاه إياه وتركنى؛ والله لأنظرن ما يصنع، فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانه عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب بها فخرج وهو يقول:

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول[2] أضرب بسيف الله والرسول

(١) الرحيق المختوم ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢) الكيول: آخر الصفوف في الحرب.

قال ابن إسحاق فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله، وكان من المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا ذفَّف عليه [1] فجعل كل واحد منهما يدنو من صـــاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل الســيف عنها قال الزبير: فقلت: الله ورسوله أعلم[2] قال ابن إسحاق: وقال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يحمس الناس حماسًا شديدًا؛ فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة؛ فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة [3].

نَصِيبُ فَصِيلَةِ الرُّمَاةِ فِي المعْرَكَةِ:

وكانت للفصيلة التى عينها الرسول ﷺ جبل الرماة يد بيضاء فى إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامى، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يســانده أبو عامر الفاســق ثلاث مرات؛ ليحطموا جناح الجيش الإســلامى الأيســر؛ حتى يتســربوا إلى ظهور المســلمين فيحدثوا البلبلة والارتباك فى صـفوفهم وينزلوا عليهم هزيمة سـاحقة، ولكن هؤلاء الرماة رشـقوهم بالنبل؛ حتى فشلت هجماتهم الثلاث.

انْتِصَارُ المسْلِمِينَ فِي الجَوْلَةِ الأُولَى:

ظل الجيش الإسلامى مسيطرًا على الموقف كله؛ حتى خارت عزائم أبطال المشركين وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف، وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين.

(١) ذفف: أجهز عليه وأسر لقتله.
(٢) ابن هشام (١ / ٤٢٨).
(٣)السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١١٨).

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد الهجوم المسلمين أحست بالعجز والخور، وانكسرت همتها؛ لدرجة أنه لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها الذى سقط بعد مقتل صُؤاب فيحمله ليدور حول القتال، فأخذت فى الإنسحاب ولجأت إلى الفرار ونسيت ما كانت تتحدث به فى نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام وإعادة العز والمجد والوقار[1] وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] [2].

مُخَالَفَةُ الرُّمَاةِ لأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ :

ولما رأى الرماة الهزيمة التى حلت بقريش وأحلافها ورأوا الغنائم فى أرض المعركة تركوا مواقعهم؛ ظنًّا منهم أن المعركة انتهت، وقالوا لأميرهم: عبد الله بن جبير، الغنيمة أي: قوم الغنيمة، ظهر أصـــحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنســـيتم ما قال لكم رســـول الله ﷺ ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، ثم انطلقوا يجمعون الغنائم ولم يعبأوا بقول أميرهم[3].

خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ يَغْتَنِمُ الفُرْصَةَ:

وكان فر سان المشركين بقيادة (خالد بن الوليد) محصورين لا يجدون ثغرة ينفذون منها إلى قلب المسلمين، إلى أن حلت الهزيمة، فلما رأى خالد أن مؤخرة المسلمين انكشفت فلم يبق عليها حارس، اغتنم الفر صة على عجل فا ستدار بالخيل، وأحدق بخصومه منحدرًا عليهم من حيث لا يحتسبون، ورأى الفارُّون من قريش بوادر هذا التغير الطارئ، فتراجعوا حتى أن امرأة تدعى عمرة بنت

(١) الرحيق المختوم ص ٢٣٦.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١١٩).
(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١١٩).

علقمة الحارثية هى التى رفعت لواء قريش من التراب بعد أن سقط وصُرع حملته! وثاب المشركون إلى رايتهم وخيالتهم فأُحيط بالصحابة من الأمام والخلف، ووقعوا بين شقى الرحى(1).

مَوْقِفُ المسْلِمِينَ بَعْدَ تَطْوِيقِ المشْرِكِينَ لَهُمْ:

فقد المسلمون مواقعهم الأولى بعدما أحاط المشركون بهم، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط، وفقدوا اتصالهم برسول الله ﷺ وشاع أن محمدًا قد قتل فتفرق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم؛ فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة ففر جمع من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتال، وآثر آخرون الشهادة بعد أن ظنوا أن رسول الله ﷺ قد مات، ومن هؤلاء أنس بن النضر الذى كان يأسف لعدم شهوده بدرًا والذى قال فى ذلك: والله لئن أرانى الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرين الله كيف أصنع؟

وقد صدق فى وعده، مرَّ يوم أحد على قوم ممن أذهلتهم الشائعة، وألقوا بسلاحهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، فقال: يا قوم إن كان محمد قتل؛ فإن ربَّ محمد لم يُقتل وموتوا على ممات عليه، وقال: اللهم إنى أعتذر إليك مما قال هؤلاء يعنى: المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعنى: المشركين.

ثم لقى سعد بن معاذ فقال: يا سعد إنى لأجد ريح الجنة دون أحد، وقاتل حتى استشهد فوجد فيه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رومية بسهم؛ فلم تعرفه إلا أخته ببنانه وفى هذا وأمثاله نزل قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣١٤.

أما أولئك النفر الذين فروا لا يلوون على شيء رغم دعوة النبى ﷺ لهم بالصمود والثبات، فقد نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وقد نص القرآن الكريم على أن الله - تعالى- قد عفا عن تلك الفئة التى فرت قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٥] [(١)].

الَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ :

وثبت مع النبى ﷺ نفر قليل؛ منهم سعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو دجانة وأبو طلحة الأنصارى (رضى الله عنهم).

ولما سمع المشركون صوت النبى ﷺ وهو ينادى على أصحابه: **«هلم إليَّ.. أنا رسول الله»** هاجموا وأرادوا أن يقتلوه فقام تسعة من أصحابة يدافعون عنه بكل حب وتفان وبطولة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنْ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْش فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ[(٢)]:**«مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»** فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَار فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا فَقَالَ: **«مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»** فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَار فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: **«مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»**.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١١٩ - ١٢١).

(٢) (صحيح): مسلم ١٧٨٩.

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن قاتل؛ حتى أثبتته الجراحة فسقط[1] وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، وأدنوه من رسول الله ﷺ فوسده قدمه فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ.

أَحْرَجُ سَاعَةٍ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ :

وبعد سقوط ابن السكن بقى رسول الله ﷺ فى القرشيين فقط، فانتهز المشركون تلك الفرصة، وركزوا حملتهم على النبى ﷺ وطمعوا فى القضاء عليه، رماه عتبة بن أبى وقاص بالحجارة فوقع لشقه[2] وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهرى فشجه فى جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله ابن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى؛ حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: «**أقمأك الله**» [3].

وفى الصحيح أنه ﷺ كسرت رباعيته وشج فى رأسه، فجعل يسلُتُ الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله**» فأنزل الله عز وجل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وفى رواية الطبرانى أنه قال يومئذ: «**اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله**» ثم مكث ساعة ثم قال: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**».

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣١٦.

(٢) الشق: الناحية من الجبل.

(٣) أقمأك الله: أذلك الله.

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة الرسول ﷺ إلا أن القرشيين سعد بنٍ أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة؛ حتى لم يتركا سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم.

عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ[1]: نَثَلَ لِي النَّبِيُّ ﷺ كِنَانَتَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ ﷺ : **«ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»**. ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد [2].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَوَلَّى النَّاسُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَاحِيَةٍ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ وَفِيهِمْ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ فَأَدْرَكَهُمْ الْمُشْرِكُونَ فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ[3]: **«مَنْ لِلْقَوْمِ»** فَقَالَ طَلْحَةُ أَنَا: **«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ»** ﷺ : **«كَمَا أَنْتَ»** فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: **«أَنْتَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ»** ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ: **«مَنْ لِلْقَوْمِ»** فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا قَالَ: **«كَمَا أَنْتَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ أَنَا فَقَالَ أَنْتَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ»** ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ وَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ فَيُقَاتِلُ قِتَالَ مَنْ قَبْلَهُ حَتَّى يُقْتَلَ حَتَّى بَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ: **«فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ»** ﷺ : **«مَنْ لِلْقَوْمِ»** فَقَالَ طَلْحَةُ أَنَا فَقَاتَلَ طَلْحَةُ قِتَالَ الأَحَدَ عَشَرَ حَتَّى ضُرِبَتْ يَدُهُ فَقُطِعَتْ أَصَابِعُهُ فَقَالَ حَسِّ[4] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«لَوْ قُلْتَ: بِسْمِ اللهِ لَرَفَعَتْكَ الْمَلائِكَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ»**.

(١) (صحيح): رواه البخاري ٤٠٥٥، الرحيق المختوم ٢٤٠ - ٢٤١.

(٢) الرحيق المختوم ٢٤٠ - ٢٤١.

(٣) (صحيح): رواه النسائي ٣١٤٩، والحاكم مختصرًا.

(٤) حس: تقال عند التوجع.

وعن قيس بن حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد [(١)]، وجرح في تلك الغزوة تسعا وثلاثين أو خمسا وثلاثين و شلت أصبعه أي: الـ سبابة والتي تليها وقال النبي يومئذ[(٢)]:‹‹**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ**›› [(٣)].

وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب ففي الصحيحين عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ[(٤)]: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَمَعَهُ رَجُلان يُقَاتِلانِ عَنْهُ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ كَأَشَدِّ الْقِتَالِ مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلا بَعْدُ. وفي رواية يعني: جبريل وميكائيل [(٥)].

بِدَايَةُ تَجَمُّعِ الصّحَابَةِ حَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ :

وقعت هذه الأحداث كلها بسرعة هائلة فى لحظات خاطفة، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ الذين كانوا فى مقدمة صفوف المسلمين عند القتال لم يكادوا يرون تغير الموقف أو يسمعوا صوته ﷺ؛ حتى أسرعوا إليه لئلا يصل إليه شيء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقى رسول الله ﷺ ما لقى من الجراحات وستة من الأنصار قد قتلوا، والسابع قد أثبتته الجراحات، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح.

فلما وصلوا أقاموا حوله سياجًا من أجسادهم وسلاحهم وبالغوا فى وقايته من ضربات العدو ورد هجماته، وكان أول من رجع إليه وهو ثانيه فى الغار أبو بكر الصديق – رضى الله عنه– وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبى ﷺ عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دجانة ومصعب بن عمير وعلى بن أبى طالب وسهل بن

(١) رواه البخاري.

(٢) (صحيح): رواه الترمذي ٣٧٣٩، سيرة الرسول أبو عمار ٣١٧ - ٣١٨.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ٣١٧ - ٣١٨.

(٤) (صحيح): رواه البخاري ٤٠٥٤، مسلم ٢٣٠٦.

(٥) الرحيق المختوم ص ٢٤١.

حنيف ومالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية وقتادة بن النعمان وعمر بن الخطاب وحاطب بن أبى بلتعة وأبو طلحة [١].

اسْتِمَاتَةُ الصّحَابَةِ فِي الدِّفَاعِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ :

قام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة لم يعرف لها التاريخ نظيرًا، كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى رسول الله ﷺ يرفع صدره؛ ليقيه سهام العدو، قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفة له، وكان رجلاً راميًا شديد النزع كسر - يومئذ- قوسين أو ثلاثًا، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول: "انثرها لأبى طلحة" قال: ويشرف النبى ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام، نحري دون نحرك [٢]. وعنه أيضًا قال: كان أبو طلحة يتترس مع النبى ﷺ بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمى فكان إذا رمى تشرف النبى ﷺ فينظر إلى موقع نبله[٣].

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ فترّس عليه بظهره، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك.

وتبع حاطب بن أبى بلتعة عتبة بن أبى وقاص الذى كسر رباعيته الشريفة فضربه بالسيف؛ حتى طرح رأسه ثم أخذ فرسه و سيفه، وكان سعد بن أبى وقاص شديد الحرص على قتل أخيه - عتبة هذا- إلا أنه لم يظفر به بل ظفر به حاطب.

(١) الرحيق المختوم ٢٤١ - ٢٤٢.
(٢) رواه البخاري (٢ / ٥٨١).
(٣) رواه البخاري (١ / ٤٠٦).

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال بايع ر سول الله ﷺ على الموت ثم قام بدور فعال فى زود المشركين.

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه؛ حتى اندقت سيتها، فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه؛حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه وأحدَّهُمَا.

وقاتل عبد الرحمن بن عوف؛ حتى أصيب فوه يومئذ فهُتِمَ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعدها فى رجله فعرج.

وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته ﷺ؛ حتى أنقاه فقال: «**مجه**» فقال: والله لا أمجه؛ ثم أدبر يقاتل فقال النبى ﷺ : «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**» فقتل شهيدًا، وقاتلت أم عمارة فاعترضت لابن قمئة فى أناس من المسلمين فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحًا أجوف، وضربت هى ابن قمئة عدة ضربات بسيفها؛ لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة تقاتل؛ حتى أصابها اثنا عشر جرحًا (١).

انْسِحَابُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الشِّعْبِ:

استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق فأقبل إليهم فعرفه كعب بن مالك - كان أول من عرفه- فنادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين: أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار إليه أن: اصمت، وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون إلا أن هذا الصوت بلغ إلى أذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون؛ حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلاً من الصحابة وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ فى

(١) الرحيق المختوم ٢٤٣ - ٢٤٤.

الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وفى أثناء هذا الانسحاب إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل فنهض إليها؛ ليعلوها فلم يستطع لأنه كان قد بدن[١] وظاهر بين الدرعين [٢] وقد أصابه جرح شديد، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها وقال: «**أوجب طلحة**» أى: الجنة[٣].

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب خرج على بن أبى طالب؛ حتى ملأ درقته ماء من المهراس، فجاء به إلى رسول الله ﷺ؛ ليشرب منه فوجد له ريحًا فعافه فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه وهو يقول: «**اشتد غضب الله على من دمَّى وجه نبيه**» [٤].

وقال سهل: والله إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكب الماء وبما رُووى؟ كانت فاطمة ابنته تغسله وعلى بن أبى طالب يسكب الماء بالمجن؛ فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فألصقتها فاستمسك الدم، وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ فشرب منه النبى ﷺ ودعا له بخير[٥].

آخِرُ هُجُومٍ قَامَ بِهِ المشْرِكُونَ:

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته فى الشعب قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين قال ابن إسحاق: بينما رسول الله ﷺ فى الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد فقال رسول الله ﷺ : «**اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا**» فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين؛ حتى أهبطوهم من الجبل[٦].

(١) بدن: أسن وأضعف.

(٢) ظاهر بين درعين: لبس درعا فوق درع.

(٣) الرحيق المختوم ٢٤٤ - ٢٤٦.

(٤) ابن هشام (١ / ٤٤١).

(٥) الرحيق المختوم ص ٢٤٨.

(٦) الرحيق المختوم ص ٢٤٧.

وكان المسلمون فى حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول الله ﷺ وما أصابهم رغم نجاحهم فى رد المشركين فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيروا ثم أفاقوا آمنين مطمئنين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أما قريش فإنها يئست من تحقيق نصر حاسم، وأجهد رجالها من طول المعركة ومن صمود المسلمين وجلدهم خاصة بعد أن اطمأنوا، وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود فالتقوا حول النبى ﷺ ولذلك كفوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قواتهم[1].

تَشْوِيهُ الشُّهَدَاءِ:

بعد أن قام المشركون بآخر هجوم ضد النبى ﷺ رجعوا إلى مقرهم وأخذوا يتهيأون للرجوع إلى مكة واشتغل من اشتغل منهم وكذلك النساء بقتلى المسلمين يمثلون بهم ويقطعوك الآذان والأنوف والفروج ويبقرون البطون وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها واتخذت من الآذان والأنوف قلائد وخلاخيل[2].

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٢٣).

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٤٧.

مَشَاهِدُ مِنَ المعْرَكَةِ

أَوَّلاً: مِنْ شُهَدَاءِ أُحُدٍ حَمْزَة بن عبد المطلب سيد الشهداء:

يقول وحشى بن حرب قاتل حمزة: كنت غلامًا لجبير بن مطعم، وكان عمه طُعَيْمَة ابن عدى قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق، قال: فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئًا، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق [1] يهد الناس بسيفه هدًّا، ما يقوم له شيء؛ فوالله إنى لأتهيأ له أريده وأ ستتر منه بشجرة أو حجر؛ ليدنو منى إذا تقدمنى إليه سباعُ بن عبد العزى فلما رآه حمزة قال له: هلم إليَّ يا بن مقطعة البظور، قال فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه [2] قال: وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت ثنته[3] حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء[4] نحوى، فغلب وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلته؛ لأعتق فلما قدمت مكة أُعتقت[5].

مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ رضى الله عنه:

قاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة يدافع عن النبى ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه وكان اللواء بيده فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذ اللواء بيده اليسرى و صمد فى وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذى قتله ابن قمئة وهو يظنه رسول الله ﷺ

(١) الجمل الأورق: لونه بين الغبرة والسواد لما عليه من الغبار.

(٢) أخطأ رأسه: يقال عند المبالغة في الإصابة.

(٣) ثنته: أحشاؤه.

(٤) ينوء: ينهض متثاقلا.

(٥) ابن هشام (١ / ٤٣١).

لشبهه به فانصرف ابن قمئة إلى المشركين وصاح إن محمدًا قد قتل [1] قال خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَاجَرْنَا مَعَ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ وَمِنَّا مَنْ مَضَـى أَوْ ذَهَبَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَـيْئًا كَانَ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ لَمْ يَتْرُكْ إلا نَمِرَةً كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلاهُ وَإِذَا غُطِّيَ بِهَا رِجْلاهُ خَرَجَ رَأْسُـهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ [2]:«**غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلِهِ الإِذْخِرَ**» [3].

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه– قال: إن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد
مَرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه فوقف عليه ودعا له ثم قرأ هذه
الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثم قال رسـول الله ﷺ : «**أشـهد أن هؤلاء شـهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزورهم، والذى نفس محمد بيده لا يسـلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه**» [4].

سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ رضى الله عنه:

قال زيد بن ثابت: بعثنى رسـول الله ﷺ يوم أحد أطلب سـعد بن الربيع فقال لى: «**إن رأيته فأقرئه منى السـلام، وقل له: يقول لك رسـول الله ﷺ : كيف تجدك؟**» قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سـبعون ضربة، ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، فقلت: يا سعد إن

(١) الرحيق المختوم ص ٢٤٤.
(٢) (صحيح): رواه البخاري ٤٠٤٧.
(٣) الإذخر: نوع من العشب.
(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٢٨).

رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: **«أخبرني كيف تجدك؟»** فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله ﷺ أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ مكروه وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته[(١)].

عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ رضى الله عنه:

قال سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه- : إن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تدعو الله فخلوا فى ناحية فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيت العدو فلقنى رجلاً شديدًا بأسه شديدًا حرده؛ أقاتله ويقاتلنى، ثم ارزقنى الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه فأمَّن عبد الله بن جحش ثم قال: اللهم ارزقنى رجلاً شديدًا حرده شديدًا بأسه أقاتله فيك ويقاتلنى، ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى، فإذا لقيتك - غدًا- قلت: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول فيك وفى رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد: يا بنى كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتى؛ لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان فى خيط[(٢)].

حَنْظَلَةُ بنُ أَبِي عَامِرٍ غِسِّيلُ المَلَائِكَةِ رضى الله عنه:

لما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبى سفيان بن حرب فوق على الأرض، فصاح حنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شداد ويقال له: ابن شعوب فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه، ومشى إليه حنظلة بالرمح وقد أثبته ثم ضرب الثانية فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«إنى رأيت الملائكة تغسله بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة»** فقال رسول الله ﷺ : **«فسألوا أهله ما شأنه؟»** فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة[(٣)] فقال رسول الله ﷺ : **«فلذلك غسلته الملائكة»** [(٤)].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٣٢.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٢٩).
(٣) الهاتفة: المنادي يدعو للخروج لملاقاة العدو.
(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٢٩).

عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَمْرٍو بنِ حَرَامٍ رضى الله عنه:

أصـــر عبد الله بن عمروٍ بن حرام على الخروج فى غزوة أحد، فخاطب ابنه قائلاً: ما أرانى إلا مقتولاً فى أول من يقتل من أصحاب النبى ﷺ وإنى لا أترك بعدى أعز عليَّ منك غير نفس رســول الله ﷺ؛ فإن عليَّ دينًا فاقض، واستوص بأخواتك خيرًا.

وخرج مع المسلمين ونال الشهادة فى سبيل الله فقد قتل فى معركة أحد، ويحدثنا جابر قائلاً: لما قتل أبى يوم أحد جعلت أكشـــف عن وجهه وأبكى وجعل أصــحاب رســول الله ﷺ ينهونى وهو لا ينهانى وجعلت عمتى تبكيه فقال النبى ﷺ : «**تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها؛ حتى رفعتموه**».

وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [1]: «**يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسـْتُشْـهِدَ أَبِي قتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ عِيالاً وَدَيْنًا قَالَ: «**أَفَلا أُبَشِّـرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ**» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسـُولَ اللَّهِ قَالَ: «**مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ ســبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ**» قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقد رأى عبد الله بن عمرو رؤية فى منامه قبل أحد قال: رأيت فى النوم قبل أحد مبشـــِّر بن عبد المنذر يقول لى: أنت قادم علينا فى أيام فقلت: وأين أنت؟ فقال: فى الجنة نسرح فيها كيف نشاء؟ قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى ثم أحييت فذكر ر سول الله ﷺ فقال: «**هذه الشهادة يا أبا جابر، وقد تحققت تلك الرؤيا بفضل الله ومنه**».

(١) (صحيح): رواه الترمذي ٣٠١٠.

خَيْثَمَةُ أبُو سَعْدٍ رضى الله عنه:

قال خيثمة أبو سعد وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر: لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت والله عليها حريصًا؛ حتى ساهمت ابنى فى الخروج، فخرج سهمه فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها ويقول: الحق بنا ترافقنا فى الجنة؛ فقد وجدت ما وعدنى ربى حقًّا، وقد والله يا ر سول الله ﷺ أ صبحت م شتاقًا إلى مرافقته فى الجنة، ورق عظمى وأحببت لقاء ربى؛ فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيدًا (١).

وَهْبُ المزَنِيُّ وَابنُ أَخِيهِ رضى الله عنهما:

أقبل وهب بن قابوس المزنى ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة، فوجد المدينة خلوا فسألا: أين الناس؟ فقالوا: بأحد، خرج رسول ﷺ يقاتل المشركين من قريش فقالا: لا ينبغى أثرًا بعد عين فخرجا؛ حتى أتيا النبى ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه، فأغارا مع المسلمين فى النهب، وجاءت الخيل من وراءهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل فاختلطوا فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين فقال رسول الله ﷺ : «**من لهذه الفرقة؟**» فقال وهب بن قابوس أنا يا رسول الله ﷺ، فقام فرماهم بالنبل؛ حتى انصرفوا ثم رجع فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله ﷺ : «**من لهذه الكتيبة؟**» فقال المزنى: أنا يا رسول الله ﷺ فقام فذبها بالسيف؛ حتى ولوا ثم رجع المزنى ثم طلعت كتيبة أخرى فقال: «**من يقوم لهؤلاء؟**» فقال المزنى: أنا يا رسول الله ﷺ فقال: «**قم وأبشر بالجنة**» فقام المزنى م سرورًا يقول: والله لا أقيل ولا أ ستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله ﷺ ينظر إلى المسلمين حتى خرج من أقصاهم

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٣٢).

ورسول الله ﷺ : «**اللهم ارحمه**» ثم يرجع فيهم فما زال كذلك وهم محدقون به؛ حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم، فقتلوه فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح كلها قد خلصت إلى مقتل، ومثل به أقبح المثلة يومئذ ثم قام ابن أخيه فقاتل قتاله حتى قتل.

عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ رضى الله عنه:

قال ابن إسحاق: إن عمرو بن الجموح كان رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأُسْد، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له: إن الله – عز وجل– قد عذرك فأتى رسول الله ﷺ فقال: «**إن بنيَّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه، والخروج معك فيه فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة**»، فقال رسول الله ﷺ : «**أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك**» وقال لبنيه: «**ما عليكم أن لاتمنعوه؛ لعل الله يرزقه الشهادة**» فخرج معه فقتل يوم أحد [١].

أَبُو حُذَيْفَةَ بنِ اليَمَان وثابت بن اليمان رضى الله عنهما

لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رفع حسيل بن جابر وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان، وثابت بن وقش فى الآطام[٢] مع النساء والصبيان فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: ما أبا لك ما تنتظر فوالله لا بقى الواحد منا من عمره إلا ظمأ حمار[٣] إنما نحن هامة[٤] اليوم أو غدًا، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ فأخذ أسيافها ثم خرجا؛ حتى دخلا فى الناس ولم يعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر فاختلف عليه أسياف المسلمين فقتلوه، ولا

(١) ابن هشام (١/ ٤٤٦ - ٤٤٧).

(٢) الآطام: الحصون.

(٣) ظمأ الحمار: مقدار ما بين شربتي حمار، وأقصر الأظماء ظمأ الحمار.

(٤) هامة: أي نموت اليوم أو غدًا.

يعرفونه فقال حذيفة: أبى، فقالوا: والله ما عرفناه (وصدقوا) فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسـول الله ﷺ أن يديه - يعطيه الدية- فتصدق به حذيفة على المسلمين فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيرًا [1].

الأُمُورُ بِخَوَاتِيمِهَا:

إن الأمور بخواتيمها وقد وقع فى غزوة أحد ما يحقق هذه القاعدة المهمة فى هذا الدين فقد وقع حادثان يؤكدان هذا الأمر فيهما عبرة وعظة لكل مسلم:

شَأْنُ الأصيرم رضى الله عنه:

اسمه عمرو بن ثابت بن وقش، عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وروى قصته أبو هريرة - رضى الله عنه- : إن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه فجاء ذات يوم ورسول الله ﷺ وأصحابه بأحد فقال: **«أين سعد بن معاذ؟»** فقيل: بأحد، فقال: **«أين بنو أخيه»** ؟، قيل: بأحد فسأل عن قومه، فقيل: بأحد، فبدا له الإ سلام فأ سلم، وأخذ سيفه ورمحه وأخذ لأمته وركب فر سه فعدا؛ حتى دخل فى عرض الناس، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إنى قد آمنت فقاتل؛ حتى أثخنته الجراحة، فبينما رجال من بنى عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذا هم به فقالوا: والله إن هذا للأصيرم ما جاء به لقد تركناه وإنه منكر لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك؟ أحرب على قومك أم رغبة فى الإسلام؟ فقال: بل رغبة فى الإسلام آمنت بالله تعالى ورسوله ﷺ وأسلمت، ثم أخذت سيفى فغدوت مع رسول الله ﷺ ثم قاتلت؛ حتى أ صابنى ما أ صابنى، وإن مت فأموالى إلى محمد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: **«إنه من أهل الجنة»** وقيل: مات فدخل الجنة، وما صلى من صلاة فقال النبي ﷺ : **«عمل قليلاً وأجر كثيرًا»** [2].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٣٢٩ - ٣٣٠، ابن هشام ص ٤٤٣.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٣٥ - ١٣٦).

شَأْنُ مخيريق:

لما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين جمع قومه اليهود وقال لهم: يا معشر اليهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت قال: لا سبت لكم.

فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أصبت فما لى لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه؛ حتى قتل فقال رسول الله ﷺ : «**مخيريق خير يهود**» [1].

إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ:

كان ممن قاتل يوم أحد رجل يدعى: قزمان وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر له: «**إنه لمن أهل النار**» فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديدًا فقتل -وحده- ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة، فاحتمل إلى دار بنى ظفر فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر قال: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى؛ ولولا ذلك ما قاتلت فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهمًا من كنانته فقتل نفسه[2].

ثَانِيًا: مَقْتَلُ أُبَيِّ بنِ خَلَفٍ:

كان أبى بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول: يا محمد إن عندى العود فرسًا أعلفه كل يوم أقتلك عليه، فقال رسول الله ﷺ : «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**».

فلما كان يوم أحد وأسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول: أي محمد لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال ﷺ : «**دعوه**» فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٣٥ - ١٣٦).
(٢) ابن هشام (١ / ٤٤٤).

الحارث بن الصمة، فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه من حوله تطاير الشعراء[1] عن ظهر البعير إذا انتقض بها ثم ا ستقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ [2] منها عن فرسه مرارًا فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشًا غير كبير فاحتقن الدم قال: قتلنى - والله- محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لى بمكة أنا أقتلك، فوالله لو بصق على لقتلنى، فمات عدو الله بسرف[3] وهم قافلون به إلى مكة[4].

* * *

(١) الشعراء: ذباب له لدغ.

(٢) تدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.

(٣) سرف: موضع على ستة أميال من مكة.

(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٣٨).

مَا بَعْدَ المعْرَكَةِ

تَفَاخُرُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى المسْلِمِينَ بَعْدَ المعْرَكَةِ وَحَدِيثُهُ مَعَ عُمَرَ:

عندما أراد أَبُو سـُفْيَانَ الانصـراف وَأَشْـرَفَ على الجبل فَقَالَ أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ: «**فَقَالَ لا تُجِيبُوهُ**» فَقَالَ أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ[1]: «**لا تُجِيبُوهُ**» فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلاءِ قُتِلُوا فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لأَجَابُوا، فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسـَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ [2]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**أَجِيبُوهُ**» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**» قَالَ أَبُو سـُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَّى وَلا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**أَجِيبُوهُ**» قَالُوا: مَا نَقُولُ: قَالَ قُولُوا: «**اللَّهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ**» قَالَ أَبُو سـُفْيَانَ: أنعمت فعال [3] يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ وَتَجِدُونَ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي.

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: لا سَوَاءً قَتْلانَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتْلاكُمْ فِي النَّارِ.

ثم قال أبو سـفيان: هلم إليَّ يا عمر فقال رسـول الله ﷺ : «**ائته فانظر ما شأنه؟**» فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدًا؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسـتمع كلامك الآن، قال: أنت أصـدق عندى من ابن قمئة وأبر.

ولما انصـرف أبو سـفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «**قل نعم هو بيننا وبينك موعد**» [4].

(١) (صحيح): رواه البخاري ٤٠٤٣، السيرة النبوية الصلابي (٢ /١٤١).

(٢) اعل هبل: ظهر

(٣) أنعمت فعال: أي ارتفع.

(٤) الرحيق المختوم (١ / ٤٤٨).

خُرُوجُ عَلِيٍّ فِي آثَارِ المشْرِكِينَ:

بعث رســـول الله ﷺ على بن أبى طالب فقال: «**اخرج فى آثار القوم؛ فانظر ماذا يصـــنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل**[١] **وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذى نفسى بيده لئن أرادوهما لأســـيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم**» قال علي: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة[٢].

تَفَقُّدُ الرَّسُولِ ﷺ لِلشُّهَدَاءِ وَدَفْنُهُم:

بعد أن انســحب أبو ســفيان من أرض المعركة ذهب الرســول ﷺ؛ ليتفقد أ صحابه – ر ضى الله عنهم– فمر على بعـضهم، ومنهم حمزة بن عبد المطلب ومصــعب بن عمير وحنظلة بن أبى عامر وســعد بن الربيع والأصــيرم وبقية الصــحابة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ ابْنِ صـُعَيْرٍ قَالَ: لَمَّا أَشْـرَفَ رَسـُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ فَقَالَ[٣]:«**أَنَا شهيد عَلَى هَؤُلاءِ مَا مِنْ جريح جُرِحَ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلا بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَدْمَى اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْـــكِ انْظُرُوا أَكْثَرَهُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ فَقَدِّمُوهُ أَمَامَهُمْ فِي الْقَبْرِ**».

وفي البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – رَضــِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ[٤]:«**أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ**» فَإِذَا أُشـِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ وَقَالَ: «**أَنَا شَـهِيدٌ عَلَى هَؤُلاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وعن جابر بن عبدالله، أمر بقتلى أحد أن يردوا إلى مصـــارعهم وكانوا قد نقلو إلى المدينة[٥].

(١) جنبوا الخيل: قادوها إلى جنوبهم.

(٢) ابن هشام (١ / ٤٤٨).

(٣) رواه أحمد ٢٣١٤٥.

(٤) رواه البخاري ١٣٤٣.

(٥) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٤٢ - ١٤٣).

حُزْنُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى عَمِّهِ حَمْزَةَ وَتَوَعُّدُهُ المشْرِكِينَ بِالمثلَةِ:

ولما رأى رسـول الله حمزة بن عبد المطلب وقد مثل به حزن حزنًا شـديدًا، وبكى حتى نشغ[1] من البكاء[2] وقال ﷺ : **«لولا أن تحزن صفية ويكون سنة من بعدى لتركته؛ حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم».**

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا: والله لئن ظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب.

ولما وقف رسـول الله ﷺ على حمزة قال: **«لن أصـاب بمثلك أبدًا! ما وقفت موقفًا قط أغيظ إليَّ من هذا»** ثم قال: **«جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله»** [3].

النهى عن المثلة:

قال ابن إسحاق عن ابن عباس: إن الله – عز وجل– أنزل فى قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٦ – ١٢٨] **فعفا** رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة، روى ابن إسحاق بسنده عن سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ فَسَأَلْتُهُ فقَالَ[4]: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَانَا عَنْ الْمُثْلَةِ[5].

(١) النشغ: الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشى.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٤٣).
(٣) ابن هشام (١ / ٤٤٩ - ٤٥٠).
(٤) رواه أبو ادود ٢٦٦٧، ابن هشام (١/ ٤٥٠).
(٥) ابن هشام (١/ ٤٥٠).

دُعَاءُ الرَّسُولِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ:

صلى رسول الله ﷺ الظهر يوم أحد قاعدًا من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعودًا[1] ولَمَّا انْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا**» فَقَالَ[2]:«**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ اللَّهُمَّ لا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ وَلا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ وَلا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لا يَحُولُ وَلا يَزُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنْ الرَّاشِدِينَ اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلا مَفْتُونِينَ اللَّهُمَّ قَاتِلْ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ اللَّهُمَّ قَاتِلْ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ**» [3].

الرُّجُوعُ إِلَى المدِينَةِ وَنَوَادِرُ الحُبِّ وَالتَّفَانِي:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف راجعًا إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفانى من المؤمنات الصادقات كما ظهرت من المؤمنين فى أثناء المعركة؛ لقيته فى الطريق حمنة بنت جحش فنعى إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت! فقال رسول الله ﷺ : «**إن زوج المرأة منها لبمكان**».

ومر بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد فلما

(١) ابن هشام (١/ ٤٤٢).

(٢) رواه أحمد١٥٠٦٦، الرحيق المختوم ص ٤٥١.

(٣) الرحيق المختوم ص ٤٥١.

نعوا لها قالت: فما فعل ر سول الله ﷺ قالوا خيرًا يا أم فلان؛ هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه؛ حتى أنظر إليه فأ شير إليها، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل، تريد صغيرة.

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد آخذ بلجام فرسه فقال: يا رسول الله أمي، فقال: «**مرحبًا بها**» ووقف لها فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ فقالت: أما إذا رأيتك سالمًا فقد اشتويت المصيبة[1] ثم دعا لأهل من قتل بأحد، وقال: «**يا أم سعد ابشرى وبشرى أهلهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعًا، وقد شفعوا فى أهلهم جميعًا**».

قالت: رضينا يا رسول الله ﷺ ومن يبكى عليهم بعد هذا ثم قالت: يا رسول الله ﷺ ادع لمن خلفوا، فقال: «**اللهم أذهب حزن قلوبهم واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خُلِّفُوا**» [2].

غَسْلُ السّيُوفِ:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم يوم السبت السابع من شهر شوال سنة٣هـ إلى المدينة [3]، فلما انتهى ر سول الله ﷺ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة فقال: «**اغسلى عن هذا دمه يا بنية؛ فوالله لقد صدقنى اليوم**» وناولها على بن أبي طالب سيفه فقال: وهذا أيضًا فاغسلى عنه دمه؛ فوالله لقد صدقنى اليوم فقال رسول الله ﷺ : «**لئن كنت صدقت القتال صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة**» [4].

(١) اشتويت المصيبة: استقللتها.

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٥٢.

(٣) الرحيق المختوم ص ٢٥٢.

(٤) ابن هشام (١/ ٤٥٤).

قَتْلَى الفَرِيقَيْنِ:

اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار فقد قتل منهم خمسة و ستون رجلاً واحد، وأربعون من الخزرج، وأربعة وعشرون من الأوس، وقتل رجل من اليهود، وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً، ولكن الإحصاء الدقيق بعد تعميق النظر فى جميع تفاصيل المعركة التى ذكرها أهل المغازى والسير والتى تتضمن ذكر قتلى المشركين فى مختلف مراحل المعركة يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون لا اثنان وعشرون والله أعلم[1].

مَصِيرُ شُهَدَاءِ أُحُدٍ:

قال ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [2]:«**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ وَحُسْنَ مُنْقَلَبِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا لِئَلا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلا يَنْكُلُوا[3] عَنْ الْحَرْبِ**»، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلاءِ الآيَاتِ عَلَى رَسُولِهِ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ – ١٧٠] [4].

(١) الرحيق المختوم ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٢) رواه أحمد٢٣٨٤، ابن هشام (١ / ٤٥٩).

(٣) لا ينكلوا: لا يجبنوا ولا ينكصوا.

(٤) ابن هشام (١ / ٤٥٩).

غَزْوَةُ حَمْرَاءِ الأَسَدِ:

لما عاد أبو سفيان وأصحابه نظر بعضهم إلى بعض، وتلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا؛ أصبتم شوكتهم وحدهم ثم تركتموهم، وقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم؛ فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم وقال: «**لا يخرج معنا إلا من شهد القتال**».

فقال له عبد الله بن أبى: أركب معك، قال: «**لا**» فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا: سمعًا وطاعة، واستأذن جابر بن عبد الله وقال: يا رسول الله إنى أحب ألا تشهد مشهدًا إلا كنت معك، وإنما خلفنى أبى على بناته، فأذن لي أسير معك فأذن له فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه؛ حتى بلغوا حمراء الأسد[1] وأقبل معبد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله ﷺ فأسلم فأمره أن يلحق بأبى سفيان فيخذِّله، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد، فقال: محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم وخرجوا فى جمع لم يخرجوا فى مثله.

وقد ندم من كان تخلَّف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل؛ حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال: فلا تفعل؛ فإنى لك ناصح، فرجعوا على أعقابهم إلى مكة، ولقى أبو سفيان بعض المشركين؛ يريد المدينة فقال: هل لك أن تبلِّغ محمدًا رسالة وأوقر لك راحلتك زبيبًا إذا أتيت إلى مكة قال: نعم. أبلغ محمدًا أنا قد أجمعنا الكرة؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه فلما بلغهم قوله قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤] [2].

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة عن يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٤١.

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد بعد مقدمه يوم الأحد - الاثنين- الثلاثاء- الأربعاء - ٩، ١٠، ١١ شوال سنة ٣ هـ - ثم رجع إلى المدينة وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحى، وهو الذى كان قد منَّ عليه من أسارى بدر؛ لفقره وكثرة بناته، على ألا يظاهر عليه أحدًا، ولكنه نكث وغدر فحرض الناس بشعره على النبى ﷺ وخرج؛ لمقاتلتهم فى أحد فلما أخذه رسول الله ﷺ قال: يا محمد أقلنى وامنن على ودعنى لبناتى، وأعطيك عهدًا ألا أعود لمثل ما فعلت فقال ﷺ : **«لا تمسح عارضيك بمكة، وتقول: خدعت محمدًا مرتين لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»** ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه [1].

كما أمر ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر بقتل معاوية بن المغيرة بعد حمراء الأسد، وكان قد لجأ إلى عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه، على أنه إن وجد بعد ثلاث قتل، فأقام بعد ثلاث وتوارى فبعثهما النبى ﷺ وقال: **«إنكما ستجدانه بموضع كذا»** وكذا فوجداه فقتلاه [2].

الدُّرُوسُ المستَفَادَةُ مِنَ المعْرَكَةِ:

تنطوى غزوة أحد على دروس بالغة الأهمية للمسلمين فى كل عصر من العصور فلنتأمل هذه الدروس العظيمة:-

١- التزام الرسول ﷺ مبدأ التشاور مع أصحابه فى كل أمر يحتمل المشاورة والبحث مع وجود فارق واحد لم نجده من قبل؛ وهو رفض الر سول ﷺ أن يعود على موافقته لأصحابه الذين اقترحوا الخروج للقاء العدو وخارج المدينة بعد أن لبس درعه وأخذ أهبته للقتال رغم أنهم ندموا وعادوا عن رأيهم ورجوه البقاء إذا كان يرى ذلك.

(١) الرحيق المختوم ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٢) ابن هشام (١ / ٤٥٧ - ٤٥٨).

ولعل الحكمة من ذلك أن الأمور والقضـايا الحربية تحتاج مع المشـورة إلى قدر كبير من الحزم والعزم فكيف يتراجع بعد أن لبس درعه وأخذ أهبته للقتال كما أن المعنى الذى قد يتولد عن تقاعسـه ﷺ عن الخروج بعد أن طلع عليهم مستعدًّا؛ لذلك إنما هو الضعف والاضطراب فى الإرادة وهو كثيرًا ما يكون نابعًا من الخوف والحذر الذى لا معنى له؛ ولذلك أجابهم بعبارة فيها كل الجزم والعزم دون أن يلتفت إلى لغط القوم وتعاقبهم فيما بينهم قائلا: **«ما ينبغى لنبى لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»**.

٢- انسـحاب عبد الله بن أبى ابن سـلول بثلث الجيش؛ لأنه لا يريد أن يعرض نفسه هو ومن معه لمخاطر القتال كشف المنافقين وأظهر قوة وإخلاص المؤمنين.

٣- رفض النبى ﷺ الاستعانة بغير المسلمين رغم قلة عدد المسلمين وقال: **«لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك»**.

٤- ومما يجدر التأمل فيه حال سمرة بن جندب ورافع بن خديج وهما طفلان لا يزيد عمر كل منهما على خمس عشـرة سـنة، وكيف جاءا يناشـدان الرسول ﷺ أن يسمح لهما بالاشتراك فى القتال؛ وأى قتال؟! قتال قائم على التأهب للموت لا تجد فيه أي معنى من التعادل بين الفريقين: المسـلمين وعددهم لا يزيد على سبعمائة، والمشركين وهم يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل.

إن سـر هذا الإقدام على الموت من مثل هؤلاء الأطفال إنما هو الإيمان العظيم الذى استحوذ على القلب والذى ترتبت عليه محبة عارمة لرسول الله ﷺ فحيثما وجد الإيمان ووجدت هذه المحبة، ظهر هذا الإقدام والاسـتبسـال، وحيثما ضـعف الإيمان وضـعفت المحبة فى القلب انقلب الإقدام إحجامًا والاستبسال كسلاً وتقاعسًا.

٥- إذا تأملنا حال رسول الله ﷺ وهو ينظم صفوف أصحابه ويرتب أجنحتهم، ويضع الحامية اللازمة فى مؤخرة المسلمين، ويأمر الرماة أن لا يغادروا أماكنهم مهما وجدوا من أمر إخوانهم المقاتلين؛ حتى يتلقوا الأوامر منه ﷺ اتضحت لنا حقيقة بارزة، ولاحت لنا من ورائها ظاهرة هامة:

أما الحقيقة البارزة فهى البراعة العسكرية التى كانت تتصف بها قيادته ﷺ فى الحروب، ولا ريب أن الله - تعالى- قد جهزه بعبقرية نادرة فى هذا المجال، ولكننا نقول: إن هذه العبقرية والبراعة إنما يأتى كل منهما من وراء نبوته ورسالته السماوية.

وأما الظاهرة التى تلوح للتأمل من خلال توصياته الدقيقة لأصحابه عامة وللرماة خاصة فهى ظاهرة ذات علاقة وثيقة بما قد تم بعد ذلك من خروج بعض الرماة على أوامره ﷺ، فكأن النبى ﷺ قد استشف بفراسة النبوة أو بوحى من الله - تعالى- هذا الذى قد حدث فيما بعد فراح يؤكد التوصيات والأوامر، وكأنه فى ذلك يُجرى مع أصحابه مناورة حية مع عدو لهم هو النفس وأهواؤها وما تنطوى عليه من طمع فى المال والغنائم والمناورة؛ مهما كانت نتيجتها تفيد فائدة عظيمة، وربما كانت النتيجة السلبية أدعى للاستفادة من النتيجة الإيجابية.

٦- إذا تأملنا مدة الحرب التى استمرت بين المسلمين وأعدائهم فى هذه الغزوة وجدناها تنقسم إلى شطرين:

الشطر الأول: وفيه التزم المسلمون أماكنهم وأوامرهم التى كانوا قد تلقوها من قائدهم ﷺ، فكان من ثمرة ذلك سارع النصر إلى المسلمين وسارعت الهزيمة إلى صفوف المشركين، واكتسح الرعب أفئدة الآلاف الثلاثة فانحسروا عن أماكنهم وأخذوا يولون الأدبار، وهذا الشطر هو الذى علقت عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾[آل عمران: ١٥٢].

الشطر الثانى: وفيه أخذ المسلمون ينطلقون خلف المشركين ليجهزوا على من يدركونه منهم، وليأخذوا الغنائم والأسلاب.

وحينئذ خالف الرماة أوامر الرســـول ﷺ فنزلوا من فوق الجبل وانطلقوا يشاركون فى أخذ الغنائم؛ ظنًّا منهم أن الفترة الزمنية للأوامر التى تلقوها من رســـول الله ﷺ قد انتهت وقد خالفهم فى هذا الاجتهاد بعض زملائهم، وفى مقدمتهم عبد الله بن جبير فماذا كانت النتيجة؟.

انقلب الرعب الذى داهم أفئدة المشـركين إلى اسـتبسـال جديد فنظر خالد بن الوليد حوله فوجد الجبل المحصـــن قد خلا من حراســـه؛ فلمعت الفكرة العسكرية في رأسه، وما هو إلا أن استدار إلى الجبل مع من معه من المشركين، فقتلوا من بقى الرماة، وأوجعوا المســـلمين رميًا بالســـهام من خلفهم، وجاء الرعب هذه المرة ليغزوا أفئدة المسـلمين كما رأينا وهذا الشـطر من المعركة هو الذى علقت عليه الآية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

لقد كان وبال هذه الخطيئة جسـيمًا، وكانت نتيجتها عامة على المســلمين جميعًا؛ بحيث لم ينجُ حتى رســـول الله ﷺ من نتائجها، وتلك هى ســـنة الله فى الكون لم يمنعها من الا ستمرار أن ر سول الله ﷺ موجود فى ذلك الجيش، وأنه أحب الخلق إلى ربه – جل جلاله– فلنتأمل فى نسـبة خطيئة أولئك الأفراد إلى أخطاء المســلمين المختلفة والمتنوعة اليوم والمتعلقة بشـتى نواحى الحياة، نتأمل هذا لنتصـــور مدى لطف الله بالمســـلمين إذ لا يهلكهم بما تكســـب أيديهم وبتقاعسهم حتى عن أداء واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والاجتماع فى كلمة واحدة على ذلك.

ولنعرف لماذا تظل الدولة الإ سلامية مغلوبة على أمرها أمام الدول الباغية الأخرى رغم أن هؤلاء كفرة وأولئك مسلمون!.

٧- لقد رأينا كيف أوذى النبى ﷺ كثيرًا فى هذه الغزوة؛ نتيجة لخطيئة أولئك الرماة، ولكن ما الحكمة فى أن يشيع خبر مقتل الرسول ﷺ بين صفوف المسلمين؟.

إن ارتباط المسلمين برسول الله ﷺ ووجوده فيما بينهم كان من القوة؛ بحيث لم يكونوا يتصورون فراقه ولم يكونوا يتخيلون قدرة لهم على التماسك من بعده، فكان أمر وفاة رسول الله ﷺ شيئًا ريخطر لهم فى بال؛ فكان من الحكمة الباهرة أن تشيع هذه الشائعة كتجربة درسية بين تلك الدرووس العسكرية العظيمة كى يستفيق المسلمون من ورائها إلى الحقيقة التى ينبغى أن يظنوا أنفسهم لها منذ الساعة، وإن لا يرتدوا على أعقابهم إذا وجدوا أن رسول الله ﷺ قد اختفى مما بينهم، وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد كان لذلك أثره الإيجابى يوم أن لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، فقد أيقظت هذه الشائعة وما نزل بسببها من القرآن المسلمين ونبهتهم إلى الحقيقة، فودعوا رسول الله ﷺ بقلوبهم الحزينة ثم رجعوا إلى الأمانة التى تركها بين أيديهم أمانة الدعوة والجهاد فى سبيل الله؛ فنهضوا بها أقوياء بإيمانهم أ شداء فى عقيدتهم وتوكلهم على الله.

٨- ولنتأمل ما فعله الصحابة للدفاع عن رسول الله ﷺ وهم يحمونه بأجسادهم من نبال المشركين وضرباتهم يتساقطون الواحد منهم إثر الآخر تحت وابل السهام للحفاظ على حياته ﷺ لا يبالون بغير ذلك، وهذا يرجع إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ ثم محبة رسوله ﷺ فهما معًا سبب هذه التضحية الرائعة.

ويوم تمتلئ أفئدة المســـلمين فى عصـــرنا هذا بنحو من هذه المحبة؛ بحيث تبعدهم عن شهواتهم وأنانيتهم سيتغلبون على أعدائهم مهما كانت العقبات.

وإذا ســـألت عن الســـبيل إلى هذه المحبة فاعلم أنها فى كثرة الذكر وكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ، وفى كثرة التأمل والتفكير فى آلاء الله وفى سيرة الرســـول ﷺ وأخلاقه وشمائله، وهذا كله بعد الاســـتقامة على العبادات فى خشية وحضور والتبتل إلى الله – عز وجل- بين الحين والآخر.

٩- وإذا تأملنا فيما أقدم عليه رســـول الله ﷺ مع أصـــحابه فور عودته إلى المدينة من الخروج ثانية للحاق بالمشركين، اتضح لنا درس معركة أحد اتضاحًا كاملاً بآثاره السلبية والإيجابية، وظهر لنا بما لا يدع مجالاً للتوهم أن النصر إنما يكون مع الصبر وإطاعة أوامر القائد الصالح واستهداف القصد الدينى المجرد.

فقد رأينا أن النبى ﷺ لم يكد يؤذن فى الناس للخروج مرة أخرى؛ لطلب العدو حتى تجمع أولئك الذين كانوا معه بالأمس مع ما بهم من الجروح والآلام تطلعًا إلى النصر أو الاستشهاد فى سبيل الله، فلم يكن فيهم هذه المرة من يطمع فى غنيمة أو غرض دنيوى، فكان نتيجة ذلك أن وقع الرعب فى قلوب المشـــركين، وانقلبوا عائدين إلى مكة بعد أن كانوا يأتمرون بالرجوع إلى المدينة(١).

(١) فقه السيرة للبوطي (١٨٨ - ١٩٦) بتصرف.

أَهَمُّ الأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ أُحُدٍ وَالخَنْدَق

مُحَاوَلَاتُ المشْرِكِينَ لِزَعْزَعَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ:

كانت غزوة أحد مشجعة لأعداء الدولة الإ سلامية على مواجهتها و ساد الشعور لدى الأعراب المشركين بإمكان مناوشة المسلمين والتغلب عليهم، واتجهت أنظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة؛ لاستئصال شأفتهم وكسر شوكتهم، فطمعت بنو أسد فى الدولة الإسلامية وشرع خالد بن سفيان الهزلى لجمع الحشود؛ لكى يهاجم بها المدينة، وتجرأت عضل والقارة على خداع المسلمين، وقام عامر بن الطفلى بقتل القراء الدعاة الآمنين، وحاولت يهود بنى النضير أن تغتال رسول الله ﷺ فتصدى لهذه المحاولات الماكرة الحبيب المصطفى ﷺ بشجاعة فائقة و سياسة ماهرة وتخطيط سليم وتنفيذ دقيق، وفيما يلى عرض لهذه المحاولات[1].

سَرِيَّةُ أَبِي سَلَمَةَ:

أول من كان ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية؛ قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا فى الأمر وأصاب المسلمون إبلاً وشاء لهم فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربا.

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤هـ، وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه فى أحد فلم يلبث حتى مات[2].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٧٥).

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٥٨.

بَعْثُ عَبْدِاللَّهِ بنِ أُنَيْسٍ:

وفى اليوم الخامس من نفس الشهر المحرم سنة٤هـ نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهزلى يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبى ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضى عليه، وظل عبد الله بن أنيس غائبًا عن المدينة ثمانى عشرة ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم وقد قتل خالد وجاء برأسه فوضعه بين يدى النبى ﷺ فأعطاه عصا وقال: «**هذه آية بينى وبينك يوم القيامة**» فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه فى أكفانه(١).

بَعْثُ الرَّجِيعِ:

وفى شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة وذكروا أن فيهم إسلامًا، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فبعث معهم ستة نفر فى قول ابن إسحاق وفى رواية البخارى أنهم كانوا عشرة وأمر عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى فى قول ابن إسحاق، وعند البخارى أنه عاصم ابن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب، فذهبوا معه فلما كانوا بالرجيع (٢) استصرخوا عليهم حيًّا من هذيل يقال لهم: بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رام واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم فأحاطوا بهم وكانوا قد لجأوا إلى فدفد(٣) وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً (٤)، فأما مرثد بن أبى مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا فقال عاصم بن ثابت:

(١) الرحيق المختوم ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) بالرجيع: ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة.

(٣) فدفد: مكان مرتفع.

(٤) الرحيق المختوم ص ٢٥٩.

ما علتى وأنا جلد نابل[١]   والقوس فيها وتر عنابل[٤]
نزل عن صفحتها المعابل[٢]   الموت حق والحياة باطل
وكل ما حم الإله[٣] نازل   بالمرء والمرء إليه آئل
إن لم أقاتلكم فأمى هابل[٥]

فرماهم عاصم بالنبل؛ حتى فنيت نبله ثم طاعنهم بالرمح؛ حتى كسر رمحه، وبقى السيف فقال: اللهم حميت دينك أول نهارى فاحم لى لحمى آخره، وكانوا يجردون كل من قتل من أ صحابه فكسر غمد سيفه، ثم قاتل حتى قتل وقد جرح رجلين وقتل واحدًا، وكان يقول وهو يقاتل:

أنا أبو سليمان[٦] ومثلى رامى   ورثت مجدًا معشرًا كرامًا

ثم شرعوا فيه الأسنة حتى قتلوه[٧] فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها الحارث ومسافعًا يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفة الخمر فمنعه الدبر [٨] فلما حالت بينه وبينهم الدبر قالوا: دعوه حتى يمسى فتذهب عنه فنأخذه فبعث الله الوادى فاحتمل عاصمًا فذهب به فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: حين بلغه أن الدبر منعته يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا فى حياته

(١) نابل: الذي يعمل بالنبل.
(٢) المعابل: جمع معبلة وهو نصل طويل وعريض.
(٣) حم الإله: قدره.
(٤) عنابل: الوتر الغليظ وقيل: الصلب.
(٥) ابن هشام (١ / ٤٦٢).
(٦) كان عاصم يكنى أبا سليمان.
(٧) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٨١).
(٨) الدبر: الزنانير والنحل.

فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه فى حياته [1] فقتل عاصم فى سبعة من أفراد السرية بالنبال، ثم أعطى الأعراب الأمان من جديد للثلاثة الباقين فقبلوا غير أنهم سـرعان ماغدروا بهم بعد ما تمكنوا منهم، وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه، واقتادوا الاثنين إلى مكة وهما خبيب وزيد بن الدثنة، فباعوهما لقريش.

فأما خبيب بن عدى فقد اشـتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بالحارث الذى قتله خبيب يوم بدر، فمكث عندهم أ سيرًا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث؛ ليستحد بها فأعارته، وغفلت عن صبى لها فجلس على فخذه ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاما منه فقال خبيب: أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى فكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق فى الحديد، وما كان إلا لرزق رزقه الله فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعونى أصلى ركعتين ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا مابى جزع من الموت لزدت فكان أول من سـن الركعتين عند القتل ثم قال: اللهم أحصهم عددا وقاتلهم بددًا ولا تبق منهم أحدًا ثم قال[2]:

لقد أجمع الأحزاب حولى وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونسائهم ... وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتى بعد كربتى ... وما جمع الأحزاب لى عند مضجعى
فذا العرش صبرنى على ما يراد بى ... فقد بضعوا لحمى وقد بؤس مطمعى
وقد خيرونى الكفر والموت دونه ... فقد زرفت عيناى من غير مدمع
ولست أبالى حين أقتل مسلمًا ... على أى شق كان فى الله مضجعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع[3]

(١) ابن هشام (١ / ٤٦٢ - ٤٦٣).
(٢) السيرة النبوية (٢ / ١٨٢).
(٣) سيرة الرسول أبو عمار ٣٤٩ - ٣٥٠.

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمدًا عندنا يضرب عنقه وإنك فى أهلك؟ فقال: لا والله ما يسرنى أنى فى أهلى وأن محمدًا فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكه تؤذيه ثم قتل و صلبوهٍ ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمرى فاحتمله بجذعه ليلاً فذهب به ودفنه.

وأما زيد بن الدثنة فاشتراه صفوان بن أمية وقتله بأبيه أمية بن خلف الذى قتل بدر وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك، فقال: والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكه تؤذيه وإنى جالس فى أهلى فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا [١].

مَأْسَاةُ بِئْرِ مَعُونَة:

وفى الشهر نفسه الذى وقعت فيه مأساة الرجيع، وقعت مأساة أخرى أشد وأقطع من الأولى وهى التى تعرف ببئر معونة:

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك المدعو بمُلاعب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال يا رسول الله ﷺ : لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: «**إنى أخاف عليهم أهل نجد**» فقال أبو براء: أنا جار لهم، فبعث معه أربعين رجلاً فى قول ابن إسحاق وفى الصحيح أنهم كانوا سبعين وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب بالمُعنِق ليموت[٢]، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، فساروا يحتطبون بالنهار يشترون به الطعام لأهل الصفة ويتدارسون القرآن، ويصلون بالليل؛ حتى نزلوا بئر معونة وهى

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٨٣ - ١٨٤).

(٢) المعنق ليموت: لقب بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة.

أرض بين بنى عامر وحرَّة بنى سليم، فنزلوا هناك ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتابٍ رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلم ينظر فيه وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

ثم استنفر عدو الله لفوره بنى سليم فأجابته عُصيَّة ورعل وذكوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ فقاتلوا؛ حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار فإنه ارتُثَّ [(١)] من بين القتلى فعاش؛ حتى قتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن عقبة بن عامر فى سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة فنزل المنذر فقاتل المشركين؛ حتى قتل مع أصحابه وأسر عمرو بن أمية الضمرى فلما أخبر أنه من مُضَر جَزَّ عامر ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبى ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح مصرع سبعين من أفاضل المسلمين تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتال واضح، وأولئك ذهبوا فى غدرة شائنة[(٢)].

ولما كان عمرو بن أمية فى الطريق قاصدًا المدينة نزل فى طريقه فى ظل والتقى برجلين من بنى عامر[(٣)] وكان معهم عقد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية وقد سألهما حين نزل ممن أنتما؟ فقالا: من بنى عامر فأمهلهما؛ حتى ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثورة من بنى عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ قال ﷺ : **«لقد قتلت قتيلين لأدينهما»** [(٤)].

(١) ارتث: رُفِعَ وبه جراح.

(٢) الرحيق المختوم ٢٦٠ - ٢٦١.

(٣) وقيل: من بني كلاب.

(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٩٠ - ١٩١).

وقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة ولأجل الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة تألمًا شديدًا، وتغلب عليه الحزن والقلق؛ حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه، ففى الصحيح عن أنس قال: دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا يدعو فى صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية، ويقول: «**عصية عصت الله ورسوله**» فأنزل الله - تعالى- على نبيه قرآنًا قرأناه حتى نسخ بعد: "بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه" فترك رسول الله ﷺ قنوته[1].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

نلاحظ فى حادثة الرجيع وبئر معونة دلالات هامة نجملها فيما يلى:

١- تدل كل من حادثة الرجيع وبئر معونة على اشتراك المسلمين كلهم فى مسئولية الدعوة إلى الإسلام وتبصير الناس بحقيقته وأحكام فليس أمر الدعوة موكولاً إلى الأنبياء والرسل وحدهم أو إلى خلفائهم والعلماء دون غيرهم وإنك لتستشعر مدى أهمية القيام بواجب هذه الدعوة من إرسال النبى ﷺ أولئك القراء الذين بلغت عدتهم سبعين شابًا من خيرة أصحابه ﷺ، ولما يمض أمد طويل على مقتل أولئك النفر الستة الذين كان قد بعثهم فى ذلك السبيل نفسه[2].

٢- حرص خبيب مع أنه فى أسر المشركين، ويعلم أنه سيقتل بين عشية أو ضحاها على سنة الاستحداد واستعار السكين لذلك، وفى هذا تذكير لمن يستهين بكثير من السنن، بل والواجبات بحجة أنه لا ينبغى أن ينشغل المسلمون بذلك للظروف التى تمر بها الأمة وفى الواقع لا منافاة بين تعظيم السنة والدخول فى شرائع الإسلام كافة[3].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٥٥.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ١٩٩.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٨٥).

٣- إذا تجاوزنا ما تنطوى عليه كل من حادثتى الرجيع وبئر معونة من دلالة واضحة على مدى ما كانت تفيض به أفئدة المشركين من غل وحقد على المؤمنين؛ حتى إنهم ارتضوا لأنفسهم أحط مظاهر الخيانة والغدر ابتغاء إطفاء غليل أحقادهم على المسلمين أقول إذا تجاوزنا ذلك، وقفنا على صورة رائعة لعكس هذه الطبيعة تمامًا لدى أولئك المسلمين الذين راحوا ضحية تلك الخيانة والأحقاد، فقد رأيت كيف حبس خبيب - رضى الله عنه- أسيرًا فى بيت بنى الحارث فى انتظار ساعة قتله، وكان قد استعار شفرة ليصلح بها شأنه ويتطهر اسنعدادًا للموت، وفى البيت طفل صغير راح يدرك نحوه فى غفلة من أمه، ولقد كانت هذه اللحظة فى حساب من يتعلق بالحياة ويفكر فى الانتقام فرصة رائعة لمساومة أو غدر فى مقابلة غدر، ولقد كان هذا هو حساب أهل البيت كلهم فما أن انتبهت أم الطفل إلى انصرافه نحو خبيب؛ حتى هبت مذعورة لتخلصه من براثن موت مؤكدًا، ولكنها وقفت مندهشة عندما رأت طفلها، وقد أجلسه خبيب فى حجره يلاطفه كأنه أب شفوق! ونظر إليها وقد ألَمَّ بما فى نفسها من الخوف وقال لها فى هدوء المؤمن الحليم: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل إن شاء الله.

فانظر إلى معجزة التربية الإسلامية للإنسان! خبيب هذا، وأولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يصنعون له الموت ظلمًا وعدوانًا، عرب أنبتتهم أرض واحدة وأظلتهم طبائع وتقاليد واحدة، ولكن خبيبًا اعتنق الإسلام فأخرجه الإسلام إنسانًا آخر، وأولئك عكفوا على ضلالاتهم فحبستهم ضلالاتهم فى طبائعهم المتوحشة الغادرة، فما أعظم ما يفعله الإسلام فى الطبيعة الإنسانية من تغيير وتحويل!.

٤- إذا تأملنا فى جواب زيد بن الدثنة لأبى سفيان قبيل قتله، علمنا مدى المحبة التى تنطوى عليها أفئدة الصحابة لرسول الله ﷺ، ولا ريب أن هذه المحبة من هذه الأسباب التى حببت إلى قلوبهم كل تضحية وبذل فى سبيل دين الله تعالى والدفاع عن رسوله، ومهما بلغ المسلم فى إيمانه فإنه بدون مثل هذه المحبة لرسول الله ﷺ يعتبر ناقص الإيمان وإنها لحقيقة صرح بها رسول الله ﷺ إذ قال[1]: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»**.

* * *

(١) (صحيح): البخارى ١٤، النسائى ٥٠١٥. فقه السيرة للبوطي ٢٠٠ - ٢٠١.

إِجْلاَءُ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ

أصـــاب يهود المدينة الخوف والرعب طيلة الفترة التى تفصـــل بين مقتل كعب بن الأشراف وبين معركة أحد التى جرت فى شوال عام ٣هـــ، ولكن الهزيمة التى حلت بالمسلمين فى تلك المعركة إلى جانب مقتل أصحاب الرجيع وبئر معونة أحيت فى نفوس المشـــركين والمنافقين الأمل من جديد بتحقيق مطامعهم وأغراضـــهم، وأزالت فى قلوب اليهود الهلع فعادوا إلى أســـاليب الدس والمكر والخداع، وشـــرعوا فى حشـــد حصـــونهم يالســـلاح والعتاد للانقضاض على المسلمين ودولتهم ثم صمموا على قتل النبى ﷺ والغدر به [(١)].

تَارِيخُ الغَزْوَةِ وَأَسْبَابُهَا:

وقعت غزوة بنى النضـــير فى ربيع الأول من الســـنة الرابعة للهجرة [(٢)] وذلك لعدة أسباب من أهمها:-

١- نقض بنى النضـــير عهودهم التى تحتم عليهم ألا يؤووا عـدوًّا للمسلمين، ولم يكتفوا بهذا النقض بل أرشدوا الأعداد إلى مواطن الضعف فى المدينة.

وقـد حصـل ذلـك فـى غـزوة السـويق؛ حيـث نـذر أبـو سـفيان بـن حـرب حـين رجـع إلى مكـة بعـد غـزوة بـدر نـذرًا ألا يمـس رأسـه مـاء مـن جنابة؛ حتى يغزو المدينة، فلمـا خـرج فـى مـائتى راكـب قاصـدًا المدينـة قـام سيد بنى النضير سلام بـن مشـكم بـالوقوف معـه وضـيافته وأبطـن لـه خـبر الناس ولم تكن مخابرات المدينة غافلة عن ذلك.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٠٣).
(٢) ابن هشام ١ / ٤٧١.

٢- محاولة اغتيال النبى ﷺ :

خرج النبى ﷺ فى نفر من أصحابه عن طريق قباء إلى ديار بنى النضير يستعينهم فى دية القتيلين العامريين اللذين ذهبا ضحية جهل عمرو بن أمية الضمرى بجوار رسول الله ﷺ لهما وذلك تنفيذًا للعهد الذى كان بين النبى ﷺ وبين بنى النضير حول أداء الديات وإقرارًا لما كان بين بنى النضير وبين بنى عامر من عقود وأحلاف [(١)] فقالوا: نفعل يا أبا القاسم اجلس ها هنا؛ حتى نقضى حاجتك، فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم؛ بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمرو وعلى وطائفه من أصحابه.

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، و سول لهم الشيطان الشقاء الذى كتب عليهم فتآمروا بقتله ﷺ وقالوا: أيكم يأخذ هذه الوحى ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا فقال لهم سلام بن مشكم لا تفعلوا فوالله ليخبرن بما هممتم به وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه، ولكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم.

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به فنهض مسرعًا وتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت به يهود.

إِنْذَارُ بَنِي النَّضِيرِ:

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن سلمة إلى بنى النضير يقول لهم:" اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها وقد أجلتكم عشرًا فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه" ولم يجد اليهود مناصًا من الخروج فأقاموا أيامًا يتجهزون للرحيل؛ إلى أن بعث إليهم عبد الله بن أبى ابن سلول رئيس المنافقين أن اثبتوا

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٠٣ - ٢٠٤).

وتمنَّعوا ولا تخرجوا من دياركم؛ فإن معى ألفين يدخلون حصنكم فيموتون دونكم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحشر: ١١].

وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، فعادت لليهود ثقتهم واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حيى بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك.

حِصَارُ الرَّسُولِ ﷺ لَهُمْ وَإِجْلَاؤُهُم:

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيى بن أخطب كبر وكبر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم، وعلي بن أبى طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار، والتجأ بنى النضير إلى حصونهم فأقاموا عليهم يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم فى ذلك فأمر بقطعها وتحريقها [(١)] فنادوه أن يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها [(٢)]! وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر: ٥].

واعتزلتم قريظة وخانهم عبد الله بن أُبيٍّ وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرًا أو يدفع عنهم شرًّا؛ ولهذا شبه - سبحانه وتعالى- قصتهم وجعل مثلهم: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحشر: ١٦].

(١) الرحيق المختوم ٢٦٢ - ٢٦٣.
(٢) ابن هشام ١ / ٤٧١.

ولم يطل الحصــار فقد دام ســت ليال فقط وقيل: خمس عشــرة ليلة؛ حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب فاندحروا وتهيأ للاســتســلام ولإلقاء الســلاح فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ : نحن نخرج من المدينة فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزلوا على ذلك وخربوا بيوتهم بأيديهم؛ ليحملوا الأبواب والشبابيك بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف ثم حملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ســتمائة بعير فترحل أكثرهم وأكابرهم كحى بن أخطب وســلام بن أبى الحقيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام وأسلم منهم رجلان فقط يامين بن عمرو وأبو ســعد بن وهب فأحرزا أموالهما [1]! ولما غنم ﷺ أموال بنى النضــير دعا ثابت بن قيس فقال: «**ادع لى قومك**»، قال ثابت: الخزرج؟ فقال ﷺ : «**الأنصــار كلها**» فدعا له الأوس والخزرج فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم ذكر الأنصـــار وما صــنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم فى منازلهم وأموالهم وأثرتهم على أنفسهم ثم قال: «**إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله على من بنى النضــير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من الســكنى فى منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتم وخرجوا من دوركم**» فقال ســعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول الله بل نقسم بين المهاجرين، ويكونون فى دورنا كما كانوا، وقالت الأنصــار: رضــينا وســلمنا يا رســول الله وقســم ﷺ ما أفاء الله، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحدًا من الأنصــار شــيئًا غير أبى دجانة وســهل بن حنيف لحاجتهما [2]، وكان ينفق منها على أهله نفقة ســنة ثم يجعل ما بقى من السلاح والكراع [3] عدة فى سبيل الله [4].

(١) الرحيق المختوم ص ٢٦٣.

(٢) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٢١٢.

(٣) الكراع: أي: الدواب التي تصلح للحرب.

(٤) الرحيق المختوم ص ٢٦٣.

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

إذغ تأملنا فى غزوة بنى النضير استخرجنا منها دروسًا:

١- هذه صورة ثانية من طبيعة الغدر والخيانة المتأصلة فى نفوس اليهود وقد رأينا من قبلها صورة أخرى من خيانتهم، فيما أقدم عليه يهود بنى قينقاع وتلك حقيقة تاريخية صدقتها الوقائع التى لا تحصى؛ وذلك هو سر اللعنة الإلهية التى حاقت بهم وسجلها بيان الله تعالى فى قوله: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ ﴾ [المائدة: ٧٨] [1].

٢- قال تعالى فى الآية السابعة من سشورة الحشر التى نزلت فى بنى النضير: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾ [الحشر: ٧].

أى: لكى لا يكون تداول المال محصورًا فيما بين طبقة الأغنياء منكم فقط، والتعليل بهذه الغاية يؤذن بأن سياسة الشريعة الإسلامية فى شئون المال قائمة فى جملتها على تحقيق هذا المبدأ، وأن كل ما تفيض به كتب الشريعة الإسلامية من الأحكام المتعلقة بمختلف شئون الاقتصاد والمال يبتغى من ورائه إقامة مجتمع عادل تتقارب فيه طبقات الناس وفئاتهم، ويقضى فيه على أسباب الثغرات التى قد تظهر فيما بينها والتى قد تؤثر على سير العدالة وتطبيقاتها.

ولو طبقت أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمتها الخاصة بشئون المال من إحياء لشريعة الزكاة ومنع للربا وقضاء على مختلف مظاهر الاحتكارات لعاش الناس كلهم فى بحبوحة من العيش؛ قد يتفاوتون فى الرزق ولكنهم جميعًا مكتفون، وليس فيهم كلٌّ على آخر وإن كانوا جميعًا يتعاونون[2].

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) المصدر نفسه مختصرًا.

٣- لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

كان مكر اليهود وتآمرهم على حياة الرسول ﷺ والدولة الإسلامية فى غاية الخسة والوضاعة، وكانوا يريدون من مكرهم وغدرهم عزة ورفعة ومجدًا؛ لكن الله سخر منهم ونجى رسوله والمسلمين من مكرهم، وأذلهم وأخزاهم فزال مجدهم وخرب بيوتهم ورحلهم عن ديارهم ولم يكلف ذلك المسلمين اصطدامًا مسلحًا قتالاً ضاربًا، ولكن الله قذف فى قلوبهم الرعب والفزع فطلبوا النجاة بأرواحهم فى ذلة وخزى مخلفين وراءهم ثروة وملكًا حازه المسلمون غنيمة باردة قال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ ﴾ [الحشر: ١ - ٢] (١)

٤- من دلائل النبوة فى غزوة بنى النضـــير: الخبر الذى جاء من الله تعالى إلى رســـوله ﷺ بكشـــف ما بيته اليهود من الغدر به تعد واحدة من الخوارق الكثيرة التى أكرم الله بها رســوله ﷺ قبل بعثته وأثنائها وهذا يحملنا على مزيد من الإيمان بنبوته ورسالته(٢).

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٢١٧.

(٢) فقه السيرة للبوطي ٢٠٤.

أَهَمُّ الأَحْدَاثِ الاجْتِمَاعِيَّةِ

أَوَّلاً: زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَب بِنْتِ خُزَيْمَةَ رضى الله عنها:

كانت زينب بنت خزيمة تحت عبد الله بن جحش بن رئاب؛ الذى قتل فى معركة أحد شــهيدًا فى ســبيل الله تعالى فتزوجها ﷺ إكرامًا لها بعد أن فجعت بقتل زوجها فى معركة أحد [١] وقد تزوجها النبى ﷺ سنة ٤هــــــ، ماتت بعد الزواج بنحو ثلاثة أشهر فى آخر ربيع الآخر سنة ٤هـ [٢].

زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِأُمِّ سَلَمَةَ رضى الله عنها:

هى هند بنت أبى أمية حذافة بن المغيرة القرشـــية المخزومية، كانت زوجة ابن عمها أبى عبد الله بن عبد المطلب، وزوجها هذا هو ابن عمة الرســول ﷺ برة بنت عبد المطلب، وهو أيضـــا أخو رســـول الله ﷺ من الرضـــاعة، وقد هاجرت أم سلمة وزوجها أبو سلمة إلى الحبشة فرارًا بدينهما من المشركين ثم رجعا إلى مكة وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ والمسلمون.

لما توفي زوجها أبو ســلمة من أثر جراحات أصـــابته في قتاله المشـــركين، وكانت تحبه وتجله، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ[٣]: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا ســـلَمَةَ قَدْ مَاتَ قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عُقْبَى حَسَـــنَةً**» قَالَتْ: فَقُلْتُ فَأَعْقَبَنِي اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

حُوَارُ الرَّسُولِ ﷺ لأُمِّ سَلَمَةَ رضى الله عنها عِنْدَمَا خَطَبَهَا:

قـال عمـر بـن أبـي سـلمة رضـى الله عنـه: إن أم سـلمة لَمَّـا انْقَضَـتْ عِدَّتُهَا خَطَبَهَا أَبُو بَكْرٍ فَرَدَّتْهُ ثُمَّ خَطَبَهَا عُمَرُ فَرَدَّتْهُ فَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ

اللَّــهِ ﷺ فَقَالَــتْ[٤]: مَرْحَبًـا بِرَسُـول اللَّــهِ ﷺ وَبِرَسُــولِهِ أَخْبِـرْ رَسُــولَ اللَّهِ ﷺ أَنِّي امْرَأَةٌ غَيْرَى وَأَنِّي مُصْبِيَةٌ وَأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِي شَاهِدًا

(١) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ١٩٥.
(٢) الرحيق المختوم ص ٤٠٦.
(٣) (صحيح): مسلم ٩١٩.
(٤) (صحيح): رواه أحمد ٢٦١٢٩

فَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّا قَوْلُكِ: «**إِنِّي مُصْبِيَةٌ**[1] **فَإِنَّ اللَّهَ سَيَكْفِيكِ صِبْيَانَكِ وَأَمَّا قَوْلُكِ إِنِّي غَيْرَى فَسَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَ غَيْرَتَكِ وَأَمَّا الأَوْلِيَاءُ فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَاهِدٌ وَلا غَائِبٌ إِلا سَيَرْضَنِي بِي**».

وفي رواية: إني امرأة قد أدبر من سني فكانت إجابة رسول الله ﷺ لها: «**وأما السن فأنا أكبر منك**» وقد أحسن إليها ﷺ الجواب وما كان إلا محسنًا، قالت أم سلمة: يا عمر (أي ابنها) قم فزوج رسول الله ﷺ [2].

* * *

(١) مصبية: ذات صبيان وأولاد صغار.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ١٩٥ - ١٩٦).

غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ

تَارِيخُهَا وَأَسْبَابُهَا:

اختلف أهل المغازى والسـير فى تاريخ هذه الغزوة، فقد ذهب البخارى إلى أنها كانت بعد خيبر، وعند الواقدى وابن سـعد أنها كانت فى المحرم سـنة خمس [١]، وذهب ابن إسـحاق إلى أن النبى ﷺ أقام بالمدينة بعد غزوة بنى النضـير شـهر ربيع الآخر، وبعض جُمادَى سـنة أربع من الهجرة، ثم غزا نجدًا يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان[٢]

وذكر البوطى أن تاريخ الغزوة كان فى السـنة الرابعة للهجرة بعد مرور شـهر ونصـف تقريبًا على إجلاء بنى النضـير، وقال بأن هذا الرأى ذهب إليه أكثر علماء أهل السير والمغازى [٣] وإليه ذهبت.

أما سـبب الغزوة ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسـلمين؛ ذلك الغدر الذى تجلى فى مقتل أولئك الدعاة السـبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله - تعالى- فخرج - عليه الصلاة والسلام- قاصدًا قبائل محارب وبنى ثعلبة [٤].

وقد ذكر الدكتور على محمد الصلابى أن قادمًا قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسـول الله ﷺ، فما كان منه ﷺ إلا أن سـارا إليهم فى عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل، وقيل: سبعمائة مقاتل، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال؛ تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم وحضـرت الصـلاة فخاف المؤمنين أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة [٥].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢١٩).
(٢) ابن هشام ١ / ٤٧٣.
(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٢٠٦.
(٤) فقه السيرة للبوطي ص ٢٠٧.
(٥) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢١٩).

سَبَبُ تَسْمِيَتِهَا بِذَاتِ الرِّقَاعِ:

سميت بذات الرقاع؛ لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع؛ اتقاء الحر وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم وقيل: لشجرة كان اسمها ذات الرقاع، وقيل: لأن المسلمين نزلوا فى أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة فسميت بذلك، والصحيح لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق، وقد روى الشيخان بسنديهما عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ(١): خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا وَنَقِبَتْ قَدَمَايَ وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي وَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرَقَ فَسُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ مِنْ الْخِرَقِ عَلَى أَرْجُلِنَا(٢).

صَلاَةُ الخَوْفِ:

أنزل الله – تعالى– على نبيه ﷺ صلاة الخوف فى هذه الغزوة وبين القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢] (٣).

وفى رواية البخارى: وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، وكان للنبى ﷺ أربع، وللقوم ركعتان (٤).

(١) رواه البخاري ٤١٢٨، مسلم ١٨١٦.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢٠).
(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢٠).
(٤) الرحيق المختوم ص ٣٢٨.

حِرَاسَةُ الثّغُورِ:

عندما رجع الجيش الإسلامى من غزوة ذات الرقاع سبوا امراة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دمًا فى أ صحاب محمد ﷺ فجاء ليلاً وقد جعل الرسول ﷺ رجلين على الحراسة أثناء نومهم وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر(١).

فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال عباد بن بشر لعمار بن يا سر: أي الليل تحب أن أكفيكه أوله أم آخره؟ قال: بل اكفنى أوله فاضطجع عمار فنام، وقام عباد يصلى؛ فضرب عباد بسهم وهو قائم يصلي فنزعه، ولم يقطع صلاته؛ حتى رشقه بثلاثة سهام، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه فقال: سبحان الله أفلا أهببتنى أول ما رماك؟ قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع عليَّ الرمى ركعت فأذنتك، وايم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفذها (٢).

جِئْتُكُم مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ:

عندما قفل رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع أدركته القافلة في واد كثير العضاة ولندع جابر رضى الله عنه يصف الموقف بنفسه؛ فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ(٣): غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ نَجْدٍ فَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ وَهُوَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَاسْتَظَلَّ بِهَا وَعَلَّقَ سَيْفَهُ (٤) فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الشَّجَرِ يَسْتَظِلُّونَ وَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إذ دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْنَا فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ قَاعِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: **«إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاخْتَرَطَ سَيْفِي فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي مُخْتَرِطٌ صَلْتًا»** قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: **«اللَّهُ فَشَامَهُ ثُمَّ قَعَدَ فَهُوَ هَذَا»** قَالَ: وَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢١).
(٢) ابن هشام (١ / ٤٧٧ - ٤٧٨).
(٣) رواه البخاري ٤١٣٩.
(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢٢).

قال جابر: فإذا رســول الله ﷺ يدعونا، فجئنا فإذا عنده أعرابى جالس فقال ر سول الله ﷺ : «**إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت، وهو فى يده صلتا فقال لى: من يمنعك منى؟ قلت: الله فها هو ذا جالس**» ثم لم يعاتبه رســـول الله ﷺ، وفى رواية أبى عوانة: فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «**من يمنعك منى؟**» قال: كن خير آخذ قال: «**تشـــهد أن لا إله إلا الله وأنى رســـول الله؟**» قال الأعرابى: أعاهدك على ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك قال: فخلى سبيله فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس[1].

مَوْقِفُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رضى الله عنه:

قَـالَ جَـابِرِ بْـنِ عَبْـدِ اللَّـهِ خَرَجْـتُ مَـعَ رَسُـول اللَّـهِ ﷺ فِـي غَـزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَـاعِ مُـرْتَحِلاً عَلَـى جَمَـلٍ لِـي ضَـعِيفٍ فَلَمَّـا قَفَـلَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ جَعَلَـتْ الرِّفَـاقُ تَمْضِـي وَجَعَلْـتُ أَتَخَلَّـفُ حَتَّـى أَدْرَكَنِـي رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ فَقَـالَ[2]:«**مَا لَـكَ يَا جَـابِرُ قَـالَ: قُلْـتُ: يَا رَسُـولَ اللَّهِ أَبْطَـأَ بِي جَمَلِـي هَـذَا قَـالَ: فَأَنِخْهُ وَأَنَاخَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَـالَ: أَعْطِـنِي هَـذِهِ الْعَصَـا مِـنْ يَـدِكَ أَوْ قَـالَ: اقْطَـعْ لِي عَصًـا مِـنْ شَـجَرَةٍ قَـالَ: فَفَعَلْـتُ قَـالَ: فَأَخَـذَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ فَنَخَسَـهُ بِهَـا نَخَسَـاتٍ ثُمَّ قَـالَ: ارْكَـبْ فَرَكِبْـتُ فَخَـرَجَ وَالَّـذِي بَعَثَـهُ بِالْحَـقِّ يُوَاهِـقُ[3] نَاقَتَـهُ مُوَاهَقَـةً قَـالَ: وَتَحَـدَّثَ مَعِـي رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ فَقَـالَ: أَتَبِيعُـنِي جَمَلَـكَ هَـذَا يَا جَـابِرُ قَـالَ: قُلْـتُ يَا رَسُـولَ اللَّهِ بَـلْ أَهَبُـهُ لَـكَ قَـالَ: لا وَلَكِـنْ بِعْنِيـهِ قَـالَ: قُلْـتُ فَسُـمْنِي بِـهِ قَـالَ قَـدْ قُلْـتُ أَخَذْتُـهُ بِـدِرْهَمٍ قَـالَ: قُلْـتُ لا إِذًا يَغْبِنُـنِي رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ قَـالَ: فَبِـدِرْهَمَيْنِ قَـالَ: قُلْـتُ لا قَـالَ فَلَـمْ يَـزَلْ يَرْفَـعُ لِي رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ حَـتَّى بَلَـغَ الأوقِيَّـةَ قَـالَ: قُلْـتُ فَقَـدْ رَضِـيتُ قَـالَ قَـدْ رَضِـيتَ قُلْـتُ نَعَـمْ قُلْـتُ هُـوَ لَـكَ قَـالَ: قَـدْ أَخَذْتُـهُ قَـالَ: ثُمَّ قَـالَ لِي يَا جَـابِرُ هَـلْ تَزَوَّجْـتَ بَعْـدُ قَـالَ: قُلْـتُ نَعَـمْ يَا رَسُـولَ اللَّهِ قَـالَ أَثَيِّبًا أَمْ بِكْرًا قَالَ قُلْتُ بَلْ ثَيِّبًا قَالَ أَفَلا جَارِيَةً تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ**

(١) الرحيق المختوم (٣٢٨ - ٣٢٩).

(٢) رواه أحمد ١٤٦٠٨.

(٣) يواهق: يباري في السير.

اللَّهِ إِنْ أَبِي أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ بَنَاتٍ لَهُ سَبْعًا فَنَكَحْتُ امْرَأَةً جَامِعَةً تَجْمَعُ رُءُوسَهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ قَالَ: أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَمَا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا صِرَارًا[1] أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ وَسَمِعَتْ بِنَا فَنَفَضَتْ نَمَارِقَهَا[2] قَالَ قُلْتُ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا مِنْ نَمَارِقَ قَالَ إِنَّهَا سَتَكُونُ فَإِذَا أَنْتَ قَدِمْتَ فَاعْمَلْ عَمَلاً كَيِّسًا قَالَ فَلَمَّا جِئْنَا صِرَارًا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ فَأَقَمْنَا عَلَيْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ وَدَخَلْنَا قَالَ: فَأَخْبَرْتُ الْمَرْأَةَ الْحَدِيثَ وَمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ فَدُونَكَ فَسَمْعًا وَطَاعَةً قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخَذْتُ بِرَأْسِ الْجَمَلِ فَأَقْبَلْتُ بِهِ حَتَّى أَنَخْتُهُ عَلَى بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ جَلَسْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَرِيبًا مِنْهُ قَالَ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى الْجَمَلَ فَقَالَ مَا هَذَا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا جَمَلٌ جَاءَ بِهِ جَابِرٌ قَالَ فَأَيْنَ جَابِرٌ فَدُعِيتُ لَهُ قَالَ: تَعَالَ أَيْ يَا ابْنَ أَخِي خُذْ بِرَأْسِ جَمَلِكَ فَهُوَ لَكَ قَالَ فَدَعَا بِلالاً فَقَالَ اذْهَبْ بِجَابِرٍ فَأَعْطِهِ أُوقِيَّةً فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَأَعْطَانِي أُوقِيَّةً وَزَادَنِي شَيْئًا يَسِيراً قَالَ فَوَاللَّهِ مَازَالَ يَنْمِي عِنْدَنَا وَنَرَى مَكَانَهُ مِنْ بَيْتِنَا حَتَّى أُصِيبَ أَمْسِ فِيمَا أُصِيبَ النَّاسُ يَعْنِي يَوْمَ الْحَرَّةِ» [3] [4].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

تنطوى غزوة ذات الرقاع على مشاهد ذات دلالات هامة يجب دراستها والاعتبار بها منها:-

١- ما رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى فى بيان سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع صورة واضحة عن مدى ما كان يتحمله الصحابة فى تبليغ رسالة ربهم والجهاد فى سبيله، لقد أوضحت الصورة أنهم كانوا فقراء لا يجدون؛ حتى الظهر الذى يمتطونه لجهادهم وغزواتهم، فالستة أو السبعة

(١) صرار: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

(٢) نمارق: جمع نمرقة وهي الوسادة الصغيرة.

(٣) يريد وقعة الحرة التي كانت بالمدينة أيام يزيد بن معاوية.

(٤) ابن هشام (١ / ٤٧٥ - ٤٧٦).

يتبادلون ركوب بعير واحد فى قطع مســـافة بعيدة شـــاقة، ولكن الفقر لم يستطع مع ذلك أن يعقيهم عن أداء رسالتهم فقد تحملوا فى سبيل ذلك كل النتائج وكل ألوان المحن.. نقبت أقدامهم من طول سيرها على الوعثاء والقتاد، وتساقطت أظافرهم مما اصطدمت بالحجارة والصخور، وتعرَّت أقدامهم فلم يجدوا إلا الخرق يلفونها عليها الواحدة فوق الأخرى، ومع ذلك فما ضـــعفوا وما استكانوا واستهانوا بكل ذلك فى جنب عظم المسئولية الإلهية الملقاة على أعناقهم منذ أن أصبحوا مسلمين فقد كانوا قال يمتثلون قول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١].

٢- دل تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة فحتى فى قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها ولا يمكن التنازل عنها مهما كانت الظروف، وبذلك تندمج الصـــلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوى فى تربية الأمة الذى اســـتمد من كتاب الله – تعالى- فلا يوجد أى انفصال بين العبادة والجهاد [١].

٣- وفى حادثة حراسة الثغور دروس وعبر منها:-

أ- اهتمام النبى ﷺ بأمنِ الجنود ويظهر ذلك فى اختياره رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب- تقســـيم الحراســـة ونلاحظ أن الرجلين اللذين أُنيطَت بهما حراســـة الجيش قد اقتسما الليل نصفين؛ نصفًا للراحة ونصفًا للحراسة؛ إذ لا بد من راحة جسم الجندى بعض الوقت.

ج- التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته؛ فقد كان حبه لتلاوته قد أنســـاه آلام السهام التى كانت تنغرس فى جسمه وتثج الدم منه بغزارة.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢١).

د- الشعور بمسئولية الحراسة فلم يقطع عبادة صلاته لألم يشعر به؛ وإنما قطعها استشعارًا بمسئولية الحراسة التى كلف بها، وهذا درس بليغ فى مفهوم العبادة والجهاد[1]

هـــ - لابد من أن يقف المسلم وقفة متأملة طويلة أمام خبر الصحابيين، وهما يقومان على الثغر الذى أمرهما رســول الله ﷺ بحراســته؛ ليعلم طبيعة الجهاد الإسلامى، وكيف كان يمارسه أصحاب رسول الله ﷺ؛ فلم يكن الجهاد عملاً حركيًّا يقوم على أســاس المقاومة المادية المجردة وإنما الجهاد كما علمه رسول الله ﷺ أصحابه، وكما فهمه الصحابة منه عبادة كبرى؛ يتعلق فيها كيان المسلم كله بخالقه - جلا جلاله- خاشعًا مستغيثًا متبتلاً وما ساعة يكون فيها المؤمن أقرب إلى ربه - جل جلاله- من تلك الســاعة التى يســتدبر فيها الدنيا ويستقبل بوجهه شطر الموت والاستشهاد[2].

٤- قصة المشرك الذى أخذ سيف رسول الله ﷺ وهو نائم تحت الشجرة دليل على نبوة محمد ﷺ وفرط شجاعته وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجهال[3].

وهى تكشــف عن رعاية البارئ - جل جلاله- وحفظه لنبيه ﷺ ثم هى تزيدك يقينًا بالخوارق التى أخضها الله - جل جلاله ﷺ مما يزيدك تبصرًا ويقينًا بشخصيتة النبوية؛ فقد كان من السهل الطبيعى بالنسبة لذلك المشرك وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبى ﷺ وهو أعزل غارق فى غفلة النوم أن يهوى به عليه فيقتله، وإنك لتلمس من ذلك المشــرك هذا الاعتزاز بنفســه والزهو بالفرصــة الذهبية التى أمكنته من رسول الله ﷺ فى قوله: «**من يمنعك منى؟**».

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢١ - ٢٢٢).
(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٢١٣.
(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢٣).

فما الذى طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؛ إن الذى طرأ هو ما لم يكن فى حساب المشرك وتقديره ألا وهو عناية الله وحفظه لرسوله؛ فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب، وأن تقذف فى ساعدية تيارًا من الرجفة فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدبًا مطرقًا بين يدى رسول الله ﷺ، وأهم ما يجب أن تعلمه من هذه الحادثة أن هذا هو مصداق قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة: ٦٧].

فليست العصمة المقصودة فى الآية أن لا يتعرض لأذى أو محنة من قومه؛ إذ هى تلك هى سنة الله فى عبادة كما قد علمت، وإنما المراد من العصمة أن لا تطول إليه أى يد تحاول اغتياله وقتله؛ لتغتال فيه الدعوة الإسلامية التى بعث لتبليغها[(١)].

٥- وفى قصة معاملة الرسول ﷺ لجابر صورة جميلة ورفيعة لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه من حيث لطف الحديث والتواضع الرفيع ورقة الحديث وفكاهة المحاورة ومحبة شديدة لأصحابة والوقوف على أحوالهم والمواساة فى مشكلاتهم الاجتماعية ماديًا ومعنويًا، فقد شعر الرسول ﷺ أن سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله، الذى لا يملك غيره لبؤس حاله؛ حيث إن والده مات شهيدًا فى أحد، وترك له مجموعة من البنات والأولاد؛ ليرعاهم وهو مقل فى الرزق[(٢)].

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٢١٢.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢٤).

غَزْوَةُ بَدْرٍ المَوْعِدِ:

خرج رسـول الله ﷺ من المدينة تنفيذًا للموعد الذى كان أبو سـفيان قد اقترحه فى أعقاب معركة أحد على رأس جيش؛ قوامه ألف وخمسـمائة مقاتل بينهم عشـرة من الخيالة(١)، وحمل لواء علي بن أبى طالب واسـتخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، وانتهى إلى بدر فأقام بها ينتظر المشـركين وذلك فى شعبان سنة ٤هـ.

وأما أبو سفيان فخرج فى ألفين من مشركى مكة ومعهم خمسون فرسًا؛ حتى انتهى إلى مَرِّ الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة(٢).

خرج أبو سفيان من مكة متثاقلاً يفكر فى عقبى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب واستولت على مشاعرة الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا، ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مسئولية على مشاعر الجيش أيضًا، فقد رجع الناس ولم يبدوا أى معارضة لهذا الرأى ولا أى إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين.

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين ثم رجعوا إلى المدينة، وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم، وتوطدت هيبتهم فى النفوس وسادوا على الموقف، وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد وبدر الثانية وبدر الآخرة وبدر الصغرى(٣).

(١)السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٢٥).

(٢) مجنة: ماء في تلك الناحية.

(٣) الرحيق المختوم ٢٦٥ - ٢٦٦.

غَزْوَةُ دَوْمَةِ الجَنْدَل:

خرج إليها رسول الله ﷺ فى ربيع الأول سنة خمس، وذلك أنه بلغه أن بها جمعًا كثيرًا يريدون أن يدنوا من المدينة، وبينهما وبين المدينة خمس عشرة ليلة، وهى من دمشق على بُعْد خمس ليال؛ فاستعمل على المدينة سباع بن عُرفطة الغفارى، وخرج فى ألف من المسلمين ومعه دليل من بنى عذرة يقال له: مذكور؛ فلما دنا منهم إذا هم مغرِّبون وإذا آثار النَّعم والشاء فهجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد فيها أحدًا فأقام بها أيامًا وبث السرايا وفرق الجيوش فلم يصب منهم أحدًا، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ووادع فى تلك الغزوة عُيينة بن حصن[١].

* * *

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٣٥٨.

أَهَمُّ الأَحْدَاثِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي العَامِ الخَامِسِ الهِجْرِيِّ

زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَب بِنْتِ جَحْشٍ رضى الله عنها:

وها هى قصة زواج النبى ﷺ بزينب بنت جحش رضى الله عنها؛ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة عن طريق السدى فساقها سياقًا واضحًا حسنًا ولفظه: (بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله - عز وجل- نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه؛ فكان يستحى أن يأمر بطلاقها وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه وأن يتقى الله وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيدًا وعنده من طريق على بن زيد عن على بن الحسين بن على قال: أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال الله: قد أخبرتك أنى مزوجكها وتخفى فى نفسك ما الله مبديه**».

وَهَكَذَا أَصْبَحَتْ أُمًّا لِلْمُؤْمِنِينَ:

فلما طلق زيدٌ زينبَ - رضى الله عنهما- وانقضت عدتها تزوجها رسول الله ﷺ؛ لتنال أعظم منقبة فى الكون كله فتكون زوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ، ولتكون أمًّا للمؤمنين عَنْ أَنَسٍ قَالَ لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِزَيْدٍ[1]:«**فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ**» قَالَ فَانْطَلَقَ زَيْدٌ حَتَّى أَتَاهَا وَهِيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا قَالَ فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي حَتَّى مَا أَ سْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا أَنَّ رَ سُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَهَا فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي وَنَكَصْتُ عَلَى عَقِبِي فَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُكِ قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا وَنَزَلَ الْقُرْآنُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذن قَالَ: فَقَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَطْعَمَنَا الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ حِينَ امْتَدَّ النَّهَارُ فَخَرَجَ النَّاسُ وَبَقِيَ رِجَالٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ بَعْدَ الطَّعَامِ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاتَّبَعْتُهُ فَجَعَلَ يَتَتَبَّعُ حُجَرَ نِسَائِهِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَيَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟ قَالَ: فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ خَرَجُوا أَوْ أَخْبَرَنِي قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ مَعَهُ فَأَلْقَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَنَزَلَ الْحِجَابُ قَالَ: وَوُعِظَ الْقَوْمُ بِمَا وُعِظُوا بِهِ، زَادَ ابْنُ رَافِعٍ فِي حَدِيثِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] [2].

* * *

(١) رواه مسلم ١٤٢٨.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٤١٤ - ٤١٥.

غَزْوَةُ بَنِي المصْطَلَق

تَارِيخُ الغَزْوَةِ:

ذكر ابن إســحاق وبعض علماء الســيرة أنها كانت فى العام الســادس للهجرة، والصــحيح الذى ذهب إليه عامة المحققين أنها كانت فى شــعبان من العام الخامس للهجرة، ومن أبرز أدلة ذلك أن سعد بن معاذ كان حيًّا فى هذه الغزوة، وله ذكر فى قصــة الإفك التى ســيأتى تفصــيلها - إن شــاء الله- وقد توفى سعد بن معاذ فى غزوة بنى قريظة سنة خمس من الهجرة كما سيأتى بيان ذلك فكيف يكون سعد حيًّا بعد عام من وفاته[1]؟!.

أَسْبَابُ الغَزْوَةِ:

من أهم الأسباب لهذه الغزوة:-

١- تأييد هذه القبيلة لقريش واشتراكها معها فى معركة أحد ضد المسلمين ضمن كتلة الأحابيش التى اشتركت فى المعركة؛ تأييدًا لقريش.

٢- سيطرة هذه القبيلة على الخط الرئيسى المؤدي إلى مكة فكانت حاجزًا منيعًا من نفوذ المسلمين إلى مكة.

٣- أن الرسول ﷺ بلغه أن بنى المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبى ضــرار ينظم جموعهم فلما سمع بهم خرج إليهم؛ حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريســيع من ناحية قديد إلى الســاحل فهزمهم شر هزيمة[2].

(١) فقه السيرة للبوطي ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٣١ - ٢٣٢).

أَحْدَاثُ الغَزْوَةِ:

وفى يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة خرج الرسول ﷺ من المدينة فى سبعمائة مقاتل وثلاثين فارسًا متوجهًا إلى بنى المصطلق[1]، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قبلها، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة وقيل: أبا ذر، وقيل: نميلة بن عبد الله الليثى وكان الحارث بن أبى ضرار قد وجَّه عينًا ليأتيه بخبر الجيش الإسلامى فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه.

ولما بلغ الحارث بن أبى ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه، خافوا خوفًا شديدًا وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع أبى بكر، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد فكانت النصرة.

وانهزم المشركون وقتل من قتل وسبى رسول الله ﷺ النساء والذرارى والنعم والشاء ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد؛ قتله رجل من الأنصار ظنًّا منه أنه من العدو[2].

كذا قال أهل المغازى والسير، قال ابن القيم: هو وَهْم؛ فإنه لم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم[3].

وروى البخارى عن ابن عون أنه قال: كتبت إلى نافع فكتب إليَّ: إن النبى ﷺ أغار على بنى المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذ جويرية، حدثنى به ابن عمر وكان فى ذلك الجيش[4].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٣٢).
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٣٦٢ - ٣٦٣.
(٣) الرحيق المختوم ص ٢٨٧.
(٤) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٦٣.

زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ جُوَيْرِيَّة بِنْتِ الحَارِثِ رضى الله عنها:

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبَايَا بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ أَوْ لابْنِ عَمٍّ لَهُ[1]: وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا وَكَانَتْ امْرَأَةً حُلْوَةً مُلاحَةً[2] لا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلاَّ أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسْتَعِينُهُ فِي كِتَابَتِهَا قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ رَأَيْتُهَا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي فَكَرِهْتُهَا وَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَرَى مِنْهَا مَا رَأَيْتُ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَار سَيِّدِ قَوْمِهِ وَقَدْ أَصَابَنِي مِنْ الْبَلاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ أَوْ لابْنِ عَمٍّ لَهُ فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى كِتَابَتِي قَالَ: فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ قَالَتْ: وَخَرَجَ الْخَبَرُ إِلَى النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ فَقَالَ النَّاسُ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ قَالَتْ: فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا**» [3].

إِسْلاَمُ الحَارِثِ بنِ أَبِي ضِرارٍ:

قال ابن هشام: لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بنى المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث، وكان بذات الجيش، دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة، وأمره بالاحتفاظ بها وقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأقبل أبوها الحارث بن أبى ضرار بفداء ابنته فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء فرغب فى بعيرين منها فغيبهما فى شعب من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النبى ﷺ وقال: يا محمد، أصبتم ابنتى، وهذا فداؤها فقال رسول الله ﷺ : «**فأين**

(١) رواه أحمد ٢٥٨٣٣.

(٢) ملاحة: شديدة الملاحة.

(٣) ابن هشام (٢ / ٥٤ - ٥٥)

البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق فى شعب كذا وكذا؟» فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله؛ فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله، فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه وأرسل إلى البعيرين، فجاء بهما فدفع الإبل إلى النبى ﷺ ودفعت إليه ابنته جويرية، فأسلمت وحسن إسلامها فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها فزوجه إياها وأصدقها أربعمائة درهم(١).

مُحَاوَلَةُ المنَافِقِينَ فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ إِثَارَةَ الفِتْنَةِ بَيْنَ المهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ:

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزوة مقيمًا على المريسيع ووردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير يقال له: جهجاه الغفارى فازدحم هو وسنان بن وبَر الجهنى على الماء فاقتتلا، فصرح الجهنى: يا معشر الأنصار، وصرح جهجاه: يا معشر المهاجرين فقال رسول الله ﷺ : **«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها مُنتنَة»**.

وبلغ ذلك عبد الله بن أبى ابن سلول فغضب وعنده رهط من قومه؛ فيهم زيد بن أرقم غلام حدث، وقال: أوقد فعلوها قدنا فرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل أقبل على من حضره فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم؛ أحللتمو ها بلادكم و قاسمتموهم أموالكم، أ ما والله لو أمسكتم عنها ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر فقال عمر: مُرْ عبَّاد بن بشر فليقتله فقال: **«فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا ولكن أذِّنْ بالرحيل»**، وذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها فارتحل الناس فلقيه أسيد بن حضير فحيَّاه وقال: لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها فقال له: **«أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟»** قال: وأى صاحب يا

(١) ابن هشام ٢ / ٥٥.

رسول الله ﷺ قال: «**عبد الله بن أبى**» قال: «**وما قال؟**» قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**» قال: فأنت يا رسول الله ﷺ تخرجه منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به؛ فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز؛ ليتوِّجُوه؛ فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك؛ حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك؛ حتى آذنتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ؛ ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبى.

أما ابن أبى فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ وحلف ما قلت ما قال، ولا تكلمت به فقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل فصدقه، قال زيد: فأصابنى همٌّ لم يصبنى مثله قط، فجلست فى بيتى فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ١ – ٨] فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ فقرأها عليَّ ثم قال: «**إن الله قد صدقك**».

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن ســـلول الذى كان من أمر أبيه فأتى رســـول الله ﷺ فقال: يا رســـول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه؛ فإن كنت لابد فاعلاً فمرنى به؛ فأنا أحمل إليك رأســـه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى، وإنى أخشـــى أن تأمرٍ به غيرى فيقتله، فلا تدعني نفســـي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أُبي فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر؛ فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا".

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رســـول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شـــأنهم: **«كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لى: اقتله لأرعدت**(١) **له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»** قال عمر: قد – والله– علمت الأمر؛ رســـول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى(٢).

حَدِيثُ الإِفْكِ:

وفي منصــرف المســلمين من هذه الغزوة كانت حادثة الإفك، وهذا ســياق القصة، قَالَتْ عَائِشَةُ – رضي الله عنها– كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ(٣) فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غزاهَا(٤) فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ دَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي

(١) لأرعدت لـه أنف: انتفخت واضطربت أنوفهم حمية وعصبية.

(٢) ابن هشام (٢ / ٥٠ - ٥٣)، الرحيق المختوم ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٣) رواه البخاري ٤١٤١.

(٤) غزوة غزاها: تقصد - بذلك - غزوة بني المصطلق.

أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدْ انْقَطَعَ فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلا مُجِيبٌ فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ فأدلج[١] مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ وَلا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ[٢] وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ[٣] فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ قَالَتْ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ.

انْتِشَارُ الدِّعَايَةِ بِالمَدِينَةِ:

فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْنَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الافْكِ وَلَمْ أَشْعُرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي[٤] إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: **«كَيْفَ تِيكُمْ؟ فَذَاكَ يَرِيبُنِي وَلا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقِهْتُ وَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا وَلا نَخْرُجُ إِلا لَيْلاً إِلَى**

(١) فأدلج: سار آخر الليل.

(٢) استرجاعه: قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) موغرين: الوغرة شدة الحر.

(٤) رواه أحمد ٢٥٠٩٥.

لَيْلٍ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُتَّخَذَ الْكُنُفُ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الأَوَلِ فِي التَّنَزُّهِ وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا وَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ وَأَقْبَلْتُ أَنَا وَبِنْتُ أَبِي رُهْمٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ تَعِسَ مِسْطَحٌ فَقُلْتُ لَهَا بِئْسَمَا قُلْتِ تَسُبِّينَ رَجُلاً قَدْ شَهِدَ بَدْرًا قَالَتْ أَيْ: هَنْتَاهُ[1] أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ قُلْتُ وَمَاذَا قَالَ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الافْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ كَيْفَ تِيكُمْ قُلْتُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ قَالَتْ وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَيَقَّنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لأمِّي: يَا أُمَّتَاهْ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ فَقَالَتْ: أَيْ بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً[2] عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا قَالَتْ فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي».

اسْتِشَارَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ رضى الله عنهم عِنْدَ تَأَخُّرِ نُزُولِ الوَحْيِ:

فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ لِيَسْتَشِيرَهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ قَالَتْ فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنْ الْوُدِّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُمْ أَهْلُكَ وَلا نَعْلَمُ إِلا خَيْرًا وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَإِنْ تَسْأَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ قَالَتْ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ قَالَ: **«أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ**

(١) هنتاه: يا بلهاء، كأنها نسبت إليَّ قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

(٢) وضيئة: الوضاءة: الحسن والبهجة.

مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَعْذَرَ[1] مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولَ فَقَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلا خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً[2] مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلا خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلا مَعِي فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ لَقَدْ أَعْذِرُكَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ».

آثَارُ فِتْنَةِ الإِفْكِ:

قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ رَجُلا صَالِحًا وَلَكِنِ اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ: لَعَمْرُ اللَّهِ لا تَقْتُلُهُ وَلا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ قَالَتْ وَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَاكَ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ثُمَّ بَكَيْتُ لَيْلَتِي الْمُقْبِلَةَ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي قَالَتْ فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ قَالَتْ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ.

مُفَاتَحَةُ الرَّسُولِ ﷺ لِعَائِشَةَ رضى الله عنها وَجَوَابُهَا لَهُ:

قَالَتْ فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: **«أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ ثُمَّ تُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»** قَالَتْ

(١) استعذر: قال: من يقوم بعذري إن كفأنه على سوء صنيعه.

(٢) الرجل: هو صفوان بن المعطل السلمي.

فَلَمَّا قَضَـــى رَسـُـولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً فَقُلْتُ لأَبِي أَجِبْ عَنِّي رَســُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ فَقَالَ مَا أَدْرِي وَاللَّهِ مَا أَقُولُ لِرَسـُول اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لأمِّي أَجِيبِي عَنِّي رَسـُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَ سُول اللَّهِ ﷺ قَالَتْ فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنْ الْقُرْآن إِنِّي وَاللَّهِ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ قَدْ سـَمِعْتُمْ بِهَذَا حَتَّى اسـْتَقَرَّ فِي أَنْفُســِكُمْ وَصـــَدَّقْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لا تُصـــَدِّقُونِي بِذَلِكَ وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ تُصَدِّقُونِي وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلاً إِلا كَمَا قَالَ أَبُو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قَالَتْ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضـْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشـِي قَالَتْ وَأَنَا وَاللَّهِ حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يَنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَســُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا.

نُزُولُ الوَحْيِ بِبَرَاءَةِ عَائِشَةَ رضى الله عنها:

قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَجْلِسِهِ وَلا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ وَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ عِنْدَ الْوَحْيِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَان مِنْ الْعَرَق فِي الْيَوْم الشَّاتِي مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ قَالَتْ فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «**أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكِ**» فَقَالَتْ

لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلا أَحْمَدُ إلا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَراءَتِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾﴾ [النور: ١١ - ٢٠] العَشْر الآيات كلها.

مَوْقِفُ أَبِي بَكْر الصّدّيقِ مِمَّنَ تَكَلَّمَ فِي عَائِشَةَ رضى الله عنها:

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الآياتِ بَراءَتِي قَالَتْ: فَقَالَ أَبو بَكْر وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَح لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ وَاللَّهِ لا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢] فَقَالَ أَبو بَكْر: وَاللَّهِ إِنِّي لأ حِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ لا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَمْرِي وَمَا عَلِمْتِ أَوْ مَا رَأَيْتِ أَوْ مَا بَلَغَكِ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي وَأَنَا مَا عَلِمْتُ إِلا خَيْرًا قَالَتْ عَائِشَةُ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَرَعِ وَطَفِقَتْ[١] أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الإِفْكِ[٢].

(١) طفقت: شرعت.

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٥٨٧ - ٥٨٩) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٤٢ - ٢٤٨)، سيرة الرسول أبو عمار (٣٧٠ - ٣٧٦).

الدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ مِنْ غَزْوَةِ بَنِي المصْطَلَق وَحَدِيثِ الإِفْكِ:

تنطوى غزوة بنى المصـــطلق على العديد والعديد من الدروس والعبر والعظات منها:-

١- الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف الداخلية:

وهذا الدرس يظهر فى قوله ﷺ : «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**».

إنها المحافظة التامة على الســمعة الســياســية، والفرق كبير بين أن يتحدث الناس عن حب أصـــحاب محمدٍ محمدًا ويؤكدون على ذلك بلســـان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا وبين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصـــحابه، ولم يقف النبى ﷺ موقفًا ســـلبيًّا حيال تلك المؤامرة التى تزعمها ابن سـلول؛ لتصـديع الصـف المسـلم وإحياء نعرات الجاهلية فى وسطه بل اتخذ إزاءها الخطوات الإيجابية التالية:

ا- ســـار الرســـول ﷺ بالناس يومهم ذلك؛ حتى أمســـى، وليلتهم حتى أصـبح، وصـدر يومهم الثانى حتى آذتهم الشـمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا.

وبهذا التصرف البالغ الغاية فى السياسة الرشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرمًا، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابن أُبىٍّ.

أ- لم يواجـه النبـى ﷺ ابـن سـلول ومؤامراتـه المـدبرة بـالقوة واسـتعمال السلاح؛ حرصًا علـى وحـدة الصـف المسـلم، وذلـك لأن لابـن أبـى أتباعًـا وشيعة مسلمين مغرورين، ولـو فتـك بـه لأرعـدت لـه أنـوف، وغضـب لـه رجـال متحمســون لــه، وقــد يــدفعهم تحمســهم لــه إلى تقطيــع الوحــدة المســلمة، ولـيس فـى ذلـك أى مصـلحة للمسـلمين ولا للإسـلام، وإنهـا لسياسة شرعية حكيمة فى معالجة المواقف العصبية فى حزم وقوة

أعصاب وبعد نظر، وهذه البراعة فى الحكمة والسياسة وتدبير الأمور متفرعة عن كونه ﷺ نبيًّا ورسولاً إلى الناس؛ لكى تقتدى به الأمة فى تصرفاته العظيمة.

٢- مثل أعلى فى الإيمان:

حسده عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول فى موقفه من والده وتقديمه وإخلاصه لله ولرسوله، وتقديم محبتهما ومراضيهما على محبة ومراضى الأبوة، لقد ضرب الابن أروع مثل فى الإيمان والتضحية بعاطفة الأبوة؛ عندما أتى ر سول الله ﷺ فقال له: يا رِ سول الله بلغنى إنك تريد قتل أبى بن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أنظر قاتل أبى يمشى بين الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار فقابله ﷺ صاحب القلب الكبير والخلق العظيم بمثل رفيع فى العفو والرحمة وحسن الصحبة بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا، يا لروعة العفو ويا لجلال العظمة النبوية، فقد تلطف النبى ﷺ بهذا الصحابى وهدأ من روعه وأذهب هواجسه.

٣- محاربة العصبية الجاهلية:

إن العصبية الممقوتة والتى نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية، أي: الاشتراك فى النسب الواحد نسب القبيلة التى ينتمون إليها، وإنما الاشتراك فى معنى أو وصف معين يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق والباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك، فعندما كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ

فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَار وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَسَمَّعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ قَالَ[1]: «**مَا هَذَا؟**» فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَار فَقَالَ: الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**».

ووجه الدلالة بهذا الخبر أن النبى ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادى استعمل اسمًا استعمله القرآن وهو (المهاجرين) و (الأنصار)، فالمهاجرى استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذى كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم؛ لأنه منهم، وكذلك الأنصارى استنصر بالأنصار لأنه منهم، وكان حق الاثنين إذا كات لابد من الاستنصار بالغير أن يكون الاستنصار بالمسلمين، وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها؛ سواء كانت عصبية تقوم على أ ساس الا شتراك بالقبيلة الواحدة أو على أساس آخر من بلد أو مذهب أو حزب... إلخ، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التى أقامها وأثبتها واعتبرها الله - تعالى- بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأن يكون التنا صر فيما بينهم تنا صرًا على الحق لا على الباطل بمعنى أن ينصروا المحق وأن يكونوا معه لا مع المعتدى.

لقد أوضح رسول الله ﷺ أن العصبيات هي من دعاوى الجاهلية وقَالَ[2]:«**لِيَنْصُرْ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ**».

(١) رواه البخاري ٤٩٠٧.

(٢) رواه مسلم ٢٥٨٤.

فجعل التناصر في طلب الحق والإنصاف وأبطل المفهوم الجاهلى: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا [(١)].

كما تنطوى قصة الإفك على آداب ودروس منها:

١- بشرية الرسول ﷺ :

جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبى ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها.

فقد فاجأت هذه الشائعة سمع النبى ﷺ وهو فى طور من إنسانيته العادية، يتصرف ويتأمل ويفكر كأى أحد من الناس ضمن حدود العصمة المعروفة للأنبياء والمرسلين، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أى بشر عادى من الناس ليس له اطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول ولا على قصد ملفق كاذب، فاضطرب كما يضطربون وشك كما يشكون، وأخذ يقلب الرأى على وجوهه، ويستنجد فى ذلك بمشورة أولى الرأى من الصحابة.

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية فى إبراز هذا الجانب الإنسانى المجرد فيه ﷺ أن يتأخر الوحى كل هذه الفترة التى تأخرها؛ كى تتجلى للناس حقيقتان؛ كل منهما على غاية من الأهمية؛ أما الحقيقة الأولى فهى أن النبى ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرًا من الناس فلا ينبغى لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية فينسب إليه من الأمور أو التأثير فى الأشياء ما لا يجوز نسبته إلا لله وحده.

وأما الحقيقة الثانية فهى أن الوحى الإلهى ليس شعورًا نفسيًّا ينبثق من كيان النبى ﷺ كما أنه ليس شيئًا خاضعًا لإرادته أو تطلعه وأمنياته إذ لو كان بذلك لكان من السهل عليه أن ينهى هذه المشكلة من يوم ميلادها ويربح نفسه من ذيولها ونتائجها، ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة فى أهله قرآنًا،

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٣٧ - ٢٤٠).

يطمئن به أصــحابه المؤمنين ويســكت الآخرين من أصــحاب الفضــول؛ ولكنه لم يفعل لأنه لا يملك ذلك.

ولقد كانت الســيدة عائشــة رضــى الله عنها أول من تجلت لها هاتان الحقيقتان؛ حتى ذهبت فى توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهبًا أنساها ما سواه ومن ســواه؛ فلذلك أجابت أمها حينما طلبت إليها أن تقوم فتشــكر النبى ﷺ قائلة: لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذى أنزل براءتى.

إن هذا الكلام من السيدة عائشة قد يبدو وكأنه فيه شيئًا من عدم اللباقة تجاه النبى ﷺ غير أن الظرف والحالة هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام؛ فهى إنما انســاقت بوحى الحالة التى كونتها الحكمة الإلهية؛ تثبيتًا لعقيدة المؤمنين وقطعًا لإفك المنافقين والملحدين وإظهارًا لمعنى التوحيد والعبودية الشــاملة لله وحده.

٢- حد القذف وأهميته فى المحافظة على أعراض المسلمين:

إن الإســلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله كما حرم أيضــًا كل الأسباب المسببة له وكل الطرق الموصلة إليه؛ ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها لتنزيه المجتمع من أن تســرى فيه ألفاظ الفاحشــة والحديث عنها؛ لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها فى كل وقت يهون أمرها لدى سامعيها ويجرئ ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت الشريعة الإسلامية القذف بالزنا وأوجبت على من قذف عفيفًا أو عفيفة طاهرًا أو طاهرة بريئًا أو بريئة من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانون جلدة وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحًا (١).

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٥٢).

وفى قصـــة الإفك رأينا أن النبى ﷺ أمر بأولئك الذين تفوهوا بصـــريح القذف فضـــربوا حد القذف ثمانون جلدة وليس في هذا من إشـــكال، إنما الإشـــكال في أن ينجو من الحد الذي تولى كبر هذه الشـــائعة وهو عبد الله بن أبي ابن سلول[1].

وقد ذكر ابن القيم وجه الحكمة في عدم حد عبد الله بن أبي فقال:

١- قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك وقد توعده الله العذاب العظيم في الآخرة ويكفيه عن الحد.

٢- وقيل: كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

٣- وقيل: الحد لا يثبت إلا ببينة أو إقرار، وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد؛ فإنه كان ينكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

٤- وقيل: بل ترك حده لمصـــلحة هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارًا، وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإســـلام، ثم قال - في ختام كلامه- ولعله ترك لهذه الوجوه كلها [2].

* * *

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٢٤.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٥٣).

غَزْوَةُ الخَنْدَقِ

تَارِيخُ الغَزْوَةِ:

وتسمى بغزوة الأحزاب، وقد كانت فى شوال سنة خمس على ما جزم به ابن إسحاق وعروة ابن الزبير وقتادة والبيهقى وجمهور علماء السيرة، وقيل: فى سنة أربع من الهجرة وقد تفرد به موسى بن عقبة، ورواه عنه البخارى وتابعه فى ذلك مالك [١].

أَسْبَابُهَا:

إن يهود بنى النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر؛ حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة؛ لتحريضها على حرب المسلمين وكونوا لهذا الغرض الخبيث وفدًا يتكون من سلام بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس الوائلى وأبى عمار.

وقد نجح الوفد نجاحًا كبيرًا فى مهمته حيث وافقت قريش التى شعرت بمرارة الحصار الاقتصادى المضروب عليها من قبل المسلمين [٢]، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم ثم طافوا فى قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان فى أربعة آلاف ووافتهم بنو سليم بمر الظهران وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة[٣] واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه، وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عشرة آلاف

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٢٢٥.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٥٨).
(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٨١.

مقاتل جيش ربما يزيد عدده على جميع من فى المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ[1].

تَهَيُّؤُ المسْلِمِينَ لِلْحَرْبِ:

لم تكد هذه الجيوش تتحرك عن موا ضعها؛ حتى نقلت ا ستخبارات المدينة نبأ تحرك هذه الجيوش من مكة، فلما بلغ رسول الله ﷺ الخبر، وسمع بخروجهم من مكة ندب الناس، وأخبرهم خبر عدوهم و شاورهم فى الأمر فأ شار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق قائلا: يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك وأسرع رسول الله ﷺ تنفيذ هذه الخطة فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم فى عملهم هذا [2].

مَشَاهِدُ مِنْ عَمَلِ المسْلِمِينَ فِي حَفْرِ الخَنْدَقِ:

روى البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ[3]: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَنْدَقِ وَهُمْ يَحْفِرُونَ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَادِنَا[4] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ**».

وعن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْه: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ[5]:«**اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ**» فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ:

(١) الرحيق المختوم ٢٦٧.

(٢) الرحيق المختوم ٢٦٧ - ٢٦٩، فقه السيرة للبوطي ٢٢٥.

(٣) رواه البخاري ٤٠٩٨.

(٤) أكتادنا: جمع كتد، وهو مجتمع الكتفين.

(٥) رواه البخاري ٢٨٣٤.

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وفيه عن الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ يُحَدِّثُ قَالَ[١]: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَق حَتَّى وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعَرِ فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِنْ التُّرَابِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قَالَ: ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا وفي رواية:

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا[٢]

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهو يقاسون من شدة الجوع ما يفتت الأكباد، قال أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: قَالَ كان أهل الخندق يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ[٤] تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ[٥].

مَوْقِفُ المؤْمِنِينَ وَالمنَافِقِينَ مِنَ العَمَلِ فِي الخَنْدَقِ:

عمل رسول الله ﷺ فى الخندق؛ ترغيبًا للمسلمين فى الأجر، وعمل معه المسلمون فيه بجد، وقد أبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين جعل يورون[٦] بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة

(١) رواه البخاري ٤١٠٦.
(٢) رواه البخاري ٢٨٣٧.
(٣) رواه البخاري ٤١٠٠.
(٤) الإهالة: الدهت، سنخة: أي تغيرت من طول بقائها.
(٥) الرحيق المختوم ص ٢٦٩.
(٦) يورون: يخفون ويستترون.

من الحاجة التى لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه فى اللحوق بحاجته فيأذن له؛ فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله؛ رغبة فى الخير واحتسابًا له فأنزل الله فى أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢].

وأنزل الله فى المنافقين: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣] (١) (٢).

نُزُولُ قُرَيْشٍ المدِينَةَ:

وأقبلت قريش فى أربعة آلاف؛ حتى نزلت بمجتمع الأ سيال من رومة بين الجرف ورغابة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد فى ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢] وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين؛ فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار وكان شعارهم: "حم لا ينصرون" واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وأمر بالنساء والذرارى فى آطام (٣) المدينة(٤).

(١) لواذا: استتارًا.

(٢) ابن هشام ٢ /٩.

(٣) آطام: حصون.

(٤) الرحيق المختوم ٢٧٠ - ٢٧١.

مَوْقِفُ المشْرِكِينَ مِنَ الخَنْدَقِ:

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة وجدوا خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها؛ فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم - إذ كانت هذه الخطة- كما قالوا مكيدة ما عرفتها العرب فلم يكونوا أدخلوها فى حسابهم رأسًا.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا يتحسسون نقطة ضعيفة؛ لينحدروا منها وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين يرشقونهم بالنبل؛ حتى لا يجترئوا عليٍ الاقتراب منه ولا يستطيعوا أن يقتحموه أو يهيلوا عليه التراب؛ ليبنوا به طريقا يمكنهم من العبور.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى فى ترقب نتائج الحصار؛ فإن ذلك لم يكن من شيمهم فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد وُدّ وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم، فتيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق فاقتحموه وجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع.

وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين؛ حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم، ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له على بن أبى طالب، وقال كلمة حمى لأجلها، وكان من شجعان المشركين وأبطالهم فاقتحم عن فرسه فعقره و ضرب وجهه ثم أقبل على عليٍّ، فتجاولا وتصاولا؛ حتى قتله على - رضى الله عنه- وانهزم الباقون حتى اقتحموا الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو.

وقد حاول المشركون فى بعض الأيام محاولة بليغة؛ لاقتحام الخندق أو لبناء الطرق فيها، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ورشقوهم وناضلوهم أشد النضال؛ حتى فشل المشركون فى محاولتهم[1].

(١) الرحيق المختوم ص ٢٧١.

شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوُسْطَى:

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**مَلأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا شَغَلُونَا عَنْ الصَّلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ**» [1]. وعَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا**» فَنَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَمَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ[2].

ومن هنا يأخذ أن محاولة العبور من المشركين والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياما إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشين لم يجر بينهم قتال مبا شر وحرب دامية بل اقتصروا على المراماة والمنا ضلة وفى هذه المراماة قتل رجال من الجيشين يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف[3].

نَقْضُ بَنِي قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ:

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعى الدس والتآمر تتقلب فى جحورها؛ تريد إيصال السم داخل أجسادهم، حيث انطلق كبير مجرمى بنى النضير حيى بن أخطب إلى ديار بنى قريظة؛ حتى أتى كعب بن أسد القرظى – سيد بنى قريظة– وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه بابه فأغلقه كعب دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه فقال

(١) رواه البخاري ٤١١١.

(٢) رواه البخاري ٤١١٢.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ٣٨٧ - ٣٨٨.

حيى: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا؛ حتى نستأصل محمدًا ومن معه، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر وبجهام[1] قد هراق ماؤه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه؛ فإنى لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاءً، فلم يزل حيى بكعب يفتله فى الذروة والغارب[2] حتى سمح له على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده وبرى مما كان عليه بينه وبين رسول الله ﷺ ودخل مع المشركين فى المحاربة بين المسلمين[3].

شَجَاعَةُ صَفِيَّة بِنْتِ عَبْدِ المطَّلِبِ:

وبالفعل قامت يهود بنى قريظة بعمليات الحرب، قال ابن إسحاق: كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت، وكان حسان بن ثابت فيه مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود، فجعل يُطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بينها وبينهم أحد يدفع عنّا ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آتٍ، فقلت: يا حسان إن هذا اليهود كما ترى يُطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله، قال: «**يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا**» قالت: فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت[4] ثم أخذت عمودًا ثم نزلت من

(١) جهام: السحاب الذي لا ماء فيه.

(٢) الذروة والغارب: أعلى ظهر البعير أي أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا كان نافرًا.

(٣) ابن هشام (٢ / ١٢ - ١٣)، الرحيق المختوم ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٤) احتجزت: شددت وسطى.

الحصـــن إليه فضـــربته بالعمود؛ حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل، قال مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب(١).

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة الرسـول ﷺ أثر عميق فى حفظ ذرارى المسلمين ونسائهم، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون فى منعة من الجيش الإسـلامى مع أنها كانت خالية عنهم تمامًا فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن كدليل عملى على انضمامهم إليهم ضد المسلمين؛ حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملاً (٢).

تَحَرِّي الرَّسُولِ ﷺ عَنْ نَقْضِ بَنِي قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ:

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسـعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوَّات بن جبير و قال: «**انطلقوا؛ حتى تنظروا أحق ما بلغنا من هؤلاء القوم أم لا؟**» فإن كان حقا فالحنوا لى لحنًا أعرفه، ولا تفتوا فى أعضـاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس".

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما يكون، فقد جاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسـول الله ﷺ وقالوا: من رسـول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، ولا عقد فانصرفوا عنهم فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له، وقالوا: عضـل وقارة، أى كغدر عضـل والقارة بأصـحاب الرجيع، فقال رسول الله ﷺ : «**الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين**» (٣).

(١) ابن هشام (٢ / ١٨ - ١٩).
(٢) الرحيق المختوم ص ٢٧٤.
(٣) ابن هشام ٢ / ١٣.

شِدَّةُ الكَرْبِ بِالمسْلِمِينَ وَانْسِحَابُ المنَافِقِينَ:

وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين فى غير منعة وحفظ، وصاروا كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١] (١).

أما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش وزاد خوفهم؛ حتى قال معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة (٢) وفى هؤلاء أنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢ - ١٣] (٣).

مُحَاوَلَةُ النَّبِيِّ ﷺ تَخْفِيفَ حِدَّةِ الحِصَارِ بِعَقْدِ صُلْحٍ مَعَ غَطَفَانَ:

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبى حارثة المري وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بقومهما، فجرى بينه وبينهما الصلح؛ حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراودة فى ذلك فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله أمرًا تحبه فنصنعه أم

(١) الرحيق المختوم ٢٧٤ - ٢٧٥.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦٦ - ٢٦٧).
(٣) الرحيق المختوم ص ٢٧٥.

شيئًا تصنعه لنا؟ قال: **«بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر من شوكتهم إلى أمر ما»** فقال له سعد بن معاذ: يا ر سول الله ﷺ قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشــرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى(١) أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإســلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا، والله، ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا الســيف؛ حتى يحكم الله بيننا وبينهم قال رســول الله ﷺ : **«فأنت وذاك»** فتناول ســعد بن معاذ الصــحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا (٢).

شَأْنُ نَعِيمٍ فِي تَخْذِيلِ المشْرِكِينَ عَنِ المسْلِمِينَ:

أقام ر سول الله ﷺ وأ صحابه فيما و صف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أ سفل منهم؛ حتى أتى نعيم بن مسعود من بنى غطفان رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإ سلامى فمرنى بما شئت فقال ر سول الله ﷺ : **«إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة»** فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديمًا فى الجاهلية، فقال: يا بنى قريظة قد عرفتم ودّى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًــا وغطفان ليســوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونســاؤكم بغيره، فليســوا كأنتم فإن رأوا نهزه(٣) أصــابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم؛ فلا تقاتلوا مع القوم؛ حتى تأخذوا منهم رُهُنا من أشــرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا؛ حتى تناجزوه فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

(١) القرى: الطعام الذي يصنع للضيف: قرى أي: ضيافة.
(٢) ابن هشام (٢ / ١٤ - ١٥).
(٣) النهزة: الفرصة تجدها في صاحبك.

ثم خرج حتى أن قريشًا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عزمتم ودى لكم وفراقى محمدًا، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه، نصحًا لكم، فاكتموا عنى، فقالوا: نفعل، قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا؛ فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبلتين، من قريش وعطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم؛ حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى عطفان فقال: يا معشر غطفان؛ إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إليَّ، ولا أراكم تتهمونى، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عنى، قالوا: نفعل فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم[1].

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة٥هـ - بعثوا إلى يهود أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُراع والحق[2]، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدًا، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم؛ حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود إنا والله لا نرسل إليكم أحدًا، فاخرجوا معنا؛ حتى نناجز محمدًا فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم، فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم[3].

(١) ابن هشام (٢ / ١٩ - ٢٠).

(٢) يعني بالكرام: الخيل، وبالحق: الإبل.

(٣) الرحيق المختوم ص ٢٧٦.

العِنَايَةُ الإِلَهِيَّةُ تَتَدَخَّلُ لِحَسْمِ الأَمْرِ:

وجاء المسلمون إلى رسول الله ﷺ يسألونه: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ فَقَدْ بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ قَالَ[1]: «**نَعَمْ اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا قَالَ: فَضَرَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ فَهَزَمَهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالرِّيحِ**».

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الأَحْزَابِ فَقَالَ[2]: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وانصرنا عليهم**»[3].

وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ والمسلمين فبعد أن دبت الفرقة فى صفوف المشركين، وسرى بينهم التخاذل أرسل الله عليهم جندًا من الريح فجعلت تقوض خيامهم ولا تدع لهم قدرًا إلا كفأتها، ولا طنبا إلا قلعته[4] ولا يقر لهم قرار وأرسل جندًا من الملائكة يزلزلونهم ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف[5] وفى ذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩] [6].

تَحَرِّي انْصِرَافِ الأَحْزَابِ:

روى مسلم بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ: «**أَلا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ: «**أَلا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا

(١) رواه أحمد ١٠٦١٣.

(٢) رواه البخاري ٤١١٥.

(٣) الرحيق المختوم ص ٢٧٦.

(٤) طنبا: الحبال تشد بها الخيمة.

(٥) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٩٩.

(٦) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٧٤).

أَحَدٌ فَقَالَ: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ**» فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**» فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**وَلا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**» وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**» (١).

ورواه ابن إسحاق: فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللَّهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرٌ وَلا نَارٌ وَلا بِنَاءٌ فَقَامَ أَبو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلانُ ابْنُ فُلان ثُمَّ قَالَ أَبو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ بَلَغَنَا مِنْهُمْ الَّذِي نَكْرَهُ وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ وَاللَّهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ وَلا تَقُومُ لَنَا نَارٌ وَلا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ.

وفي صباح اليوم التالي كان المشركون كلهم قد ولوا الأدبار وعاد ر سول الله ﷺ وصحبه إلى المدينة(٢).

الآنَ نَغْزُوهُم وَلاَ يَغْزُونَنَا:

وكانت هذه آخر مرة يأتي فيها المشركون لغزو المسلمين في عقر دارهم، عن سُلَيْمَانَ ابْنِ صُرَدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابَ عَنْهُ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**» (٣).

(١) رواه مسلم ١٧٨٨.

(٢) فقه السيرة للبوطي ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٣) رواه البخاري ٤١١٠، سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٠٠.

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

تنطوى غزوة الأحزاب على العـديـد من العبر والعظـات والـدروس والمعجزات نلخصها فيما يلى:

١- اختار النبى ﷺ شمال المدينة لنزول الجند؛ لأن شمال المدينة هو الجانب المكشـوف أمام العدو الذى يسـتطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهى حصـينة منيعة، وهذا يدل على أهمية الموقع الذى ينزل فيه الجند، وأنه ينبغى أن يتوافر فيه شـرط أسـاسـى وهو الحماية التامة للجند؛ لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها [١].

٢- لقد كانت خطة الرسـول ﷺ فى الخندق منظورة ومتقدمة حيث شـرع بالأخذ بالأسـاليب الجديدة فى القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب فى حروبهم بل كان الأخذ بهذا الأسـلوب غريبًا عنهم؛ وبهذا يكون الرسـول ﷺ هو أول من اسـتعمل الخندق فى الحروب فى نتائج العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام وأبطل خطتهم التى رسموها وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون فى إتقان رفيع لسـرية الخطة وسـرعة إنجازها وكان هذا الأسـلوب الجديد فى القتال له أثر فى إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم [٢].

وهذا من جملة الأدلة الكثيرة التى تدل على أن الحكمة هى ضـالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها بل هو أولى بها من غيره، وأن الشـريعة الإسـلامية بمقدار ما تكره للمسلمين اتباع غيرهم وتقليدهم على غير بصيرة تحب لهم أن يجمعوا لأنفسـهم أطراف الخير كله والمبادئ المفيدة جميعها أينما لاح لهم ذلك، وحيثما وجد [٣].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦٠).

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦٠ - ٢٦١).

(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٢٣٠.

٣- لما علم النبى ﷺ بقدوم جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذرارى المسلمين ونسائهم وصبيانهم فى حصن بنى حارثة؛ حتى يكونوا فى مأمن من خطر الأعداء وقد فعل ذلك ﷺ؛ لأن حماية الذرارى والنساء لها أثر فعال على معنويات المقاتلين؛ لأن الجندى إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادئ الأعصاب فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة بل يسخر كل إمكاناته وقدراته العقليه والجسدية للإبداع فى القتال[(١)].

٤- عمل رسول الله ﷺ مع الصحابة فى حفر الخندق بيده الشريفة بهمة عالية، لا تعرف الكلل فأعطى بذلك القدوة الحسنة؛ لأصحابه حتى بذلوا ما فى وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق[(٢)] ويتضح لنا من ذلك حقيقة المساواة التى يرسيها المجتمع الإسلامى بين جميع أفراده المسلمين[(٣)].

٥- كما شارك الرسول ﷺ الصحابة - رضى الله عنهم- فى آلامهم وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم؛ ففى غزوة الأحزاب نجد أنه ﷺ كان يعانى من ألم الجوع كغيره بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجرًا على بطنه الشريف من شدة الجوع، ثم إنه ﷺ شاركهم فى آمالهم؛ فحين وجد ما يسد رمقه هذا الجوع الذى استمر ثلاثًا لم يستأثر بذلك دونهم، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله[(٤)].

٦- عمل النبى ﷺ على رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم من خلال ما كان يرتجز به ﷺ من كلمات ابن رواحة، وهو ينقل التراب؛ لأن حفر الخندق اقترب بصعوبات جمة، فقد كان الجو باردًا والريح شديدة، والحالة المعيشية صعبة بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦١).
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦١).
(٣) فقه السيرة البوطي ص ٢٣١.
(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦١ - ٢٦٢).

الذى يتوقعونـه فـى كـل لحظـة ويضـاف إلى ذلـك العمـل المضـنى؛ حيـث كان الصـحابة يحفـرون بأيـديهم وينقلـون الـتراب علـى ظهـورهم، فلـم يـنس النبـى ﷺ أن هـؤلاء الجنـد إنمـا هـم بشـر كغيرهـم، لهـم نفـوس بحاجـة إلى الراحة من عناء العمل كما أنهـا بحاجـة إلى مـن يـدخل السـرور عليهـا؛ حتـى تنسى تلك الآلام التـى تعانيهـا فـوق معانـاة العمـل الرئيسـى كمـا كـان يـأذن لهم ﷺ بالانصراف عند الحاجة لقضاء حوائجهم ثم يرجعون للعمل[١].

٧- إن الحكمــة فــى استشــارته ﷺ لــبعض أصــحابه فــى أن يعــرض صـلحًا علـى غطفـان رغبتـه ﷺ أن يطمـئن إلى مـدى مـا يتمتـع بـه أصـحابه الصادقون من القـوة المعنويـة والاعتمـاد علـى نصـر الله وتوفيقـه، رغـم هـذا الذى فوجئوا به مـن اجتمـاع أشـتات المشـركين علـيهم فـى كثـرة سـاحقة إلى جانـب مـا طلعـت بـه بنـو قريظـة فـى الوقـت نفسـه مـن نقـض للعهـود والمواثيق، وقـد كـان مـن عادتـه ﷺ أنـه لم يكـن يحب أن يسـوق أصـحابه إلى حـرب أو مغـامرة أو لا يجـدون فـى أنفسـهم شـجاعة كافيـة لخوضـها، أو لا يؤمنـون بجـدواها؛ وقـد كـان هـذا مـن أبـرز أسـاليبه التربويـة ﷺ لأصـحابه كما أراد بذلك إرساء مبدأ الشورى فى كل ما لا نص فيه[٢].

٨- نرى فى قصـــة حذيفة بن اليمان لطف النبى ﷺ مع حذيفة عند رجوعه؛ فقد كان النبى يترفق بأ صحابه ولم تمنعه صلاة الليل وحلاوة المناجاة من التلطف بحذيفة الذى جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكساءه الذي يصلي فيه؛ ليدفئه وبركه ملفوفًا به حتى أتم صلاته بل حتى أن أفضـــى إليه بالمهمة، فلما وجبت الكتابة أيقظه بلطف ودعابة قائلاً: **«قم يا نومان»** دعابة تقطر حلاوة وتفيض بالحنان وتسيل رقة؛ إنها صورة نموذجية

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦١ - ٢٦٢).

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٢٣٣.

للرأفة والرحمة اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول ﷺ وصدق الله العظيم فى قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨] [١].

٩- أقبل رسول الله ﷺ على الله - سبحانه وتعالى- بالدعاء والاستعانة مع الأخذ بالأسباب، وهو بذلك يعلمنا سنة الأخذ بالأسباب وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له؛ لأنه لا تجرى وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من إقبال عليه بالدعاء، والاستغاثة فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التى فزع إليها رسول الله ﷺ فى حياته كلها [٢].

المعْجِزَاتُ الحِسِّيّةُ لِلرَّسُولِ ﷺ :

أ- عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضى الله عنه قَالَ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَق قَالَ وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَان مِنْ الخَنْدَق لا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاولُ قَالَ فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُول اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ عَوْفٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: «**بِسْمِ اللَّهِ فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهِ إِنِّي لأَبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللَّهِ إِنِّي لأَبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ وَاللَّهِ إِنِّي لأَبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا الساعة**» [٣].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٧٥ - ٢٧٦).

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٧٤).

(٣) رواه أحمد ١٨٢١٩، سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٨٤.

وقد تحققت هذه البشـارة التى أخبرت عن اتسـاع الفتوحات الإسـلامية والإخبار عنها فى وقت كان المسـلمون فيه محصـورين فى المدينة؛ يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارس[1].

ب- عن جابر رضـى الله عنه قَالَ: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَـتْ كُدْيَةٌ شَـدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَـتْ فِي الْخَنْدَقِ فَقَالَ: أَنَا نَازِلٌ ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُـوبٌ بِحَجَرٍ وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَـرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ[2] أَوْ أَهْيَمَ[3] فَقُلْتُ: يَا رَسُـولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَـيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَـبْرٌ فَعِنْدَكِ شَيْءٌ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ[4] قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلان قَالَ: **«كَمْ هُوَ»** فَذَكَرْتُ لَهُ قَالَ: **«كَثِيرٌ طَيِّبٌ»** قَالَ: **«قُلْ لَهَا لا تَنْزِعْ الْبُرْمَةَ وَلاَ الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ فَقَالَ قُومُوا»** فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ قَالَتْ: هَلْ سَـأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ فَقَالَ: **«ادْخُلُوا وَلا تَضَـاغَطُوا»**[5] فَجَعَلَ يَكْسِـرُ الْخُبْزَ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِـرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَـبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ: **«كُلِي هَذَا وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»**[6].

ج- وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتنى أمى عمرة بنت رواحة فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى ثم قالت: أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بن

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٨٢).

(٢) أهيل: رملاً سائلاً.

(٣) أهيم: الرمل الذي لا يتمالك.

(٤) الأثافي: الحجارة التي تنصب.

(٥) ولا تضاغطوا: أي: لا تزاحموا.

(٦) رواه البخاري ٤١٠١.

رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها برسول الله ﷺ، وأنا ألتمس أبى وخالى فقال: «**تعالى يا بنية ما هذا معك**» فقلت: يا رسـول الله ﷺ هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيانه، قال: «**هاتيه**» قالت: فصببته في كفي رسول الله فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دعا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ثم قال لإنسـان عنده: «**اصـرخ فى أهل الخندق أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب**».

وفى هذين الخبرين معجزات حسـية ظاهرة للرسـول ﷺ كما يظهر دور المرأة المسلمة فى مشاركة المسلمين فى جهادهم.

د- ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق إخباره ﷺ عمار بن ياسـر رضـى الله عنه وهو يحفر معهم الخندق بأنه ستقتله الفئة الباغية فقتل فى صفين وكان فى جيش عليّ رضى الله عنه [1].

هـ- الريح العاصفة تعصف بمعسكر المشركين وحدهم دون أن يشعر بها المسلمون إلى جانبهم، فهى هناك تقلب قدورهم وتطير خيامهم وتقلع أوتادها، وتزلزل أفئدتهم بالرعب وهى هنا ريح باردة رخاء تنعش ولا تؤذى أحدًا! وهذه معجزة من المعجزات التى أيد بها الله - سـبحانه وتعالى- نبيه ﷺ استجابة لدعائه ولشدة تضرعه[2].

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) فقه السيرة للبوطي ٢٣٤ - ٢٣٥.

غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ

أَمْرُ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بِحَرْبِ بَنِي قُرَيْظَةَ:

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة جاءه جبريل – عليه السلام– عند الظهر– وهو يغتسل في بيت أم سلمة فَقَالَ: أو قد وَضَعْتَ السِّلاحَ، فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**فَأَيْنَ؟ قَالَ: هَا هُنَا وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ**» قَالَتْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فسار جبريل في موكبه من الملائكة[1].

دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ المسْلِمِينَ لِلْقِتَالِ:

وأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن فى الناس من كان سامعًا مطيعًا؛ فلا يصلّينَّ العصر إلا ببنى قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم كلثوم وأعطى الراية على بن أبى طالب وقدمه إلى بنى قريظة فسار على؛ حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ.

وخرج رسول الله ﷺ فى موكبه من المهاجرين والأنصار؛ حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها: بئر أنّا، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة وأدركتهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصليها إلا فى بنى قريظة كما أمرنا حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك وإنما أراد سرعة الخروج فصلوها فى الطريق فلم يعنف واحدة من الطائفتين.

هكذا تحرك الجيش الإسلامى نحو بنى قريظة أرسالاً حتى تلاحقوا بالنبى ﷺ وهم ثلاثة آلاف والخبل ثلاثون فرسًا، فنازلوا حصون بنى قريظة، وفرضوا عليهم الحصار، واستمر الحصار خمسة وعشرين ليلة؛ حتى جهدهم الحصار، وقذف الله فى قلوبهم الرعب[2].

(١) رواه البخاري ٢٨١٣، الرحيق المختوم ٢٧٨.

(٢) ابن هشام (٢ / ٢٣ - ٢٤)، الرحيق المختوم ص ٢٧٨.

عَرْضُ كَعْبِ بنِ أَسَدٍ لِبَنِي قُرَيْظَةَ:

لما اشتد عليهم الحصار رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال قائلاً: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثًا؛ فخذوا أيها شئتم قالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل وأنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا، ولا نستبدل به غيره قال: فإذا أبيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأ صحابه رجالاً م صلتين الـ سيوف[1] لم نترك وراءنا تقلاً؛ حتى يحكم اللة بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال فإن أبيتم عليَّ هذه فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرَّة قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونُحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا[2].

أَبُو لبَابَةَ وَتَوْبَتُهُ:

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر؛ لنستشيره فى أمرنا وكان حليفًا لهم فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه إنه الذبح[3]، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه ولم يرجع

(١) مصلتين: مجردة من أغمادها.

(٢) ابن هشام (٢ / ٢٤ - ٢٥).

(٣) ابن هشام ٢ / ٢٥.

إلى رسـول الله ﷺ حتى أتى المسـجد النبوى بالمدينة، فربط نفسـه بسـارية المسـجد، وحلف ألا يحله إلا رسـول الله ﷺ وأنه لا يدخل أرض بنى قريظة أبدًا، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه- قال: **«أما إنه لو جاءنى لاسـتغفرت له؛ أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه؛ حتى يتوب الله عليه»** [1].

تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى أَبِي لبَابَةَ:

قال ابن إسحاق: إن توبة أبى لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السّحَر وهو فى بيت أم سلمة فقالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك فقلت: مما تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنَّك قال: **«تيب على أبى لبابة»** قلت: أفلا أبشره يا رسـول الله؟ قال: **«بلى إن شـئت»** فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضـرب عليهن الحجاب فقالت: يا أبا لبابة أبشر، فقد تاب الله عليك قالت: فثار الناس إليه؛ ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده، فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه[2].

نُزُولُ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَحْكِيمُ سَعْدٍ:

فلما أصبحوا بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال، فوضعت القيود فى أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصـارى، وجعلت النسـاء والذرارى بمعزل عن الرجال فى ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ﷺ قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد علمت حلفاء إخواننا الخزرج وهؤلاء موالينا، فأحسـن فيهم فقال: **«ألا ترضون أن يحكم فيكم رجل منكم؟»** قالوا: بلى، قال: **«فذاك إلى سعد بن معاذ»**

(١) الرحيق المختوم ٢٧٨ - ٢٧٩.
(٢) ابن هشام ٢ / ٢٦.

قالوا: قد رضينا فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان فى المدينة لم يخرج معهم للجرح الذى كان قد أصـــاب أكحله[١] فى معركة الأحزاب فأُركب حمارًا، وجاء إلى رســول الله ﷺ فجعلوا يقولون: يا سـعد أجمل فى مواليك فأحســن فيهم فإن رسول الله ﷺ قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شــيئًا فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لســعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ للأَنْصَار[٢]:«**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ خَيْرِكُمْ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ**» قَالَ: تَقْتُلُ مُقَاتِلَتَهُمْ وَتَســْبِي ذُرِّيَّتَهُمْ قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**قَضَـيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ**»، وَرُبَّمَا قَالَ: «**قَضَـيْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ من فوق سبع سموات**» [٣].

مَقْتَلُ بَنِي قُرَيْظَةَ:

وأمر رســول الله ﷺ فحبســت بنو قريظة فى دار بنت الحارث، امرأة من بنى النجار، وحفرت لهم خنادق فى ســوق المدينة ثم أمر بهم، فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرســالاً أرســالاً، وتضـرب فى تلك الخنادق أعناقهم فقال: من كان بعد فى الحبس لرئيســهم كعب بن أســد: ما تراه يصـنع بنا؟ فقال: أفى كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعى لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؛ هو والله القتل، وكانوا ما بين الستمائة والسبعمائة، فضـربت أعناقهم، وقتل مع هؤلاء شـيطان بنى النضـير، وأحد أكابر مجرمى معركة الأحزاب حيى بن أخطب والد صـفية أم المؤمنين – رضى الله عنها– كان قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وعطفان؛ وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يسيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب؛ فلما أتى به وعليه حلة قد شقها من كل

(١) أكحل: عرق في الذراع يفصد.

(٢) رواه مسلم ١٧٦٨.

(٣) الرحيق المختوم ص ٢٧٩.

ناحية بقدر أنملة؛ لئلا يُسْلبها - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل- قال لرسول الله ﷺ : أما والله لما لمت نفسى فى معاداتك، ولكن من يُغالب الله يُغْلب، ثم قال: أيها الناس لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر ومَلْحَمة كتبها الله على بنى اسرائيل ثم جلس فضربت عنقه.

وقتل من نسائهم امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحى على خلاَّد بن سويد فقتله، فقتلت لأجل ذلك.

وكان قد أمر رسول الله ﷺ بقتل من أنبت، وترك ممن ينبت، فكان ممن لم ينبت عطية القُرظى فترك حيًّا فأسلم، وله صحبة.

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله - وكانت للزبير يد عند ثابت- فوهبهم له رسول الله ﷺ فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك رسول الله ﷺ إليَّ ووهب لى مالك وأهلك فهم لك، فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: سألتك بيدى عندك يا ثابت إلا ألحقتنى بالأحبة، فضرب عنقه وألحقه بالأحبة من اليهود، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير فأسلم وله صحبة.

واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموأل القرظى فوهبه لها فاستحيته فأسلم وله صحبة.

وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم، وخرج تلك الليلة عمرو بن سعدى وكان رجلاً لم يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله ﷺ فرآه محمد بن سلمة قائد الحرس النبوى فخلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب[1] ولما ذكر لرسول الله ﷺ قال: **«ذاك رجل نجاه الله بوفائه»** [2].

(١) الرحيق المختوم ص ٢٨٠.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٠٨.

قَتْلَى المسْلِمِينَ:

قتل فى حصار بنى قريظة رجل واحد من المسلمين وهو خلاد بن سويد؛ الذى طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة، ومات من الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة(١).

قسمُ فَيء بَنِي النَّضِيرِ:

ثم إن رسول الله ﷺ قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم فى ذلك اليوم سُهمان الخيل وسُهمان الرجال، وأخرج منها الخمس؛ فكان للفارس ثلاثة أسهم: للفرس سهمان، ولفارسه سهم، وللراجل سهم، وكانت الخيل يوم بنى قريظة ستة وثلاثين فرسًا ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصارى أخا بنى عبد الأشهل بسبايا من بنى قريظة إلى نجد؛ فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحًا(٢).

رَيْحَانَةُ الحَبِيبِ ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خُنافة، إحدى نساء بنى عمرو من قريظة؛ فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفى عنها وهى فى ملكه، وقد كان رسول الله ﷺ عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت: يا رسول الله ﷺ بل تتركنى فى مِلْكك، فهو أخف عليَّ وعليك، فتركها وقد كانت حين سباها قد تعصت(٣) بالإسلام وأبت إلا اليهودية، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد فى نفسه لذلك من أمرها، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: **«إن هذا لثعلبة بن سعية يبشر فى بإسلام ريحانة»** فجاءه فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك من أمرها(٤).

(١) الرحيق المختوم ص ٢٨١.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤١٠.

(٣) تعصت: أي: رفضته بشدة.

(٤) ابن هشام ٢ / ٣٢.

وَفَاةُ سَعْد بنِ مُعَاذٍ وَاهْتِزَازُ عَرْشِ الرَّحْمَنِ:

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ - رضى الله عنه- اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم؛ فإن كان بقى من حرب قريش شيء فأبقنى لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتى فيها وقال فى آخر دعائه: ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة (١).

وكان النبى ﷺ قد ضرب له خيمة فى المسجد؛ ليعوده من قريب، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته، قالت عائشة: فانفجرت من لبَّته فلم ترعْهُم، وفى المسجد خيمة من بنى غفار إلا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذى يأتينا من قبلكم، فإذا سعد يغزو جرحه دمًا فمات منه.

وفِي الصحيحين عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**» (٢). عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ الْمَلائِكَةِ لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ**» (٣).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ يَوْمًا إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ تُوُفِّيَ قَالَ فَلَمَّا صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَسُوِّيَ عَلَيْهِ سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَبَّحْنَا طَوِيلاً ثُمَّ كَبَّرَ فَكَبَّرْنَا فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ سَبَّحْتَ ثُمَّ كَبَّرْتَ قَالَ: «**لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ**» (٤).

(١) الرحيق المختوم ص ٢٧٣.

(٢) رواه مسلم ٢٤٦٧.

(٣) رواه النسائي ٢٠٥٥، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٤) رواه أحمد ١٤٤٥٩، سيرة الرسول أبو عمار ص ٤١٢.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ أَنَّ مَلِكَ الرُّوم أَهْدَى إِلَى رَسُول اللَّهِ ﷺ مُسْتُقَةً مِنْ سُنْدُس فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يَدَيْهَا تَذَبْذَبَان مِنْ طُولِهمَا فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَلْتَمِسُونَهَا وَيَقُولُونَ: أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ مِنْ السَّمَاءِ؟ قَالَ: «**وَمَا يُعْجِبُكُمْ مِنْهَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَنْدِيلٌ مِنْ مَنَادِيلِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ**» (١).

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

من العبر والعظات التى ظهرت فى غزوة بنى قريظة ما يلى:-

١- اختلاف الصحابة فى فهم كلام رسول الله ﷺ : «**لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة**» مع عدم تعنيف النبى ﷺ أحدًا منهم أو معاتبته؛ دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف فى مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذورًا ومثابًا كما أن فيه تقريرًا لمبدأ الاجتهاد فى استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف فى مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم، فالله - سبحانه وتعالى- تعبّد عباده بنوعين من التكاليف:

أحدهما: تطبيق أوامر معينة واضحة تتعلق بالعقيدة أو السلوك.

ثانيهما: البحث وبذل الجهد ابتغاء فهم المبادئ والأحكام الفرعية من أدلتها العامة المختلفة.

٢- تأكد اليهود من نبوة محمد ﷺ فلقد رأينا من مجرى كلام كعب بن أسد مع إخوانه اليهود، أنهم كانوا على يقين من نبوة محمد ﷺ إطلاع تام على ما أثبتته التوراة من الحديث عنه ﷺ وعن علاماته وبعثته؛ ولكنهم كانوا عبيدًا لعصبتهم وتكبيرهم، وذلك هو سبب الكفر عند كثير ممن يتظاهر بعد الإيمان والفهم، وذلك هو الدليل البين على أن الإسلام فى عقيدته وعامة أحكامه إنما هو دين الفطرة البشرية الصافية ينسجم فى عقيدته مع العقل وينسجم فى تشريعاته وأحكامه مع حاجات الإنسان ومصالحه (٢).

(١) رواه أحمد ١٣٢١٤، سيرة الرسول أبو عمار ص ٤١٢.

(٢) فقه السيرة للبوطي ٢٣٨ - ٢٣٩.

٣- وفى مقتل حين بن أخطب دروس وعبر منها:

(أ) لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله:

فقد ألب القبائل العربية واليهودية على محاربة الإسلام ونبيه ﷺ وأقنع بنى قريظة بنى قريظة بضـــرورة نقض العهد مع الرســـول ﷺ فجعل الله كيده فى نحره وكبته، وفى النهاية قادته محاولاته إلى حتفه.

(ب) التجلد فى مواطن الشدة:

لقد تجلد حييّ وتقدم لتضرب عنقه؛ حتى لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه على باطل ظالم لنفسه قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير؛ لأنه يعبد هواه، ولم يعبد ربه قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣] [١].

(٤) فضائل سعد بن معاذ رضى الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ فى هذه الغزوة فضائل كثيرة منها:

ا- إعطاء النبى ﷺ له صـــلاحية الحكم بما يشـــاء على بنى قريظة، وجعل موقفه منه وهو رسول الله ﷺ موقف الموافق والمؤيد لكل ما سيحكم به.

ب- أمر النبى ﷺ للأنصـــار بالقيام إليه حينما أقبل إليهم قائلاً: «**قوموا إلى سيدكم**» وهذا تكريم لسعد، وتقدير لشجاعته؛ حيث سماه سيدًا وأمر بالقيام له.

استجابة الله لدعائـه عنـدما قـال: اللـهم إنـك تعلـم أنـه لـيس أحـد أحــب إلــيَّ أن أجاهــدهم فيـك مـن قـوم كـذبوا رسـولك ﷺ وأخرجـوه، اللهم فإن بقى من حـرب قـريش شـيء فـأبقنى لـه؛ حتـى أجاهـدهم فيـك، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه وتماثل للشفاء؛ حتى كانت غزوة

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٩١ - ٢٩٢).

بنى قريظة وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه وكفى الله المؤمنين شر اليهود وتطهرت المدينة من أرجاسهم، رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم يعني: قريش والمشركين، فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات[١]، ونلاحظ من خلال دعائه الأول والثاني أن هذا الدعاء العجيب، دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم فى الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة فهو المسئول عن نصرة الإسلام فى قومه وأمته[٢] وقد استجاب الله دعاؤه، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون ابتداء القصد فيها من المشركين[٣].

* * *

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٨٨ - ٢٨٩).

(٣) فقه السيرة للبوطي ٢٤١ - ٢٤٢.

النّشَاطُ العَسْكَرِيُّ بَعْدَ غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ

أَوّلاً: مَقْتَلُ سَلاَّم بنِ أَبِي الحقيقِ:

كان ســـلام بن أبى الحقيق - وكنيته أبو رافع- من أكابر مجرمى اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة، وكان يؤذى رسول الله ﷺ فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتله، وكان قتل كعب بن الأشـــرف على أيدى رجال من الأوس، فرغبت الخزرج فى إحراز فضـــيلة مثل فضـــيلتهم فلذلك أســـرعوا إلى هذا الاستئذان، وأذن لهم رسول الله ﷺ فى قتله ونهى عن قتل النساء والصبيان[١] فخرج إليه من الخزرج من بنى سـلمة خمسـة نفر: عبد الله بن عتيك ومسـعود بن سنان وعبد الله بن أُنيس وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وخزاعى بن أسود، وأمر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك.

فخرجوا حتى قدموا خيبر[٢] إذ كان هناك حصـن أبى رافع، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم؛ فإنى منطلق ومتلطف للبواب؛ لعلى أن أدخل، فأقبل حتى دنا من البواب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضـى حاجة، وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبد الله إن كنت تريد أن أدخل فادخل، فإنى أريد أن أغلق الباب.

قال عبد الله: قد خلت فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على[٣] وَدّ، قال: فقمت إلى الأقاليد [٤] فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسمَرُ عنده وكان فى علالى له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت على من داخل قلت: إن القوم لونذروا بى لم

(١) الرحيق المختوم ص ٢٨٢.

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٩.

(٣) الأغاليق: جمع غلق، وهو المفتاح.

(٤) الأقاليد: جمع إقليد وهو المفتاح.

يخلصوا إليَّ حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله لا أدرى أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع؟ قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت، فأضـربه ضـربة بالسـيف، وأنا دهش فما أغنيت شـيئًا وصـاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصـوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلاً فى البيت ضربنى قبل بالسيف قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله ثم وضـعت ضـبيب [1] السـيف فى بطنه؛ حتى أخذ فى ظهره فعرفت أنى قتلته فجعلت الأبواب بابًا بابًا؛ حتى انتهيت إلى درجة له فوضـعت رجلى، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسـرت ساقى فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟.

فلما صـاح الديك قام الناعى على السـور فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز فانطلقت إلى أصحابى فقلت: النجاء فقد قتل الله أبا رافع؛ فانتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته فقال لى: «**ابسـط رجلك**» فبسطت رجلى فمسحها فكأنها لم أشتكها.

هذه رواية البخارى وعند ابن إسحاق أن جميع النفر دخلوا على أبى رافع، واشـتركوا فى قتله، وأن الذى تحامل عليه بالسـيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس، وفيه: أنهم لما قتلوه ليلاً، وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه وأتوا منهرًا [2] من عيونهم فدخلوا فيه، وأوقد اليهود النيران وا شتدوا فى كل وجه؛ حتى إذا يئسـوا رجعوا إلى صـاحبهم، وأنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك؛ حتى قدموا على ر سول الله ﷺ كان مبعث هذه السرية فى ذى القعدة أو ذى الحجة سنة٥هـ[3].

(١) ضبيب السيف: حده.

(٢) منهرًا: شق في الحصن يجري منه الماء.

(٣) الرحيق المختوم ٢٨٢ - ٢٨٣.

ثَانِيًا: الغَزَوَاتُ وَالسَّرَايَا

سَرِيَّةُ مُحَمَّد بنِ مَسلَمَةَ:

كانت أول سـرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكبًا.

تحركت هذه السـرية إلى القرطاء بناحية ضـربة بالبكرات مكن أرض نجد وبين ضربة والمدينة سبع ليال تحركت لعشر خلون من المحرم سنة ٦هـ إلى بطن بني بكر بن كلاب، فلما أغارت عليهم هربوا فاستاق المسلمون نعمًا وشاء، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثكمامة بن أثال الحنفي سـيد بني حنيفة كان قد خرج متنكرًا لاغتيال النبي ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب فأخذه المسلمون، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَال فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَاَ ثُمَامَةُ؟**» فَقَالَ عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**مَاَ عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ**» قَالَ مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ**» فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ: «**فَقَالَ أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**» فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَض إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّين إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلادِ إِلَيَّ وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ

قَالَ: لا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُول اللَّهِ ﷺ وَلا وَاللَّهِ لا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ(١)، وكانت يمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى إليه حمل الطعام ففعل النبى ﷺ وامتثل ثمامة أمر نبيه وسمح لبنى حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة؛ فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة(٢).

غَزْوَةُ بَنِي لحْيَان:

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع، وتسببوا فى إعدامهم ولكن لما كانت ديارهم متوغلة فى الحجاز إلى حدود مكة، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل فى البلاد بمقربة من العدو الأكبر فلما تخاذلت الأحزاب، وا ستوهنت عزائمهم، وا ستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأى أن الوقت قد آن؛ لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع(٣).

فخرج رسول الله ﷺ فى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة فى مائتى ر جل إلى بنى لحيان؛ ليغزوهم وأظهر أ نه ير يد الشام واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أسرع السير؛ حتى انتهى إلى بطن غران - واد من أودية بلادهم، وهو بين أمج وعسفان حيث كان مصاب أصحابه - فترجم عليهم ودعا لهم- وسمعت بنو لحيان فهربوا فى رءوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم وبعث السرايا فلم يقدروا عليهم فسار إلى عُسفان فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغَمِيم؛ لتسمع به قريش ثم رجع إلى المدينة، وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة (٤)

(١) رواه البخاري ٤٣٧٢.
(٢) الرحيق المختوم ٢٨٣ - ٢٨٤، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣١١ - ٣١٢).
(٣) الرحيق المختوم ص ٢٨٤.
(٤) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٢١.

.غَزْوَةُ الغَابَةِ [1]:

لم تكد تمضى ليال قلائل على عودة الرسول ﷺ من غزوته لبنى لحيان؛ حتى أغار عينيه بن حصن الفزارى فى خيل لغطفان، كان عددها أربعين على لقاح الإبل الحوامل ذوات الألبان لرسول الله ﷺ بالغابة، وقتلوا ذر بن أبى ذر الغفارى وأسروا زوجته ليلى، واستاقو الإبل التى كان عددها عشرين، ولما علم الرسول ﷺ بخبر عينية خرج فى خمسمائة من أصحابه فى إثره بعد أن استخلف سعد بن عبادة فى ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة.

وعند جبل من ذى قرد[2] أدرك رسول الله ﷺ العدو، فقتل بعض أفراده، واستنفذ الإبل أما زوجة أبي ذر التى أسرها المغيرون فقد عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقة تابعة لرسول الله ﷺ وقد نذرت إن نجاها الله - عز وجل- لتنحرنَّ تلك الناقة فلما أخبرت النبى ﷺ عن نذرها تبسم وقال: «**بئسما جزيتيها**» ثم قال لها: «**لا نذر فى معصية الله، ولا فيما لا تملكين**» [3].

متابعة البعوث والسرايا:

ثم تابع رسول الله ﷺ فى إرسال البعوث والسرايا، وهاك صورة مصغرة منها:-

١- سرية عُكَّاشة بن محصنٍ إلى الغمر فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ، خرج عكاشة فى أربعين رجلاً إلى الغمر، ماء لبنى أسد، ففر القوم وأصاب المسلمون مائتى بعير ساقوها إلى المدينة.

٢- سرية محمد بن مسلمة إلى ذى القصة فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ، خرج ابن مسلمة فى عشرة رجال إلى ذى القصة فى ديار بنى ثعلبة، فكمنٍ القوم لهم، وهم مائة فلما ناموا قتلوهم إلا ابن مسلمة؛ فإنه أفلت منهم جريحا.

(١) في الصحيحين أنها كانت قبل خيبر بثلاث ليال، ولكن ذكر جمهور أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية.

(٢) ذو قرد: ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي غطفان.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٢٣ - ٣٢٤).

٣- سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى ذى القصة فى ربيع الآخر سنة ٦هـ، وقد بعثه النبى ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة، فخرج ومعه أربعون رجلاً إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة ووافوا بنى ثعلبة مع الصبح، فأغاروا عليهم فأعجزوهم هربًا فى الجبال وأصابوا رجلاً واحدًا، فأسلم وغنموا نعمًا وشاء.

٤- سرية زيد بن حارثة إلى الجَمُوم فى ربيع الأخر سنة٦هـ، والجموم ماء لبنى سليم فى مر الظهران، خرج إليهم زيد فأ صاب امرأة من مُزَينة يقال لها: حليمة، فدلتهم على محلة من بنى سليم أصابوا فيها نعمًا وشاء وأسرى؛ فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله ﷺ للمزينية نفسها وزوجها [1].

٥- سرية زيد بن حارثة إلى العيص فى شهر جمادى الأولى سنة ٦هـ فى سبعين ومائة راكب؛ لاعتراض قافلة لقريش كانت مقبلة من الشام، فأدركها وأخذها وما فيها أسر بعض أفرادها[2] كان قائدها أبو العاص بن الربيع ختن ر سول الله ﷺ، وأفلت أبو العاص فأتى زينب فا ستجار بها و سألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ففعلت، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرمهم، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير؛ حتى رجع أبو العاص إلى مكة وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونصف؛ كما ثبت فى الحديث الـ صحيح ردها بالنكاح الأول؛ لأن آية تحريم المـ سلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك[3].

٥- سرية زيد أيضًا إلى الطَّرف أو الطرق فى جمادى الآخرة سنة٦هـ، خرج زيد فى خمسة عشر رجلاً إلى بنى ثعلبة فهربت الأعراب وخافوا أن يكون ر سول الله ﷺ سار إليهم، فأ صاب من نعمهم عشرين بعيرًا وغاب أربع ليال.

(١) الرحيق المختوم ص ٢٨٤.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٣٢٤ - ٣٢٥).
(٣) الرحيق المختوم ص ٢٨٥.

٧- سرية زيد أيضًا إلى وادى القرى فى رجب سنة٦هـ، خرج زيد فى اثنىعشر رجلا إلى وادى القرى؛ لا ستكشاف حركات العدو إن كانت هناك، فهجم عليهم سكان وادى القرى فقتلوا تسعة، وأفلتت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة.

٨- سرية الخَبَط [١] تذكر هذه السرية فى رجب سنة٨هـ، ولكن السياق يدل على أنها قبل الحديبية، قال جابر: بعثنا النبى ﷺ فى ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عيرًا لقريش فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط فسمى جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر ثم إن أبا عبيدة نهاه فألقى إلينا البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر وادَّهنَّا منه؛ حتى ثابت منه أجسامنا وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه فنظر إلى أطول رجل فى الجيش وأطول جمل فحمل عليه، ومر تحته وتزودنا من لحمة وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك فقال: «**هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمة شيء تطعمونا؟**» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه [٢].

٩- سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بنى كلب بدومة الجندل فى شعبان سنة٦هـ، تحدث عبد الله بن عمر عن هذه السرية فقال: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف: «**فقال: "تجهز، فإنى باعثك فى سرية فى يومك هذا أو من غد إن شاء الله**» قال ابن عمر: فسمعت ذلك فقلت لأدخلن فلأصلينَّ مع النبى الغداة، فلأسمعن وصيته عبد الرحمن بن عوف قال: فغدوت فصليت فإذا أبو بكر وعمر وناس من

(١) الخبط: ورق الشجر الساقط.

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٨٥.

المهاجرين، فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن: **«ما خلفك عن أصحابك؟»** قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه فى السحر فهم معسكرون بالجُرف، وكانوا سبعمائة فقال: أحببت يا رسول الله ﷺ أن يكون آخر عهدى بك، وعلى ثياب سفرى قال: فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده، ثم عممه بعمامة سوداء، فأرخى بين كتفيه منها ثم قال: **«هكذا فاعتم يا ابن عوف!»** قال: وعلى ابن عوف السيف مُتوشِّحه ثم قال رسول الله ﷺ : **«اغز باسم الله وفى سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدًا»** قال ابن عمر: ثم بسط يده فقال: **«يا أيها الناس اتقوا خمسًا قبل أن يحل بكم ما نقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات؛ لعلهم يرجعون، وما نكث قوم عهدهم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السماء، ولولا البهائم لم يُسقوا، وما ظهرت الفاحشة فى قوم إلا سلط الله عليهم الطاعون، وما حكم قوم بغير آى القرآن إلا ألبسهم الله شيعًا وأذاق بعضهم بأس بعض»**.

قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دُومة الجندل، فلما حلَّ بها دعاهم إلى الإسلام، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو والكلبى وكان نصرانيًّا وكان رأسهم، فكتب عبد الرحمن إلى النبى ﷺ يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جهينة يقال له: رافع بن مكيث، وكتب يخبر النبى ﷺ أنه قد أراد أن

يتـزوج فـيهم، فكتـب إليـه النبـى ﷺ أن يتـزوج بنـت الأصـبغ تماضـر فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها، ثـم أقبـل بهـا وهـى أم أبـى سـلمة بـن عبـد الرحمن بن عوف[1].

١٠- سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بفَدَك فى شعبان سنة ٦هـ، وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بها جمعًا يريدون أن يمدوا اليهود، فبعث إليهم عليًّا فى مائتى رجل، وكان يسير الليل ويكمن النهار فأ صاب عينًا لهم؛ فأقر أنهم بعثوه إلى خيبر، يعرضـون عليهم نصـرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر، ودل العين على موضع تجمع بني سعد فأغار عليهم عليٌّ فأخذ خمسمائة بعير وألقى شاه، وهربت بنو سعد بالظُّعن، وكان رئيسهم وَبَر بن عُلَيم.

١١- سـرية أبـى يكـر الصـديق أو زيـد بـن حارثـة إلى وادى القـرى فى رمضان سـنة٦ هـ، كـان بطـن مـن فَزَارة يريـد اغتيـال النبـى ﷺ فبعـث رسول الله ﷺ أبـا بكـر الصـديق، قـال: سـلمة بـن الأكـوع وخرجـت معـه؛ حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشـننا الغـارة فوردنـا المـاء، فقتـل أبـو بكـر مـن قتـل، ورأيـت طائفـة وفـيهم الـذرارى، فخشـيت أن يسـبقونى إلى الجبـل فـأدركتهم، ورميـت بسـهم بيـنهم وبـين الجبـل، فلمـا رأوا السـهم وقفـوا وفيهم امـرأة هـى أم قِرْفَـة عليهـا قَشْـعٌ مـن أديـم، معهـا ابنتهـا مـن أحسـن العـرب، فجئـت بهـم أسـوقهم إلى بكـر، فنفلنـى أبـو بكـر ابنتهـا، فلـم أكشـف لهـا ثوبًـا، وقـد سـأله رسـول الله ﷺ بنـت أم قرفـة، فبعـث بهـا إلى مكـة وفـدى بهـا أسـرى مـن المسـلمين هنـاك، وكانـت أم قرفـة شـيطانة تحـاول اغتيـال النبـى ﷺ وجهـزت ثلاثـين فارسًـا مـن أهـل بيتهـا؛ لـذلك فلاقت جزاها وقتل الثلاثون.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٣١٧ - ٣١٨).

١٢- سرية كُرْز بن جابر الفهرى إلى العُرَنِيِّين فى شوال سنة٦هـ [١]، عن أنس رضى الله عنه قال: إن ناسا من عُكل وعرينة قدموا إلى المدينة على النبى ﷺ وتكلموا بالإسلام فقالوا: يا نبى الله إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة[٢]، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع[٣]، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعى النبى ﷺ واستاقوا الذود فبلغ النبى ﷺ فبعث الطلب فى آثارهم؛ فأمر بهم فسمَّروا أعينهم[٤]وقطعوا أيديهم، وتركوا فى ناحية الحرَّة؛ حتى ماتوا على حالهم واللفظ للبخارى[٥].

الدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ:

١- إن حركة السرايا والبعوث التى كان يقود رسول الله ﷺ ترشد المسلمين إلى أهمية متابعة أخبار الأعداء وجمع المعلومات عنهم، فقد كانت المعلومات عند رسول الله من مصادر متعددة - سراياه الاستطلاعية- المسلمين المتخفين المتعاطفين مع المسلمين المعاهدين، الفراسة واستكشاف ما وراء السطور، المهم أن رسول الله ﷺ ما كان يفاجأ بتآمر داخلى أو تهديد خارجى، وهذا يجعل المسلمين فى عصرنا أمام قضية؛ يجب أن يعطوها كامل الاعتبار مع ملاحظة الضوابط الشرعية [٦].

□

(١) الرحيق المختوم ٢٩٣.
(٢) استوخموا: لم يوافقوا جوها وكرهوها لسقم أصابهم.
(٣) الذود: الإبل.
(٤) سمروا أعينهم: كحلوها بمسامير محمية.
(٥) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٢٤.
(٦) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٢٥).

٢- الوصايا التى أوصى بها النبى ﷺ المسلمين فى سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل: «**يا أيها الناس اتقوا خمسًا...**» تبين السبب الرئيسي فى الصعوبات التى تواجه أمتنا فى الوقت الحاضر؛ ألا وهو عدم تمسكنا بكتاب الله - عز وجل- وسنة نبينا ﷺ.

* * *

عُمْرَةُ الحُدَيْبِية

تَارِيخُهَا وَأَسْبَابُهَا:

خرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الإثنين غرة ذى القعدة سنة ٦هـ[١] متوجهًا بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة.

وسببها: أن النبى ﷺ رأى رؤيا ملخصها: أن النبى ﷺ رأى أنه قد دخل مكة مع أصحابه المسلمين محرمًا مؤدبًا للعمرة، وقد ساق الهدى معظمًا للبيت مقدسًا له، فبشر النبى ﷺ أصحابه ففرحوا بها فرحًا عظيمًا[٢].

اسْتِنْفَارُ الرّسُولِ ﷺ لِلنَّاسِ:

استنفر رسول الله ﷺ العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب؛ ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذى صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب[٣]، أما هو فغسل ثيابه وركب ناقته القصواء، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نميلة الليثى خرج ومعه زوجته أم سلمة فى ألف وأربعمائة، ويقال: ألف وخمسمائة ولم يخرج بسلاح معه، إلا سلاح المسافر: السيوف في القُرُب[٤].

المسْلِمُونَ يَتَحَرَّكُونَ إِلَى مَكَّةَ:

وتحرك في اتجاه مكة، فلما كان بذي الحليفة قلد الهدى، وأشعره وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وبعث بين يديه عينًا له من خزاعة؛ يخبره عن قريش حتى إذا كان قريبا من عسفان أتاه عينه، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش[٥]، وجمعوا لك جموعًا، وهم مقاتلوك وصادوك عن

(١) الرحيق المختوم ص ٢٩٥.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٣٥).

(٣) ابن هشام ٢ / ٦٥.

(٤) الرحيق المختوم ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٥) هم عرب من بطون بني كنانة وغيرهم.

البيت، واستشار النبي ﷺ أصحابه وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَتَرَوْنَ أَنْ نَمِيلَ إِلَى ذَرَارِيِّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ فَنُصِيبَهُمْ، فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَحْرُوبِينَ، وَإِنْ نَجَوْا تَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ، أَوْ تَرَوْنَ أَنْ نَؤُمَّ الْبَيْتَ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَلَمْ نَجِئْ نُقَاتِلُ أَحَدًا، وَلَكِنْ مَنْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتَلْنَاهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَرُوحُوا إِذًا، فراحوا**» [1].

مُحَاوَلَةُ قُرَيْشٍ صَدَّ المسْلِمِينَ عَنِ البَيْتِ:

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبى ﷺ عقدت مجلسًا ا ستشاريًّا؛ قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش نقل إليه رجل من بنى كعب أن قريشًا نازلة بذى طُوًى، وأن مائتى فارس فى قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكُرَاع الغَمِيم فى الطريق الرئيسى الذى يو صل إلى مكة، وقد حاول خالد صد المسلمين، فقام بفر سانه إزاءهم يتراءى الجيشان، ورأى خالد المسلمين فى صلاة الظهر يركعون ويسجدون، فقال: لقد كانوا على غرة لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم، ثم قرر أن يميل على المسلمين - وهم فى صلاة العصر- ميلة واحدة؛ ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففاتت الفرصة خالدًا[2].

تَجَنُّبُ الرَّسُولِ ﷺ لِقَاءَ قُرَيْشٍ:

ولما بلغ رسول الله ﷺ أن قريشًا قد خرجت تعترض طريقه وتنصب كمينًا له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد؛ وهو لم يقرر المصادمة رأى أن يغير طريق الجيش الإسلامى تفاديًا للصراع مع المشركين، فقال: «**من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟**» فقال رجل من أ سلم: أنا يا ر سول الله؛ فسلك بهم طريقًا وعرًا بين شعاب شق على المسلمين السير فيه؛ حتى خرجوا فى أرض سهلة عند منقطع الوادى، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس: «**قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه**» فقالوا ذلك.

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٢٩.

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٩٥.

فقال ﷺ : **«والله إنها الحطة التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها»** فأمر رسول الله ﷺ الناس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمش فى طريق تخرجه إلى ثنية المرار، فهبط الحديبية من أسفل مكة فسلك الجيش ذلك الطريق بخفة ودون أن يشعر به أحد، فما نظر خالد إلا وقترة [١] جيش المسلمين قد ثارت، فعاد مسرعًا هو ومن معه إلى مكة يحذر أهلها ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ[٢].

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بثنية المرار بَرَكَتْ بِهَا رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ الناس: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ[٣]، فَقَال الناس: خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : **«مَا خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ بِهِ قَالَ فَعَدَلَ عَنْهَا حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ[٤] إِنَّمَا يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا[٥] فَلَمْ يَلْبَثْ النَّاسُ أَنْ نَزَحُوهُ فَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشُ فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ»** [٦].

بُدَيلُ بنُ وَرْقَاء يَتَوَسَّطُ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَقُرَيْش:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ من خزاعة، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ [٧]مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ وَقَالَ إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ مَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ[٨] وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«إِنَّا لَمْ**

(١) قترة: غبار.

(٢) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٣٣٨.

(٣) حل حل: تقال زجرا للناقة، وألحت الناقة وخلأت بمعنى: حَرُنَتْ.

(٤) ثمد: حوض.

(٥) يتبرضه الناس: يأخذون منه قليلاً قليلاً.

(٦) الرحيق المختوم ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٧) عيبة نصح أي: موضع سره.

(٨) العوذ: الإبل، المطافيل: حديثة الإنتاج.

نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكَتْهُمُ الْحَرْبُ فَأَضَرَّتْ بِهِمْ فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرُ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلا فَقَدْ جَمُّوا[1] وَإِنْ هُمْ أَبَوْا وَإِلا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ لَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ».

فقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا فَقَالَ إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلاً فَإِنْ شِئْتُمْ نَعْرِضُهُ عَلَيْكُمْ فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ لا حَاجَةَ لَنَا فِي أَنْ تُحَدِّثَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ وَقَالَ ذُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: قَالَ قَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ[2].

رُسُلُ قُرَيْشٍ:

وبعثت قريش سفيرها مِكْرَزَ بْنَ حَفْص بْن الأَخْيَفِ أَحَدَ بَنِي عَامِرِ بْن لُؤَيٍّ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قَالَ: «**هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ**»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَحْوِ مِمَّا كَلَّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ[3].

قَالَ فَبَعَثُوا إِلَيْهِ الْحِلْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ الْكِنَانِيَّ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الأَحَابِشِ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ**[4]**. فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ**» فَبَعَثُوا الْهَدْيَ فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيلُ عَلَيْهِ مِنْ عَرْضِ الْوَادِي فِي قَلائِدِهِ قَدْ أَكَلَ أَوْتَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحِلِّهِ رَجَعَ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لِمَا رَأَى فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَدْ رَأَيْتُ مَا لا يَحِلُّ صَدُّهُ الْهَدْيَ فِي قَلائِدِهِ قَدْ أَكَلَ أَوْتَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحِلِّهِ فَقَالُوا: اجْلِسْ إِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لا عِلْمَ لَكَ.

(١) جموا: استراحوا.

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٩٦، سيرة الرسول أبو عمار ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٣٣.

(٤) يتألهون: يتعبدون ويعظمون أمر الإله.

فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصدّ عن بيت الله من جاء معظمًا له؟! وا لذي نفس الحليس بيده لتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مه، كف عنا يا حليس، حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[1].

فَقَال عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ: إِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِهِ فَقَالُوا ائْتِهِ فَأَتَاهُ قَالَ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ قَوْمَكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنْ الأُخْرَى فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَرَى وُجُوهًا وَأَرَى أَوْبَاشًا مِنْ النَّاسِ خُلُقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امْصُصْ بَظْرَ اللاتِ نَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ فَقَالَ مَنْ ذَا قَالُوا أَبُو بَكْرٍ قَالَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لأَجَبْتُكَ وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ وَكُلَّمَا كَلَّمَهُ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ وَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَصْلِ السَّيْفِ وَقَالَ أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَ عُرْوَةُ يَدَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا قَالُوا الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَالَ أَيْ غُدَرُ أَوَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : **«أَمَّا الإِسْلامُ فَأَقْبَلُ وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ النَّبِيَّ ﷺ بِعَيْنِهِ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ**

(١) ابن هشام (٢/ ٦٨ - ٦٩).

مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ﷺ وَاللَّهِ إِنْ يَتَنَخَّمُ نُخَامَةً إِلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا» [1].

سُفَرَاءُ النَّبِيِّ إِلَى قُرَيْشٍ:

ولما لم تنتج سفارات قريش شيئًا يذكر أرسل النبى ﷺ خراش بن أمية الخزاعى إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له: الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله.

فلما فعلت قريش ما فعلت بسفير رسول الله ﷺ إليها حيث عقرت بعيره، وأرادت قتله ولم تقبل منه قولاً ولا رأيًا عاد إلى النبى ﷺ هاربًا بنفسه.

ولما رأى شباب قريش الطائشون الطامحون إلى الحرب؛ رغبة زعمائهم في الصلح فكروا فى خطة تحول بينهم وبين الصلح، فقرروا أن يخرجوا ليلاً ويتسللوا إلى معسكر المسلمين، ويحدثوا أحداثًا تشعل نار الحرب، وفعلاً قد قاموا بتنفيذ هذا القرار، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلاً، فهبطوا من جبل التنعيم وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعًا؛ ورغبة في الصلح أطلق سراحهم النبي ﷺ وعفا عنهم وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: ٢٤] [2].

ثم دَعَا رسول الله ﷺ عُمَرَ لِيَبْعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي وَلَيْسَ بِهَا مِنْ بَنِي عَدِيٍّ أَحَدٌ يَمْنَعُنِي وَقَدْ عَرَفَتْ قُرَيْشٌ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا وَلَكِنْ أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ مِنِّي عُثْمَانَ بْنِ

(١) الرحيق المختوم ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٣٦.

عَفَّانَ قَالَ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ وَأَنَّهُ جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ مُعَظِّمًا لِحُرْمَتِهِ فَخَرَجَ عُثْمَانُ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ وَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ وَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَدِفَ خَلْفَهُ وَأَجَارَهُ حَتَّى بَلَّغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظَمَاءَ قُرَيْشٍ فَبَلَّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ فَقَالُوا لِعُثْمَانَ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ بِهِ فَقَالَ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (1).

إِشَاعَةُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ وَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ:

واحتبسته قريش عندها، ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم فى الوضع الراهن ويبرموا أمرهم ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة، وطال الاحتباس فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته الإشاعة: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**» ثم دعا أصحابه إلى البيعة فثاروا إليه يبايعونه على ألا يفروا، وبايعته جماعة على الموت، وأول من بايعه أبو سنان الأسدى، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات فى أول الناس ووسطهم وآخرهم، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: «**هذه عن عثمان**» ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له: جَدُّ بن قَيْس.

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة، وكان عمر آخذًا بيده، ومَعْقِل بن يَسَار آخذًا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ، وهذه هي بيعة الرضوان التى أنزل الله فيها: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح: ١٨] (2).

(١) ابن هشام ٢ / ٧١.
(٢) الرحيق المختوم ص ٢٩٨.

إِبْرَامُ الصُّلْحِ وَبُنُودُهُ:

وعرفت قريش ضيق الموقف، فأسرعت إلى بعث سُهَيْل بن عمرو لعقد الصلح وأكدت له ألا يكون فى الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا، فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه النبى ﷺ قال: «**قد سَهُل لكم أمركم؛ أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل**» فجاء سُهَيل فتكلم طويلاً، ثم اتفقا على قواعد الصلح وهي:

١- الرسول ﷺ يرجع عامه هذا، فَلا يدْخُلْ مَكَّةَ وإذَا كَانَ العَامُ القَابِل دخلها المسلمون، فأقاموا فيها ثَلاثًا مَعَهم سِلاحُ الرَّاكِبِ، السُّيُوف فِي الْقُرُبِ ولا يتعرض لهم بأي نوع من أنواع التعرض.

٢- وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ.

٣- أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ.

٤- مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ.

٥- وَإِنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً وَإِنَّهُ لا إِسْلالَ وَلا إِغْلالَ[١].

وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرو لا أَعْرِفُ هَذَا وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو**» فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرو لَوْ شَهِدْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أُقَاتِلْكَ وَلَكِنْ اكْتُبْ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَسُهَيْلُ

(١) العيبة هنا مثل: والمعنى أن بيننا صدورًا سليمة في المحافظة على العهد الذي عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره، وقوله: لا إسلال ولا إغلال، فالإسلال السرقة، والإغلال: الخيانة، والمعنى العام أن بعضنا يأمن بعضا في نفسه وماله فلا يتعرض لدمه ولا لماله.

بْنُ عَمْرو عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، فأمر عليا أن يكتب: «**محمد بن عبدالله ويمحوً لفظ رسول الله، فأبى علي أن يمحو هذا اللفظ فمحاه رسول الله ﷺ بيده ثم تمت كتابة الصحيفة**».

شهد على الصلح من المسلمين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة وعلى بن أبى طالب كاتب المعاهدة رضى الله عنهم أجمعين، ومن المشركين مكرز بن حفص وسهيل بن عمرو، ولما تم الصلح دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش(١).

أَبُو جَنْدَلٍ وَثَبَاتُهُ عَلَى الحَقِّ:

وبينما الكتاب يكتب إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَل بْنُ سُهَيْل بْن عَمْرو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ سُهَيْلٌ هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ**» قَالَ فَوَاللَّهِ إِذًا لا نُصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَجِزْهُ لِي**» قَالَ مَا أَنَا بِمُجِيزُهُ لَكَ قَالَ بَلَى فَافْعَلْ قَالَ مَا أَنَا بِفَاعِلٍ وقد ضرب سُهَيْلٌ أَبَا جَنْدَل في وجهه وأخذ بتلابيبه وجره ليرده إلى المشركين وجعل أَبُو جَنْدَل يصرخ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ أَتَرُدُّونَنِي إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فَيَفْتِنُونِي فِي دِينِي قَالَ: فَزَادَ النَّاسُ شَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ**» قَالَ فَوَثَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَعَ أَبِي جَنْدَل فَجَعَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ اصْبِرْ أَبَا جَنْدَل فَإِنَّمَا هُمْ الْمُشْرِكُونَ وَإِنَّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ قَالَ وَيُدْنِي قَائِمَ السَّيْفِ مِنْهُ قَالَ يَقُولُ رَجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفَ فَيَضْرِبَ بِهِ أَبَاهُ قَالَ فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيهِ وَنَفَذَتْ الْقَضِيَّةُ(٢).

(١) ابن هشام (٢ / ٧٢ - ٧٣)، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٥٦ - ٣٥٧)، الرحيق المختوم ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٩٩.

حُزْنُ المسْلِمِينَ وَمَوْقِفُ عُمَرَ رضى الله عنه:

لقد كان المسلمون يعلوهم الحزن الشديد لسببين اثنين:

الأول: أن النبى ﷺ كان قد أخبرهم أنهم سيطوفون بالبيت.

الثانى: أن النبى ﷺ قبل ضغط قريش فى هذا الصلح.

كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون، وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة؛ بحيث غلب الهم والحزن على التفكير في عواقب الصلح لعل أعظمهم حزنًا كان عمر بن الخطاب يقول رضى الله عنه: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ: «**بَلَى**» قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ: «**بَلَى**» قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ: «**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي**» قُلْتُ: أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ قَالَ: «**بَلَى قَالَ أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ**» قُلْتُ: لا قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُتَطَوِّفٌ بِهِ**» قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ وَقَالَ: تَطَوَّفْ بِغَرْزِهِ حَتَّى تَمُوتَ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ قُلْتُ: أَوَ لَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى قَالَ: أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّهُ يَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لا قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُتَطَوِّفٌ بِهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ قَالَ عُمَرُ فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً – أي أعمالا صالحة كثيرة– ليكفر عن مجادلته للنبي ﷺ (١).

التَّحَلُّلُ مِنَ العُمْرَةِ وَمَشُورَةُ أُمِّ سَلَمَةَ رضى الله عنها:

لَمَّا فَرَغَ رسول الله ﷺ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ لأَصْحَابِهِ: «**قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا**» قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا لَمْ

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٤٤٥ - ٤٤٦.

يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ قَامَ فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَقَامَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ هَدْيَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

وقد حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ : **«يرحم الله المحلقين»**، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: **«والمقصرين»** وكان فى هدى النبى ﷺ فى الحديبية جمل لأبى جهل فى رأسه بُرة [1]من فضة يغيظ ذلك المشركين[2].

العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح:

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية قاصدًا المدينة؛ حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح، وقد عبر رسول الله ﷺ عن عظيم فرحته بنزولها وقال: **«أنزلت على الليلة سورة لهى أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»** ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ١ - ٣] [3] فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياه فقال: يا رسول الله ﷺ، أو فتح هو؟ قال: **«نعم، فطابت نفسه ورجع»** [4].

مَجِىءُ أَبِي بَصِيرٍ إِلَى المَدِينَةِ وَمَوْقِفُ قُرَيْشٍ مِنْهُ

لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أبو بَصير عُتبة بن أسيد، وكان ممن حبس بمكة، فبعثت قريش رجلاً من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى لهم فقدما

(١) برة: حلقة.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٦٣ - ٣٦٤).
(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٦٥).
(٤) الرحيق المختوم ص ٣٠٢.

على رسول الله ﷺ في طلبه فقال رسول الله ﷺ : «**يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله – عز وجل– جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا فانطلق مع إلى قومك**» قال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني قال: «**يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا**» فانطلق معهما، حتى إذا كان بذى الحُليفة جلس مع صاحبيه، وقال لأحدهم: «**أصارم سيفك هذا يا أخا بنى عامر؟ فقال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت فاستلَّه أبو بصير، ثم علاه به؛ حتى قتله، وفر الآخر إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ طالعًا، قال: ويحك! ما لك، قال: قتل صاحبكم صاحبى، فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوحشًا بالسيف؛ حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله وفت ذمتك وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو بعثت بي فقال رسول الله ﷺ : ويل أمه مَحش[1]حرب لو كان معه رجال**». ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية ذى المروة، على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون عليها الشام، وبلغ المسلمين الذين احتسبوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبى بصير، فخرجوا إليه بالعيص فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً، وكانوا قد ضيَّقوا على قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها؛ حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامها إلا آواهم، فلا حاجة لهم بهم، فآواهم رسول الله ﷺ فقدموا عليه المدينة[2].

امْتِنَاعُ النَّبِيِّ عَنْ رَدِّ المهَاجِرَاتِ:

صممت مجموعة من النساء المستضعفات فى مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفى مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط،

(١) محش حرب: موقد حرب ومهيجها، وفي الصحيح: (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد).
(٢) ابن هشام (٢ / ٧٨ - ٨٠).

فقد هاجرت إلى رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية فأراد كفار مكة أن يردوهن فأنزل الله تعالى فى حقهن سورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠ ﴾ [الممتحنة: ١٠] (١).

فرفض النبى ﷺ طلب المشــركين بردهن امتثالاً لأمر الله بالإضــافة إلى أن الكلمة التى كتبت فى المعاهدة بصـــدد هذا البند هى: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل, وإن كان على دينك إلا رددته علينا، فلم تدخل النساء فى العقد رأسًا.

وكان النبي ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾ [الممتحنة: ١٢] فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: «**قد بايعتك، ثم لم يكن يردهن**».

وطلق المســلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك(٢).

نَتَائِجُ صُلْحِ الحُدَيْبِيَة:

كان لصلح الحديبية العديد من النتائج من أهمها:-

١- اعترفت قريش فى هذه المعاهدة بكيان الدولة المســلمة؛ فالمعاهدة دائمًا لا تكون إلا بين ندين، وكان لهذا الاعتراف أثره فى نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودى؛ حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

(١) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٣٧١.
(٢) الرحيق المختوم ص ٣٠٠.

٢- دخلت المهابة فى قلوب المشــركين والمنافقين، وتيقن الكثير منهم بغلبة الإســلام، وقد تجلت بعض مظاهر ذلك فى مبادرة كثير من صــناديد قريش إلى الإ سلام مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم.

٣- أعطت الهدنة فرصــة لنشــر الإســلام، وتعريف الناس به مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه، يقول الإمام الزهرى: مما فتح فى الإســلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة وو ضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاو ضوا فى الحديث والمنازعة، فلم يكلِّم أحد بالإســلام يعقل شــيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل فى تينك الســنتين مثلُ من كان فى الإســلام قبل ذلك أو أكثر.

وعقب عليه ابن هشــام بقوله: والدليل على قول الزهرى أن رســول الله ﷺ خرج إلى المدينة فى ألف وأربعمائة فى قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك فى بسنتين فى عشرة آلاف.

٤- أمن المســـلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود، ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى؛ فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

٥- مفاوضــات الصــلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المســلمين، ويميلون إليه فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المســلمين يلبون رجع إلى أصــحابه قائلاً: لقد رأيت البدن قد قلدت وأشــعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت.

٦- مكن صــلح الحديبية النبى ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العربية.

٧- ســاعد صــلح الحديبية النبى ﷺ على إرســال رســائل إلى ملوك الفرس والروم والقبط يدعوهم إلى الإسلام.

٨- كان صلح الحديبية سببًا ومقدمة لفتح مكة، يقول ابن القيم: كانت الهدنة مقدمة بين يدى الفتح ألأعظم الذى أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به فى دين الله أفواجًا؛ فكانت الهدنة بابًا له ومؤذنًا بين يديه، وهذه قضاء الله فى الأمور العظام التى يقضيها قدرًا و شرعًا أن يؤطئ بين يديها بمقدمات وتوطئات تؤذى لها وتدل عليها [١].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ وَالدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ:

ينطوى صلح الحديبية على العديد من العبر والعظات والدروس المستفادة نذكر فيها ما يلى:

١- إن أمر هذا الصلح كان مظهرًا لتدبير إلهى محض، تجلى فيه عمل النبوة وأثرها كما لم يتجل فى أى عمل أو تدبير آخر، فقد كان نجاحه سرًا مرتبطًا بمكنون الغيب المطوى فى علم الله وحده، ولذلك انتزع - كما قد رأيت- دهشة المسلمين أكثر مما اعتمد على فكرهم وتدبيرهم، ومن هنا فإنا نعتبر أمر هذا الصلح بمقدماته ومضمونه ونتائجه من الأسس الهامة فى تقويم العقيدة الإسلامية وتثبيتها [٢].

٢- إن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التى يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثل فى التاريخ القديم والحديث؛ لاحترام كلمة لم تكتب، واحترام كلمة تكتب كذلك، وفى الجد فى عهوده، وحبه للصراحة والواقعية وبغضه التحايل والالتواء والكيد، وذلك حينما كان يفاوض سهيل بن عمرو فى الحديبية، وجاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو فرده إلى أبيه قائلاً: «**إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهدًا، وإنا لا نغدر بهم**».

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٦٧ - ٣٦٨).
(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٢٤٨.

كما يتضح ذلك فى موقف أبى بصير حينما جاء من مكة إلى المدينة فقال له النبى ﷺ : «**يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا فانطلق إلى قومك**».

فكان النبى ﷺ يهتم بالعهود والمواثيق ولم يكن عنده مجرد نظرية مكتوبة على الورق، ولكن كان سلوكًا علميًا فى حياته وفى علاقاته الدولية فقد أوصى الله بالوفاء بالعهود، قال الله جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامى التى يجب على كل مسلم أن يلتزم بها[(١)].

٣- ومن الدروس المستفادة من صلح الحديبية احترام المعارضة النزيهة، وقد وضح ذلك عندما أعلن عمر بن الخطاب عن معارضة لهذه الاتفاقية، وقد استطاع النبى ﷺ بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه فى صلح المسلمين وأنه نصر لهم، وبهذا يتبين أن الرسول ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة، حيث قرر ذلك بقوله وفعله، وهو والله أعلم إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة؛ التى تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التى تخدم المصلحة العامة، وهذا الهدى النبوى الكريم بيَّن أن حرية الرأى مكفولة فى المجتمع الإسلامى، وأن للفرد فى المجتمع الإسلامى الحرية فى التعبير عن رأيه ولو كان هذا الرأى نقدًا لموقف حاكم من الحكام أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره فى جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر[(٢)].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٨ - ٣٦٩).
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٣٦٢ - ٣٦٣).

٤- ومن الدروس المستفادة أيضًا أخذ النبى ﷺ بمشورة أم سلمة رضى الله عنها، وفى ذلك دليل على استحسان مشورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأى سديد، كما أنه لا فرق فى الإسلام بين أن تأتى المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التى يزعم أعداء الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأى المرأة أكثر من أن تشير على نبى مرسل، ويعمل النبى ﷺ بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته[١].

* * *

(١) المصدر السابق (٢ / ٣٦٤).

المَرْحَلَةُ الثّانِيَةُ (طَوْرٌ جَدِيدٌ)

إن صلح الحديبية كان بداية طور جديد فى حياة الإسلام والمسلمين، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها فى عداء الإسـلام، وبانسـحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسـلام انكسـر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة قريش وغطفان واليهود.

ولما كانت قريش ممثلة الوثنية وزعيمتهم في ربوع جزيرة العرب وزعيمتهم انخفضت حدة شاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير؛ ولذلك لا نرى لغطفان ا ستفزازًا كبيرًا بعد هذه الهدنة، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود.

أ ما اليهود فكانوا قد جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرًا للدس والتآمر، وكانت شـياطينهم تبيض هناك وتفرخ وتؤجج نار الفتنة، وتغرى الأعراب الضـاربة حول المدينة، وتبيت للقضـاء على النبى ﷺ والمسـلمين أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم؛ ولذلك كان أول إقدام حا سم من النبى ﷺ بعد هذا الصلح هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر.

ثم إن هذه المرحلة التى بدأت بعد الصـلح أعطت المسـلمين فرصـة كبيرة لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها، وقد تضاعف نشاط المسلمين فى هذا المجال وبرز نشاطهم فى هذا الوجه على نشاطهم العسكرى، ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة إلى قسمين:

١- النشاط فى مجال الدعوة أو مكاتبة الملوك والأمراء.

٢- النشاط العسكرى.

٣- وقبل أن نتابع النشـاط العسـكرى فى هذه المرحلة نتناول موضـوع مكاتبة الملوك والأمراء؛ إذ الدعوة الإسلامية هى المقدمة طبعًا بل ذلك

٤- هو الهدف الذى عانى له المســلمون ما عانوه من المصــائب والآلام والحروب والفتن والقلاقل والاضطرابات[١].

مُكَاتَبَةُ المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ:

روى ابن سـعد فى طبقاته أنه ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سـنة سـت هجرية، أرسـل الرسـل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسـلام، وكتب إليهم كتبا..

فقيل: يا رسول الله: إن الملوك لا يقرؤن كتابًا إلا مختومًا؛ فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتمًا من فضة، نقشه ثلاثة أسطر: وختم به الكتب فخرج ستة نفر من يوم واحد.

الله
رسول
محمد

وذلك فى المحرم سنة سبع، وكان كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم[٢].

وفيما يلى نصوص من هذه الكتب وبعض ما تمخضت عنه.

١- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ (مَلِكَ الحَبَشَةَ):

وهذا النجاشى اسمه أصحمة بن الأبجر، كتب إليه النبى ﷺ مع عمرو بن أمية الضمرى فى آخر سنة ست أو فى المحرم سنة سبع من الهجرة

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسـول الله إلى النجاشـى عظيم الحبشـة، سـلام على من اتبع الهدى، أما بعد: «**فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السـلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة؛**

(١) الرحيق المختوم ص ٣٠٣.

(٢) فقه السيرة للبوطي (٢٦٣ - ٢٦٤).

فحملت بعيســـى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإنى أدعو إلى الله وحده لا شــريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رســول الله ﷺ وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت، ونصحت فاقبل نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى».

ذكر الواقدى وغيره أنه أسلم وشهد شهادة الحق، قال الإمام ابن القيم:

وليس كما قال هؤلاء؛ فإن أصحمة النجاشى الذى صلى عليه رسول الله ﷺ ليس هو الذى كتب إليه، هذا الثانى لا يُعرف إســلامه بخلاف الأول؛ فإنه مات مسـلمًا، وقد روى مسـلم فى صـحيحه من حديث قتادة عن أنس قال: كتب رســول الله ﷺ إلى كســرى وإلى قيصــر وإلى النجاشــى وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه رسول الله ﷺ، وقال أبو محمد بن حزم: إن هذا النجاشــى الذى بعث إليه رســول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمرى لم يسلم[1].

٢- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى كِسْرَى (مَلِك فَارِس):

كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى ملك فارس:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورســوله، وشــهد أن لا إله إلا الله وحده لا شــريك، وأن محمدًا عبده ورســوله، وأدعوك بدعاية الإســلام فإني أنا رســول الله إلى الناس كافة؛ لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

١- واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين، ولا ندرى هل بعث به عظيم البحرين رجلاً من رجالاته أم بعث عبد الله السهمى، وأيّاما كان فلما قُرئ الكتاب على كسرى مزقه،

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٤٥٨ - ٤٥٩.

وقال فى غطرســة: عبد حقير من رعيتى يكتب اسمه قبلى، ولما بلغ ذلك رســول الله ﷺ قال: «مزق الله ملكه» وقد كان كما قال، فقد كتب كســرى إلى باذان عامله على اليمن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به، فاختار باذان رجلين ممن عنده، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمر أن ينصرف معهما إلى كسرى، فلما قدم المدينة وقابلا النبى ﷺ قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره بأن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثنى إليك لتنطلق معى، وقال قولاً توعده فيه، فأمرهما النبى ﷺ أن يلاقياه غدًا.

وفى ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضـــد ن داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسـه، وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء لعشـر مضـين من جمادى الأولى سنة سبع، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحى فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك، فقالا: هل تدرى ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيســر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك، قال: نعم أخبراه ذلك عنى، وقولا له: إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى، وينتهى إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء".

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شـــيرويه لأبيه وقال له ســـيرويه في كتابه: فلا تهجه؛ حتى يأتيك أمرى.

وكان ذلك سببًا فى إسلام باذان، ومن معه من أهل فارس باليمن(١).

٣- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى قَيْصَر (مَلِك الرُّومِ):

وكتب النبي ﷺ إلى قيصـــر الروم واسمه هرقل وأرســـل إليه الكتاب مع الصحابي الجليل دحية الكلبي رضى الله عنه عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو

(١) الرحيق المختوم ٣٠٧ - ٣٠٨.

سُفْيَانَ مِنْ فِيهِ إِلَى فِيَّ قَالَ:

انْطَلَقْتُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّأْمِ إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ قَالَ وَكَانَ دَحْيَةُ الْكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ فَدَفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى هِرَقْلَ قَالَ فَقَالَ هِرَقْلُ هَلْ هَا هُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالُوا نَعَمْ قَالَ فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَدَخَلْنَا عَلَى هِرَقْلَ فَأُجْلِسْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَايْمُ اللَّهِ لَوْلا أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَيَّ الْكَذِبَ لَكَذَبْتُ ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُ كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قَالَ: قُلْتُ لا قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ: قُلْتُ: لا قَالَ: أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ قَالَ: يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ: قُلْتُ لا بَلْ يَزِيدُونَ قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ لا قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قَالَ: قُلْتُ تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالاً يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ قُلْتُ: لا وَنَحْنُ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ لا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لا ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ فِيكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ فَزَعَمْتَ أَنْ لا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ وَ سَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَ ضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ فَقُلْتَ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَزَعَمْتَ أَنْ لا فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ

عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ فَزَعَمْتَ أَنْ لا وَكَذَلِكَ الايمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يُزِيدُونَ وَكَذَلِكَ الايمَانُ حَتَّى يَتِمَّ وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالاً يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمْ الْعَاقِبَةُ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لا يَغْدِرُ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ فَزَعَمْتَ أَنْ لا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ قُلْتُ رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ قَالَ ثُمَّ قَالَ بِمَ يَأْمُرُكُمْ قَالَ قُلْتُ يَأْمُرُنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْعَفَافِ قَالَ إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا فَإِنَّهُ نَبِيٌّ وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ قَالَ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهُ: «**فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الاسْلامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ** ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ ارْتَفَعَتْ الأَصْوَاتُ عِنْدَهُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا قَالَ فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ خَرَجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ[1] إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلامَ[2].

(١) أي: اشتد أمره، وأبو كبشة هو جد النبي ﷺ من جهة الأم، وكان مشركًا، فذهب إلى الشام فتنصر، فلما خالف النبي ﷺ دين قريش وجاء بالحنيفية شبهوه به ونسبوه إليه للتعبير.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٤٦١ - ٤٦٢.

٤- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى المقَوْقس (مَلِك مِصْر):

وكتب النبى ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين؛ فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط»، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

[آل عمران: ٦٤].

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبى بلتعة، فلما دخل حاطب على المقوقس، قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم لأنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك.

فقال المقوقس: إن لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه، فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإ سلام الكافى به الله فقد ما سواه، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمرى ما بشارة مو سى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبى أدرك قومًا فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبى، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر.

وأخذ كتاب النبى ﷺ، فجعله فى حُقٍّ من عاج، وختم عليه ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له بالعربية فكتب إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد:

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك.

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية وسيرين، والبغلة دُلْدُل بقيت إلى زمن معاوية واتخذ النبى ﷺ مارية سرية له، وهى التى ولدت له إبراهيم، وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصارى[1].

٥- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى الحَارِثِ الغَسَّانِي (صَاحِب دِمَشْق):

كتب إليه النبى ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمّر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له يبقى لك ملكك».

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب قال: من ينزع ملكى منى، أنا سائر إليه، ولم يُسلم [2].

٦- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى هَوْذَة بنِ عَلِيٍّ (صَاحِبِ اليَمَامَة):

وكتب النبى ﷺ إلى هوذة بن على صاحب اليمامة:

(١) الرحيق المختوم ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٦٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

«**من محمد رسول الله ﷺ إلى هوذة بن على، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك**».

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامرى، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختومًا أنزله، وقرأ عليه فرد عليه ردًّا دون رد، وكتب إلى النبى ﷺ ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطًا بجائزة، وكساه أثوابًا من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبى ﷺ فأخبره، فقرأ النبى ﷺ كتابه فقال: «**لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما فى يديه**» فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات، فقال النبى ﷺ : «**أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبئ يقتل بعدى**» فقال قائل: يا رسول الله ﷺ من يقتله؟ فقال: «**أنت وأصحابك، فكان كذلك**».

٧- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى المنْذِرِ بنِ سَاوِي (حَاكِم البَحْرَيْن):

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابًا؛ يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث إليه العلاء بن الحضرمى بذلك الكتاب، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ.

أما بعد يا رسول الله ﷺ، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه ومنهم من كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فأحدث إليَّ فى ذلك أمرك.

فكتب إليه رسول الله ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أما بعد: فإنى أذكرك الله – عز وجل– فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطيع رسلى ويتبع أمرهم، فقد أطاعنى، ومن نصح فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرًا، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فإن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية».

٨- كِتَابُهُ ﷺ إِلَى مَلِكِ عُمَان:

وكتب النبى ﷺ كتابًا إلى ملك عمان جَيْفَر وأخيه عبد ابنى الجُلَنْدَى ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوكم بدعاية الإسلام، أسلما تسلما؛ فإنى رسول الله ﷺ إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيًّا، ويحق القول على الكافرين؛ فإنكما إن أقررتما بالإسلام، وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام، فإن ملككما زائل وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما».

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص – رضى الله عنه– قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد – وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقًا– فقلت: إنى رسول الله ﷺ إليك وإلى أخي، فقال: أخى المقدم عليَّ بالسن، والملك وأنا أو صلك إليه؛ حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة، قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، وووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه؛ حتى هدانى الله للإسلام.

قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبًا، فسألنى أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشى وأخبرته أن النجاشى قد أسلم، قال: وكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أقروه واتبعوه، قال: والأساقفة والرهبان تبعوه، قلت: نعم، قال: فانظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب، قلت: ما كذبت، وما نستحله فى ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى، قلت: بلى، قال: فبأى شىء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشى يخرج له خرجًا؛ فلما أسلم و صدق محمد ﷺ، قال: لا والله لو سألنى درهمًا واحدًا ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله فقال له: ايناق أخوه، أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا، ويدين بدين غيرك دينًا محدثًا، قال هرقل: رجل رغب فى دين، فاختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكى، لصنعت كما صنع، قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله صدقتك.

قال عبد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب، قال: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ نصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا، قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم، قال: إن هذا لخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال؛ حتى انتهيت إلى الإبل، قال عمرو: وتؤخذ فى سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد الماء، فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا.

قال: فمكث ببابه أيامًا، وهو يصلى إلى أخيه فيخبره كل خبرى، ثم إنه دعانى يومًا فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعى، فقال: دعوه، فأرسلت فذهبت؛ لأجلس، فأبوا أن يدعونى أجلس فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك،

فدفعت إليه الكتاب مختومًا، ففض خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأ مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه؛ إما راغب فى الدين وإما مقهور بالسيف، قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال، فما أعلم أحدًا بقى غيرك فى هذه الحرجة وأنت أن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال، قال: دعنى يومى هذا، وارجع إليَّ غدًا.

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضنَّ بملكه؛ حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه، فأوصلنى إليه، فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما فى يدى، وهو لا تبلغ خيله ها هنا، وإن بلغت خيله لقيت قتالاً، ليس كقتال من لاقى، قلت: أنا خارج غدًا، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال: ما نحن فيما ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إليَّ فأجاب إلى الإسلام هو أخوه جميعًا، وصدقا النبى ﷺ وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لى عونًا على من خالفنى[1].

مِنْ نَتَائِجِ إِرْسَالِ الكُتُبِ إِلَى الملُوكِ وَالأُمَرَاءِ:

أظهر الرسول ﷺ في سياسته الخارجية دراسة سياسية فاقت التصور، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء، كما أظهر ﷺ قوة وشجاعة فائقتين؛ فلو كان غير رسول الله ﷺ لخشى عاقبة ذلك الأمر، لا سيما أن بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوك أقوياء على تخوم بلاده كهرقل وكسرى والمقوقس،

(١) الرحيق المختوم ٣١٠ - ٣١٣، سيرة الرسول أبو عمار ٤٦٤ - ٤٦٧.

ولكن حرص رســـول الله ﷺ وعزيمته على إبلاغ دعوة الله وإيمانه المطلق بتأييد الله ســـبحانه وتعالى، كل ذلك دفعه؛ لأن يقدم على ما أقدم عليه وقد حققت هذه السياسة النتائج الآتية:

أ- وطد الرســول ﷺ بهذه الســياســة أســلوبًا جديدًا فى التعامل الدولى لم تكن تعرفه البشرية من قبل.

ب- أصــبحت الدولة الإســلامية لها مكانتها وقوتها، وفرضــت وجودها على الخارطة الدولية لذلك الزمان.

ج- كشفت للرسول ﷺ نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه، وحكمهم على دعوته.

د- كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيرًا عمليًّا على عالمية الدعوة الإســلامية؛ تلك العالمية التى أوضــحتها آيات نزلت فى العهد المكى مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهكذا فإن رسائل النبى ﷺ إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تعتبر نقطة تحول فى ســياســة دول الرســول الخارجية، فعظم شــأنها وأصــبحت لها مكانة دينية وســياســية بين الدول وذلك قبل فتح مكة كما أن هذه الســياســة مهدت لتوجيه الرسول ﷺ لسائر أنحاء بلاد العرب فى عام الوفود[١].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ وَالدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ:

إن في قصــة الكتب التي أرســـلها النبي ﷺ إلى الملوك والرؤســـاء دلالات ودروسًا كثيرة نذكر منها ما يلى:

١- يــدل عمــل النبــى ﷺ علــى أنــه ينبغــى علــى المســلمين أن يهيــؤا للــدعوة الإســلامية فــى كــل أرجــاء الأرض وســائلها وأســبابها، ومــن أهــم الأسباب ذلك المعرفة بلغة الأمم والأقوام الذين يقومون بدعوتهم إلى

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤١٣ / ٤١٤).

الإسلام، وتعريفهم بمبادئه وأحكامه، وهذا ما فعله النبى ﷺ فقد اختار رسلاً، يجيد كل واحد منهم لغة القوم الذين بعثه إليهم.

٢- ويدل أيضًا عمله ﷺ هذا - مع ملاحظة التوقيت الذى جاء فيه- على أن يقوموا أولاً بمسئولية الدعوة فيما بينهم، وأن يصلحوا من أنفسهم؛ حتى إذا قطعوا من ذلك شوطًا كبيرًا، وفرغوا من تطبيق الإسلام على حياتهم وسلوكهم، آن لهم حينئذ أن يقوموا بهذا الواجب الثانى، وقد كان النبى ﷺ قادرًا أن يرسل عددًا من أصحابه إلى هؤلاء الرؤساء والملوك قبل هذا التاريخ بكثير، غير أن ذلك ينطوى على الإخلال بهذا الواجب الذى ذكرناه، وينبغى أن نعلم أن إصلاح المسلمين أنفسهم هو بنفسه جزء عظيم من دعوة غيرهم إلى الإسلام، فالناس كانوا ولا يزالون يبحثون عن العمل الصالح فى السلوك والخلق؛ ليقتفوا أثره ويتبعوه، ولو أن المسلمين اليوم كانوا معتزين بإسلامهم مطبقين مبادئه وأحكامه لرأيت ذلك الشعاع الهادى متوغلاً بضيائه فى مجاهل إفريقيا وأقاصى أوروبا[1].

* * *

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٢٦٨.

غَزْوَةُ خَيْبَر

تَارِيخُهَا وَأَسْبَابُهَا:

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية، ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر كان ذلك فى السنة السابعة للهجرة(١).

لما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة وهو قريش، وأمن منه تمامًا بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين؛ اليهود وقبائل نجد حتى يتم الأمن والسلام ويسود الهدوء فى المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما كانت خيبر هى وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هى الجديرة بالتفات المسلمين أولاً.

أما كون خيبر بهذه الصفة فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة ثم أخذوا فى الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس فى المجتمع الإسلامى- وبغطفان وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب وكانوا هم أنفسهم يتهيأون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه فى محن متواصلة؛ حتى وضعوا خطة لاغتيال النبى ﷺ وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين مثل سلام بن أبى الحقيق وأسير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك؛ وإنما أبطأوا فى القيام بهذا الواجب؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم - وهى قريش- كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين واقترب لهم يوم الحساب (٢).

(١) ابن هشام ٢ / ٨٢.
(٢) الرحيق المختوم ص ٣١٦.

وقد تضـمنت سـورة الفتح التى نزلت بعد الحديبية وعدًا إلهيًّا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة قال تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفتح: ٢٠] (١).

عَدَدُ الجَيْشِ الإِسْلاَمِيِّ:

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة الحديبية أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلا: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح: ١٥].

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر أعلن ألا يخرج معه إلا راغب فى الجهاد فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة، واستعمل على المدينة سِباع بن عُرْفُطة الغفارى، وقال ابن إسحاق: نُمَيلة بن عبد الله الليثى والأول أصح عند المحققين.

وبعد خروجه ﷺ قدم أبو هريرة المدينة مسلمًا، فوافى سباع بن عرفظة فى صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعا فزوده حتى قدم على رسول الله ﷺ وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه فى سهمانهم(٢).

اتِّصَالُ المنَافِقِينَ بِاليَهُودِ:

وقد قام المنافقون يعلمون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبى إلى يهود خيبر: إنَّ محمدًا قصد قصدكم، وتوجه إليكم فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون عزَّل لا سلاح معهم إلا قليل، فلما علم ذلك أهل خيبر أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٨٤).
(٢)الرحيق المختوم ٣١٦ - ٣١٧.

وهوذة بن قيس إلى غطفان يســـتمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر ومظاهرين لهم على المســلمين، وشــرطوا لهم نصــف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين[1].

مَسِيرُ الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ إِلَى خَيْبَر:

ســـار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصـــون خيبر وشـــدة بأس رجالها وعتادها الحربى، وكانوا يكبرون ويهللون بأصــوات مرتفعة فطلب منهم النبى ﷺ أن يرفقوا بأنفســهم قائلاً ﷺ [2]:«**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا**» [3].

وســـلك رســـول الله ﷺ فى اتجاه نحو خيبر على جبل عصـــر[4] ثم على الصهباء، ثم أقبل ﷺ بجيشه حتى نزل بوادى يقال له: الرجيع فنزل بينهم وبين غطفان؛ ليحول بينهم وبين أن يمدو أ هل خيبر، و لما سمعت غطفان بمنزل رســـول الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه؛ حتى إذا كانوا ببعض الطريق سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسًّا، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر [5].

وكانت خطة مباركة من النبي ﷺ اســـتطاع بها عزل يهود خيبر عن حلفاء المشركين.

(١) الرحيق المختوم ص ٣١٧

(٢) رواه البخاري ٦٣٨٤.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٨٤).

(٤) عصر: بالكسر، ويقال بالتحريك، والأول أشهر وأكثر.

(٥) ابن هشام ٢ / ٨٤.

ثم دعا ر سول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش - وكان ا سم أحدهما حسـيل- ليدلاه على الطريق الأحسـن؛ حتى يدخل خيبر من جهة الشمال - أى جهة الشام- فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشمال كما يحول بينهم وبين غطفان.

قال أحدهما: أنا أدلك يا رسـول الله، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة، وقال: يا رسـول الله ﷺ، هذه طرق يمكن الوصـول إلى كل منها إلى المقصد، فأمر أن يسيها له واحدًا واحدًا، قال: اسم واحد منها حزن فأبى النبى ﷺ من سـلوكه، وقال اسـم الآخر شـاش فامتنع منه أيضـًا، ووقال اسـم آخر حاطب، فامتنع منه أيضًا، قال حسيل: فما بقى إلا واحد، قال عمر: ما اسمه؟ قال: مرحب، فاختاره النبى ﷺ سلوكه[1].

بَعْضُ مَا وَقَعَ فِي الطَّرِيقِ:

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا لَيْلاً فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ لِعَامِرِ بْنِ الأَكْوَعِ: أَلا تُسْـمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ قَالَ: وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِرًا فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءٌ لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا
وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا
وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [2]: **«مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟ قَالُوا عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ، فَقَالَ: يَرْحَمُهُ اللَّهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْلا أَمْتَعْتَنَا بِهِ»**.

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٧٧.
(٢) رواه البخاري ٦١٤٨.

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد، وقد وقع ذلك في حرب خيبر.

١- وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء وهى من أدنى خيبر صلى العصر ثم دعا بالأزواد فلم يؤت إلا بالسويق، فأمر به فثرى فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمض الصحابة، ثم صلى ولم يتوضأ ثم صلى العشاء.

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال: «**قفوا**» فوقف الجيش فقال: «**اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين السبع وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين أسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا، بسم الله**» [١].

الجَيْشُ الإِسْلاَمِيُّ إِلَى أَسْوَارِ خَيْبَر:

وبات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريبًا من خيبر ولا تشعر بهم اليهود وكان النبي ﷺ إذا أتى قوما بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح الفجر بغلس وركب المسلمون فخرج أهل خيبر بمساحيهم، فَعَنْ أَنس بْن مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ قَالَ فَخَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ لَيْلاً فَلَمَّا أَصْبَحَ وَلَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا رَكِبَ وَرَكِبْتُ خَلْفَ أَبِي طَلْحَةَ وَإِنَّ قَدَمِي لَتَمَسُّ قَدَمَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فَخَرَجُوا إِلَيْنَا بِمَكَاتِلِهِمْ[٢] وَمَسَاحِيهِمْ[٣] فَلَمَّا رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ[٤] قَالَ فَلَمَّا رَآهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**».

(١) الرحيق المختوم ٣١٧ - ٣١٨، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٨٤ - ٣٨٥).

(٢) المكاتل: جمع مكتل وهو المقطف الكبير.

(٣) المساحي: مفردها مسحاة، وهي المجرفة من الحديد.

(٤) الخميس: الجيش.

حُصُونُ خَيْبَر:

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين؛ شطر فيها خمسة حصون:

١- حصن ناعم. ٢- حصن الصعب بن معاذ.

٣- حصن قلعة الزبير. ٤- حصن أُبىّ.

٥- حصن النِّزار.

والحصون الثلاثة الأولى منها كانت تقع فى منطقة يقال لها: (النطاة) وأما الحصنان الآخر فيقعان فى منطقة تسمى بالشَّقِّ.

أما الشطر الثانى ويعرف بالكتيبة، ففيه ثلاثة حصون فقط:

١- حصن القَمُوص (وكان حصن بنى أبى الحقيق من بنى النضير).

٢- صن الوَطِيح. ٣- حصن السُّلالم.

وفى خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع فى مناعتها وقوتها، والقتال المدبر إنما دار فى الشطر الأول منها، أما الشطر الثانى فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال[1].

مَشُورَةُ حُبَاب بنِ المنْذِرِ:

وكان النبى ﷺ اختار لمعسكره منزلاً، فأتاه حباب بن المنذر فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأى فى الحرب؟ قال: «**بل هو الرأي**» فقال: يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جدًّا من حصن (نطاة) وجميع مقاتلى خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندرى أحوالهم وسهامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بياتهم، وأيضًا هذا بين النخلات، ومكان

(١) الرحيق المختوم ٣١٨ - ٣١٩.

غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفا سد نتخذه معسكرًا قال ﷺ : «**الرأى ما أشرت**» ثم تحول إلى مكان آخر[1].

الاسْتِعْدَادُ لِلْقِتَالِ:

ولما كانت ليلة الدخول وقيل بل بعد عدة محاولات فقد أخذ أبو بكر اللواء فرجع ولم يفتح له[2] فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقِيلَ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الاسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» [3].

تَسَاقُطُ حُصُونِ خَيْبَر:

حِصْنُ نَاعِم:

وأول حصن هاجمه المسلمون من حصونهم الثمانية هو حصن ناعم، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجى، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودى الذى كان يعد بالألف، خرج على بن أبى طالب رضى الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة وبرزوا إلى المسلمين، ومعهم ملكهم مرحب فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة.

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٨٠.
(٢) ابن هشام ٢ / ٨٩.
(٣) الرحيق المختوم ص ٣١٩.

قَالَ سلمة بن الأكوع: فَلَمَّا أتينَا خَيْبَرَ قَالَ: خَرَجَ مَلِكُهُمْ مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بِسَيْفِهِ وَيَقُولُ(1):

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إِذَا الحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

قَالَ: وَبَرَزَ لَهُ عَمِّي عَامِرٌ فَقَالَ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرٌ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُغَامِرٌ

قَالَ: فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ فِي تُرْسِ عَامِرٍ وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ لَهُ فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ قَالَ سَلَمَةُ فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ قَتَلَ نَفْسَهُ قَالَ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«مَنْ قَالَ ذَلِكَ قَالَ قُلْتُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ قَالَ كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى عَلِيٍّ وَهُوَ أَرْمَدُ فَقَالَ لأعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ وَهُوَ أَرْمَدُ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَسَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ»**.

وَخَرَجَ مَرْحَبٌ فَقَالَ قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ فَقَالَ عَلِيٌّ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ
أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قَالَ: فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ.

ولما دنا علي رضى الله عنه من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن، وقال: من أنت؟ فقال: أنا على بن أبى طالب، فقال اليهودى: علوتم وما أنزل على موسى.

(1) رواه مسلم ١٨٠٧.

ثم خرج ياسر أخو مرحب، وهو يقول: من يبارز؟ فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه: يا رسول الله يقتل ابنى، قال: "بل ابنك يقتله" فقتله الزبير.

ودار القتال المرير حول حصـــن ناعم، قتل فيه عدة ســـراة من اليهود، انهارت لأجله مقاومة اليهود، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، ويؤخذ من المصـادر أن هذا القتال دام أيامًا، لاقى المسـلمون فيها مقاومة شـديدة، إلا أن اليهود يئسـوا من مقاومة المسـلمين فتسـسـللوا من هذا الحصـن إلى حصـن الصعب، واقتحم المسلمون حصن ناعم.

حِصْنُ الصَّعْبِ بنِ مُعَاذٍ:

وكان حصن الصعب بن معاذ الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصـــن ناعم، قام المســـلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصارى ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة.

روى ابن إسـحاق أن بني سـهم من أسـلم أتوا رسـول الله ﷺ فقالوا: لقد جهدنا وما بأيدينا من شـيء، فقال: «**اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليسـت بهم قوة وأن ليس بيدى شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غنَاء، وأكثرها طعامًا وودكًا**» (١) فغدا الناس ففتح الله - عز وجل- حصـن الصـعب بن معاذ وما بخيبر حصن كان أكثر طعامًا وودكًا منه.

ولما ندب النبى ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم فى المهاجمة، ودار البراز والقتال أمام الحصـن، ثم فتح الحصـن فى ذلك اليوم قبل أن تغرب الشـــمس، ووجد فيه المســـلمون بعض المنجنيقات والدبابات.

(١) الودك: دسم اللحم.

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التى ورد ذكرها فى رواية ابن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير، ونصبوا القدور على النيران؛ فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية.

قَلْعَةُ الزُّبَيْرِ :

وبعد حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النَّطاة إلى قلعة الزبير، وهو حصن منيع فى رأس قُلَّة[١] لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار وأقام محاصرًا ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود وقال: يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض يخرجون الليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عليهم، أصحروا لك فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قتل فيه نفر من المسلمين، وأصيب نحو العشرة من اليهود وافتتحه رسول الله ﷺ.

قَلْعَةُ أُبَيٍّ:

وبعد فتح قاعة الزبير انتقل اليهود إلى قاعة أبى وتحصنوا فيه، وفرض المسلمون عليهم الحصار، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة، وقد قتلهما أبطال المسلمين وكان الذى قتل المبارزة الثانى هو البطل المشهور أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشَةَ الأنصاري صاحب العصابة الحمراء، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة واقتحم معه الجيش الإسلامى، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن، ثم تسلل اليهود من القلعة، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن فى الشطر الأول.

(١) قلة: قمة الجبل.

حِصْنُ النزَارِ:

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل؛ ولذلك أقاموا فى هذه القلعة مع الذرارى والنساء، بينما كانوا قد أخلوا منها القلاع الأربعة السابقة.

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ويكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع، لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه.

أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن للاشتباك مع قوات المسلمين، ولكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال وبإلقاء الحجارة.

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين قذفوا به القذائف، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق، ويبدو أن المسلمين قذفوا به القذائف، فأوقعوا الخلل فى جدران الحصن واقتحموه، ودار قتال مرير فى داخل الحصن انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى، بل فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم.

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر، وهى ناحية النَّطاة والشَّقِّ وكانت فى هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أخلوا هذه الحصون، وهربوا إلى الشطر الثانى من بلدة خيبر.

فَتْحُ الشّطْرِ الثّانِي مِنْ خَيْبَر:

ولما أتم رســول الله ﷺ فتح ناحية النَّطاة والشــقّ تحول إلى أهل الكتيبة التى بها حصن القَمُوص: حصن بنى أبى الحُقَيْق من بنى النضير، وحصن الوَطِيح والسَّلالم، وجاءهم كل فلٍّ كان انهزم من النطاة والشق وتحصن هؤلاء أشد التحصن.

واختلف أهل المغازى هل جرى هناك قتال فى أى حصــن من حصــون الثلاثة أم لا؟ فســياق ابن إســحاق صــريح فى جريان القتال لفتح حصــن القموص، بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام.

أما الواقدى فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاث؛ إنما أخذت بعد المفاوضة، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال، وأما الحصــنان الآخران فقد ســلما إلى المســلمين دونما قتال مهما كان، فلما أتى رســول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتيبة- فرض على أهلها أشــد الحصــار، ودام الحصــار أربعة عشــر يومًا، واليهود لا يخرجون من حصــونهم حتى هم رســول الله ﷺ أن ينصــب عليهم المنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح[1].

وَبِذَلِكَ تَمَّ فَتْحُ خَيْبَر:

وأرسل ابنُ أبى الحقيق إلى رسول الله ﷺ انزل فأكلمك؟ فقال رسول الله ﷺ : «**نعم**» فنزل ابن أبى الحقيق فصــالح رســول الله ﷺ على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها

(١) الرحيق المختوم ٣٢٠ - ٣٢٢.

بذراريهم ويخلُّون بين رسول الله ﷺ وبين ماكان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء[١] والكراع[٢] والحلقة[٣] فقال رسول الله ﷺ : «**وبرئت منكم ذمة الله ورسوله إن كتمتمونى شيئًا**» فصالحوه على ذلك.

وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين وبذلك تم فتح خيبر[٤].

قَتْلُ ابْنَي أَبِي الحقيقِ لِنَقْضِ العَهْدِ:

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبى الحقيق مالاً كثيرًا غيبا مسكًا[٥] فيه مال وحُلى لحيى بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

قال ابن إســحاق: وأتى رســول الله ﷺ بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بنى النضــير فسـألة عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رجل من اليهود فقال: إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «**أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟**» قال: نعم، فأمر بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ثم ســأله عما بقى فأبى أن يؤذيه فدفعه إلى الزبير وقال: عذبه حتى نستأ صل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أ شرف على نفســه، ثم دفعه رســول الله ﷺ إلى محمد بن ســلمة فضــرب عنقه بمحمود بن مســلمة، وكان محمود قتل تحت جدار حصــن ناعم، ألقى عليه الرحى، وهو يســتظل بالجدار فمات، وذكر ابن القيم أن رســول الله ﷺ أمر بقتل ابنى أبى الحقيق، وكان الذى اعترف عليها بإخفاء المال هو ابن عم كنانة[٦].

(١) الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة.

(٢) الكراع: الخيل.

(٣) الحلقة: السلاح.

(٤) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٩٠.

(٥) الرحيق المختوم ص ٣٢٣.

(٦) الرحيق المختوم ص ٣٢٣.

تَقْسِيمُ الغَنَائِمِ:

كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول ﷺ غنيمة، من حيث الأراضى والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ أن الغنائم تتكون من:

١- الطعام: فقد غنم المسلمون كثيرًا من الأطعمة من حصون خيبر فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن وغير ذلك، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة ولم يخمسها.

٢- الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم لقد أخذ رسول الله ﷺ خمسًا ووضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

٣- السبى: لقد سبى رسول الله ﷺ كثيرًا من نساء اليهود، ووزع السبى على المسلمين فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

٤- أما الأراضى والنخيل فقد قسمها النبى إلى ستة وثلاثين سهمًا؛ جمع لكل سهم مائة سهم فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الأخر وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين.

٥- وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردها فأمر ﷺ بتسليمها إليهم ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم ولا ما صنع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا - كذلك- صحف التوراة [(١)].

ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخارى، عن ابن عمر قال: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وما رواه عن عائشة قالت: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٩٢).

من التمر، ولما رجع رسـول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصـار منائحهم التى كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صـار لهم بخيبر مال ونخيل(١).

قُدُومُ جَعْفَر بنِ أَبِي طَالِبٍ وَالأَشْعَرِيِّينَ:

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر؛ فتلقاه النبي ﷺ وقبل جبهته، وقال: «**والله ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟**» وكان ﷺ قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري فحملهم فى سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر فى قدومه أبو موسى الأشعرى ومن كان بصحبته من الأشعريين.

وقد أشركهم النبى ﷺ فى مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة – رضى الله عنهم– الذين شاركوا فى فتحها(٢).

زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِصَفِيَّة:

كان من بين السبايا صفية بنت حيي بن أخطب وقد قتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره، ولما جمع النبي السبي جَاءَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنْ السَّبْيِ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً**» فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ سَيِّدَةَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ لا تَصْلُحُ إلا لَكَ قَالَ: «**ادْعُوهُ بِهَا**» فَجَاءَ بِهَا فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ قَالَ خُذْ جَارِيَةً مِنْ السَّبْيِ غَيْرَهَا قَالَ: فَأَعْتَقَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَتَزَوَّجَهَا فَقَالَ لَهُ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ مَا أَصْدَقَهَا؟ قَالَ: نَفْسَهَا أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا

(١) الرحيق المختوم ص ٣٢٤.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٩٠ - ٣٩١).

حَتَّى إِذَا كَانَ بِالطَّرِيقِ جَهَّزَتْهَا لَهُ أُمُّ سُلَيْمٍ فَأَهْدَتْهَا لَهُ مِنْ اللَّيْلِ فَأَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ عَرُوسًا فَقَالَ: **«مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَجِئْ بِهِ»** وَبَسَطَ نِطَعًا فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالتَّمْرِ وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالسَّمْنِ قَالَ وَأَحْسِبُهُ قَدْ ذَكَرَ السَّوِيقَ قَالَ فَحَاسُوا حَيْسًا فَكَانَتْ وَلِيمَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[1]، ورأى رسول الله ﷺ بوجهها خضرة فقال: ما هذا؟ قالت: يا رسولَ الله رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه وسقط في حجري، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئًا فقصصتها على زوجي فلطم وجهي، فقال: تمنين هذا الملك الذي بالمدينة[2].

الشّاةُ المسْمُومَةُ:

فلما اطمأن رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم شاة مصلية[3] مسمومة، وأكثرت من السم في ذراع الشاة لما عرفته أن الرسول يؤثرها، وقد تناول النبي مضغة منها فلاكها ثم لفظها وهو يقول: **«إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»** وكان معه بشر بن البراء فأساغ اللحم وازدرده، فجيء بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت وقالت: بلغت من قومي ما لا يخفى عليك فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيخبر فتجاوز عنها النبي ثم مات بشر بعد ما سرى السم في جسمه[4]. فقيل: اقتص له منها، وقيل بل أسلمت وعفا عنها.

واختلفت الروايات في التجاوز عنها وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولاً؛ فلما مات بشر دفعها إلى أوليائه فقتلوها قصاصًا[5]..

(١) رواه البخاري ٣٧١.
(٢) الرحيق المختوم ٣٢٤ - ٣٢٥.
(٣) شاة مصلية: مشوية.
(٤) ابن هشام ٢ / ٩٢.
(٥) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٩٦.

قتْلَى الفَرِيقَيْنِ:

بلغ قتلى اليهود فى معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً، بينما استشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق وخمسة عشر فيما ذكر الواقدى(١).

١- فَدَكُ:

لما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله - تعالى- بأهل خيبر فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فَدَك فقبل ذلك منهم؛ فكانت لرسول الله ﷺ خالصة؛ لأنه لم يوجف(٢) عليها بخيل ولا ركاب(٣).

٢- وَادِي القُرَى:

ثم انصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى، وكان بها جماعة من اليهود وقد انضاف إليهم جماعة من العرب فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمي وهم على غير تعبئة؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ فَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلا فِضَّةً إلا الأَمْوَالَ وَالثِّيَابَ وَالْمَتَاعَ فَأَهْدَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ يُقَالُ لَهُ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ لِرَسُول اللَّهِ ﷺ غُلامًا يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ فَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى وَادِي الْقُرَى حَتَّى إِذَا كَانَ بِوَادِي الْقُرَى بَيْنَمَا مِدْعَمٌ يَحُطُّ رَحْلاً لِرَسُول اللَّهِ ﷺ إِذَا سَهْمٌ عَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَقَالَ النَّاسُ هَنِيئًا لَهُ الْجَنَّةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**كَلا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنْ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا**» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ النَّاسُ جَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ**».

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٣٨٨ - ٣٨٩).

(٢) يوجف: يجتمع.

(٣) ابن هشام ٢ / ١٠٢.

فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفهم ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة وراية إلى الحباب بن المنذر وراية إلى سهل بن حنيف وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم، وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز ثان فقتله، ثم برز ثالث فقتله، ثم برز آخر فقتله فبرز إليه على بن أبى طالب رضي الله عنه فقتله؛ حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، كلما قتل منهم رجل دعا من بقى إلى الإسلام، وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم فيصلى بأصحابه، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله فقاتلهم؛ حتى أمسوا وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح؛ حتى أعطوا ما بأيديهم وفتحها عنوة، وغنمه الله أموالهم وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيرًا، وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القرى، وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود وعاملهم عليها[1].

٣ـ تيماء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر، ثم فدك ووادى القرى لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ، وأقاموا بأموالهم وكتب لهم بذلك كتابًا، وهاك نصه: هذا كتاب محمد رسول الله ﷺ لبنى عاديا: إن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء الليل مد، والنهار شد، وكتب خالد بن سعيد[2].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٥٠٦ - ٥٠٧.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٠٧.

العَوْدَةُ إِلَى المدِينَةِ:

عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ حِـينَ قَفَـلَ مِـنْ غَـزْوَةِ خَيْبَـرَ سَـارَ لَيْلَـهُ حَتَّـى إِذَا أَدْرَكَـهُ الْكَـرَى عَـرَّسَ وَقَـالَ لِـبِلال: «**اكْلأْ لَنَا اللَّيْلَ فَصَلَّى بِـلالٌ مَـا قُـدِّرَ لَـهُ وَنَامَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْـحَابُهُ فَلَمَّـا تَقَـارَبَ الْفَجْـرُ اسْـتَنَدَ بِـلالٌ إِلَى رَاحِلَتِـهِ مُوَاجِـهَ الْفَجْـرِ فَغَلَبَـتْ بِـلالاً عَيْنَـاهُ وَهُـوَ مُسْـتَنِدٌ إِلَى رَاحِلَتِـهِ فَلَـمْ يَسْـتَيْقِظْ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ وَلا بِـلالٌ وَلا أَحَـدٌ مِـنْ أَصْـحَابِهِ حَـتَّى ضَـرَبَتْهُمْ الشَّـمْسُ فَكَـانَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَهُـمْ اسْـتِيقَاظًا فَفَـزِعَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ فَقَـالَ أَيْ بِـلالُ فَقَـالَ بِـلالٌ أَخَـذَ بِنَفْسِـي الَّـذِي أَخَـذَ بِأَبِي أَنْـتَ وَأُمِّـي يَا رَسُـولَ اللَّهِ بِنَفْسِـكَ قَـالَ اقْتَـادُوا فَاقْتَـادُوا رَوَاحِلَهُـمْ شَـيْئًا ثُمَّ تَوَضَّـأَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَـرَ بِـلالاً فَأَقَـامَ الصَّـلاةَ فَصَـلَّى بِهِـمْ الصُّـبْحَ فَلَمَّـا قَضَـى الصَّـلاةَ قَـالَ مَـنْ نَسِـيَ الصَّـلاةَ فَلْيُصَـلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَـا فَـإِنَّ اللَّهَ قَالَ:** ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]» (١).

سَرِيَّةُ أَبان بنِ سَعِيدٍ:

كان النبى ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسـكرى أن إخلاء المدينة تمامًا بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعًا، بينما الأعراب ضاربة حولها تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة؛ ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب تحت قيادة إبان بن سـعيد، بينما كان هو إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سـعيد بعد قضـاء ما كان واجبا عليه فوافى النبى ﷺ بخيبر وقد افتتحها.

والأغلب أن هذه السرية كانت فى صفر سنة ٧هـ، وقد ورد ذكرها فى البخارى قال ابن حجر: لم أعرف حال هذه السرية(٢).

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٠٧.

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٢٧.

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

إن غزوة خيبر تختلف عن الغزوات السابقة، فقد كانت الغزوات السابقة قائمة على أسباب دفاعية، اقتضت المسلمين أن يدافعوا بها عن وجودهم، وأن يردوا بها هجمات أعدائهم، أما غزوة خيبر فهى أول غزوة تأتى بعد وقعة بنى قريظة و صلح الحديبية، وهى تدل بذلك على أن الدعوة الإسلامية قد دخلت فى مرحلة جديدة بعد صلح الحديبية.

فغزوة خيبر أول غزوة بدأها النبى ﷺ وأغار بها فجأة على اليهود الذين استوطنوا بقاع خيبر، دون أن يبدأوا المسلمين بأى محاربة أو قتال.

لقد كان السبب الوحيد لها هو دعوة اليهود إلى الإسلام ومحاربتهم على كفرهم وعنادهم عن قبول الحق(1).

المعْجِزَاتُ الَّتِي أَيَّدَ اللَّهُ بِهَا مُحَمَّدًا ﷺ :

إن فى هذه الغزوة حادثتين تعدان من الخوارق العظيمة التى أيد الله بها محمدًا ﷺ :

١- أنه ﷺ تفل فى عينين على - رضى الله عنه- وقد كان يشتكى منها فبرأت فى الوقت نفسه؛ حتى كأن لم يكن به وجع.

٢- ما أوحى الله إليه من أمر الشاة المسمومة عندما أراد الأكل منها ولأمر ما سبق قضاء الله - تعالى- فابتلع بشر بن البراء لقمته قبل أن ينطق رسول الله ﷺ بأنها مسمومة، فكان قضاؤه فى ذلك.

ولعل في ذلك مزيدًا من بيان ما اختص الله - تعالى- به نبيه ﷺ من الحفظ والعصمة من أيدي الناس وكيدهم؛ تنفيذًا لوعده جل جلاله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[المائدة: ٦٧] (2).

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) فقه السيرة للبوطي ٢٦٢ - ٢٦٣.

بَقِيَّةُ السَّرَايَا فِي السّنَةِ السّابِعَةِ

بعث رسـول الله ﷺ عدة سـرايا بعد رجوعه من غزوة خيبر، وهاك بعض تفصيلها:

١- سَرِيَّةُ غَالِب بنِ عَبْدِاللهِ اللَّيْثِي إِلَى بَنِي الملَوَّح بقُدَيْد:

فى صفر أو ربيع الأول سنة ٧هـ، كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سُوَيد، فبعثت هذه السـرية لأخذ الثأر فشـنوا الغارة فى الليل؛ فقتلوا من قتلوا وساقوا النعم وطاردهم جيش كبير من العدو حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر، فجاء سـيل عظيم حال بين الفريقين، ونجح المسـلمون فى بقية الانسحاب.

٢- سَرِيَّةُ عُمَر بنِ الخَطَّابِ إِلَى تُرَبَة:

فى شعبان سنة ٧هـ، ومعه ثلاثون رجلاً؛ كانوا يسيرون الليل ويستخفون فى النهار، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق أحدًا، فانصرف راجعًا إلى المدينة.

٣- سَرِيَّةُ بَشِير بنِ سَعْدٍ الأَنْصَارِيِّ إِلَى بَنِي مُرَّةَ بِنَاحِيَةِ فَدَكَ:

في شعبان سنة ٧هـ فى ثلاثين رجلاً، خرج إليهم واستاق الشاء والنعم، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل فرموهم بالنبل؛ حتى فنى نبل بشـير وأصحابه فقتلوا جميعًا إلا بشير، فإنه ارتُثَّ [(١)] إلى فدك، فأقام عند يهود؛ حتى برأت جراحه فرجع إلى المدينة.

٤- سَرِيَّةُ غَالِب بنِ عَبْدِاللهِ اللَّيْثِي:

فى رمضان سنة٧هـ إلى بنى عُوَال وبنى عبد بن ثعلبة بالمَيْفَعَة، وقيل: إلى الحُرَقات من جُهَيْنة فى مائة وثلاثين رجلاً، فهجموا عليهم جميعًا، وقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعما وشاء، وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد رضى

(١) ارتث: حمل من المعركة جريحًا.

الله عنه نَهيكَ بن مِرْدَاس؛ فعَنْ أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً فَقَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«أَقَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟»** قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلاحِ قَالَ: **«أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أصادق هو أم كاذب؟»**.

٥- سَرِيَّةُ عَبْدِ اللهِ بنِ رَوَاحَةَ إِلَى خَيْبَر:

فى شوال سنة٧هـ فى ثلاثين راكبًا، وذلك أن أسير أو بشير بن زارم كان يجمع غطفان لغزو المسلمين فأخرجوا أسيرًا فى ثلاثين من أصحابه، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر، فلما كانوا بقَرْقَرة نِيَار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين، ذكر الواقدى هذه السرية فى شوال سنة ست قبل خيبر بأشهر.

٦- سَرِيَّةُ بَشِير بنِ سَعْدٍ الأَنْصَارِيّ إِلَى يَمَن وجَبار:

بالفتح، أرض لغطفان، وقيل: لفزازة وعُذْرة فى شوال سنة٧هـ فى ثلاثمائة من المسلمين؛ للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا، وأصاب بشير نعمًا كثيرة، وأسر رجلين فقدم بهما المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلما.

٧- سَرِيَّةُ أبي حَدْرَد الأَسْلَمِيّ إِلَى الغَابَةِ:

ذكرها ابن القيم فى سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء وملخصها: أن رجلاً من جُشَم بن معاوية أقبل فى عدد كبير إلى الغابة، يريد أن يجمع قيسًا على محاربة المسلمين، فبعث رسول الله ﷺ أبا حدرد مع رجلين؛ ليأتوا منه بخبر وعلم، فوصلوا إلى القوم مع غروب الشمس، فكمن أبو حدرد فى ناحية، وصاحباه فى ناحية أخرى، وأبطأ على القوم راعيهم؛ حتى ذهبت فحمة

العشاء فقام رئيس القوم وحده، فلما مر بأبى حدرد رماه بسهم فى فؤاده فسقط، ولم يتكلم فاحتز أبو حدرد رأسه، وشد فى ناحية العسكر، وكبر وكبر صاحباه وشدا، فما كان من القوم إلا الفرار، واستاق المسلمون الثلاثة الكثير من الإبل والغنم[1].

* * *

(١) الرحيق المختوم ٣٣٠ - ٣٣١.

عُمْرَةُ القَضَاءِ

خُرُوجُ الرَّسُولِ ﷺ مُعْتَمِرًا فِي ذِي القَعِدَةِ:

وفى ذى القعدة فى السنة السابعة من الهجرة خرج الرسول ﷺ إلى مكة قاصدًا العمرة، كما اتفق مع قريش فى صلح الحديبية، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان، ولم يتخلف من أهل الحديبية إلا من استشهد فى خيبر أو مات قبل عمرة القضاء[1].

واستخلف على المدينة عُوَيف بن الأضبَط الدِّيلى أو أبا رُهْم الغفارى، وساق ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جُندُب الأسلمى، وأحرم للعمرة من ذى الحُلَيفة، ولبى ولبى المسلمون معه، وخرج مستعدًّا بالسلاح والمقاتلة؛ خشية أن يقع من قريش غدر، فلما بلغ يأجج وضع الأداة كلها الحَجَف والمجَان والنّبل والرّماح، وخلف عليها أوس بن خَوْلى الأنصارى فى مائتى رجل، ودخل بسلاح الراكب: السيوف فى القرب[2].

دُخُولُ مَكَّةَ وَالطّوَافُ وَالسَّعْيُ:

ومن بطن يأجج تابع رسول الله ﷺ سيره نحو مكة على راحلته القصواء، فدخلها من الثنية التى تطلعه على الحجون، والمسلمون حوله متوشحون سيوفهم محدقون به كل جانب، يسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيء، وأصواتهم تشق عنان السماء بالتلبية لله العلى الكبير.

وقد خرج قسم من أهالى مكة إلى رؤوس الجبال؛ لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية، والقسم الأكبر وقف عند دار الندوة المجاورة للكعبة الشريفة آنذاك؛ ليشاهدوا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام أثناء دخولهم مكة المكرمة وبيت الله الحرام.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤١٥).

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٣٢.

وكان المشركون قد أطلقوا شائعة ضد المسلمين مفادها أنهم وهنتهم حُمَّى يثرب، فأمر النبى ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين؛ لكى يرى المشركون قوتهم ودخل رسول الله ﷺ، واضطبع بردائه فأخرج عضده اليمنى وشرع فى الطواف وأصحابه يتابعونه، ويقتدون به، ولما رأى المشركون ذلك قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا [1].

وَكان عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْ رسول الله ﷺ يَمْشِي وهو يرتجز متوشحا بالسيف وَهُوَ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ   خلوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله   في صحف تتلى على رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله   إني رأيت الحق في قبوله
يأت خير القتل في سبيله   الْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ   وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي حَرَمِ اللَّهِ، تَقُولُ الشِّعْرَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ**».

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعى وقد وقف الهدى عند المروة قال: "هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر" فنحر عند المروة، وحلق هناك وكذلك فعل المسلمون ثم بعث ناسًا إلى يأجج؛ ليقيموا على السلاح، ويأتى الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا [2].

النَّبِيُّ ﷺ يَتَزَوَّجُ مَيْمُونَةَ رضى الله عنها:

وفى هذه العمرة تزوج النبى ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول فى مكة قد بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤١٦ - ٤١٧) بتصرف.
(٢) الرحيق المختوم ٣٣٢ - ٣٣٣.

ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس وكانت أحتها أم الفضـــل تحته فزوجها إياه، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع؛ ليحمل ميمونة إليه حين يمشـــى فبنى بها بسرف[١].

رَسُولُ قُرَيْشٍ إِلَى النّبِيّ ﷺ :

أقام رســـول الله ﷺ بمكة ثلاثا فأتاه حويطب بن عبد العُزى فى نفر من قريش فى اليوم الثالث، وكانت قريش قد وكلته بإخراج رســـول الله ﷺ من مكة فقالوا له: إنه قد انقضــــى أجلك فاخرج عنا فقال النبى ﷺ : «**وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه**» قالوا: لا حاجة لنا فى طعامك، فاخرج عنا فانصرف ر سول الله ﷺ إلى المدينة فى ذى الحجة بعد أن بنى بميمونة بسرف[٢].

خُرُوجُ ابْنَةِ حَمْزَة بنِ عَبْدِ المطّلِبِ خَلْفَ النّبِيِّ ﷺ :

لما أراد النبي ﷺ الخروج من مكة فَتَبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ تنادي: يَا عَمِّ يَا عَمِّ فَتَنَاوَلَهَا عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ لِفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السـَّلام دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ حَمَلَتْهَا فَاخْتَصـَـمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ فَقَالَ عَلِيٌّ أَنَا أَحَقُّ بِهَا وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي وَقَالَ جَعْفَرٌ ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي وَقَالَ زَيْدٌ ابْنَةُ أَخِي فَقَضَـى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا وَقَالَ: «**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأمِّ**» وَقَالَ لِعَلِيٍّ: «**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ**» وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: «**أَشْــبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**» وَقَالَ لِزَيْدٍ: «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلانَا**».

وقال علي لزيد: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: إنها ابنة أخي من الرضـــاعة[٣].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٢١.

(٢) ابن هشام (٢ / ١١٨).

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤١٩ - ٤٢٠).

سَبَبُ تَسْمِيَتِهَا بِعُمْرَةَ القَضَاءِ:

سميت هذه العمرة بعمرة القضـــاء؛ إما لأنها كانت قضـــاء عن عمرة الحديبية، أو لأنها وقعت حســـب المقاضـــاة أي: المصـــالحة التى وقعت فى الحديبية، والوجه الثانى رجحه المحققون، وهذه العمرة تســـمى بأربعة أسماء القضاء والقضية والقصاص والصُّلح[1].

السَّرَايَا بَعْدَ عُمْرَةِ القَضَاءِ:

وقد أرســل رســول الله ﷺ بعد الرجوع من هذه العمرة عدة ســرايا وهى كما يلى:

سرية ابن أبي العوجاء فى ذى الحجة سنة٧هـــــ، فى خمسين رجلاً، بعثه رسول الله ﷺ إلى بنيٍ سليم؛ ليدعوهم إلى الإسلام فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا ثم قاتلوا قتالاً شديدًا جرح فيه أبو العوجاء، وأسر رجلان من العدو.

١- سَرِيَّةُ غَالِب بنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى مصَابِ أَصْحَابِ بَشِيرِ بنِ سَعْد بِفَدَك:

فى صفر سنة ٨هـــ بعث فى مائتى رجل فأصابوا من العدو نعما، وقتلوا منهم قتلى.

٢- سَرِيَّةُ ذَاتِ أَطلح:

فـى ربيـع الأول سـنة٨هــ، كانـت بنـو قضـاعة قـد حشـدت جموعًـا كـبيرة؛ للإغـارة علـى المسـلمين، فبعـث إلـيهم رسـول الله ﷺ كعـب بـن عمـير الأنصـارى فـى خمسـة عشـر رجـلاً، فلقـوا العـدو فـدعوهم إلى الإسـلام فلـم يسـتجيبوا لهـم، وأرشـقوهم بالنبـل حتـى استشـهد كلـهم إلا رجلاً واحدًا فقد ارتُثَّ من بين القتلى.

(١) الرحيق المختوم ص ٣٣٣.

٣- سَرِيَّةُ ذَاتِ عِرْق إِلَى بَنِي هَوَازِن:

فى ربيع الأول سنة٨هـ، كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى فأرسل إليها شُجاع بن وهب الأسدى فى خمسة وعشرين رجلاً، فاستاقوا نعما من العدو، ولم يلقوا كيدًا(١).

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

١- هذه العمرة تعتبرتصديقًا إلهيًّا لما وعد به النبى ﷺ أصحابه من دخولهم مكة وطوافهم بالبيت، وقد رأيت كيف سأل عمر رسول الله ﷺ أثناء صلح الحديبية أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به فأجابه: «**بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟**» قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوَّف به.

فهذا هو مصداق وعد رسول الله ﷺ وقد نبه الله - عز وجل- عباده إلى هذا التصديق فى قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧].

ثم إن هذه العمرة انطوت على معنى تمهيدى للفتح الكبير الذى جاء بعده، فقد كان لمرآى ذلك العدد الوفير من الأنصار والمهاجرين وهم محدوقون برسول الله ﷺ فى طوافهم بالبيت وسائر مناسكهم، فى حماس ونشاط غير مأمولين منهم فيما كان يتصوره المشركون، كان ذلك أثر بعيد فى نفوسهم، فقد داخلتها الرهبة منهم إذ فوجئوا بعكس ما كانوا يتصورون فيهم من الضعف والخمول؛ بسبب ما قد يحتمل أن يكونوا قد أصيبوا من حمى يثرب وسوء مناخها (٢).

(١) الرحيق المختوم ص ٣٣٣.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٢٧٠.

٢- اصـطحاب النبى ﷺ السـلاح الكامل معه ووضـعه خارج الحرم قريبًا منه؛ لأنه لا يأمن غدر مشـــركى قريش وخيانتهم، ولذلك احتاط ﷺ وأخذ الحذر، ووفى بعهده ووعد لقريش؛ حيث وضـع السـلاح خارج الحرم، وعلم الأمة لكى تحذر من أعدائها وأبقى كوكبة من الصـحابة فى حراسـة الأسـلحة والعتاد؛ لكى يراقبوا الموقف بدقة وفى ذلك معنى من معانى العبادة فى هذا الدين(١).

٣- ولم ينس ﷺ مجموعة الحراس التى كانت تحرس الأســلحة والعتاد بأن يرســـل من يقوم بمهمتهم ممن طاف وســـعى مكانهم، ويأتى هؤلاء؛ ليؤدوا النســك فقد كان ﷺ يتعامل مع نفوس يدرك حقيقة شـوقها لبيت الله الحرام، وما جاءت للمرة الثانية وقطعت هذه المسافة الشا سعة إلا لتنال هذا الشرف وتبل هذا الظمأ فتطوف مع الطائفين وتســعى مع الســاعين فعمل ﷺ على مراعاة النفوس، وسـاعدها ولبى مطالبها من أجل إصـلاحها والرقى بها؛ إنه من منهج النبوة فى التربية (٢).

٤- ونرى فى تنافس الصحابة عليّ وجعفر وزيد - رضوان الله عليهم- فى أخذ ابنة حمزة بن عبد المطلب، كيف غير الإسـلام النفوس والعقول تغييرًا عظيمًا، فعادت البنت التى يتعير بها اشـــراف العرب، وجرت عادة وأدها فى بعض القبائل فرارًا من العار وزهدًا فى البنات - حبيبة يتنافس فى تربيتها المسـلمون(٣)، هذا وقد اعتمر رسـول الله ﷺ أربع عمرات وحج حجة واحدة روى مسلم بسنده عن أنس - رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن فى ذى القعدة إلا التى مع حجته: عمرة من الحديبية فى ذى القعدة، وعمرة من العام المقبل فى ذى القعدة، وعمرة من الجعرانة؛ حيث قسم غنائم حنين فى ذى القعدة، وعمرة فى حجته(٤).

* *

(١)السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤١٦).

(٢)السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤١٨).

(٣) المصدر السابق ٢ / ٤١٩ بتصرف.

(٤) فقه السيرة للبوطي ٢٧١.

غَزْوَةُ مُؤْتَةَ [١]

تَارِيخُ الغَزْوَةِ وَأَسْبَابُهَا:

قال الإمام ابن القيم رحمة الله: وهى بأدنى البلقاء من أرض الشام وكانت فى جمادى الأولى سنة ثمان، وكان سيها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى أحد بنى لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بُصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه رباطا ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ غيره، وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوى بل يزيد عن إعلان حالة الحرب؛ فا شتد ذلك على ر سول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامى لم يجتمع قبل ذلك إلا فى غزوة الأحزاب[٢].

تَعِيينُ قَادَةِ الجَيْشِ وَوَصِيَّةُ الرّسُولِ ﷺ إِلَيْهِمْ:

أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ**» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش الإ سلامي أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير، وأن يدعوا من كان هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم.

وقد أوصى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا وَقَالَ : «**اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلا تَغْدِرُوا وَلا تَغُلُّوا وَلا تُمَثِّلُوا**

(١) أطلق عليها عامة علماء السيرة اسم الغزوة؛ لكثرة عدد المسلمين فيها، ولما لها من أهمية بالغة، ولكنها في الحقيقة ليست بغزوة، وإنما هي سرية؛ لأن النبي ﷺ لم يخرج معهم.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٢٦.

وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ولا امرأة ولا كبيرًا فانيًا ولا منعزلاً بصومعة ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناءً وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث : فإما الإسلام وإما الجزية وإما الحرب» [1].

وَدَاعُ الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ وَبُكَاء ابنِ رَوَاحَةَ :

لما تجهز الجيش وأتم استعداده توجه الرسول ﷺ والمسلمون يودعون الجيش، ويرفعون أكف الدراعة لله - عز وجل- أن ينصر إخوانهم المجاهدين، لقد سلموا عليهم وودعوهم بهذا الدعاء : دفع الله عنكم، وردكم صالحين غانمين.

ولما ودع الناس عبد الله بن رواحة وسلموا عليه بكى وانهمرت الدموع من عينيه ساخنة غزيرة، فتعجب الناس من ذلك وقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال : والله ما بى حب الدنيا و صبابة، ولكن سمعت ر سول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله، يذكر فيها النار : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم: ٧١] فلست أدرى كيف بى بالصدر بعد الورود؟ فقال لهم المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة … وضربة ذات فراغ تقذف الزبدا
أو طعنه بيدى حرَّان مُجهزة … بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثى … أرشده الله من غازٍ وقد رشدا [2]

تَخَلُّفُ ابنِ رَوَاحَةَ:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فِي سَرِيَّةٍ فَوَافَقَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَغَدَا أَصْحَابُهُ فَقَالَ أَتَخَلَّفُ فَأُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٢٨ - ٤٢٩).
(٢)السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٢٩).

أَلْحَقُهُمْ فَلَمَّا صَـلَّى مَعَ رَسـُول اللَّهِ ﷺ رَآهُ فَقَالَ : «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَغْدُوَ مَعَ أَصْـحَابِكَ؟**» فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُصـَلِّيَ مَعَكَ ثُمَّ أَلْحَقَهُمْ قَالَ : «**لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَدْرَكْتَ فَضْلَ غَدْوَتِهِمْ**».

ثم إن القوم تهيأوا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسـول الله ﷺ يودعه فقال :

يثبت الله ما أتاك من حُسن ... تثبيت موسى ونصرًا كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلةً ... فراسة خالفتهم فى الذى نظروا
أنت الرسول فمن يُحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر[١]

تَحَرُّكُ الجَيْشِ الإِسْلاَمِيّ وَوُصُولُهُ مَعَانَ:

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم، قال عبد الله بن رواحة :

خَلَف السلام على امرئ ودعته ... فى النخل خير مشيع وخليل

ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب، من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبليٍّ مائة ألف منهم.

فلما بلغ ذلك المســلمين أقاموا على معان ليلتين؛ يفكرون فى أمرهم وقالوا : نكتب إلى رســول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا؛ فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له.

فشــجع عبد الله بن رواحة الناس وقال : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشـهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا بقوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا؛ فإنما هى إحدى الحسنين، إما ظهور، وإما شهادة، فمضى الناس إلى ما دعا إليه عبد الله بن رواحة[٢].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٥٢٧ - ٥٢٨.
(٢) ابن هشام (٢ / ١٢٠ - ١٢١).

الجَيْشُ الإِسْلاَمِيُّ يَتَحَرَّكُ نَحْوَ العَدُوِّ:

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامى ليلتين فى معان تحركوا إلى أرض، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها : مشـــارف، ثم دنا العدو وانحاز المسـلمون إلى مؤتة فعسـكروا هناك وتعبأوا للقتال، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذرى، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصارى[1].

بِدَايَةُ القِتَالِ وَتَنَاوُبُ القُوَّادِ:

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير ثلاثة ألف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل، معركة عجيبة تشـاهدها الدنيا بالدهشـة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة حِبُّ رسـول الله ﷺ وجعل يقاتل بضـراوة بالغة وبســالة؛ لا يوجد لها نظير إلا فى أمثاله من أبطال الإســلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل؛ حتى شاط فى رماحٍ القوم وخر صريعًا، وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبى طالب وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير؛ حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله ولم يزل بها حتى قطعت شماله، فاحتضـنها بعضـديه فلم يزل رافعًا إياها؛ حتى قتل، يقال : إن روميًّا ضـربه ضـربة قطعته نصـفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشـــاء؛ ولذلك سمى : جعفر الطيار، وبجعفر ذى الجناحين.

وقد استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولقد أثخن - رضى الله عنه- بالجراح إذا بلغ عدد جراحه بضعًا وتسعين بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم، وليس من بينها جرح فى ظهره بل كلها فى صدره.

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٢٩.

روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ : أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ**» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ.

وبعد استشهاد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلنه أو لتكرهنه
إن أجلب[1] الناس وشدوا الرنَّة[2] ... ما لى أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة فى شنة

وقال أيضًا :

يا نفس إلا تقتلى تموتى ... هذا حمام الموت قد صَليتِ
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلى فِعْلها هُدِيتِ

ثم نزل فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك؛ فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهى منه نَهْسَة، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل.

وحينئذ تقدم رجل من بنى عجلان اسمه: ثابت بن أقرم؛ فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريرًا، فقد روى البخارى عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة

(١) أجب الناس: صاحوا واجتمعوا.
(٢) الرنة: صوت ترجيع شبه البكاء.

تسعة أسياف، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية، وفى لفظ آخر: لقد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت فى يدى صفيحة لى يمانية[1].

النَّبِيُّ ﷺ ينْعى القَادَةَ الثّلاَثَةَ لِلنَّاسِ:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ فَقَالَ : «**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**»[2].

ذَكَاءُ وَفطْنَةُ خَالِدٍ:

لقد نجح خالد فى الصمود أمام جيش الرومان طول النهار فى أول يوم من القتال، وكان يشعر بمسيس من الحاجة إلى مكيدة حربية تلقى الرعب فى قلوب الرومان؛ حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فقد كان يعرف حينئذ أن الإفلات من براثنهم صعب جدًّا، لو انكشف المسلمون وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثانى غيَّر أوضاع الجيش، وعبأه من جديد فجعل مقدمته ساقه وميمنته ميسرته، وعلى العكس فلما رآها الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا : جاءهم مدد فرعبوا، و صار خالد - بعد أن تَرَاءَى الجيشان وتناو شا ساعة- يتأخر المسلمون قليلاً قليلاً مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظنًّا منهم أن المسلمين يخدعونهم، و يحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم فى الصحراء.

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر فى القيام بمطاردة المسلمين، ونجح المسلمون فى الإنحياز سالمين حتى عادوا إلى المدينة[3].

(١) الرحيق المختوم ٣٣٥ - ٣٣٦، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٣٠ - ٤٣٢).

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٣١.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٣٢.

قَتْلَى الفَرِيقَيْنِ:

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً، أما الرومان فلم يعرف عدد قتلاهم؛ غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم(١).

مَوْقِفُ أَهْلِ المدِينَةِ مِنَ الجَيْشِ:

لما دنا الجيش من حول المدينة تلقاهم الرســول ﷺ والمســلمون، ولقيهم الصــبيان يشــتدون ورســول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة فقال : «**خذوا الصــبيان فاحملوهم، وأعطونى ابن جعفر**» فأتى بعبد الله فأخذه، فحمله بين يديه وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون : يا فرار فررتم فى ســبيل الله ﷺ فقال ﷺ : «**ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله**» (٢).

الدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ:

تنطوى هذه الغزوة على العديد من الدروس والعبر منها ما يلى:

١- إن هذه المعركة وإن لم يحصــل بها المســلمون على الثأر؛ لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والحيرة، فقد كان الرو مان أكبر وأعظم قوة على و جه الأرض، و كا نت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضــاء على النفس فكان لقاء هذا الجيش الصــغير ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضــخم- مائتا ألف مقاتل، ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خســارة تُذكر، كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المســلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقًّا، ولذلك نرى القبائل اللدودة التى كانت لا تزال تثور على المســلمين، جنحت بعد هذه المعركة إلى الإســلام فأســلمت بنو ســليم، وأشــجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرها.

(١) الرحيق المختوم ص ٣٣٧.
(٢) ابن هشام ٢ / ١٢٦.

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامى مع الرومان، فكانت توطئة تمهيدًا لفتوح البلدان الرومانية، واحتلال المسلمين الأراضى البعيدة النائية [1].

٢- إن أهم ما يثير الدهشة فى هذه الغزوة، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الرومان والمشركين والعرب!.

لقد رأيت أن عدد المشـــركين ومن معهم من الروم، قد بلغ ما يقرب من مائتى ألف مقاتل! على حين أن عدد المســـلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتلٍ، ومعنى ذلك أن عدد المشـركين والروم قد بلغوا ما لا يقل عن خمسـين ضـعفًا من عدد المسلمين!.

وهى نسبة إذا ما تصورتها تجعل رقعة الجيش الإسلامى أمام حشود الروم والمشركين أشبه ما تكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة إلى بحر خضم مائج، هذا إلى ما كان قد جهز به جيش الأعداء من العدة والذخيرة والســـلاح ومظاهر الأبهة والبذخ، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من القلة والفقر!.

ومكان الدهشة فى الأمر أن تجد المسلمين بعد هذا كله - وهم سرية ليس فيها رسـول الله ﷺ - مقبلين غير مدبرين لا يقيمون لكل هذه الحشـود الهائلة أمامهم وزنا، مع أنها - فيما يبدو- لو التفت من حولهم وطوقتهم من جهاتهم، لانقلبوا إلى ما يشبه نواة صغيرة فى جوف قطعة أرض سوداء.

ثم إن مكان الدهشـــة بعد ذلك أن يصـــمد المســـلمون لقتال هذا اليم المتلاطم، يقتل أميرهم الأول ثم الثانى فالثالث، وهم يقتحمون أبواب الشهادة فى نشـــوة بالغة وإقبال عجيب؛ حتى يدخل الرعب الإلهى فى أفئدة كثيرة من المشركين، دون أن يكون له سبب ظاهر، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير وتُقتل منهم خلائق لا تكاد تحصى!.

ولكن الدهشـــة كلها تزول، والعجب ينتهى، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله والاعتماد عليه واليقين بوعده.

(١) الرحيق المختوم ٣٣٧ - ٣٣٨.

بل إن المدهش بالنسبة للمسلمين أن لا يكونوا كذلك، والعجيب فيهم حقًا أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد والعدة حساب مع ذلك فى أفكارهم، إلى جانب ما وعد الله به من نصر وتأييد أو جنة ونعيم خالدين! فالمسلمون - كما قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه- لا يقاتلون بعدد ولا قوة ولا كثرة، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذى أكرمهم الله به[1].

٣- تمتاز هذه المعركة عن سائر المعارك، بأنها المعركة الوحيدة التى جاء خبرها من السماء؛ إذ نعى النبى ﷺ استشهاد الأبطال الثلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة، بل أخبر النبى ﷺ عن أحداثها وتمتاز أيضًا عن غيرها بأنها الوقعة الوحيدة التى اختار النبى ﷺ لها ثلاثة أمراء على الترتيب زيد بن حارثة، جعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة[2].

٤- لقد رأيت النبى ﷺ نعى لأصحابه زيدًا وجعفر بن رواحة، وعيناه تذرفان وبين رسول الله ﷺ وبينهم مسافات شاسعة بعيدة!.

وهذا يدل على أن الله - تعالى- قد روى لرسوله الأرض، فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام ما حدث أصحابه به، وهى من جملة الخوارق الكثيرة التى أكرم بها حبيبه ﷺ كما يدل هذا الحديث نفسه على مدى شفقته ﷺ على أ صحابه، فلم يكن شيئًا قليلاً أن يبكى ر سول الله ﷺ وهو واقف فى أصحابه؛ يحدثهم عن خبر هؤلاء الشهداء وبكاءه ﷺ عليهم لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره، فإن العين لا تدمع والقلب ليحزن كما قال ﷺ، وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليها [3].

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٣٥).

(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٢٧٥.

٥- نرى فى موقف الصـــحابي الجليل ثابت بن أكرم العجلانى، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد بن رواحة آخر الأمراء درسًا عظيمًا يقدمه لنا، ففى ذلك أداء منه للواجب؛ لأن وقوع الراية معناه: هزيمة الجيش، ثم نادى المســـلمين أن يختاروا لهم قائدًا، وفى زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد.

ولم يقبل ثابت قول المسـلمين: أنت أميرنا، ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل؛ فإن الفســـاد متوقع، والعمل حينما يكون لله - تعالى- لا يكون فيه أثر لحب الشـــهرة أو حظ النفس[1].

٦- ومن الدروس الغالية للأمة أن شـجاعة المسـلمين وبسـالتهم فى هذه المعركة بلغنا حدًا لم تعرفه أُمة معاصرة، وقد أكسبهم هذا الروح العالى؛ إقدامًا حقّر أمامهم كبرياء الأمم التى عاشـــت مع التاريخ دهرًا، تصـــول وتجول لا يقفها شيء.

إن الاســتهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروســية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم، بل هى قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال؛ فأصـبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز، وحســبك أن جيش "مؤتة" لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون: يا فرار فررتم فى سبيل الله، إن أولئك الصــغار الأغرار، يرون انســحاب خالد ومن معه فرارًا يقابل بحثو التراب، أى جيل قوى نابه هذا الجيل الذى صنعه الإيمان بالحق؟ أى نجاح بلغته رســالة الإســلام فى صــياغة أولئك الأطفال العظام من آباؤهم؟ من أمهاتهم؟ كيف كان الأباء يربون؟ وكيف كانت الأمهات يدللن؟.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٣٧).

إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس[(١)].

٧- وفى النهاية لا بد أن نعرف أن النصرة كانت ملازمة لأصحاب النبى ﷺ على الرغم من قلة عددهم وعدتهم؛ لأنهم كانوا يتحركون بعقيدة أشد رسوخًا من الجبال الراسيات، أما نحن لما تركنا أصل عزنا ونبع شرفنا ومعين كرامتنا وضعفت العقيدة فى قلوبنا، وإذا اليهود الأقذار يسفكون دماءنا، وينتهكون أعراضنا ومقدساتنا على الرغم من قلة عددهم وكثرة عددنا.

وهكذا كما أخبر النبي ﷺ حيث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**» فَقَالَ قَائِلٌ: «**وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟**» قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**».

فيا ليتنا نأخذ العبرة والعظة من غزوة مؤتة؛ لنعود إلى العقيدة الصافية التى كانت بإذن الله سببًا فى نصرة أصحاب النبى ﷺ وستكون سببًا لنصرتنا، إذا عادت الأمة إلى الله – عز وجل– وتمسكت بتلك العقيدة الراسخة [(٢)].

* * *

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٥٣٣ - ٥٣٤.

(٢) المصدر السابق ٥٣٦.

سَرِيَّةُ ذَاتِ السَّلاسِلِ

لما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام في معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة، توقع الفرقة بينهما وبين الرومان وتكون سببًا للائتلاف بينها وبين المسلمين؛ حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى.

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بَلِيّ، فبعثه إليهم فى جمادى الآخرة سنة ٨هـ على إثر معركة مؤتة؛ ليستألفهم ويقال: بل نقلت الاستحبارات أن جمعًا من قُضَاعة قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة فبعثه إليه، ويمكن أن يكون السباب اجتمعا معًا.

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرسًا، وأمره أن يستعين بمن مر به من بَلِيّ وعذرة وبَلْقَين.

فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا فبعث رافع بن مكيث الجهنى إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين، وعقد له لواء وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر- وأمره أن يلحق بعمرو أن يكون جميعًا، ولا يختلفا فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مددًا، وأنا الأمير فأطاعه أبو عبيدة فكان عمرو يصلى بالناس[1].

وقاتل المسلمين الكفار وتوغل عمرو فى ديار قضاعة التى هربت وتفرقت وانهزمت، ونجح عمرو فى إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشام وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى، ودخول قبائل أخرى فى حلف المسلمين، وإسلام الكثيرين من بنى عبس وبنى مرة وبنى ذيبان، وكذلك فزارة وبنى سليم وبنى أشجع، وأصبح المسلمون هم الأقوى فى شمال بلاد العرب[2].

(١) الرحيق المختوم ص ٣٣٨.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٤١).

وقيل: إنها سميت ذات السلاسل؛ لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض بالسلاسل؛ مخافة أن يفروا، وقيل: لأن بها ماء يقال له: السلسل، وقال ابن سعد: إنها وراء وادى ذي القرى وبينها ومن المدينة عشرة أيام(١).

الدَّرْسُ المسْتَفَادُ مِنَ السَّرِيَّةِ:

الدرس الذى نستفيده من هذه السرية، أنه عندما وصل المدد الذى بعثه رسول الله ﷺ بقيادة أبى عبيدة بن الجراح لجيش عمرو فى ذات السلاسل، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس وينقدم عمرو، فقال له عمرو: إنما قدمت عليَّ مددًا لى، وليس لك أن تؤمنى، وأنا الأمير وإنما أرسلك النبى ﷺ إليَّ مددًا، فقال المهاجرون: كلا بل أنت أمير أ صحابك وهو أمير أ صحابه، فقال عمرو: لا بل أنتم مدد لنا؛ فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف، وكان حسن الخلق لين الطبع قال: لتطمئن يا عمرو، وتعلمن أن آخر ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ : «**إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا**» وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك، فأطاع أبو عبيدة فكان عمرو يصلى بالناس.

لقد أدرك أبو عبيدة - رضى الله عنه- أنّ أي اختلاف بين المسلمين فى سرية ذات الـسلا سل، يؤدى إلى الفـشل، ومن ثم تغلب العدو عليهم، ولهذا سارع إلى قطع النزاع وانضم جنديًا تحت امرأة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرسول ﷺ : «**لا تختلفا**» (٢) فيا ليتنا نمتثل لأمر الرسول ﷺ ولا تختلف.

سَرِيَّةُ أَبِى قَتَادَةَ إِلَى خَضْرَةَ:

كانت هذه السرية فى شعبان سنة٨هـ وذلك؛ لأن بنى غطفان كانوا يحشدون فى خضرة، وهى أرض مُحَارب بنجد - فبعث إليهم ر سول الله ﷺ أبا قتادة فى خمسة عشر رجلاً فقتل منهم وسبى وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة(٣).

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٣٧.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٤٢).
(٣) الرحيق المختوم ص ٣٣٩.

فَتْحُ مَكَّةَ

تَارِيخُ الغَزْوَةِ وَأَسْبَابُهَا:

كانت غزوة فتح مكة فى شهر رمضان سنة ٨هـ[١].

وســـببها: أن بندًا من بنود معاهدة الحديبية يفيد أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التى تنضـــم إلى أى الفريقين تعتبر جزءًا من ذلك الفريقين، فأى عدوان تتعرض له أى من تلك القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريقين.

وحسب هذا البند دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر فى عهد قريش وصارت كل من القبيلتين فى أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتواترت فى الجاهلية، فلما جاء الإســـلام ووقعت هذه الهدنة وأمن كل فريق من الآخر، اغتنمها بنوبكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلِي فى جماعة من بنى بكر فى شهر شعبان سنة ٨هـــ، فأغاروا على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له: "الوتير" فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مســـتغلين ظلمة الليل؛ حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بنى بكر، أصــيبوا ثأركم، فلعمرى إنكم لتَســرِقُون فى الحرم؛ أفلا تصيبون ثأركم فيه؟. ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى، وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع.

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٢٧٦.

وأســرع عمرو بن ســالم الخزاعى فخرج؛ حتى قدم رســول الله ﷺ المدينة فوقف عليه، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال:

يا رب إنى ناشدٌ محمدًا   حلفنا وحلف أبيه الأتلدا[2]

قد كنتم ولدًا وكنا والدًا[1]   ثمَّة أسلمنا ولم ننزع يدًا

فانصر هداك الله نصرًا أبدًا   وادع عباد الله يأتوا مددًا

فيهم رسول الله قد تجردا   أبيض مثل البدر يسمو صُعُدا

إن سيم خسفًا وجهه تربَّدا   فى فيلق كالبحر يجرى مُزْبَدا

إن قريشًا أخلفوك الموعدا   ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وجعلوا لى فى كَدَاء رصدا   وزعموا أن لستُ أدعو أحدًا

[illegible]

وقتلونا رُكَّعًا وسُجَّدًا

فقال رسول الله ﷺ : «**نصرت يا عمرو بن سالم**» ثم عرضت له سحابة من السماء فقال: «**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب**» [3].

ذَهَابُ ابنِ وَرْقَاء إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَمَعْرِفَة أَبِي سُفْيَانَ بِأَمْرِهِ:

ثم خرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة؛ حتى قدموا على رســول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بما أصــيب منهم، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة فقال رسول الله ﷺ : «**كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم؛ ليشد العقد ويزيد فى المدة**».

ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه؛ حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعُسفان قد بعثته قريش إلى رســول الله ﷺ؛ ليشــد العقد ويزيد فى المدة، وقد وهبوا الذى صــنعوا؛ فلما لقى أبو ســفيان بديل بن ورقاء قال : من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى رســول الله ﷺ قال : تســيرت فى خزاعة فى هذا الساحل، وفى بطن هذا الوادى قال : أو ما جئت محمدا؟ قال : لا، فلما راح

(١) يشير إلى أن أم عبد مناف وهي جي زوجة قصي - كانت من خزاعة.

(٢) الأتلدا: القديم يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بني هاشم منذ عهد عبد المطلب.

(٣) الرحيق المختوم ٣٤٠ - ٣٤١.

بديل إلى مكة قال أبو سـفيان : لئن جاء بديل المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففته، فرأى فيه النوى فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمدًا (١).

قُدُومُ أَبِي سُفْيَانَ المَدِينَةَ لِلصُّلْحِ وَإِخْفَاقُهُ:

وقدم أبو ســفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رســول الله ﷺ طوته عنه، فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى؟ قالت : بل هو فراش رســول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، قال : والله لقد أصابك بعدى شر.

ثم خرج حتى أتى رسـول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شـيئًا، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ، فقال : «ما أنا بفاعل» ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال : أأنا أ شفع لكم إلى ر سول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرّ لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبى طالب وعنده فاطمة، وحسن، غلام يدب بين يديها، فقال : يا عليَّ، إنك أمس القوم بى رحما، وإنى قد جئت فى حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، فا شفع لى إلى ر سول الله ﷺ فقال : ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم ر سول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد، هل لك أن تأمر بُنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سـيد العرب إلى آخر الدهر، قالت : والله ما بلغ منى ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسـول الله ﷺ، قال : يا أبا الحس.. إنى أرى الأمور قد اشـتدت على فانصـحنى، قال : والله ما أعلم لك شـيئًا يغنى عنك شــيئًا، ولكنك ســيد بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم ألحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئًا، قال : لا والله ما أظنه؛ ولكنى لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو ســفيان فى المســجد فقال : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ثم ركب بعيره فانطلق.

(١) ابن هشام (٢ / ١٣٠ - ١٣١).

فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك؟ قال : جئت محمدًا فكلمته فوالله ما ورد على شـــيئًا ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ثم جئت عليًّا فوجدته ألين القوم، وقد أشار على بشيء صنعته، فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئًا أم لا؟ قالوا : وبم أمرك قال أمرنى أن أجير بين الناس، ففعلت قالوا : فهل أجاز ذلك محمد؟ قال : لا، قالوا : ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يُغنى عنك ما قلت، قال : لا والله ما وجدت غير ذلك(١).

وتشـير بعض الروايات إلى أن النبى ﷺ أرسـل إلى قريش يخيرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من خلف بنى بكر، فاختارت الحرب ثم ندمت فبادرت إلى إرسال أبي سفيان كما أسلفنا(٢).

الاسْتِعْدَادُ لِفَتْحِ مَكَّةَ:

أمر رسـول الله ﷺ بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشـة - رضـى الله عنها- وهى تحرك بعض جهاز رسـول الله ﷺ فقال : أى بنية، أأمركم رســـول الله ﷺ أن تجهزوه قالت : نعم، فتجهز قال : فأين ترينَه يريد؟ قالت : لا، والله ما أدرى، ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال : «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش؛ حتى نبغتها فى بلادها**» فتجهز الناس(٣).

وزيادة فى الإخفاء والتعمية بعث رســـول الله ﷺ ســـرية قوامها ثمانية رجال؛ تحت قيادة أبى قتادة بن ربعى إلى بطن إضم، فيما بين ذى خشب وذى المروة، على ثلاثة بُرُد من المدينة فى أول شهر رمضان٨هـ؛ ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها؛

(١) ابن هشام (٢ / ١٣١ - ١٣٢)، الرحيق المختوم ٣٤١ - ٣٤٢.
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٤٣.
(٣) ابن هشام ٢ / ١٣٢.

حتى إذا وصـــلت حينما أمرت بلغها أن رســـول الله ﷺ خرج إلى مكة فسارت إليه حتى لحقته.

وكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتابًا؛ يخبرهم بمسـير رسـول الله ﷺ إليهم ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشًا، فجعلته فى قرون رأسها ثم خرجت به وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب(١).

عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ قَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلْنَا أَخْرِجِي الْكِتَابَ فَقَالَتْ مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ فَقُلْنَا لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا حَاطِبُ مَا هَذَا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلا ارْتِدَادًا وَلا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الاسْلامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ صَدَقَكُمْ قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم**» فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١] (٢).

(١) الرحيق المختوم ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٥٤٤ - ٥٤٥.

تَحَرُّكُ الجَيْشِ الإِسْلاَمِيّ نَحْوَ مَكَّةَ:

غادر رسول الله ﷺ المدينة قاصدًا مكة فى العاشر من رمضان سنة٨ هـ، ومعه عشرة آلاف من المسلمين، وقد استخلف على المدينة أبارُهم، كلثوم بن حصين بن عتبة ابن خلف الغفارى، ولما كان بالجحفة لقيه عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرًا بعياله كما لقيه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة بتنية العقاب، فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت : يا رسول الله ﷺ ابن عمك وابن عمتك و صهرك فقال : «**لا حاجة لى فيهما، أما ابن عمى، فهتك عرضى، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال**».

فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبى سفيان بن الحارث ابن له فقال : والله ليأذن رسول الله ﷺ أو لأخذن بيد ابنى هذا، ثم لنذهب فى الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما فدخلا عليه فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال [١]:

لعمرك إنى حين أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمدِ

لكا لمدلج الحيران أظلم ليلة ... فهذا أوانى حين أُهْدَى فأَهْتدِى

هدانى هاد غير نفسى ودلَّنى ... على الله من طرَّدْتُ كل مُطرَّدِ

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طرَّدتْنى كل مُطرَّد[٢].

الجَيْشُ الإِسْلاَمِيّ يَنْزِلْ بِمَرِّ الظَّهْرَان:

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم والناس صيام؛ حتى بلغ الكُدَيْد وهو ماء بين عُسْفَان وقُدَيد فأفطر وأفطر الناس معه، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران - وادى فاطمة- نزله عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٣].

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٥٣) بتصرف.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٤٦.

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٤٤.

إِسْلَامُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى يَدِ العَبَّاسِ رضى الله عنه:

لما نزل رســول الله ﷺ بمر الظهران، قال العباس : واصــباح قريش، والله لئن دخل رســول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يســتأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، قال : فجلست على بغلة ر سول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت : لعلي ألقى بعض الحطابة أو صـــاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رســـول الله ﷺ؛ ليخرجوا إليه فيســـتأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال : فوالله إني لأسـير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سـفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سـفيان يقول : ما رأيت كاليوم قط نيرانًا ولا عسكرًا، قال يقول بديل : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب [1]، قال : يقول أبو سفيان : خزاعة، والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسـكرها، قال : فعرفت صـوته، فقلت : يا أبا حنظلة فعرف صـوتي فقال : أبو الفضـــل، فقلت : نعم، قال مالك: فداك أبي وأمي فقلت : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله قال : فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال : قلت : «**والله لئن ظفر بك ليضـربن عنقك فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رســول الله ﷺ أســتأمنه لك**»، قال : فركب خلفي ورجع صـــاحباه فحركت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين، قالوا : من هذا فإذا رأوا بغلة رســول الله ﷺ قالوا : عم رســول الله ﷺ على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه، فقال : من هذا وقام إلي فلما رأى أبا ســـفيان على عجز الناقة قال: أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيء الرجل البطيء؛ فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رســـول الله ﷺ ودخل عمر فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد

(١) حمشتها الحرب: أحرقتها.

ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: لا والله لا يناجيه الليلة رجل دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا؛ ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف، قال: مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم فقال رسول الله ﷺ: **«اذهب به إلى رحلك يا عباس فإذا أصبح فائتني به»**.

فذهبت به إلى رحلي فبات عندي فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ: **«ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله»**؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأحلمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك هذه! والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن قال العباس: ويحك يا أبا سفيان أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن يضرب عنقك قال: فشهد بشهادة الحق وأسلم.

قلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئًا، قال: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: **«يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل[1]؛ حتى تمر به جنود الله فيراها»**، قال: فخرجت به؛ حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه.

(١) خطم الجبل: أنف الجبل.

قال : ومرت به القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : من هؤلاء فأقول : سليم، فيقول : ما لى ولسليم، قال : ثم تمر القبيلة، قال : من هؤلاء؟ فأقول : مزينة، فيقول : مالي ولمزينة، حتى نفذت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال : من هؤلاء؟ فأقول : بنو فلان، فيقول : ما لى ولبني فلان؛ حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء [1] فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال : سبحان الله من هؤلاء يا عباس، قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك الغداة عظيمًا، قلت : يا أبا سفيان إنها النبوة، قال : فنعم إذن قلت النجاء إلى قومك.

فخرج حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت [2] الدسم [3] الأحمس [4] قبح من طليعة [5] قوم قال : ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا : ويلك وما تغني دارك، قال : ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد [6].

هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الكَعْبَةَ:

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبى سفيان قال له : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا، فلما حاذى

(١) كتيبته الخضراء: لكثرة الحديد وظهوره فيها.

(٢) الحميت: رق السمن وعاء خاص للسمن.

(٣) الدسم: الكثير الودك.

(٤) الأحمس: الشديد وهنا بمعنى الشديد اللحم.

(٥) الطليعة: الذي يحرس القوم.

(٦) ابن هشام (٢ / ١٣٦ - ١٣٩) سيرة الرسول أبو عمار (٥٤٦ / ٥٤٩).

ر سول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا ر سول الله ﷺ ألم تسمع ما قال سعد؟ قال : **«وما قال»** ؟ فقال : قال كذا وكذا، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة فقال رسول الله ﷺ : **«بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا»**.

ثم أر سل إلى سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد وقيل : بل دفعه إلى الزبير[1].

الجَيْشُ الإِسْلاَمِيّ بِذِي طُوى:

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذى طوى، وكان يضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح؛ حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل، وهناك وزع جيشه، وكان خالد بن الوليد على المجَنَّبَةِ اليمنى، وفيها أسلمُ وسُلَيم وغِفَار ومُزَيْنة وجُهَيَنَة وقبائل من قبائل العرب، فأمره أن يدخل مكة من أسفلها وقال : "إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدًا؛ حتى توافونى على الصفا".

وكان الزبير بن العوام على المجَنَّبَةِ اليسرى وكان معه راية رسول الله ﷺ فأمره أن يدخل مكة من أعلاها من كَدَاء، وأن يغرز رايته بالحَجُون ولا يبرح حتى يأتيه.

وكان أبو عبيدة على الرحالة والحُسَّر – وهم الذين لاسلاح معهم– فأمره أن يأخذ بطن الوادى؛ حتى ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ [2].

الجَيْشُ الإِسْلاَمِيُّ يَدْخُلُ مَكَّةَ:

وسار رسول الله ﷺ فدخل مكة من أعلاها، وضربت له هنالك قبة، وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التى كلفت الدخول منها؛ فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه، وقتل من

(١) الرحيق المختوم ص ٣٤٦.
(٢) الرحيق المختوم ص ٣٤٧.

أصــحابه من المســلمين كرز بنِ جابر الفِهْريّ وخُنَيْس بن خالد بن ربيعة، كانا قد شذا عن الجيش فسلكا طريقًا غير طريقه فقتلا جميعًا، أما سفهاء قريش فقد تجمعوا مع عكرمة بن أبى جهل وصـــفوان بن أمية وســـهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المســـلمين، وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر يُعد ســلاحًا قبل دخول رســول الله ﷺ فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى؟ قال : لمحمد وأ صحابه، قالت : والله ما يقوم لمحمد وأ صحابه شيء، قال : إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ثم قال :

إن يُقبِلُوا اليوم فما لى عِلة هذا سلاحٌ كاملٌ وألَّة[1]

وذُو غِرارَيْن سريع السَّلة[2]

ثم شـــهد الخندمة مع صـــفوان وعكرمة وســـهيل بن عمرو، فلما لقيهم المسلمون ناوشوهم شيئًا من قتال فأصابوا من المشركين نحو اثنى عشر رجلاً، ثم انهزم المشــركون وانهزم حماس بن قيس صــاحب الســلاح؛ حتى دخل بيته فقال لامرأته : أغلقى عليَّ بابى، فقالت : وأين ما كنت تقول؟ قال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة

واستقبلتنا بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمة

ضربًا فلا يسمع إلا غمغمة لهم نهيت حولنا وهمهمة[3]

لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة[4]

الرَّسُولُ ﷺ يَدْخُلُ المسْجِدَ الحَرَامَ وَيُطَهِّرُهُ مِنَ الأَصْنَامِ:

ثم نهض رســـول الله ﷺ والمهاجرون والأنصـــار بين يديه وخلفه وحوله؛ حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت، وفى يده

(١) الألة: الحربة لها أسنان طويلة.

(٢) ذو غرارين: سيف ذو حدين.

(٣) الغمغمة: أصوات الأبطال والهمهمة: صوت في الصدر، والنهيت: صياح الأسد.

(٤) الرحيق المختوم ص ٣٤٧، سيرة الرسول أبو عمار ٥٥٠ - ٥٥١.

قوس وحول البيت ثلاثمائة و ستون صنمًا فجعل يطعنها بالقوس ويقول : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سبأ: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها.

وكان طوافه على راحلته ولم يكن محرمًا يومئذ، فاقتصر على الطواف فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة فأمر بها ففتحت فدخلها فرأى فيها الصور ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام يستقسمان بالأزلام، فقال : **«قاتلهم الله؛ والله ما استقسما بها قط»** ورأى فى الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده وأمر بالصور فمحيت(١).

صَلَاةُ الرَّسُولِ ﷺ دَاخِلَ الكَعْبَةِ وَخطَابُهُ أَمَامَ قُرَيْشٍ:

ثم أغلق عليه الباب ومعه أسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، وجعل عمودين من يساره، وعمودًا عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه، وكان البيت - يومئذ- على ستة أعمدة، ثم صلى هناك ثم دارت فى البيت وكبر فى نواحيه، ووحد الله ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته فقَالَ : **«لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ»** إِلَى هَاهُنَا حَفِظْتُهُ عَنْ مُسَدَّدٍ ثُمَّ اتَّفَقَا: **«أَلا إِنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُذْكَرُ وَتُدْعَى مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ إِلا مَا كَانَ مِنْ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَسِدَانَةِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ : أَلا إِنَّ دِيَةَ الْخَطَإِ شِبْهِ الْعَمْدِ مَا كَانَ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا مِائَةٌ مِنْ الابِلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ فِي بُطُونِ أَوْلادِهَا.يا معشر قريش إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ**

(١) الرحيق المختوم ٣٤٧ - ٣٤٨.

رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ قَالَ اللَّهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾

[الحجرات: ١٣]

يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، قال : «**فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم؛ اذهبوا فأنتم الطلقاء**» [(١)].

اليَوْمُ يَوْمُ بِرٍّ وَوَفَاءٍ:

ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على - رضى الله عنه- ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «**أين عثمان بن طلحة؟**» فدُعى له فقال له : «**هاك مفتاحك يا عثمان؛ اليوم يوم بر وفاء**».

وذكر ابن سعد فى الطبقات عن عثمان بن طلحة قال : كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس فأقبل رسول الله ﷺ يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له، ونِلتُ منه فحلم عنى ثم قال : «**يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت فقلت : هلكت قريش يومئذ وذلّت**» فقال : بل عمرت وعزت يومئذ، ودخل الكعبة فوقعت كلمته منى موقعًا، ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال : «**يا عثمان ائتنى المفتاح، فأتيته به فأخذه منى، ثم دفعه إليّ**» وقال : خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف، قال : فلما وليت نادانى فرجعت إليه فقال : ألم يكن

(١) ابن هشام (٢ / ١٤٦)، الرحيق المختوم ص ٣٤٨، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٦٥).

الذى قلت لك؟ قال : فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة : لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت، فقلت : بلى أشهد أنك رسول الله ﷺ[1].

بِلاَلُ يُؤَذِّنُ فَوْقَ الكَعْبَةِ:

وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن فوق الكعبة، وأبو سفيان بن حرب وعتبان بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أ سيدًا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيطه فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئًا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى، فخرج عليهم النبى ﷺ فقال : «**علمت الذى قلتم ثم ذكر ذلك لهم**» فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ﷺ، والله ما اطَّلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك[2].

قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئ:

ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانى بنت أبى طالب فاغتسل وصلى ثمانى ركعات فى بيتها، وكان ضحى، فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح[3].

وأجارت أم هانى بنت أبى طالب – رضى الله عنها– يوم الفتح رجلاً من المشركين وكان علي يريد قتله، قالت : فجئت النبي ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ قَالَتْ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ ﷺ : «**مَنْ هَذِهِ؟**» فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئِ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ : «**مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ**» فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٢) ابن هشام (٢ / ١٤٧ - ١٤٨).

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٤٩.

وَاحِدٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلاً قَدْ أَجَرْتُهُ فُلانَ ابْنَ هُبَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»** [1].

إِهْدَارُ النَّبِيِّ ﷺ لِبَعْضِ الدِّمَاءِ:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إلا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ: **«اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطَلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ»** فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطَلٍ فَأُدْرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا فَقَالَ عِكْرِمَةُ وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنْ الْبَحْرِ إلا الاخْلاصُ لا يُنَجِّينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا فَجَاءَ فَأَسْلَمَ وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايِعْ عَبْدَ اللَّهِ قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلاثًا كُلَّ ذَلِكَ يَأْبَى فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلاثٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : **«أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ»** فَقَالُوا وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فِي نَفْسِكَ هَلا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ قَالَ: **«إِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ»**.

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٢٨١.

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة فقتله علي.

وأما هبَّار بن الأ سود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت ر سول الله ﷺ حين هاجرت فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم وحسن إسلامه، وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى فأسلمت كما استؤمن لسارة وأسلمت.

قال ابن حَجَر : وذكر أبو مَعْشَر فيمن أهدر دمه الحارث بن طُلاَطِل الخزاعى، قتله على، وذكر الحاكم أيضًا ممن أهدر دمه كعب بن زُهَيْر، وقصته مشهورة، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح، ووَحْشِىّ بن حرب، وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان، وقد أسلمت، وأرنب مولاة ابن خطل أيضًا قتلت، وأم سعد قتلت فيما ذكر ابن إسحاق : فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان، اختلف فى اسمهما أو باعتبار الكنية واللقب[1].

(١) الرحيق المختوم ٣٤٩ - ٣٥٠.

إِسْلَامُ بَعْضِ رِجَالِ قُرَيْشٍ

١- إِسْلَامُ سُهَيْل بنِ عَمْرو:

لما دخل النبى ﷺ مكة أغلق سـهيل بن عمرو عليه بابه، وأرسـل إلى ابنه عبد الله أن يطلب له الجوار من النبى ﷺ، فذهب سـهيل إلى النبى ﷺ طالبًا الجوار لأبيه، فأمنه رسـول الله ﷺ فقال سـهيل: كان والله برًّا صـغيرًا وكبيرًا، وخرج سهيل مع النبى ﷺ إلى حنين وهو على شركة حتى أسلم بالجعرانة[١].

٢- إِسْلَام صَفْوَان بنِ أُمَيَّةَ:

لم يكن صفوان ابن أمية ممن أهدر دمه، لكنه بصفته زعيمًا كبيرًا من زعماء قريش خاف على نفسه، وفر فا ستأمن له عمير بن وهب الجمحى ر سول الله ﷺ فأمنه، وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جده إلى اليمن، فرده فقال لرسول الله ﷺ : اجعلنى بالخيار شهرين، فقال : «**أنت بالخيار أربعة أشهر**» [٢].

وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه فأعاروه سلاحه مائة درع بأداتها، فقال : طوعًا أو كرهًا، قال رسـول الله ﷺ : «**عارية مؤداة**»، فأعاره، فأمره رسـول الله ﷺ فحملها إلى حنين فشـهد حنينًا والطائف، ثم رجع رسـول الله إلى الجعرانة، فبينما رسـول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان جعل صفوان ينظر إلى شعب ملئ نعما وشـاء ورعاء، فأدام النظر إليه ورسـول الله ﷺ يرمقه فقال : «**أبا وهب يعجبك هذا الشـعب**»، قال : نعم، قال: «**هو لك وما فيه**»، فقال صـفوان عند ذلك : ما طابت بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسو الله[٣].

(١) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٤٧٥.
(٢) الرحيق المختوم ص ٣٥٠.
(٣)السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٤٧٦ - ٤٧٧.

٣- إِسْلاَمُ أَبِي قُحَافَةَ:

قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما : لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده فلما رآه رسول الله ﷺ قال : «**هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟**» قال أبو بكر : يا رسول الله ﷺ هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت، قالت : فأجلسه بين يديه ثم مسح على صدره، ثم قال له : «**أسلم**»، فأسلم قالت : فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة[١]، فقال رسول الله ﷺ : غيروا هذا من شعره، ويروى أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[٢].

٤- إِسْلاَمُ فُضَالَة بنِ عُمَيْرٍ:

أراد فضالة بن عمير قتل النبى ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : «أفضالة» ؟ قال : نعم يا رسول الله ﷺ، قال : «ماذا كنت تحدث به نفسك»، قال : لا شيء، كنت أذكر الله فضحك النبى ﷺ ثم قال : «استغفر الله ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه» فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه[٣].

خُطْبَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي اليَوْمِ الثَّانِي مِنَ الفَتْحِ:

ولما كان الغد من يوم الفتح قَام رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتْحِ مَكَّةَ وقال[٤]: «**لا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا، إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ**

(١) ثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبه الشيب.

(٢) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٤٧٩.

(٣) ابن هشام ٢ / ١٥١.

(٤) رواه مسلم ١٣٥٣.

لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلا يَلْتَقِطُ إِلا مَنْ عَرَّفَهَا وَلا يُخْتَلَى خَلاهَا فَقَالَ الْعَبَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلا الإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ فَقَالَ: إِلا الإِذْخِرَ» [1].

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من نبي ليث بقتيل لهم في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد : «**يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ الْقَتْلِ فَقَدْ كَثُرَ أَنْ يَقَعَ لَئِنْ قَتَلْتُمْ قَتِيلاً لأَدِيَنَّهُ فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِنْ شَاءُوا فَدَمُ قَاتِلِهِ وَإِنْ شَاءُوا فَعَقْلُهُ**» وفي رواية : فقام رجل من أهل اليمن يقال له : أبو شاة فقال : اكتب لي يا رسول الله، فقال ﷺ : «**اكتبوا لأبي شاة**» [2].

المحْيَا مَحْيَاكُم وَالممَاتُ مَمَاتُكُمْ:

قال أبو هريرة :.. أتى رسول الله ﷺ الصفا فعلاه؛ حيث ينظر إلى البيت فرفعه يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه، قال: والأنصار تحته، فَقَالَتْ الأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَجَاءَ الْوَحْيُ وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لا يَخْفَى عَلَيْنَا فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ**» قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «**قُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ**» قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ قَالَ: «**كَلا إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**» فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ

(١) الإذخر: نبات عشبي من فصيلة النجيليات له رائحة ليمونية عطرة.

(٢) الرحيق المختوم ٣٥٠ - ٣٥١.

وَيَقُولُـونَ: وَاللَّـهِ مَـا قُلْنَـا الَّـذِي قُلْنَـا إلا الضِّـنَّ بِاللَّـهِ وَبِرَسُـولِهِ فَقَـالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ»** (١) (٢).

أَخْذُ البَيْعَةِ:

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة وعلموا أن لا سـبيل إلى الكفاح إلا الإسـلام، فأذعنوا له واجتمعوا للبيعة فجلس رسـول الله ﷺ على الصـفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب أسـفل منه يأخذ على الناس فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

وفى المدارك : روى أن النبى ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النسـاء وهو على الصـفا، وعمر قاعد أسـفل منه، يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبى سـفيان متنكرة؛ خوفًا من رسـول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة، فقال رسول الله ﷺ : «أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئًا» فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئًا.

فقـال رسـول الله ﷺ : **«ولا تسرقن»** فقالـت هنـد : إن أبـا سـفيان رجل شـحيح؛ فـإن أنـا أصـبت مـن مالـه هنـات؟ فقـال ابـو سـفيان : ومـا أصـبت فهـو لـك حـلال، فضـحك رسـول الله ﷺ وعرفهـا فقـال : **«وإنك هند؟»** قالت : فـاعف عمـا سـلف يـا نبـى الله عفـا الله عنـك، فقـال : **«ولا يزنين»** فقالـت : أو تزنـى الحـرة؟ فقـال : «ولا يقـتلن أولادهـن» فقالـت : ربينـاهم صـغارًا وقتلتمـوهم كبـارًا، فـأنتم وهـم أعلـم - وكـان ابنهـا حنظلة بـن أبـى سـفيان قـد قتـل يـوم بـدر- فضـحك عمـر؛ حتـى استلقى فتبسـم رسـول الله ﷺ قـال : **«ولا يأتـين ببهتـان»**، فقالـت : والله إن البهتـان لأمـر قبـيح، ومـا تأمرنـا إلا بالرشـد ومكـارم الأخـلاق، فقـال : **«ولا يعصينك فى المعروف»** فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى

(١) أخرجه مسلم ١٧٨٠.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٥٠.

أنفسنا أن نعصيك، ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول : كنا منك فى غرور.

وفي الصحيح: قَالَتْ جَاءَتْ هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ خِبَاءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ ثُمَّ مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ، قَالَتْ: وَأَيْضًا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ قَالَتْ[1]: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ، فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُطْعِمَ مِنْ الَّذِي لَهُ عِيَالَنَا، قَالَ: **«لا أُرَاهُ إِلا بِالْمَعْرُوفِ»** [2].

أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [3]: **«أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟»** ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»** [4].

إِقَامَتُهُ ﷺ بِمَكَّةَ وَعَمَلُهُ فِيهَا:

نزل رسول الله ﷺ بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين؛ فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ ؟ فَقَالَ: **«وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ**

(١) رواه البخاري ٥٣٥٩.

(٢) الرحيق المختوم ٣٥١ - ٣٥٢.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٧٥.

(٤) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٦٣.

مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ» وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ أخوه وباع الدور كلها، وَلَمْ يَرِثْهُ جَعْفَرٌ وَلا عَلِيٌّ شَيْئًا لأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ، وأبو طالب مات كافرًا[1].

وأقام الرسول ﷺ بمكة تسعة عشر عامًا يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعى فجدد أنصاب الحرم، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ولكسر الأوثان التى كانت حول مكة فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنفًا إلا كسره[2].

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٨٦).

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٥٢.

السَّرَايَا وَالبُعُوثُ

١- سَرِيَّةُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ إِلَى العُزَّى:

بعث رسـول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شـهر رمضان ليهدمها، فخرج إليها فى ثلاثين فارسًا من أصحابه؛ حتى انتهوا إليها فهدمها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: هل رأيت شيئًا؟ قال: «**لا**»، قال: فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عجوز عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجز لها باثنتين، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «**نعم تلك العزى وقد أيسـت أن تعبد فى بلادكم أبدًا، وكانت بنخلة وكانت لقريش وجميع بنى كنانة، وكانت أعظم أصنامهم وكان سدنتها بنى شيبان**» (١).

٢- سَرِيَّةُ عَمْرو بنِ العَاصِ إِلَى سُوَاع:

ثم بعث عمرو بن العاص إلى سُواع وهو: صنم لهذيل؛ ليهدمه قال عمرو: فانتهيت إليه وعنده السـادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرنى رسـول الله ﷺ أن أهدمه، فقال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟ قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت على باطل، ويحك فهل يسـمع أو يبصـر؟ قال: فدنوت منه فكسـرته، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته، فلم نجد فيه شيئًا ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله(٢).

٣- سَرِيَّةُ سَعْد بنِ زَيْدِ الأَشْهَلِي إِلَى مَنَاة:

ثم بعث سعد بـن زيـد الأشـهلى إلى منـاة فـى عشـرين فارسًـا، وكانـت بالمشلَّل عنـد قُدَيـد لـلأوس والخـزرج وغسـان وغيرهـم، فلمـا انتهـى سـعد إليها قال له سادنها: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل

(١) الرحيق المختوم ص ٣٥٢.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٦٤.

إليها سعد وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها فقال لها السادن: مناة دُونَكِ بعض عُصَاتك، فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره، ولم يجدوا فى خزانته شيئًا[1].

٤- سَرِيَّةُ خَالدِ بنِ الوَلِيدِ إِلَى بَنِي جُذَيْمَةَ:

ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله في شوال ٨هـ إلى بني جذيمة، فَعَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الاسْلام فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لا أَقْتُلُ أَسِيرِي وَلا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**» مَرَّتَيْنِ.

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار، وبعث رسول الله ﷺ عليًّا فَوَدَى لهم قتلاهم وما ذهب منهم، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر فى ذلك فبلغ النبى ﷺ فقال: «**مهلا يا خالد، دع عنك أصحابى؛ فوالله لو كان أحُد ذهبًا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته**»[2].

(١) الرحيق المختوم ص ٣٥٢.

(٢) الرحيق المختوم ٣٥٢ - ٣٥٣.

نَتَائِجُ فَتْحِ مَكَّةَ

كان لفتح مكة نتائج كثيرة منها:

١- دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين وزالت دولة الكفر منها وجانت الفرصة للقضاء على جيوب الشرك فى حنين والطائف ومن ثم إلى العالم أجمع.

٢- أصبح المسلمون قوة عظمى فى جزيرة العرب وبعد فتح مكة تحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش فى الإسلام، وبرزت قوة كبرى فى الجزيرة العربية لا يستطيع أى تجمع قبلى الوقوف فى وجهها، وهى مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة؛ لإزالة حكومات الظلم والطغيان وتأمين الحرية لخلق الله؛ لكى يدخلوا فى دين الله ويعبدوه وحده من دون سواه.

٣- كان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يمعن النظر فى هذا الفتح المبارك، فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت فى رفقة ﷺ وحرصه على الأخذ بأيديهم؛ ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذى سيطر على بلدهم وتعيين من يعلمهم ويفقههم فى دينهم، فقد أبقى معاذ بن جبل - رضى الله عنه- فى مكة بعد انصرافه عنها؛ ليصلى بالناس ويفقههم فى دينهم، واما الآثار السياسية فقد عين عتاب بن أسيد أميرًا على مكة، يحكم فى الناس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم وينتصر للمظلوم من الظالم.

وأما الآثار الدينية فإن فتح مكة وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعًا بأن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده فدخلوا فيه أفواجًا.

٤- تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين بعدما ضحوا بالغالى والنفيس، وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأ سبابه، وقطعوا مراحله وتعاملوا مع سننه كسنة الابتلاء والتدافع والتدرج وتغيير النفوس والأخذ بالأ سباب، ولا ننسى تلك الصورة الرائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذنًا بالصلاة بعد أن عذب في بطحاء مكة؛ وهو يردد: أَحَدٌ.. أَحَدٌ في أغلاله وحديده، ها هو اليوم قد صعد فوق الكعبة ويرفع صوته الجميل بالأذان، وهو في نشوة الإيمان[1].

الدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ:

تنطوي غزوة فتح مكة على العديد من الدروس المستفادة نذكر منها ما يلي:

١- لما قرر النبي ﷺ فتح مكة بعد ما نقضت قريش عهدها وتحالفت مع بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين، شرع في الأخذ بالأ سباب سواء كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية لتحقيق هدفه، وهو بذلك يعلمنا سنة الأخذ؛ لتحقيق مبدأ مباغتة قريش حتى لايصل إليها الخبر فتعد العدة لمجابهته وصده:-

أ- أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر - رضى الله عنه، أقرب أصحابه إلى نفسه وزوجته عائشة - رضى الله عنها- أحب نسائه إليه، وهذا المنهج النبوى الحكيم يدلنا على أنه ينبغى على القادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهن ربما يذعن شيئًا من هذه الأسرار عن حسن نية فتتنقلها الألسن؛ حتى تصير سببًا فى حدوث كارثة عظيمة.

ب- أنه بعث سرية بقيادة أبى قتادة إلى بطن إ ضم، وهذا يوجه القادة إلى أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء لتحقيق الهدف والسلامة من كيد الأعداء.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٨٧).

ج- أنه بعث العيون لمنع وصــول المعلومات إلى الأعداء، ليجرم عدوه من الحصول على المعلومات التى تفيده فى الاستعداد لمجابهة المسلمين.

د- دعاؤه ﷺ وتضـــرعه إلى الله بأخذ العيون والأخبار عن قريش، وهذا يعلمنا الأحذ بالأسباب ولا ننسى الدعاء والتضرع إلى الله.

هـــ- إحباط محاولة تجسس حاطب بن أبى بلتعة لصـالح قريش، وهذه معجزة نبوية للرســـول ﷺ، فقد أطلعه الله - عز وجل- على ذلك عن طريق الوحى[1].

٢- فى قصة إسلام أبى سفيان العديد من الدروس منها:

أ- عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين وأصبح رهن إشارة النبى ﷺ كانت المفاجأة الصـــاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يدعى إلى الإســـلام، فتأثر بهذا الموقف، فلم يملك أن قال: بأبى أنت وأمى يا محمد، ما أحلمك! وأكرمك وأوصلك!.

وعندما قال العباس للنبى ﷺ : إن أبا ســفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شـيئًا، فقال النبى ﷺ : «**نعم من دخل دار أبي سـفيان فهو آمن،**» ففى تخصـيص بيت أبى ســفيان شــيئًا يشــبع ما تتطلع إليه نفســه، وفى هذا تثبيت له على الإســلام وتقوية لإيمانه، وهذا الأســلوب يمتص الحقد من قلب أبى ســفيان ويبين له أن المكانة التى كانت له عند قريش لن تنتقص شيئًا فى الإ سلام، إن هو أخلص له وبذل في سبيله، وهذا منهج نبوي كريم على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به في تعامله مع الناس.

ب- وفي قول رسول الله ﷺ لعمه العباس عن أبي سفيان: «**أحبسه بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها**» وقد أراد بذلك شن حرب نفسية على قريش

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٥٠ - ٤٥٢) باختصار.

وزعيمها لبيان مدى قوة ما وصــل اليه الجيش الإســلامي من تسـليح وتنظيم، وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكيين للمقاومة وبهذا يتحقق هدف النبي ﷺ دون إراقة دماء [1].

إنها النبوة، الكلمة التي جاءت على لسـان العباس لأبي سـفيان؛ لتصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أن دعوة النبي ﷺ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، فهذه الكلمة جاءت عنوانًا لحياة النبي ﷺ من أولها إلى آخرها، فقد كانت دليلاً ناطقًا على أنه بعث لتبليغ رســالة الله إلى الناس، وليس ابتغاء ملك لنفسه في الأرض[2].

٣- دخل رسـول الله ﷺ خاشـعًا لله، وهو يقرأ سـورة الفتح، فكان يرجّع فلا تلاوته لها، والترجيع كيفية معينة في القراءة يترنم بها القارئ، وهذا يدل أنه ﷺ كان مســتغرقًا في حالة شــهود مع الله تعالى أثناء دخوله مكة، فما كانت لنشوة النصر العظيم إلى نفسه من سبيل، ولم يكن شيء من التعاظم أو التجبر؛ ليستولي على شيء من مشاعره، إنما هو الانسجام التام مع شهود الله والشكر على نصره وتأييده.

ويزيد من تصوير هذا المعنى أنه لما وصل إلى ذي طوى كان يضع رأسه تواضــعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل.

وهذا يعني أنه ﷺ كان مندمجًا في حالة من العبودية التامه لله، إذ رأى ثمرة القيام بأمر ربه، ونظر إلى نتيجة كل ما قد كان لقيه من العذاب من قومه، وكيف أن الله أعاده إلى البلدة التي أخرجته عزيزًا منصورًا مكرمًا!.

إنها الساعة التي ينبغي أن تمتلئ بشكر الله وحده، وينبغي أن يفيض الزمن كله فيها بمعنى العبودية التامة لله تعالى.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٥٧ - ٤٥٨) باختصار.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٢٨٨.

وهكذا يجب أن تكون حال المسلمين دائمًا: عبودية مطلقة لله تعالى في السراء والضراء، في الرخاء والشدة، عند الضعف والقوة، وليس من شأن المسلمين إطلاقا أن يتظاهروا بالذل لله تعالى كلما حاقت بهم مصيبة أو كرب؛ حتى إذا نكشف الكرب وزال الضر أسكرتهم الفرحة، بل أسكرهم الطغيان عن كل شيء، ومرّوا من جنبٍ أوامر الله وأحكامه ساهين لاهين، كأن لم يدعوه ويتذللوا له في كشف ضرٍ مسَّهم!.

٤- لقد كان التدبير الحكيم لرسول الله ﷺ ما أمر به أصحابه من أن يتفرقوا في مداخل مكة؛ فلا يدخلوها من طريق ومدخل واحد، وذلك بغية تفويت فرصة القتال على أهل مكة إن أرادو ذلك إذ يضطرون إلى تشتيت جماعاتهم وتبديد قواهم في جهات مكة وأطرافها فتضعف لديهم أسباب المقاومة ومغرياتها.

وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك حقنًا للدماء ما أمكن، ومن أجل هذا أمر المسلمين أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأعلن أن من دخل داره، وأغلق بابه فهو آمن [١].

وفي إعلان العفو العام عن أهل مكة بصفة عامة وعن بعض من أهدر دماءهم بصفة خاصة دليل على رحمته ﷺ ورغبته في تأليف قلوبهم على الإسلام، كما أنه لم يُردْ أن يتعامل مع مكة كالمناطق الأخرى، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الَله تعالى[٢].

٥- «**أتشفع في حد من حدود الله؟**» هذه الجملة التي قالها النبي ﷺ لأسامة بن زيد حينما ذهب إليه يشفع عنده في المرأة المخزومية التى سرقت.

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٦٦ - ٤٦٧) بتصرف.

وفي ذلك توجيه نبوي للأمة ان تقيم شـــرع الله على القريب والبعيد عبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الأحكام الإسلامية [(١)].

٦- وفي بيعة النسـاء دليل على اشـتراك المرأة مع الرجل على أسـاس من المسـاواة التامة في جميع المسـئوليات التي ينبغي أن ينهض بها المسـلم، ولذلك كان على الخليفة أو الحاكم المســلم أن يأخذ عليهن العهد بالعمل على إقامة المجتمع الإسـلامي بكل الوسـائل المشـروعة الممكنة، كما يأخذ العهد في ذلك على الرجال دون فرق ولا تفاوت.

ومن هنا كان على المرأة المسلمة أن تتعلم شئون دينها كما يتعلم الرجل، وأن تسلك السبل المشروعة الممكنة إلى التسلح بسلاح العلم والوعي والتنبه إلى مكامن الكيد وأســاليبه لدى أعداء الإســلام الذين يتربصـــون به؛ حتى تسـتطيع أن تنهض بالعهد الذى قطعته على نفسـها وتنفذ عقد البيعة الذي في عنقها [(٢)].

٧- والدرس المهم - أيضًا- لكل من يتعرض لأي ابتلاء أن يصبر ويرضى بقضـــاء الله ابتغاء وجه الله - عز وجل- على إلى أن يفرج الله كربه، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، كيف أعاده الله - عز وجل- إلى بلدته التي أخرج منها عزيزًا منصـــورًا مكرمًا؛ بعد أن صـــبر على العديد من الإيذاءات والاعتداءات، وخاض العديد من الغزوات من أجل تبليغ رسالة الرسول ﷺ ورفع راية: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٨١) بتصرف.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٢٩٦.

المَرْحَلَةُ الثّالِثَةُ

وهى آخر مرحلة من مراحل حياة الرسـول ﷺ تمثل النتائج التى أثمرتها دعوته الإسـلامية بعد جهاد طويل وعناء متاعب وقلاقل وفتن واضـطرابات ومعارك وحروب دامية واجهتها طيلة بضعة وعشرين عامًا.

وكان فتح مكة هو أعظم فتح حصل عليه المسلمون فى هذه الأعوام، تغير لأجله مجرى الأيام، وتحول به جو العرب فقد كان الفتح حدًّا فاصلاً بين المدة السـابقة عليه وبين ما بعده، فإن قريشـًا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره، والعرب فى ذلك تبع لهم، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب.

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين:

١- صفحة المجاهدة والقتال.

٢- صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام.

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا فى هذه المرحلة، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى، إلا أنا اخترنا فى الترتيب الوضـعى أن نأتى على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى؛ ونظرًا إلى أن صفحة القتال ألصق بما مضى, وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها فى الترتيب(١).

* * *

(١) الرحيق المختوم ص ٣٥٥.

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ

تَارِيخُهَا وَأَسْبَابُهَا:

كانت غزوة حنين فى شوال سنة ثمان من هجرة النبى ﷺ وسببها: أن الله - جل جلاله- حينما فتح على رسوله مكة، ودانت له قريش بعد بغيها وعدوانها، مشت أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض، وقد توغر صدورهم النصر الذى آتاه الله رسوله والمؤمنين.

فحشدوا حشودًا كبيرة وجمع أمرهم مالك بن عوف سيّد هوازن، وأمرهم فجاءوا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم؛ حتى نزلوا بأوطاس - مكان بين مكة والطائف- وإنما أمرهم بذلك حتى يجد كل منهم ما يحبسه عن الفرار وهو الدفاع عن الأهل والمال والولد! وأجمعوا المسير إلى رسول الله ﷺ فخرج إليهم ﷺ لست ليال خلون من شوال فى اثنى عشر ألف من المسلمين، عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفين من أهل مكة[1].

مُجَرِّبُ الحُرُوبِ يُغَلِّطُ رَأْيَ القَائِدِ:

ولما نزل مالك بن عوف بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دُرَيْد بن الصَّمَّة وهو شيخ كبير وليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعًا مجربًا قال دريد: بأى واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مَجَالُ الخيل، لا حزن[2] ضَرسٌ[3] ولا سَهْلٌ دَهِس[4] ما لى أسمع رُغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصبى وثغاء الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فدعا مالكًا وسأله عما حمله على ذلك فقال: أردت أن أجعل خلف

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٩٧ - ٢٩٨.
(٢) الحزن: ما ارتفع من الأرض.
(٣) الضرس: أرض بها حجارة محددة.
(٤) الدهس: ما لان من الأرض.

كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعى ضـــأن والله، وهل يرد المنهزم شـــيئًا؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بســـيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِـحْتَ فى أهلك ومالك ثم ســـأل عن بعض البطون والرؤســـاء، ثم قال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بَيْضَة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم الق الصـــباة على متون الخيل؛ فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك، وقد أحرزت أهلك ومالك.

ولكن مالكًا - القائد العام- رفض هذا الطلب قائلاً: والله لا أفعل؛ إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعنى هوازن أو لأتَّكئَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأى، فقالوا: أطعناك، فقال دريد: هذا يوم لم أشهده، ولم يَفُتْنِى.

يا ليتنى فيها جذع أخُبّ فيها وأضع[2]
أقود وطفاء الزمع[1] **كأنها شاه صدع**[3] [4]

سِلاَحُ اسْتِكْشَافِ العَدُوِّ:

وبعث مالك عيونًا له يأتونه بالخبر فرجعوا إليه، وقد تفرقت أوصالهم وذهبت عقولهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضًا على خيل بُلق؛ فوالله ما تماسكنا أن حل بنا ما ترى، ولم ينهه ذلك عن وجهه، ولم يثنه عن عزمه على قتال رسول الله ﷺ والمسلمين، والرجال الذين رأتهم العيون هم الملائكة إذ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٦].

(١) وطفاء الزمع: خيل طويلة الشعر.
(٢) أخب وأضع: ضربان من السير.
(٣) صدع: شيء بين شيئين من أي نوع كان.
(٤) الرحيق المختوم ٣٥٦ - ٣٥٧.

سِلاَحُ اسْتِكْشَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

ولما سمع بهم نبى الله ﷺ، بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسـلمى، وأمره أن يدخل فى الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم[1] ففعل.

النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعِيرُ الدُّرُوعَ مِنْ صَفْوَان بنِ أُمَيَّةَ:

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعًا له وسلاحًا؛ فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: «**يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدًا**» فقال: صفوان أغصبًا يا محمد، قال: «**بل عارية ومضمونة؛ حتى نؤديها إليك**» قال: ليس بهذا بأس فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل[2].

الرَّسُولُ ﷺ يُغَادِرُ مَكَّةَ إِلَى حُنَيْنٍ:

وفى يوم السبت السادس من شهر شوال سنة ٨هـ، غادر رسول الله ﷺ مكة، وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة، واستعمل على مكة عتَّاب بن أسيد.

ولما كان عشية جَاءَ فَارِسٌ فَقَالَ إنى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ آبَائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ وَنَعَمِهِمْ وَشَائِهِمْ اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «**تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»، وتطوعَ للحراسة تلك الليلة أنس بن أبى مرثد الغنوى.

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٥٧١ - ٥٧٢.

(٢) ابن هشام ٢ / ١٦٦.

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سـدرة عظيمة خضـراء، يقال لها: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، كانت العرب تغلق عليها أ سلحتهم، ويـسبحون عندها ويعكفون، فقال بعض أهل الجيش لر سول الله ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط فقال: الله أكبر، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال أهل مو سى: اجعل لنا آلهًا كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها السّننُ، لتركبن سَنَنَ، من كان قبلكم[١].

ولما رأى بعض الطلقاء[٢] جيش المسـلمين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة، ودخل الإعجاب في نفوسهم، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ [٣].

الجَيْشُ الإِسْلَامِيُّ يُبَاغِتُ بِالرُّمَاةِ وَالمهَاجِمِينَ:

انتهى الجيش الإ سلامي إلى حنين، الليلة التي بين الثلاثاء والأربعاء لعـشر خلون من شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيـشه بالليل فى ذلك الوادى، وفرق كمناءه فى الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا، ثم يشدوا شدة رجل واحد، وبالسـّحَر عبأ رسـول الله ﷺ جيشـه، وعقد الألوية والرايات، وفرقها على الناس، وفى عَمَاية الصـبح اسـتقبل المسـلمون وادى حنين، وشـعروا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجد كمناء العدو فى مضـايق هذا الوادى، فبيناهم ينحطون إذا تمطر عليهم النبال، وإذا كتائب العدو قد شـدت عليهم شدة رجل واحد، فانشمر المسلمون راجعلين، لا يلوى أحد على أحد وكانت هزيمة منكرة، حتى قال أبو سـفيان وهو حديث عهد بالإسـلام: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر - الأحمر- وصـرخ جَبَلَةُ أو كَلَدَةُ بن الحَنْبَل: ألا بطل السّحْر اليوم.

(١) الرحيق المختوم ص ٣٥٧.

(٢) الطلقاء: هم الذين أطلقهم النبي ﷺ بعد فتح مكة وخلى سبيلهم.

(٣) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٤٨٩.

وانحاز رســول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: «**هَلُمُوا إليَّ أيها الناس، أنا رســول الله، أنا محمد بن عبد الله**» ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار [1].

شَجَاعَةُ النَّبَيِّ ﷺ وَأَثَرُهَا فِي كَسْبِ المعْرَكَةِ:

وحينئذ ظهرت شــجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها، فطفق يركض بغلته قبل الكفار وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلاً: «**اللهم أنزل نصرك**».

روى مسلم عن العَبَّاس رضى الله عنه قال: شَـهِدْتُ مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَهوعَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَــاءَ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُســلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسـْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسـُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّار، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَام بَغْلَةِ رَســُول اللَّهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لا تُسـْرِعَ، وَأَبُو سـُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسـُول اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَســُولُ اللَّهِ ﷺ : «**أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْـحَابَ السَّــمُرَةِ**» [2] وَكَانَ رَجُلاً صَـيِّتًا فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَـوْتِي يا أَصْـحَابُ السـَّمُرَةِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سـَمِعُوا صَـوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَر عَلَى أَوْلادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ، وَالدَّعْوَةُ فِي الأَنْصَار، يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار! يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار! قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتْ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ من الْخَزْرَجِ، فنظر رســول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فَقَالَ: «**الآن حَمِيَ الْوَطِيس**»، ثُمَّ أَخَذَ رَ سُولُ اللَّهِ ﷺ حَصَيَاتٍ من الأرض فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ: «**انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ**».

(١) الرحيق المختوم ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) السمرة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية.

فما هي إلا ساعات قلائل - بعد رمى القبضة- حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظُعُن، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا التطور فى قوله: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٦] [(١)].

مَنْ قَتَلَ كَافِرًا فَلَهُ سَلبهُ:

وكان النبى ﷺ يشجع أصحابه على أن يقتلوا أكبر عدد من المشركين، فجعل لكل من يقتل كافرًا الحق فى أن يأخذ كل ما معه من متعلقات.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**يَوْمَئذ** - يعنى يوم حنين - **مَنْ قَتَلَ كَافِرًا فَلَهُ سَلَبُهُ**» فَقَتَلَ أَبو طَلْحَةَ يَوْمَئِذٍ عِشْرِينَ رَجُلاً، وَأَخَذَ أَسْلابَهُمْ [(٢)].

حَرَكَةُ المطَارَدَةِ:

تفرق من نجا من مقاتلة المشركين فى الجبال والوديان بعد هزيمتهم فى معركة حنين، ولجأت مجموعة كبيرة منهم إلى أوطاس، وعسكرت مجموعة أخرى منهم فى نخلة، أما غالبية من انهزم من ثقيف فقد تبعوا قائدهم مالك بن عوف النصرى إلى حصونهم بالطائف، وقد لاحق مقاتلة المسلمين الفارين حسب توجيهات النبى ﷺ، حيث بعث أبا عامر عبيد بن سليم بن حضار الأسلمى على رأس قوة من المسلمين إلى أوطاس فقاتلهم.

(١) الرحيق المختوم ٣٥٧ - ٣٥٩، السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٤٩٢ - ٤٩٣، فقه السيرة للبوطي ٢٩٨.
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٨٣.

عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعرى، قَالَ: لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حُنَيْن بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاس، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصـِّمَّةِ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ، وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ قَالَ أَبُو مُوسَى: وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ فَرُمِيَ أَبُوعَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ يَا عَمِّ !مَنْ رَمَاكَ؟ فَأَشَارَ أبو عامر إِلَى أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: إن ذلكَ قَاتِلِي تراه ذلك الذى رمانى قال أبو موسى: فَقَصَدْتُ لَهُ، فَلَحِقْتُهُ فَلَمَّا رَآنِي وَلَّى عنى ذاهبًا، فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ: أَلا تَسْتَحْيِي؟ ألست عربيًا؟ ألا تثبت؟ فَكَفَّ فالتقت أنا وهو فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ.

ثُمَّ رجعت إلى أَبِي عَامِرٍ، فقلت: قد قتل الله صاحبك، قال: فانتزع هذا السهم، فنزعته، فنزا منه المَاء [1] فقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أنطلق إلى رسول الله ﷺ فاقرئة السَّلامَ، ثم قُلْ لَهُ إنه يقول لك اسْتَغْفِرْ لِي، قال: وَاسْتَخْلَفَنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ يَسِيرًا، ثُمَّ مَاتَ فلما رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، دخلت عليه، وهو فِي بَيْتِه عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ، وقَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِ رسول الله ﷺ وَجَنْبَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا، وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ، وَقَالَت لَهُ: قَالَ: قل له اسْتَغْفِرْ لِي، فَدَعَا رسول الله ﷺ بِمَا فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأبى عامر عبدك**»؛ حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قال: «**اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك، أو من الناس**» فقلت: يا رسول الله! ولى فاستغفر، فقال: «**اللهم اغفر لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ، وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلاً كَرِيمًا، قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: إِحْدَاهُمَا لأَبِي عَامِرٍ، وَالأُخْرَى لأَبِي مُوسَى**» [2].

الغَنَائِـمُ:

وكانت الغنائم: السبى ستة آلاف رأقية فضة، أمر رسول الله ﷺ بجمعها، ثم حبسها بالجعرانة جعل عليها مسعود بن عمرو الغفارى، ولم يقسمها حتى فرع من غزوة الطائف.

(١) فنزا منه الماء: ظهر وجرى.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٥٨٤ - ٥٨٥.

وكانت فى السبى الشيماء بنت الحارث السعدية، أخت رسول الله ﷺ عرفت له نفسها؟ فعرفها بعلامة فأكرمها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، ثم منّ عليها، وردّها إلى قومها.

غَزْوَةُ الطَّائِفِ:

وهذه الغزوة فى الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف- وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة فى الشهر نفسه- شوال ٨ هـ، وفى طريقه ﷺ إلى الطائف مر على نخلة اليمامة، ثم على قرن المنازل، ثم على ليَّة، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه، وعسكر هناك وفرض الحصار على أهل الحصن.

ودام الحصار مدة غير قليلة، ففى رواية أنس عن مسلم: أن مدة حصارهم كانت أربعين يومًا، وعند أهل السير خلاف فى ذلك، وقيل: خمسة عشر يومًا، وقبل: بضعة عشر، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر.

ووقعت فى هذه المرة مراماة، ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رميًا شديدًا، كأنه رِجل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، وا ضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم، فعسكروا هناك.

ونصب النبى ﷺ المنجنيق على أهل الطائف، وقذف به القذائف، حتى وقعت شدخة فى جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة، ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد عليهم محماة بالنار فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالاً.

وأمر رســـول الله ﷺ - كجزء من ســـياســـة الحرب لإلجاء العدو إلى الاســـتســـلام- أمر بقطع الأعتاب وتحريقها، فقطعها المســـلمون قطعًا ذريعًا، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم، ونادى مناديه ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلاً، فيهم أبو بكرة، تسور حصن الطائف، وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقى عليها، فكناه رسول الله ﷺ : **«أبا بكرة»** فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة، ولما طال الحصار استعصى الحصن، وأصيب المسلمون بما أصيب من رشق النبال، وبسـكك الحديد المحماة، وكان أهل الحصــن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصــار ســنة، اســتشــار رســول الله ﷺ نوفل بن معاوِيَة الدَّبلى فقال: هم ثعلب فى جحر، وإن أقمت عليه أخذته، إن تَركته لم يضــرك، حينئذ عزم رســول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس: **«إِنَّا قَافِلُونَ غداً إِنْ شَــاءَ اللَّهُ»**، فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: نَذْهَبُ وَلا نَفْتَحُهُ؟ فقال الرســول ﷺ : **«فاغْدَوْا على القتال، فغدوا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ»**، فَقَالَ: **«إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ»**، فسروا بذلك وأذعنوا، ورجعوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك، ولما ارتحلوا واستقلوا قال: **«قولوا: آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»** وقيل: يا رسول الله، ادع على ثقيف، فقال: **«اللهم اهد ثقيفًا، وائت بهم»**.

قِسْمَةُ الغَنَائِمِ بِالجعْرَانَة:

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف مكث بالجعرانة بضع عشر ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأتى بها، يبتغى أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين فيحرزوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، ليسكت المتطلعين من رؤســـاء القبائل وأشـــراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظى بالأنصاب الجزلة.

أعطى أبا سـفيان بن حرب أربعين ومائة من الإبل، فقال: ابنى يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال: ابنى معاوية؟ فأعطاه مثلها، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، ثم مائة ثم مائة، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة ثم مائة.

وأعطى الحارث بن الحارث بن كَلَدة مائة من الإبل، وكذلك أعطى رجالاً من رؤساء قريش وغيرهم مائة مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين؛ حتى شـاع فى الناس أن محمداً يعطى عطاء، ما يخاف الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال؛ حتى اضـطروه إلى شـجرة، فانتزعت رداءه فقال: أيها الناس ردوا عليَّ ردائي، فوالذى نفسـى بيده لو كان عندى عدد شجرتها تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا، ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سـنامه وبرة، فجعلها بين إصـبعه ثم رفعها، فقال: أيها الناس والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليك.

وبعـد إعطـاء المؤلفـة قلـوبهم أمـر رسـول الله ﷺ زيـد بـن ثابـت بإحضار الغنائم والناس، ثـم فرضـها علـى النـاس، فكانـت سـهامهم لكـل رجل إما أربعًا مـن الإبـل، وإمـا أربعـين شـاة؛ فـإن كـان فارسًـا أخـذ اثنـى عشر بعيرًا أو عشرين ومائة شاة [1].

ذَهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ وَعَادَ الأَنْصَارَ بِالبَشِيرِ وَالنَّذِيرِ ﷺ :

ولما قسـم النبى ﷺ الغنائم بين الناس وجد الأنصـار فى قلوبهم، وحزنوا وظنوا أن النبى ﷺ نسـيهم، فجمعهم النبى ﷺ ودار بينه وبينهم هذا الحوار الرقيق الذي يجعل القلب يبكي الدماء بدل الدموع[2].

(١) الرحيق المختوم ٣٥٩ - ٣٦١.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٩٣.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضى الله عنه قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا، فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأنْصَار مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الأنْصَار فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ[٣] حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لقد لَقِيَ والله رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ هى الْحَيَّ من الأنصار قد وَجَدوا عليك فى أنفسهم؛ لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت، فقسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحىّ من الأنصار منها شيء، قال: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَاك يَا سَعْدُ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إلا مِنْ قَوْمِي، قَالَ: «**فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الحَظِيرَةِ**» [١].

قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ الأنصار فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الأنْصَار، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ[٢] وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ!**» قَالُوا: بَلى، اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ.

ثم قال: أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأنْصَار قَالُوا وبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ: «**قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً[٣] فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ[٤] مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى**

(١) الحظيرة: شبه الزريبة التي تصنع للإبل والماشية لتمنعها وتكف منها العوادي.

(٢) الموجدة: العتاب.

(٣) مخذولاً: متروكًا.

(٤) لعاعة: بقلة خضراء ناعمة شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

إِسْلامِكُمْ أَفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ» قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقْنَا(1) (2).

قُدُومُ وَفْدِ هَوَازِن:

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلمًا، وهم أربعة عشر رجلاً، ورأسهم زهير ابن صُرَد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فأسلموا وبايعوا ثم قالوا: يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات، وهن مخازى الأقوام:

فامنن علينا رسول الله فى كرم ... فإن المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملؤه من محضها الدر

وذلك فى أبيات، فقال: (إن معى من ترون، وإن أحب الحديث إليّ أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم) قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا، فقال: إذا صليت الغداة - أى صلاة الظهر- فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا)، فلما صلى الغداة قاموا: فقالوا ذلك، فقال ﷺ : **«أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس»** فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عُيَنيَة بن حصن: أما أنا وبنو فَزَارَة فلا، وقال العباس ابن مِردَاس: أما أنا وبنو سليم فلا، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال العباس بن مرداس: وهنتمونى.

(1) أخرجه أحمد ١١٣٢٢.
(2) ابن هشام (٢ / ١٩٤ - ١٩٥).

فقال رسـول الله ﷺ : «**إن هؤلاء القوم قد جاءوا مُسْـلِمِينَ**»، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنْ الطَّائِفِ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إلا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قَالُوا فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَـبْيَهُمْ فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ فَقَالَ النَّاسُ قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ لِرَسُـولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ فَقَالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ : «**إِنَّا لا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ**».

فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن؛ فإنه أبى أن يرد عجوزًا صـارت فى يديه منهم، ثم ردها بعد ذلك، وكسـا رسول الله ﷺ قبطية قبطية[1].

عُمْرَةُ الرَّسُولِ وَعَوْدَتُهُ إِلَى المَدِينَةِ:

ثم خرج الرســول ﷺ من الجعرانة معتمرًا، فلما فرغ رســول الله ﷺ من عمرته انصـرف راجعًا إلى المدينة، وقد اسـتخلف عتاب بن أسـيد على مكة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس فى الدين، ويعلمهم القرآن، وكانت عودته إلى المدينة لست ليال بقين من ذى القعدة سنة ٨ هـ [2].

مِنْ نَتَائِجِ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ وَالطَّائِفِ:

١- انتصار المسلمين على قبيلتى هوازن وثقيف فى هذه الغزوة.

٢- كانت غزوة حنين والطائف آخر غزوات النبى ﷺ لمشركى العرب.

(١) الرحيق المختوم ٣٦٢ - ٣٦٣.

(٢) ابن هشام (٢ / ١٩٦).

٣- رجوع كثير من أهل مكة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم؛ تأليفًا لهم لدخول الإسلام، وحصول الأنصار على وسام عظيم، وهو شهادة رسول الله ﷺ لهم بالإيمان والدعاء لهم، ولأبنائهم وأحفادهم ورجوعهم برسـول الله ﷺ إلى المدينة.

٤- انضـمام كوكبة مباركة من قيادة أهل مكة وهوازن إلى الإسـلام وأصبحوا حربًا وضروسًا على الأوثان والأصنام والمعابد الجاهلية فى الجزيرة العربية، كما كان لقبيلة هوازن دور كبير فى مجاهدات أهل الطائف والتضـييق عليهم حتى أسلموا.

٥- توسعت الدولة الإسلامية وامتد نفوذها، وأصبح لرسول الله ﷺ أمراء بمكة، وعلى قبيلة هوازن، وصـارت تلك الأماكن جزءًا من الدولة الإسـلامية التى عاصمتها المدينة المنورة، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله ﷺ بعوثًا دعوية بدون خوف أو وجل من أحد، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السرايا تستهدف الأوتثان والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظم رسول الله ﷺ فريضة الزكاة فكلف من يقوم على جمعها من القبائل التابعة للدول[1].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

١- تعتبر غزوة حنين هذه درسًا فى العقيدة الإسلامية وقانون الأسباب والمسببات من نوع ذلك الدرس الذى أوحت به غزوة بدر، بل متمماً له.

فإذا كانت وقعة بدر قد قررت للمسـلمين أن القلة لا تضـرهم شـيئًا فى جنب كثرة اعدائهم، إذا كانوا صـابرين ومتقين؛ فإن غزوة حنين قد قررت للمسـلمين أن الكثرة أيضـًا لا تفيدهم إذا لم يكونوا صـابرين ومتقين، وكما نزلت آيات من كتاب الله تعالى فى تقرير عبرة بدر، فقد نزلت آيات منه أيضـًا فى تقريرالعبرة التى ينبغى أن تؤخذ من حنين.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥١٧ - ٥١٨).

كان المسلمون فى بدر أقل عددًا منهم فى أى موقعة أخرى ومع ذلك فلم تضرهم القلة شيئاً بسبب صدق إسلامهم ونضج إيمانهم و شدة ولائهم لله وللرسول ﷺ.

وكان المسلمون فى حنين أقل عددًا منهم في أي موقعة أخرى ومع ذلك فلم تضرهم القلة شيئًا بسبب صدق إسلامهم ونضج إيمانهم وشدة ولائهم لله ورسوله، وكان المسلمون في حنين أكثر عددًا منهم فى أى موقعة أخرى خاضوها من قبل، ومع ذلك فلم تنفعهم الكثرة شيئًا، بسبب تلك الجماهير التى لم يتمكن الإيمان بعد فى نفوسهم، ولم يتغلغل معنى الإسلام بعد فى أعماق أفئدتهم (1).

٢- استعمل النبى ﷺ فى حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن أستعملها من قبل مثل المنجنيق والدبابة والحسك الشائك، وفى هذا "إشارة إلى قادة الأمة خصوصًا، والمسلمين عمومًا أن لا يعطلوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النافع، والجديد الذى يحقق للأمة مصلحة الدارين، ويدفع عنها شرور أعدائها (2).

٣- قام رسول الله ﷺ بتأليف قلوب أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم من قبيل الإغراء والتشجيع فى أول الأمر، حتى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمد الغزالى حقيقة هذا الأمر فى مثال محسوس فيقول: إن فى الدنيا أقوامًا كثيرة يقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تُمدّ إليه فمها؛ حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء؛ حتى تستأنس بالإيمان وتهش له.

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٣٠٢.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٩٥ - ٤٩٦).

كما ضرب ﷺ صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجمال، وقوم يصحبهم رسول الله ﷺ يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصورة وأدركوا أنهم وقعوا فى خطأ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبى ﷺ الحكيمة فى مخاطبة الأنصار(١).

من المعجزات النبوية فى غزوة حنين إيصال الله عز وجل قبضته التى رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه وبركته فى تلك القبضة، حتى ملأت عيون القوم، ونزول الملائكة للقتال معه ﷺ حتى رآهم العدو جهرة، ورآهم بعض المسلمين(٢).

أَهَمُّ الأَحْدَاثِ مَا بَيْنَ حُنَيْنٍ وَتَبُوك:

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود، ويبعث العمال، ويبث الدعاة، ويكبت من بقى فيه الاستكبار عن الدخول فى دين الله، والاستسلام للأمر الواقع الذى شهدته العرب، وهاك صورة مصغرة من ذلك.

المُصَدِّقُونَ:

وفى مطلع محرم من العام التاسع للهجرة، بعث رسول الله ﷺ المَصَدّقين إلى القبائل، وهذه هى قائمتهم:

١- عُيينة بن حصن إلى بنى تميم.
٢- يزيد بن الحُصين إلى أسلم وغفار.
٣- عباد بن بشير الأشهلى إلى سُلَيم ومزينة.
٤- رافع بن مكيث إلى جُهينة.

(١)السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٠٢ - ٥٠٣).
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٨٨.

٥- عمرو بن العاص إلى بنى فزارة.
٦- الضحاك بن العاص إلى بنى كلاب.
٧- بشير سفيان إلى بنى كعب.
٨- ابن اللُّتبيَّة الأزدى إلى بنى ذبيَان.
٩- المهاجر بن أبى أمية إلى صنعاء (وخرج عليه الأسود العنسى وهو بها).
١٠- زياد بن لبيد إلى حضرموت.
١١- عدى بن حاتم إلى طيئ وبنى أسد.
١٢- مالك بن نويرة إلى بنى حنظلة.
١٣- الزبرقان بن بدر إلى بنى سعد (إلى قسم منهم).
١٤- قيس بن عاصم إلى بنى سعد (إلى قسم آخر منهم).
١٥- العلاء بن الحضرمى إلى البحرين.
١٦- على بن أبى طالب إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كليهما).

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا فى المحرم سنة ٩ هـ، بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التى بعثوا إليها.

السّرَايـــَا

١- سَرِيَّةُ عُيَيْنَة بنِ حِصْن الفَزَارِيّ:

فى محرم سنة ٩ هـ إلى بنى تميم، فى خمسين فارسًا، لم يكن فيهم مهاجري، ولا أنصاري، وسببها: أن بنى تميم قد أغروا القبائل، ومنعوهم من أداء الجزية، وخرج عيينة ابن حصـــن يســـير الليل، ويكمن النهار، حتى هجم عليهم فى الصحراء، فولى القوم مدبرين، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيًا، وساقهم إلى المدينة، فأنزلوا فى دار رملة بنت الحارث.

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم، فجاءوا إلى دار النبى ﷺ، فنادوا: يا محمد، اخرج إلينا، فخرج فتعلقوا به، وجعلوا يكلمونه فوقف معهم ثم مضـــى حتى صـــلى الظهر، ثم جلس فى صـــحن المســـجد، فأظهروا رغبتهم فى المفاخرة والمباهاة، وقدموا خطيبهم عُطارد بن حاجب فتكلم، فأمر ر سول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شمَّاس- خطيب الإسلام- فأجابهم، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد مفاخراً، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة.

و لما فرغ الخطيبان قال الأقرع بن حابس: خطيبه أخطب من خطيبنا، و شاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ثم أســلموا، فأجازهم رســول الله ﷺ، فأحســن جوائزهم، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم.

٢- سَرِيَّةُ قُطْب بنِ عَامِر رضى الله عنه إِلَى حَيٍّ مِنْ خَثْعَم:

بناحية تبالة، بالقرب من تُرَبَة فى صفر سنة ٩ هـــ، خرج قطبة فى عشرين رجلاً على عشرة أبعرة يعتقبونها، فشن الغار، فاقتتلوا قتالاً شديدًا؛ حتى كثر الجرحى فى الفريقين، وقتل قطبة مع من قتل، و ساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة.

٣- سَرِيَّةُ الضَّحّاك بنِ سُفْيَان الكِلَابِيّ رضى الله عنه إِلَى بَنِي كِلَاب:

فى ربيع الأول سنة ٩ هـ، بعثت هذه السرية إلى بنى كلاب؛ لدعوتهم إلى الإسلام، فأبوا وقاتلوا، فهزمهم المسلمون، وقتلوا منهم رجلاً.

٤- سَرِيَّةُ عَلْقَمَة بنِ مجزر المدْلِجِيّ رضى الله عنه إِلَى سَوَاحِل جُدَّة:

فى شهر ربيع الآخر سنة ٩ هـ، فى ثلاثمائة، بعثهم إلى رجال من الحبشة، كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القر صنة ضد أهل مكة، فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة، فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا.

٥- سَرِيَّةُ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضى الله عنه إِلَى صَنَمٍ لِطَيء:

يقال له: الفُلس - ليهدمه- فى شهر ربيع الأول سنة ٩ هـ، بعث رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة، على مائة بعير وخمسين فارسًا، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموه وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء، وفى السبى أخت عدى بن حاتم، وهرب عدى إلى الشام، ووجد المسلمون فى خزانة الفلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع، وفى الطريق قسموا الغنائم، وعزلوا الصفى لرسول الله ﷺ، ولم يقسموا آل حاتم.

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عَدِيِّ بْن حَاتِمٍ رسول الله قَائلة: يَا رَسُولَ اللَّهِ غاب الْوَافِدُ وَانْقَطَعَ الْوَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ مَا بِي مِنْ خِدْمَةٍ فَمُنَّ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ قَالَ: **«مَنْ وَافِدُكِ»** قَالَتْ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ: **«الَّذِي فَرَّ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»** قَالَتْ فَمَنَّ عَلَيَّ قَالَتْ فَلَمَّا رَجَعَ وَرَجُلٌ إِلَى جَنْبِهِ نَرَى أَنَّهُ عَلِيٌّ قَالَ: **«سَلِيهِ حِمْلانًا»** قَالَ فَسَأَلَتْهُ فَأَمَرَ لَهَا قَالَتْ فَأَتَتْنِي فَقَالَتْ لَقَدْ فَعَلْتَ فَعْلَةً مَا كَانَ أَبُوكَ يَفْعَلُهَا قَالَتْ ائْتِهِ رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا فَقَدْ أَتَاهُ فلانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ وَأَتَاهُ فُلانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ قَالَ فَأَتَيْتُهُ فَإِذَا عِنْدَهُ امْرَأَةٌ وَصِبْيَانٌ أَوْ صَبِيٌّ فَذَكَرَ قُرْبَهُمْ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مُلْكُ كِسْرَى وَلا قَيْصَرَ فَقَالَ لَهُ يَا: **«عَدِيُّ**

بْنَ حَاتِمٍ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» قَالَ: فَأَسْلَمْتُ فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ وَقَالَ: إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ الْيَهُودُ وَالضَّالِّينَ النَّصَارَي، قال: فإني حنيف مسلم فانبسط وجه النبي فرحا وأمر به فنزل عند رجل من الأنصار وجعل يأتي النبي ﷺ طرفي النهار.

وفى رواية ابن إسحاق عن عدى أن النبى ﷺ لما أجلسه بين يديه فى داره قال له: «**إيه يا عدى بن حاتم، ألم تكن ركوسيًا**» [(١)]؟ قال: قلت: بلى، قال: «**أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع**» [(٢)]؟ قال: قلت: بلى، قال: «**فإن ذلك لم يحل لك فى دينك**» قال: قلت: أجل والله قال: وعرفت أنه نبي مرسل بعرف ما يجهل.

وفي رواية لأحمد أن النبي ﷺ قَالَ[(٣)]: «**يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ أَسْلِمْ تَسْلَمْ**» ثَلاثًا قَالَ قُلْتُ إِنِّي عَلَى دِينٍ قَالَ: «**أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ**» فَقُلْتُ: «**أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي**» قَالَ: «**نَعَمْ أَلَسْتَ مِنْ الرَّكُوسِيَّةِ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟**» قُلْتُ: بَلَى قَالَ: «**فَإِنَّ هَذَا لا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ**» قَالَ: فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا فَتَوَاضَعْتُ لَهَا.

وروى البخاري عَنْ عَدِيِّ بْن حَاتِمٍ قَالَ[(٤)]: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ: «**فَقَالَ يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ**» قُلْتُ لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا قَالَ فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لا تَخَافُ أَحَدًا إِلا اللَّهَ قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلادَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى قُلْتُ كِسْرَى بْن هُرْمُزَ قَالَ: «**كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلا**

(١) الركوسية: دين بين النصارى والصابئين.

(٢) المرباع: ربع الغنيمة.

(٣) رواه أحمد ١٧٧٩٦.

(٤) رواه البخاري ٣٥٩٥.

يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ» فَلَيَقُولَنَّ لَهُ أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ فَيَقُولُ بَلَى فَيَقُولُ أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ فَيَقُولُ بَلَى فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلا يَرَى إِلا جَهَنَّمَ وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلا يَرَى إِلا جَهَنَّمَ قَالَ عَدِيٌّ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»** قَالَ عَدِيٌّ فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لا تَخَافُ إِلا اللَّهَ وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ[1].

* * *

(١) الرحيق المختوم ٣٦٤ - ٣٦٧.

غَزْوَةُ تَبُوك

تَارِيخُهَا وَأَسْمَاؤُهَا وَأَسْبَابُهَا:

خرج رسول الله ﷺ لهذه الغزوة فى رجب من العام التاسع الهجرى، وقد سميت هذه الغزوة بغزوة تبوك نسبة إلى المكان الذى انتهى إليه الجيش الإسلامى، وهو عين تبوك كما سميت بغزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم عندما تحدث عن هذه الغزوة فى سورة التوبة، قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًّا لقلة المؤنة، وقلة الدواب التى تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة وقلة الماء؛ حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء، وكذلك قلة المال الذى يجهز به الجيش، كما سميت بالفاضحة؛ لأنها كشفت عن حقيقة المنافقين، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة.

وقد ذكر المؤرخون أسباب هذه الغزوة فقالوا: وصلت الأنباء للنبى ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة، أن الروم جمعت جموعًا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب وجاءت فى مقدقهم إلى البلقاء، فأراد النبى ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه.

ويرى ابن كثير: أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد؛ ولذلك عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

والذى قاله ابن كثير هو الأقرب للصواب؛ إضافة إلى أن الأمر الذى استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة، بما فيهم أهل الكتاب الذى وقفوا فى طريق الدعوة وظهر تحرشهم بالمسلمين كما روى أهل السير.

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين فى عقر دارهم، أن يكون هذا حافزًا للخروج إليهم؛ لأن أصل الخروج كان واردًا(١).

الأَخْبَارُ العَامَّةُ عَنِ اسْتِعْدَادِ الرُّومَانِ:

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان، والقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتًا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان، ويظهر ذلك جليًا مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبى ﷺ آلى من نسائه شهرًا فى هذه السنة (٩ هـ)، وكان هجرهن واعتزل عنهن فى مشربة له، ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر فى بدايته، فظنوا أن النبى ﷺ طلقهن، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق، يقول عمر بن الخطاب وهو يروي القصة: وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنْ الأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا فَقَدْ امْتَلأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ الْبَابَ فَقَالَ افْتَحْ افْتَحْ فَقُلْتُ جَاءَ الْغَسَّانِيُّ فَقَالَ بَلْ أَ شَدُّ مِنْ ذَلِكَ اعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْوَاجَه... الحديث(٢).

وفي لفظ آخر أنه قال: وَكُنَّا تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ النِّعَالَ لِغَزْوِنَا فَنَزَلَ صَاحِبِي يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ عِشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَقَالَ أَنَائِمٌ هُوَ فَفَزِعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ وَقَالَ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هُوَ أَجَاءَتْ غَسَّانُ قَالَ لا بَلْ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ.... الحديث(٣).

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٥٢ - ٥٢٧).
(٢) صحيح البخاري ٢ / ٧٣٠.
(٣) رواه البخاري ١ / ٣٣٤.

وهذا يدل على خطورة الموقف، الذى يواجهه المسـلمون بالنسـبة إلى الرومان، ويزيد ذلك تأكدًا ما فعله المنافقون عندما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسـول الله ﷺ فى كل الميادين، وأنه لا يوجل من سـلطان على ظهر الأرض، بل يذيب كل ما يعترض فى طريقه من عوائق - برغم هذا كله- طفق هؤلاء المنافقون يعملون فى تحقق ما كان يخفونه فى صدورهم، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله، ونظرًا إلى قرب تحقق آمالهم أنشـأوا وكرة للدس والتآمر فى صـورة مسجد، وهو مسجد الضَّرار، أسسوه كفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخضـعوا المؤمنين؛ فلا يفطنوا ما يؤتى به فى هذا المسـجد من الدس والمؤامره ضـدهم، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصـدر عنه، فيصـير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ورفقائهم فى الخارج، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه - إلى قفولة من الغزوة- لشغله بالجهاز، ففشلوا فى مرامهم وفضحهم الله؛ حتى قام رسول الله ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو، بدلاً أن يصلي فيه[1].

النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالتَّهَيُّؤِ لِغَزْوِ الرُّومِ:

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك فى زمان من عسرة الناس، وشدة من الحرّ، وجذب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشـخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه، وكان رسـول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصـمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك؛ فإنه بينها للناس لبعض الشـقة[2] وشـدة الزمان، وكثرة العدو الذى يصـمد له؛ ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم[3].

(١) الرحيق المختوم ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) الشقة: السفر البعيد.

(٣) ابن هشام (٢ / ٢٠٢ - ٢٠٣).

تَجْهِيزُ جَيْشِ العُسْرَةِ:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر- حتى كان يجئ أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات، كان عثمان بن عفان قد جهز عيرًا للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدق بها، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها فى حجره ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يقبلها ويقول: ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم، ثم تصدق وتصدق؛ حتى بلع مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقيه فضة، وجاء أبو بكر بماله كلّه، ولم يترك لأهله إلا الله رسوله - وكانت أربعة آلاف درهم- وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثرها، حتى كان منهم من أنفق مُدّا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها.

وبعثت النساء ما قدرن عليه من مَسَك [١] ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم.

(١) مسك: أساور.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة: ٧٩] [١].

الجَيْشُ الإِسْلَامِيُّ يَتَحَرَّكُ إِلَى تَبُوك:

ولما تجهز الجيش الإسلامى استعمل النبى ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى. فلما سار رسول الله ﷺ، تخلف عبدالله بن أُبى ومن كان معه، وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، فهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومروان ابن الربيع، وأبو خيثمة السالمى، وأبو ذر، ثم لحقه أبو حيثمة، وأبو ذر، وشاهدها رسول الله ﷺ فى ثلاثين ألفًا من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس[٢].

شَأْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ:

روى الطبرانى وابن إسحاق والواقدى أن أبا خيثمة رجع، بعد أن سار رسول الله ﷺ بعدة أيام إلى أهله فى يوم حار، فوجد امرأتين له فى عريشين [٣] لهما فى بستان له، قد رشقت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له ماء فيه، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ فى الشمس والريح والحر، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم؟!.

إما هذا والله بالنَّصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما؛ حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيأتا له زادًا، ثم قدّم ناصحه فارتحله وخرج في طلب رسول الله حتى أدركه حين نزل بتبوك، ولما دنا أبو حثيمة من المسلمين قالوا:

(١) الرحيق المختوم ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦١١.

(٣) عريش: خيمة.

هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رســـول الله ﷺ : **«كن أبا خيثمة»**، فقالوا: يا رسـول الله، هو والله أبو خيثمة، فلما أناح أقبل إلى رســول الله ﷺ، فقال له رســول الله ﷺ : **«أولى لك يا أبا خيثمة»** [١].. ثم أخبر رســول الله ﷺ الخبر، فدعا له ﷺ بخير [٢].

شَأْنُ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيّ :

قال ابن إســحاق: ثم مضــى رســول الله ﷺ ســائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رســـول الله تخلف فلان، فيقول: **«دعوه؛ فإن يك فيه خير فســـيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»**، حتى قيل: يا رســـول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره، فقال: **«دعوه؛ فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»**.

وتلوم [٣] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر ر سول الله ﷺ ما شيًا، ونزل ر سول الله ﷺ فى بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده، فقال رســول الله ﷺ : **«كن أبا ذر»**، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسـول الله، والله أبو ذر، فقال رسـول الله ﷺ : **«رحم الله أبا ذر، يمشــى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»**.

ومضى الزمان وجاء عصر عثمان، ثم حدثت بعض الأمور، وسُيِّر أبو ذر إلى الزبد، فلما حضــره الموت أوصــى امرأته وغلامه، إذا مت فاغســـلانى وكفنانى ثم احملانى فضـــعانى على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر، فلما مات فعلوا به كذلك، فطلع ركب فما عملوا به؛ حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود فى رهط من أهل الكوفة،

(١) أولى لك: أجدر بك.
(٢) فقه السيرة للبوطي ٣٠٩ - ٣١٠.
(٣) تلوم على بعيره: تمهل.

فقال ما هذا؟ فقيل: جنازة أبى ذر، فاســتهل ابن مســعود يبكى، فقال: صدق رسول الله ﷺ : **«يرحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه»** [1].

شَأْنُ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ:

وخلف رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، فقالوا: ما خلفه إلا اســتثقالاً له، وتخففا منه، فأخذ علىّ سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف [2]، فقال: يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففت منى، فقال: كذبوا، ولكننى خافتك لما تركت ورائى، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك، أفلا ترضى يا علىّ أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبى بعدى، فرجع علىّ إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ على سفره[3].

النَّبِيُّ ﷺ وَالمسْلِمُونَ بِالحجر:

ومر الجيش الإســلامى فى طريقه إلى تبوك بالحجر - ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، أى وادى القُرَى- فاستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : **«لا تشربوا من مائهم، ولا تتوضأ منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه للإبل، ولا تأكلوا منه شــيئًا، وأمرهم أن يســتقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح عليه السلام»** وفى الصحيحين عن ابن عمر قال: لما مر النبى ﷺ بالحجر قال: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى»**.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٣٧ - ٥٣٨).

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٠٦.

(٣) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

واشتدت فى الطريق حاجة الجيش إلى الماء؛ حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ، فدعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت؛ حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، ولما قرب من تبوك قال: «**إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها؛ حتى يَضحَى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا؛ حتى آتي**» قال معاذ: فجئنا وقد سبق إليها رجلان، والعين تَبِضُّ بشيء من مائها، فسألهما رسول الله ﷺ : «**هل مسستما من مائها شيئًا**» قالا: نعم، وقال لهما: ما شاء الله أن يقول ثم غرف من العين حتى اجتمع الوَشَلُ[1]؛ ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ : «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنانًا**».

وفى الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات- قال رسول الله ﷺ : «**تهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحدكم، فمن كان له بعير فليشد عِقَاله**» فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحمله الريح؛ حتى ألقته بجبل طيء [2].

النَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُهُم عَنْ مَكَانِ نَاقَتِهِ الَّتِي ضَاعَتْ:

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه فى طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، يُقال له: عمارة بن حزم وكان عقيبًا بدريًّا وهو عم بنى عمرو بن حزم، وكان فى رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعى، وكان منافقًا.

فقال زيد بن اللُّصيت، وهو فى رحل عُمارة، وعمارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمد يزعم أنه نبى، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ : وعمارة عنده: «**إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبى،**

(١) الوشل: الماء القليل يتحلب من الجبل.

(٢) الرحيق المختوم ٣٧١ - ٣٧٢.

ويزعم أنه يخبركم بأمر السـماء وهو لا يدرى أين ناقته، وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله، وقد دلنى الله عليها، وهى فى هذا الوادى، فى شـعب كذا وكذا قد حبسـتها شـجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتونى بها»، فذهبوا، فجاءوا بها، فخرج عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شـيء حدثناه رسـول الله ﷺ آنفًا عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا للذى قال زيد بن اللّصـيت، فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى. فأقبل عمارة على زيد يجافى عنقه [1] ويقول: إليَّ عباد الله، إن فى رحلى لداهية، وما أشعر أخرج أى عدو الله من رحلى، فلا تُصحبنى[2].

وَفَاةُ الصّحَابِيِّ ذِي البجَادَيْنِ:

قال عبد الله بن مسـعود رضـى الله عنه: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسـول الله ﷺ فى غزوة تبوك، قال: فرأيت شـعلة من نار فى ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ فى حضرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: **«أدنيا إليَّ أخاكما»** فدلياه إليه، فلما هيأه بشقه قال: **«اللهم إنى أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه»** قال (الراوى عن ابن مسعود) قال عبد الله بن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة.

قال ابن هشـام: وإنما سمى ذو البجادين، لأنه كان ينازع إلى الإسـلام فيمنعه قومه من ذلك ويضـيقون عليه، حتى تركوه فى بجاد، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسـول الله ﷺ فلما كان قريبًا منه، شـق بجاده باثنين، فاتزر بواحد، واشـتمل بالآخر، ثم أتى رسـول الله ﷺ فقيل له: ذو البجادين؛ لذلك[3].

(١) يجافِي عنقه: يطعنه فيه.

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٤٣ - ٥٤٤).

الجَيْشُ الإِسْلاَمِيُّ بِتَبُوك:

نزل الجيش الإسلامى بتبوك فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رســول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا فى البلاد فى داخل حدودهم فكان لذلك أحســن أثر بالنســبة إلى سمعة المســلمين العســكرية فى داخل الجزيرة وأرجائها النائية، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدم بين الجيشين.

وجاء إلى النبى ﷺ صاحب أيلة، فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء، وأذرح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رســول الله ﷺ كتابًا، فهو عندهم، وكتب لصــاحبه أيلة: «**بســم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله، ومحمد النبى رســول الله ليُحنَّة بن رؤبة، وأهل أيلة، سفنهم، وسيارتهم فى البر والبحر، ولهم ذمة الله، ومحمد النبى، ومن كان معهم من أهل الشــام، وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثًا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقًا يردونه من بحر أو بر**» (١).

النَّبِيُّ ﷺ يُرْسِلُ خَالِد بنَ الوَلِيدِ رضى الله عنه إِلَى أكيدر دَومَة:

وبعث رســول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل فى أربعمائة وعشرين فارسًا، وقال له: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، فأتاه خالد، فلما كان من حصــنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصــر، فخرج أكيد ليصــيدها – وكانت ليلة مقمرة- فتلقاه خالد فى خيله، فأخذه وجاء به إلى ر سول الله ﷺ، فحقن دمه، و صالحه على ألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح وأقر بإعطاء الجزية فقاضــاه مع يحنة على قضــية دومة وتبوك وأيلة وتيماء (٢).

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦١٨.

(٢) الرحيق المختوم ٣٧٢ - ٣٧٣.

الرُّجُوعُ إِلَى المَدِينَةِ:

ورجع الجيش الإسلامى من تبوك منتصرًا، لم ينلٍ كيدًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وفى الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبى ﷺ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود زمام ناقته، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادى، فانتهزوا أولئك النافقون هذه الفرصة، بينما رسول الله ﷺ وصاحباه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم، قد غشوه وهم ملتثمون، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجَن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا فى الفرار؛ حتى لحقوا بالقوم، وأَخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم وبما هموا به، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤] ولما لاحت للنبى ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: «**هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه**»، وقال لأصحابه: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حبسهم العذر**» وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكانت عودته ﷺ من تبوك، ودخوله فى المدينة فى رجب سنه ٩ هـ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يومًا، أقام منها عشرين يومًا فى تبوك، والبواقى قضاها فى الطريق جيئة وذهوبًا، وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ [(١)].

(١) الرحيق المختوم ص ٣٧٣، فقه السيرة للبوطي ص ٣١١.

أمر المخلفين: وكانت هذه الغزوة - لظروفها الخاصة بها- اختبارًا شديدًا من الله، امتاز به المؤمنون من غيرهم، كما هى سنته تعالى فى مثل هذه المواطن، حيث يقول: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[آل عمران: ١٧٩] فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنًا صادقًا، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبًا، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسًا: نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين؛ تخلفوا من غير مبرر، وهم الذين أبلاهم الله، ثم تاب عليهم.

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فأما المنافقون - وهم بضعة وثمانون رجلاً- فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار، وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم، واستغفرلهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين - وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية - فاختاروا الصدق، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة ألا يكلموا هؤلاء الثلاثة [١] إلى أن نزلت آيات بقبول توبتهم.

وقد روى كعب بن مالك رضى الله عنه خبره فى ذلك - فى حديث طويل رواه البخارى ومسلم- وجاء فيه قوله: كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة، وطفقت أغدو؛ لكى أتجهز مع المسلمين، فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه، أى: لن يعيقنى شيء عن سرعة التجهز) فلم يزل يتمادى بى؛ حتى اشتد بالناس الجِدُّ ولم أقض من جهازى شيئًا. ولم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو[٢] وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتنى فعلت، فلم يقدّر لى ذلك، فكنت

(١) الرحيق المختوم ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٢) تفارط: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصًا بنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.. ولما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همّي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا سأخرج من سخطه غدًا؟! واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، ولما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أقبل، زاح عني الباطل، وأجمعت أن أصدقه، فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «**تعال**» فجئت أمشي؛ حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرجَ من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجدُ عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**» فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني يؤنبونني[(١)]، فقلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرًا لي فيها أسوة، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، أي: ثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا؛ حتى تنكرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرفها فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدوا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه أسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا

(١) يؤنبونني: يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين.

التفت نحوه أعرض عنى، وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطىّ من أنباط أهل الشـــام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، ويقول: من يدلنى على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشترون له حتى إذا جاءنى دفع إلىّ كتاباً من مالك غسان، فإذا فيه: (أما بعد؛ فإنه قد بلغنى أن صـــاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله فى دار هوان ولا مضـيعة، فالحق بنا نواسِكَ) فقلت لما قرأتها: وهذا أيضـًا من البلاء، فتيممت [1]، بها التنورة فسجرته [2]، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسـل إلى صـاحبىّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر... فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ؛ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا.

فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت عليّ نفسى و ضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صـوت صـارخ أوفى على جبل سـلع [3]، بأعلى صـوته: يا كعب بن مالك أبشـر، فخررت سـاجدًا، وعرفت أنه قد جاء فرج، وآذن رسـول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صـلى صـلاة الفجر، فذهب الناس يبشـرونا، وذهب قِبَل صـاحبى مبشـرون، ولما جاءنى الذى سمعت صـوته يبشرنى، نزعت له ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ وا ستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقانى الناس فوجًا فوجًا يهنئونى بالتوبة، ودخلت المســجد، فإذا رســول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله يهرول؛ حتى صافحنى وهنأنى، والله ما

(١) تيممت: قصدت.

(٢) سجرته: أحرقته.

(٣) أوفى جبل سلع: صعده وارتفع عليه، وسلع جبل بالمدينة.

قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنســاها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: **«أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك عند الله»** قال: قلت: أمن عندك يا رســول الله أم من عند الله؟ قال: **«لا بل من عند الله»** فقلت: يا رســول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ : **«أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»**، فقلت: يا رسول الله إنما نجانى الصدق، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صــدقًا ما بقيت، وأنزل الله تعالى على رســوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩] (١).

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢] (٢).

مَسْجِد ضِرَار:

شرع جماعة من المنافقين فى بناء وكرة للدس والتآمر فى صورة مسجد، وهو مسجد الضرار، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم؛ فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه

(١) فقه السيرة للبوطي ٣١١ - ٣١٢.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٥١).

علي تقريره، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة فى الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «**إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**» فلما قفل ﷺ راجعًا من تبوك نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨] فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من يهدمه قبل مقدمه المدينة [١].

أَثَرُ هَذِهِ الغَزْوَةِ:

لقد كان لهذه الغزوة أثر عظيم فى سكان شبة الجزيرة العربية؛ لا يقل روعة وجلالاً عن أثر فتح مكة، ولئن كان فتح مكة قد نبه العرب إلى حقيقة كانت غائبة عقولهم، وهى إدراك الحق الذى بُعث به محمد ﷺ فقد كانت غزوة تبوك داعية لهم؛ لأن يسرعوا بالدخول فى هذا الحق الذى دعاهم إليه.

إن خروج المسلمين بجيش ضخم بلغ تعداد جنوده ثلاثين ألفًا، فيهم عشرة آلاف فارس أمر لم تعرفه العرب من قبل فى بلادها، أما وقد استطاع المسلمون تجميع هذا الجيش فهم ولا شك قادرون على أن يفعلوا ما عجز عنه غيرهم، وتحريك هذا الجيش من المدينة إلى تبوك وهى مسافة هائلة تبلغ قرابة ستمائة ميل، وفى وقت عسرة وجدب وفى ذلك النظام وتلك الدقة دليل على عظمة القيادة وجزمها وخبرتها العسكرية الواسعة بشئون الحرب، وعلى حسن تدريب الجنود وعظيم طاعتهم.

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٥٥ - ٥٥٦).

ولقد كان فرار الروم وهم البادئون - وهم فى بلادهم ولجوؤهم إلى التحصـــن داخل البلاد؛ حتى لا يدركهم المســـلمون أعظم دليل على قوة المسلمين التى لا يستطيع أحد الوقوف أمامها، فهؤلاء الروم هم الذين هزموا الفرس وأخرجوهم من جنوب الجزيرة واســـتردوا منهم الصـــليب المقدس، وأعادوه إلى القدس فى احتفال رائع.. هؤلاء هم الذين فروا وانســـحبوا من الميدان عندما واجهوا المســـلمين، أفلا يكون ذلك دليلاً على قوة المســـلمين وقدرتهم على مواجهة أى عدو يهددهم. هذه الأمور مجتمعة حركت نفوس سكان شبه الجزيرة نحو الإسلام[1].

كما لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المســـلمون بالرفق واللين، وقد أمر الله بالتشـــديد عليهم، حتى نهى عن قبول صـــدقاتهم، وعن الصـــلاة عليهم والاســـتغفار لهم والقيام على قبورهم، وأمر بهدم وكرة دســـهم وتآمرهم التى بنوها باسم المسجد، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضاحًا تامًّا [2].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

تنطوى غزوة تبوك على العديد من الدروس والعبر والعظات نذكر منها ما يأتى:

١- أهمية الجهاد بالمال، فالجهاد ضـــد الأعداء ليس محصـــوراً بالخروج للغزو فقط، وقد اســـتطاع أغنياء الصـــحابة أن يبرهنوا أن مالهم فى خدمة هذا الدين يدفعونه عن طواعية ورغبة، وإن تاريخ الأغنياء المســـلمين تاريخ مشـــرف؛ لأنه تاريخ المال فى يد الرجال، لا تاريخ الرجال تحت ســـيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنفس، فكذلك هو بالمال، وإن الذين ربوا على أن يقدموا أنفسهم، تهون عليهم أموالهم فى سبيل الله تعالى[3].

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٦٢٤ - ٦٢٥.

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٧٤.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٢٨).

٢- إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين، كان غرض الرسول ﷺ منه إعدادهم لتحمل رسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبة الجزيرة العربية، فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ، فلا بد من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى، وقد ساعد هذا التدريب العملى الصحابة فى عصر الخلفاء، فقاموا بفتح بلاد الشام وبلاد الفرس بقوة إيمانهم وثقتهم بخالقهم وساعدهم على ذلك لياقتهم البدنية العالية، ومعرفتهم العملية لاستخدام السيوف والرماح وأنواع الأسلحة فى زمانهم(١).

٣- قام رسول الله ﷺ بتطبيق مبدأ الشورى فى هذه الغزوة فى بعض النوازل منها:

أ- قَبُولُ مَشُورَةِ عُمَر بنِ الخَطَّابِ فِى تَرْكِ نَحْرِ الإِبِل حِينَ أَصَابَتِ الجَيْشَ مَجَاعَةٌ:

أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبى ﷺ فى نحر إبلهم حتى يسدّوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبى ﷺ فى ذلك جاءه عمر رضى الله عنه فأبدى مشورته فى هذه المسألة، وهى أن الجند إن فعلوا ذلك نفذت رواحلهم، وهم أحوج ما يكونون إليها فى هذا الطريق الطويل، ثم ذكر رضى الله عنه حلاً لهذه المشكلة المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ﷺ بهذه المشورة؛ حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام، بعج أن ملؤوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا.

ب- قَبُولُ مَشُورَةِ عُمَر رضى الله عنه فِى تَرْكِ اجْتِيَازِ حُدُودِ الشَّامِ وَالعَوْدَةُ إِلَى المَدِينَةِ:

عندما وصل النبى ﷺ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فرّوا خوفًا من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه فى اجتياز حدود الشام فأشار عليه عمر بن

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٧٣).

الخطاب رضى الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة، وعلّل رأيه بقوله: إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة؛ فإن القتال داخل بلاد الروم يعد أمرًا صعبًا، إذا أنه يتطلب تكتيكًا خاصًّا؛ لأن الحرب فى الصحراء تختلف فى طبيعتها عن الحرب فى المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان فى الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفًا، ولا شك فى أن تجمع هذا العدد الكبير فى تحصنه داخل المدن يعرض جيش المسلمين للخطر.

إن تطبيق الشورى فى حياة الأمة فى كافة شئونها السياسية والعسكرية والاجتماعية... إلخ، منهج تربوى كريم سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته[1].

المنَافُقونَ وَمَدَى خُطُورَتِهِم عَلَى الإِسْلاَمِ:

نال أمر هذه الغزوة من حديث كتاب الله عنها وتعليقه عليها ما لم تنله أى غزوة أخرى، وإنك لتقرأ عنها سورة التوبة آيات بل صفحات كثيرة، وتركز معظم هذه الآيات على بيان أهمية الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله، وإنه الدليل الوحيد على صدق إسلام المسلم، وأنه فارق بين المؤمنين والمنافقين، وأنه على المسلمين - إذا كانوا مسلمين- أن لا يركنوا إلى الدعة والراحة، وأن يستهينوا بما قد يتعرضون له من عذاب وشدة فى سبيل الله تعالى، كما أطالت فى الحديث عن المنافقين وفضح نواياهم والخفىّ من مقاصدهم.

والدرس الذى فى ذلك هو بيان خطورة أمر النفاق والمنافقين على المسلمين فى كل عصر، وإيضاح أن الإسلام دعوى لا بد أن يصدّقها الجهاد والتعرض للمحن؛ حتى يتميز الصادق عن الكاذب، ويمحّص إيمان المؤمنين عن دجل المنافقين.

□

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٧٢ - ٥٧٣).

ولقد كانت تبوك أعظم مادة لهذا الدرس القرآنى, إذ كان اختبار المسلمين بها أعظم اختبار إلهى، كشـــف اللثام عن النفاق فى المدينة وميّز المنافقين عن المســلمين الصــادقين أعظم تمييز، ثم نزلت الآيات المتوالية فى كتاب الله تعالى تضبطهم بجرائمهم وتعلن للمسلمين سر ائرهم وتحذرهم منهم فى كل زمان ومكان.

ومكمن الخطورة فيهم، أنهم إنما يحاربون الإســـلام باسمه، ويكيدون له بسلاحه، يتلاعبون بما فيه من أحكام باسم الإصلاح والمرونة والتمسك بروح التشريع ويستخرجون منه الفتاوى الملفقة المصطنعة؛ تحقيقًا لأمانتهم أو تقريبًا وأولياء نعمتهم.

والعظة التى ينبغى أن يأخذها المســـلمون من هذا الدرس، هو أن يحذروا عدوّهم الخارجى مرة على أن يحذروا المنافقين فيهم ألف مرة، وأن يحاربوا أو ما يحاربون، ما قد يشيع بينهم من النفاق[1].

المعْجِزَاتُ فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ:

١- الله تعالى يرسل السحاب لدعاء نبيه ﷺ بالسقيا.

٢- خبر ناقة رسول الله ﷺ التى ضلت وأخباره ﷺ عن مكانها.

٣- الأخبار بهبوب ريح شديدة، وتحذير النبى ﷺ منها.

٤- تكثير ماء عين تبوك، والإخبار بما ستكون من خصب.

٥- تكثير الطعام لدعاء النبى ﷺ [2].

٦- إخبارٍ الرسول ﷺ خالد بن الوليد عندما أرسله إلى أكيدر دومة الجندل قائلاً: إنك ستجده يصيد البقر، فوجده على هذه الحالة[3].

(١) فقه السيرة للبوطي ٣١٧ - ٣١٨ باختصار.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٤٥ - ٥٤٨).

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٧٢.

٧-

٨- وفي قوله ﷺ : «**رحم الله أبا ذر، يمشـــي وحده، ويموت وحده**»، ويبعث وحده، ووقوع هذه الأحداث بعد إخباره ﷺ عنها معجزة أخرى من معجزات النبوة [(١)].

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٣٨).

أَهَمُّ الأَحْدَاثِ مَا بَيْنَ غَزْوَةِ تَبُوك وَحِجَّةِ الودَاعِ

أَوَّلاً: وَفْدُ ثَقِيفٍ وَإِسْلاَمُهُمْ:

لما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفى؛ حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، ورجع إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام فرموه بالنبل، فأصابه سهم فقتله ثم إنهم رأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين أسلموا، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه ستة منهم فى رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تسع[1].

فقدم وفدهم، وفيهم: كنانة بن عبد ياليل، وهو رأسُهم يومئذ، وفيهم عثمان بن أبى العاص، وهو أصغر الوفد[2].

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة فى ناحية المسجد؛ لكى يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ، وهو يدعوهم إلى الإسلام؛ حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف، يأذن لهم فيه الزنا وشرب الخمر وأكل الربا ويترك لهم طاغيتهم اللات، وأن يعفيهم من الصلاة، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئًا من ذلك، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا محيصًا عن الاستسلام لرسول الله ﷺ، فاستسلموا وأسلموا، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات، وأن ثقيفاً لا يهدمونها بأيديهم أبدًا، فقبل ذلك، وكتب لهم كتابًا، وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص الثقيفى؛ لأنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم الدين والقرآن، وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ، ويخلفون عثمان بن أبى العاص إلى في

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٧٧).

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦٣٩.

رحالهم، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ، واستقرأه القرآن وسأله عن الدين، وإذا وجدوه نائماً عمد إلى أبى بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم الناس بركة لقومه فى زمن الردة، فإن ثقيفاً لما عزمت على الردة قال لهم: يا معشــر ثقيف، كنتم آخر الناس إســلامًا؛ فلا تكونوا أول الناس ردة، فامتنعوا عن الردة وثبتوا على الإسلام).

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة، وخوفهم بالحرب والقتال وأظهر الحزن والكآبة, وأن رسـول الله ﷺ سـألهم الإسـلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها، وإلا يقاتلهم، فأخذت ثقيفًا نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد: ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر، وأظهروا ما صالحوا عليه، فأسلمت ثقيف.

وبعث رسول الله ﷺ رجالاً لهدم اللات، أمر عليهم خالد بن الوليد، فقام المغيرة ابن شـعبة، فأخذ الكُرزين[1] وقال لأصـحابه: والله لأضـحكنكم من ثقيف، فضـرب بالكرزين [2]، ثم سـقط يركض؛ فارتج أهل الطائف بضـجَّة واحدة، وقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الرَّبَّة، وفرحوا حين رأوه ساقطًا، وقالوا: من شاء منكم، فليقرب وليجتهد على هدمها، فوالله لا تُستطاع فوثب المغيرة بن شعب، فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف؛ إنما هى لكاع [3] حِجارة ومَدَرَ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه ثم ضــرب الباب فكســره، ثم علا ســورها، وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجرًا حجرًا؛ حتى سوّوها بالأرض، وجعل صــاحب المفتاح يقول: ليغضــبن الأســاس، فليخســفنّ بهم، فلما سمع ذلك المغيرة، قال لخالد: دعنى أحفر أساسها، فحفره حتى أخرجوا تُرابها، وانتزعوا حُليها ولباسها، فبُهتت ثقيف.

(١) الرحيق المختوم ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) الكرزين: الفأس لها حد.

(٣) لكاع: العبد ثم استعمل في الحمق والذم.

وأقبل الوفد حتى دخلوا على رسول الله ﷺ بُحليها وكسوتها، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه [1].

ثَانِيًا: وَفَاةُ زَعِيمِ المنَافِقِينَ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيِّ ابنِ سَلُولٍ:

مرض عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين، فى ليال بقين من شوال، ومات فى ذى القعدة من السنة التاسعة.

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أُبى فى مرضه نعوده، فقال له النبى ﷺ : «**قد كنت أنهاك عن حب اليهود**»، فقال عبد الله: فقد أبغضهم سعد بن زرارة فمات.

ولما توفى عبد الله بن أُبى جاءه ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلى عليه؟ وقد نهاك ربك أن تصلى عليه، فقال رسول الله ﷺ : «**إنما أخبرنى الله**» فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيده على سبعين، قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة: ٨٤] [2].

ثَالِثًا: حِجّ أَبِي بَكْرٍ رضى الله عنه بِالنَّاسِ:

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٦٤٠ - ٦٤١..

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٨١).

تَأْمِيرُ أَبِى بَكْرٍ عَلَى الحِجّ:

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان، و شوالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميرًا على الحج من سنة تسع، ليُقيم للمسلمين حجتهم والناس من أهل الشرك على منازلهم من حَجّتهم، فخرج أبو بكر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين.

نُزُولُ بَرَاءَةِ واخْتِصَاصُ الرَّسُولِ ﷺ عَليًّا بتَأْدِيَةِ بَرَاءَة عَنْهُ:

ونزلت براءة فى نقض العهد ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، وقال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: ١].

ولما نزلت على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر الصديق؛ ليُقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله، وبعثت بها إلى أبى بكر، فقال: **«لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى»** ثم دعا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال له: **«أخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته»**.

فخرج علىّ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس بالحج، والعرب إذا ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج، التى كانوا عليها فى الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر، قام علىّ، فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ، وأجَّل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم؛ ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة، فهو له إلى مدته، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قَدِما على رسول الله ﷺ.

رَابِعًا: عَامُ الوُفُودِ ٩ هـ:

قال ابن إسحاق: لما فتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه[1].

والوفود التى سردها أهل المغزى يزيد عددها على سبعين وفدًا، ولا يمكن لنا استقصاءها وليس كبير فائدة فى بسط تفاصيلها، وإنما نذكر منها إجمالاً ما له روعة وأهمية فى التاريخ، وليكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل، وإن كانت بعد الفتح ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضًا:

وَفْدُ عبد القيس:

كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك.

كان رجل منهم يقال له مُنقذُ بن حيان يَردُ المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبى ﷺ وعلم الإسلَام أسلم، وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه فى شهر حرام فى ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان كبيرهم الأشبح العصرى الذى قال فيه رسول الله ﷺ : **«إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»**.

والوفادة الثانية كانت فى سنة الوفود، وكان عددهم أربعين رجلاً، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدى، وكان نصرانيًّا فأسلم وحسن إسلامه.

وَفْدُ دَوْس:

كانت وفادة دوس فى أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر، فلما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسى، رجع إلي قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام، ويبطئون عليه حتى يئس منهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فطلب منه أن يدعو

(١) ابن هشام (٢ / ٢٢٩ - ٢٣٠).

على دوس، فقال: «**اللهم اهد دوسًا**» ثم أسلم هؤلاء، فوفد الطفل بسبعين أو ثمانين بيتًا من قومه إلى المدينة فى أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر فلحق به.

وَفْدُ صُدَاء:

جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨ هـ، وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثًا من أربعمائة من المسلمين، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صُدَاء، وبيما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن حارثة من الصدائى؛ فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: جئتك وافدًا على من ورائى، فاردد الجيش وأنا لك بقومى، فرد الجيش من صدر قناة، وجاء الصدائى إلى قومه فرغبهم فى القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عليه خمسه عشر رجلاً منهم، وبايعوه على الإسلام، ثم رجعوا إلى قومهم، فدعوهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل فى حجة الوداع.

وَفْدُ عُذْرَة:

قدم هذا الوفد فى صفر سنة ٩ هـ، وهم اثنا عشر رجلاً منهم حمزة بن النعمان، قال متكلمهم: حين سئلوا: (من القوم؟): نحن بنو عذرة، إخوة قُصَىًّ لأمه، نحن الذين عضدوا قصيًا، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر، لنا قرابات وأرحام، فرحب بهم النبى ﷺ، وبشرهم بفتح الشام ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التى كانوا يذبحونها، أسلموا وأقاموا أيامًا ثم رجعوا.

وفد بَلِيّ:

قدم فى ربيع الأول سنة ٩ هـ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثًا، وقد سأل رئيسهم أبو الضَّبْيب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال ر سول الله ﷺ : «**نعم، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة**»، و سأل عن وقت الضيافة، فقال: «**ثلاثة أيام**»، و سأل عن ضالة الغنم، فقال: «**هى لك أو لأخيك أو لذئب**»، و سأل عن ضالة البعير، فقال: «**مالك وله ؟ ، دعه حتى يجده صاحبه**» (1).

وَفْدُ نَجْرَانَ:

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩ هـ، وقوام الوفود ستون رجلاً؛ منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران، أحدهم: العاقب، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح، والثانى السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل، والثالث: الأ سقف، وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية واسمه أبو حارثة بن علقمة(2).

فقدموا على النبى ﷺ فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحِبَرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفى أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلون فى المسجد نحو الشرق، فقال رسول الله ﷺ : «**دعوهم**» ثم أتوا النبى ﷺ فأعرض عنهم، ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زيُّكم هذا، فانصرفوا يومهم هذا ثم غدوا عليه بزى الرهبان فسلموا عليه، فردّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال النبى ﷺ : «**يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولدًا**») وكثر الجدال والحجاج بينه وبينهم، والنبى يتلو عليهم القرآن ويقرع باطلهم بالحجة، وكان مما قالوه: ما لك تشتم صاحبنا

(1) الرحيق المختوم ٣٨٠ - ٣٨٣.

(2) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦٥٢.

وتقول: «**إنه عبد الله**»؟، فقال: «**أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول**» فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانًا قط من غير أب؛ فإن كنت صادقًا فأرنا مثله؟ فأنزل الله فى الرد عليهم قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠ ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٠]، فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه، فلما لم تُجد معهم المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١ ﴾ [آل عمران: ٦١].

وخرج النبى ﷺ ومعه علي والحسن والحسين، وفاطمة: «**وقال: وإذا أنا دعوت فأمنوا**» فائتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبى حقًا، وأنه ما باهل قوم نبيًا إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفى حلة، ألف فى رجب وألف فى صفر، ولما عزموا على الرجوع إلى بلادهم قالوا للنبى ﷺ: ابعث معنا رجلاً أمينًا ليقبض منهم مال الصلح، فقال لهم: «**لأبعثنَّ معكم رجلاً أمينًا حق أمين**» فاستشرق له أصحاب رسول الله ﷺ: فقال: «**قم يا أبا عبيدة بن الجراح**» فلما قام قال: «**هذا أمين هذه الأمة**» (١).

وَفْدُ ضِمَامَة بنِ ثَعْلَبَة:

عن أنس بن مالك رضى الله عنه: بينما نحن جلوس مع النبى ﷺ فى المسجد دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم علقه، ثم قال لهم: أيكم محمد؟! والنبى ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب، فقال له النبى ﷺ: «**قد أجبتك**»، فقال

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٤ - ٥٩٥).

الرجل للنبى ﷺ : إنى أسألك فمشدد عليك فى المسألة؛ فلا تجد علىَّ فى نفسك[1].. فقال: «**سل عما بدا لك**» فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «**اللهم نعم**» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة؟ قال: «**اللهم نعم**»، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «**اللهم نعم**»، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبى ﷺ : «**اللهم نعم**» فقال الرجل آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائى من قومى، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر.

وفى رواية عباس:... حتى إذا فرغ قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص.

قال: ثم أنصرف راجعًا، فقال رسول الله ﷺ حين ولى: «**إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة**» [2]، قال: فأتى إلى بعيره، فانطلق عقاله ثم خرج؛ حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: (بئست اللات والعزى، قالوا: صه يا ضمام اتق البرص والجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله عز وجل بعث رسولاً، وأنزل عليه كتابًا ا ستنقذكم به ما كنتم فيه؛ وإنى أ شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وإنى قد جئتكم من بعده، بما أمركم به، ونهاكم عنه، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضرة رجل ولا امرأة إلا مسلماً، قال: يقول ابن عباس رضى الله عنهما: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة[3].

(١) تجد: تحقد وتحمل البغضاء.

(٢) العقيصتين: لأنه فرق شعره فرقتين.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٣ - ٥٩٤).

وَفْدُ بَنِى حَنِيفَةَ:

كانت وفادتهم سنة ٩ هـ، وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مُسَيلمة الكذاب، وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة، نزل هذا الوفد فى بيت رجل من الأنصار، ثم جاءوا إلى النبى ﷺ فأسلموا، واختلفت الروايات فى مسيلمة الكذاب، ويظهر بعد النظر فى جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ، وأن النبى ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً؛ فلما رأى أن ذلك لا يجدى فيه نفعًا تفرس فيه الشر.

وكان النبى ﷺ قد رأى قبل ذلك فى المنام أنه أتى بخزائن الأرض، فوقع فى يده سواران من ذهب، فكبرا عليه وأهماه، فأوحى إليه أن انفخهما فذهبا، فأوّلهما كذابين يخرجان من بعده، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف، وقد كان يقول: إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعه، جاءه رسول الله ﷺ وفى يده قطعة من جريد، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شَماس، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه، فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال: «**لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكما، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرتَ ليعقرنك الله، والله إنى لأراك الذى أريتُ فيه ما رأيتُ وهذا ثابت يجيبك عنى**» ثم انصرف.

وأخيرًا وقع ما تُفُرّس فيه النبى ﷺ؛ فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقى يفكر فى أمره؛ حتى ادعى أنه أشرك فى الأمر مع النبى ﷺ، فادعى النبوة، وجعل يسجع السجعات، أحل لقومه الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبى، وافتتن به قومه فتبعوه وأصفقوها معه، حتى تفاقم أمره، فكان يقال له: رحمان اليمامة؛ لعظم قدره فيهم، وكتب إلى رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وعن ابن مسعود: جاء ابن النّوّاحة، وابن أُثال رسولاً مسيلمة إلى

النبى ﷺ، فقال لهما: «**أتشهد أنى رسول الله؟**» فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال النبى ﷺ : «**آمنت بالله ورسوله, لو كنت رسولاً لقتلتكما**».

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر، وقتل فى حرب اليمامة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى ربيع الأول سنة ١٢هـ، قتله وحشى قاتل حمزة، وأما المتنبئ الثانى، وهو الأسود العنسى الذى كان باليمن، فأتاه الوحى فأخبر به أصحابه، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبى بكر رضى الله عنه.

خَامِسًا: بُعُوثُ الرَّسُولِ لِتَعْلِيمِ مَبَادِئِ الإِسْلَامِ وَتَرْتِيبُ أُمُورِ الإِدَارَةِ وَالمَالِ:

كانت الوفود تسعى إلى المدينة؛ لتعلن إسلامها وتنضوى تحت سيادة الدولة الإسلامية، ويتعلموا ما شاء الله أن يتعلموه فى المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم، وكان ﷺ يرسل معهم من يعلمهم دينهم، و شرع ﷺ يبعث دعاته فى شتى الجهات، واهتم بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن؛ لتعليمها مبادئ الإسلام وأحكامه.

بَعْثُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ إِلَى بَنِى الحَارِثِ بنِ كَعْبٍ:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى، سنة عشر، إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم.

فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، ويقولون: أيها الناس، أسلموا تسلموا، فأسلم الناس، ودخلوا فيما دُعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلّمهم الإسلام وكتاب الله و سنة نبيه ﷺ، كما أمره رسول الله ﷺ [1].

(١) ابن هشام ٢ / ٢٥٣.

ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسـول الله ﷺ، يعلمه بإسـلامهم وأنه مقيم فيهم؛ حتى يكتب إليه رسـول الله ﷺ، فجاءه كتاب رسـول الله ﷺ يأمره بأن يقبل إلى المدينة ومعه وفد منهم ففعل، فلما قدموا أمر عليهم قيس بن الحصين، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو ابن حزم ليفقههم فى الدين، ويعلمهم السـنة، ومعالم الإسلام.

وفى رواية أنه ﷺ أرسـل عليًّا من خالد، وعندما وصـل إلى قبائل همدان قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعًا فكتب عليّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم؛ فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: «**السلام على همدان، السلام على همدان**» [(١)].

بَعْثُ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ وَأَبِى مُوسَى الأَشْعَرِيِّ إِلَى اليَمَنِ:

بعث رسـول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصـارى - أعلم الصـحابة بالحلال والحرام- إلى اليمن قاضيًا ومفقهًا وأميرًا ومصدِّقًا، وجعله على أحد مخلافيها [(٢)]، وهو الأعلى، ولما خرج معاذ قاصدًا اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يودعه ويوصـيه ومعاذ راكب ورسـول الله ﷺ يمشـى تحت راحلته، فأوصـاه قائلاً له: «**إنك سـتأتى قومًا من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادْعُهم إلى أن يشـهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسـول الله ﷺ، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صـلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صـدقة؛ تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم طاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**» [(٣)]، وبعث أبا موسى

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٦).

(٢) المخلاف: الإقليم.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٧).

الأشعرى على الكورة السفلى، وقال لهما: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**» وقد مكث معاذ باليمن؛ حتى توفى رسول الله ﷺ أما أبو موسى الأشعرى فقدم عليه ﷺ فى حجة الوداع[1].

تَرْتِيبُ أُمُورِ الإِدَارَةِ وَالمَالِ:

إن النظام سمة يتميز بها الإسلام منذ اللحظة الأولى حيث يدخل فى جميع جوانب الإ سلام التصورية والشعائرية والتعبدية وفى الشرائع الحياتية كلها، فكان ﷺ يضع من يدير المدينة فى حالة غيبته عنها، وكلما فتح منطقة وضع عليها أميرًا، وكانت الوفود تأتى إليه ﷺ فيعين عليها أميرًا من قبله، ثم يترك لهم من يعلمهم دينهم ويرسل إليهم من يجمع صدقاتهم، وكان يختار عمَّاله من الصالحين وأولى العلم وا لدين، ومن المنظور إليهم من العرب وذوى الشخصيات المؤثرة فى قبائلهم.

وكان ﷺ يستوفى الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف، وحدد لبعض عماله رواتب وللبعض الآخر قطعة أرض يأخذ خراجها، وكانت رواتب عماله تتغير بتغير أحوال المعيشة فهى ليست ثابتة، قال ﷺ : «**من ولى لنا ولاية، ولم يكن له بيت فليتخذ بيتًا ولم تكن له زوجة فليتخذ زوجة، أو لم تكن له دابة فليتخذ دابة**» وهذه هى الحاجات الرئيسية لولى الأمر فى ذلك الوقت منعًا لأحذ الر شوة، وهذه قاعدة قانونية جاء بها الإ سلام قبل أن تثبتها القوانين الوضعية الحديثة فى بنودها، وهى أن الهدية للحاكم رشوة صريحة [2].

وهكذا نرى فى تتابع الوفود مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التابع وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال؛ حتى لم تكن ترى محيصًا عن الاستسلام أمامها، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب، لا يمكن صرف

(١) الرحيق المختوم ص ٣٨٤.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٨ - ٥٩٩).

النظر عنها، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لسادتهم، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد عما تأصل فيها من الميل إلى الغارات، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب.

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٨].

وأثنى على آخرين منهم فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ [التوبة: ٩٩].

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الإسلام فيهم قويًا، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين[1].

* * *

(١) الرحيق المختوم ٣٨٨.

حِجَّةُ الوَدَاعِ

تمت أعمال الدعوة وإبلاغ الرســالة، وبناء مجتمع جديد على أثاث إثبات الألوهية لله ونفيها عن غيره، وعلى أ ساس ر سالة محمد ﷺ، وكأن هاتفًا خفيًا انبعث فى قلب رســول الله ﷺ يشــعره أن مقامه فى الدنيا قد أوشــك على النهاية؛ حتى إنه حين بعث معاذًا على اليمن سنة ١٠هـ، قال له فيما قال: «**يا معاذ إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى**» فبكى معاذ خشعًا لفراق رسول الله ﷺ.

وشــاء الله أن يرى رســوله ﷺ ثمار دعوته التى عانى فىسـبيلها ألوانًا من المتاعب بضــعًا وعشــرين عامًا، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها فيأخذوا منه شــرائع الدين وأحكامه، ويأحذ منهم الشــهادة على أنه أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة.

أعلن النبى ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ.

وفى يوم الســبت لخميس بقين من ذى القعدة تهيأ النبى ﷺ للرحيل، فتَرجَّل وادَّهن ولبس إزاره ورداءه، وقلد بدنه وانطلق بعد الظهر؛ حتى بلغ ذا الحُليفة قبل أن يصلى العصر فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح، فلما أصبح قال لأصحابه[1]:«**أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتٍ مِنْ رَبِّي فَقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ وَقُلْ عُمْرَةً فِي حَجَّةٍ**».

(١) رواه البخاري ١٥٣٤.

وقبل أن يصلى الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذريدة [١] وطيب فيه مسك، فى بدنه ورأسه حتى كان وبيضُ[٢] الطيب، يرى فى مفارقة ولحيته، ثم ا ستدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة فى مصـــلاه وقرن بينهما، ثم خرج فركب القصـــواء، فأهل أيضًا ثم أهل لما استقلت به على البيداء.

ثم واصـل سـيره حتى قرب من مكة فبات بذى طوى، ثم دخل مكة بعد أن صـــلى الفجر واغتســـل من صـــباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذى الحجة سنة١٠هـــــ، وقد مضى فى الطريق ثمانى ليال، وهى المسافة الوسطى فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، ولم يحلَّ لأنه كان قارنًا قد ســاق معه الهدى، فنزل بأعلى مكة عند الحجون، وأقام هناك ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

وأمر من لم يكن معه هدي من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت وبين الصـــفا والمروة ثم يحلوا حلالاً تا مًّا فترددوا، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ[٣]:«**لَوْ اسْـــتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْـــتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ وَلَوْلا أَنَّ مَعِي الْهَدْيَ لأَحْلَلْتُ**».

فحل من لم يكن معه هدي، وسمعوا وأطاعوا.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة - وهو يوم التروية- توجه إلى منى، فصلي بها الظهر والعصـر والمغرب والعشـاء والفجر خمس صـلوات ثم مكث قليلا؛ حتى طلعت الشـمس فأجاز حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضـربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشـــرون، أو أربعة وأربعون ألفا من الناس، فقام فيهم خطيبًا، وألقى ﷺ هذه الخطبة الجامعة[٤]:

(١) نوع من الطيب.

(٢) بريق.

(٣) رواه البخاري ١٦٥١.

(٤) رواه مسلم ١٢١٨.

«**أَيُّهَا النَّاسُ، اسمعوا قولي، إِنِّي وَاللَّهِ لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا بِمَكَانِي هَذَا، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ.

فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» ثَلاثَ مَرَّاتٍ.

وكان الذي يصرخ في الناس لقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] ولما نزلت بكى عمر، فقال له النبي ﷺ : «**ما يبكيك؟**» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص فقال: «**صدقت**».

وبعد الخطبة أَذَّنَ بلال ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى رسول الله ﷺ بالناس الظُّهْرَ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى الْمَوْقِفَ فَجَعَلَ بَطْنَ نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ إِلَى الصَّخَرَاتِ، وَجَعَلَ حَبْلَ الْمُشَاةِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ وَذَهَبَتْ الصُّفْرَةُ قَلِيلاً حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ.

وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ خَلْفَهُ وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: «أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ كُلَّمَا أَتَى حَبْلاً مِنَ الْحِبَالِ أَرْخَى لَهَا قَلِيلاً حَتَّى تَصْعَدَ حَتَّى أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ وَصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا. فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَأَرْدَفَ الْفَضْلَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَكَانَ رَجُلاً حَسَنَ الشَّعْرِ أَبْيَضَ وَسِيمًا فَلَمَّا دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّتْ بِهِ ظُعُنٌ يَجْرِينَ فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى وَجْهِ الْفَضْلِ فَحَوَّلَ الْفَضْلُ وَجْهَهُ إِلَى الشِّقِّ الاخَرِ يَنْظُرُ فَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ مِنْ الشِّقِّ الاخَرِ عَلَى وَجْهِ الْفَضْلِ يَصْرِفُ وَجْهَهُ مِنْ الشِّقِّ الاخَرِ يَنْظُرُ حَتَّى أَتَى بَطْنَ مُحَسِّرٍ فَحَرَّكَ قَلِيلاً ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوُسْطَى الَّتِي تَخْرُجُ عَلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى حَتَّى أَتَى الْجَمْرَةَ الَّتِي عِنْدَ الشَّجَرَةِ فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنْهَا مِثْلِ حَصَى الْخَذْفِ رَمَى مِنْ بَطْنِ الْوَادِي ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْحَرِ فَنَحَرَ ثَلاثًا وَسِتِّينَ بِيَدِهِ ثُمَّ أَعْطَى عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ وَأَشْرَكَهُ فِي هَدْيِهِ ثُمَّ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ فَجُعِلَتْ فِي قِدْرٍ فَطُبِخَتْ فَأَكَلا مِنْ لَحْمِهَا وَشَرِبَا مِنْ مَرَقِهَا. ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَفَاضَ إِلَى الْبَيْتِ فَصَلَّى بِمَكَّةَ الظُّهْرَ فَأَتَى بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَسْقُونَ عَلَى زَمْزَمَ فَقَالَ: انْزِعُوا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَوْلا أَنْ يَغْلِبَكُمْ النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ فَنَاوَلُوهُ دَلْوًا فَشَرِبَ مِنْهُ».

وخطب النبي ﷺ يوم النحر عاشر ذي الحجة أيضا حين ارتفع الضحى وهو على بغلة شهباء وعلي يعبر عنه والناس بين قائم وقاعد وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس فقد روى الشيخان عن أبي بكرة قال(١): خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قَالَ: «الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ

(١) رواه البخاري ٤٤٠٦.

وَرَجَبُ مُضَـرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَـعْبَانَ أَيُّ شَـهْرٍ هَذَا قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ فَسَـكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَـيُسَـمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ: أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَـمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ: أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟ قُلْنَا: بَلَى قَالَ: فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ فَسَـكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَـيُسَـمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ مُحَمَّدٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا وَسَـتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَسَـيَسْـأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُـلالاً يَضْـرِبُ بَعْضُـكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، قَالَ: أَلا هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ، قالوا: نعم، قال: اللهم اشـهد فليبلغ الشاهد الغائب؛ فرب مبلغ أوعى من سامع».

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة[1]: **«أَلا لا يَجْنِي جَانٍ إِلا عَلَى نَفْسِـهِ أَلا لا يَجْنِي جَانٍ عَلَى وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدِهِ أَلا وَإِنَّ الشَّـيْطَانَ قَدْ أَيِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ فِي بِلادِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَسَيَرْضَى بِهِ».**

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك، ويعلم الشرائع، ويذكر الله ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم ويمحو آثار الشرك ومعالمها.

وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضًا فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سـَرَّاء بِنْتِ نَبْهَانَ وَكَانَتْ رَبَّةُ بَيْتٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَتْ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الرُّءُوسِ، فَقَالَ: **«أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَلَيْسَ أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ. وكانت خطبته في هذا اليوم كخطبته يوم النحر ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر».**

وفي يوم النفر الثاني – الثالث عشـر من ذي الحجة نفر النبي ﷺ من منى، فنزل بخيف بن كنانة من الأبطح، وأقام هناك بقية يومه ذلك وليلته، وصـلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت

(١) رواها الترمذي ٢١٥٩.

فطاف به طواف الوداع، وأمر به الناس، ولما قضى منا سكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظًا من الراحة؛ بل ليستأنف الكفاح والكدح لله، وفى سبيل الله[1].

آخِرُ البُعُوثِ:

ما أن عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة؛ حتى أمر المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم، واختار رسول الله ﷺ لإمرة هذا الغزو أسامة بن زيد رضى الله عنهما، وكان رضى الله عنه شابًا حدثًا، فأمره ﷺ أن يسير إلى موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة، وأن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وذلك مع بدء شكواه ﷺ من مرضه الذى توفى فيه.

ولكن المنافقين راحوا يقولون مستنكرين: أمَّر غلامًا حدثًا على جلّة المهاجرين والأنصار! فخرج رسول الله ﷺ إلى الناس، وقد عصب رأسه وخطب فيهم قائلاً[2]: **«إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ يُرِيدُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لَهَا وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لأَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ وَايْمُ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَهَا لَخَلِيقٌ يُرِيدُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لأَحَبَّهُمْ إِلَيَّ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوصِيكُمْ بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ صَالِحِيكُمْ»**.

فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون والأنصار، وخرج أسامة بجيشه إلى ظاهر المدينة، فعسكر بالجرف (على فرسخ من المدينة).

وفى هذه الأثناء اشتدت برسول الله ﷺ شكواه التى قبضه الله فيها؛ فأقام الجيش هناك ينظرون ما الله قاض فى هذا الأمر[3].

* * *

(١) الرحيق المختوم ٣٩١ - ٣٩٤.

(٢) رواه مسلم ٢٤٢٦.

(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٣٤٩، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٦١٦ - ٦١٧).

إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى

وَقْفَةٌ هَامَّةٌ:

و صلت الأمة الإ سلامية فى الـ سنة العا شرة مرحلة من الن ضج متقدمة، وكان ذلك يقتضـى لمسـات أخيرة فوسـع ﷺ، فى العام التاسـع والعاشـر من الهجرة دائرة التلقى المبا شر من خلال ا ستقباله الوفود، ومن خلال رحلة الحج فأوجد قاعدة عري ضة؛ تحمل دعوته وقد تلقت عنه مبا شرة، وكان لذلك أكبر الأثر فى أن تبقى رحى الإســـلام دائرة، وإلى الأ بد ففى حجة الوداع كانت اللمســات الأخيرة فى تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسـنة رسـوله ﷺ [١].

مَرَضُ الرَّسُولِ ﷺ وَلحَاقُهُ بِالرِّفِيقِ الأَعْلَى:

العلامات التي أشارت إلى قرب انتهاء أجله ﷺ :

لما تكاملت الدعوة و سيطر الإ سلام على الموقف ظهرت علامات؛ ت شير إلى قرب انتهاء أجل النبى ﷺ ومن بين ذلك:

أنه ﷺ كان يعتكف كل سنة عشرًا فى رمضان فاعتكف فى السنة الأخيرة عشرين ليلة، وكان جبريل يعارضه القرآن مرة فى رمضان فعارضه فى السنة الأخيرة مرتين.

ومن ذلك ما رواه أحمد عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ[٢]: لَمَّا بَعَثَهُ رَسـُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ خَرَجَ مَعَهُ رَسـُولُ اللَّهِ ﷺ يُوَصـِيهِ وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ وَرَسـُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشـِي تَحْتَ رَاحِلَتِهِ فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: **«يَا مُعَاذُ إِنَّكَ عَسَـى أَنْ لا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا أَوْ لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا أَوْ قَبْرِي»** فَبَكَى مُعَاذٌ جَشَعًا لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ الْتَفَتَ فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: **«إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا»**.

(١) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٦٠٧.

(٢) رواه أحمد ٢١٥٤٧.

وخرج ﷺ للحج السنة العاشرة وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا. وطفق يودع الناس».

ونزل عليه بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣].

وفي ثاني أيام التشريق نزل عليه قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ إِنِّي وَاللَّهِ لأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ وَإِنِّيَ قَدْ أُعْطِيتُ خَزَائِنَ مَفَاتِيحِ الأَرْضِ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ بَعْدِي أَنْ تُشْرِكُوا وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا» (١) (٢).

أنه خرج لأهل البقيع من جوف الليل فاستغفر لهم ثم رجع إلى أهله فلما أصبح ابْتُدِئَ بوجعه من يومه هذا.

عَنْ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ(٣): بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَقَالَ: «يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّيَ قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأَهْلِ الْبَقِيعِ فَانْطَلِقْ مَعِي فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمْ اللَّهُ مِنْهُ أَقْبَلَتْ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يَتْبَعُ أَوَّلُهَا آخِرَهَا الآخِرَةُ شَرٌّ مِنْ الأولَى قَالَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عَزَّ

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٦٧٣ - ٦٧٤.

(٣) رواه أحمد ١٥٥٦٧.

وَجَلَّ وَالْجَنَّةِ قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ قَالَ: لا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةَ ثُمَّ اسْـــتَغْفَرَ لأَهْلِ الْبَقِيعِ ثُمَّ انْصَرَفَ فَبُدِئَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَبَضَهُ اللَّهُ فيه» [1].

بِدايَةُ المَرَضِ:

وفي اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هــــ - وكان يوم الاثنين- شــهد رســول الله ﷺ جنازة في البقيع فلما رجع وهو فى الطريق أخذه صداع فى رأسه، واتقدت الحرارة؛ حتى إنهم كانوا يجدون سَوْرَتَها فوق العصابة التى تعصب بها رأسه.

وقد صـــلى ﷺ بالناس وهو مريض ١١يومًا، وجميع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤يومًا[2].

اسْتِئْذَانُهُ ﷺ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ وَشِدَّة المَرَضِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ:

قالت عائ شة ر ضي الله عنها: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ وَا شْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ ا سْتَأْذَنَ أَزْوَا جَهُ فِي أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي فَأَذِنَّ لَهُ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْن تَخُطُّ رِجْلاهُ فِي الأَرْضِ بَيْنَ عَبَّاس وَرَجُلٍ آخَرَ[3] قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ فَأَخْبَرْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاس فَقَالَ[4]: أَتَدْرِي مَنْ الرَّجُلُ الآخَرُ قُلْتُ: لا قَالَ: هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُحَدِّثُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: بَعْدَ مَا دَخَلَ بَيْتَهُ وَاشْـتَدَّ وَجَعُهُ: **«هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَـبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ**[5] **لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ وَأُجْلِسَ فِي مِخْضَـــبٍ»** [6] لِحَفْصَــةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ تِلْكَ حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ.

(١) ابن هشام (٢ / ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٩٩.

(٣) الرجل الآخر: هو علي بن أبي طالب.

(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٦١٨).

(٥) جمع وكاء: وهو ما يشد به رأس القربة.

(٦) المخضب: الإجانة التي تغسل فيها الثياب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلا أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ **فِي** مَرَضِهِ فَمَسِسْتُهُ وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا فَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا وَذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ قَالَ: «**أَجَلْ وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلا حَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ**» [1] [2].

النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ وَيَنْعى نَفْسَهُ:

وعندما أحس الرسول ﷺ بخفة دخل المسجد مُتَعَطِّفًا مِلْحَفَةً عَلَى مَنْكِبَيْهِ قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ بِعِصَابَةٍ دَسِمَةٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ[3]:«**أَيُّهَا النَّاسُ إِلَيَّ فَثَابُوا إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ الأَنْصَارِ يَقِلُّونَ وَيَكْثُرُ النَّاسُ فَمَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَضُرَّ فِيهِ أَحَدًا أَوْ يَنْفَعَ فِيهِ أَحَدًا فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيِّهِمْ**»، فقال فيما قال أيضًا: «**وَهُوَ كَذَلِكَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا**» [4]، وقَالَ ﷺ : «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**» [5].

وعرض نفسه للقصاص قائلاً ﷺ : «**من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقًّا إن كان له أو حللني فلقيت الله وأنا أطيب النفس، وقد أرى أن هذا غير مُغْنٍ عني؛ حتى أقوم فيكم مرارًا**».

ثم نزل فصلى الظهر ثم رجع فجلس على المنبر؛ فعاد لمقالته الأولى في الشحناء، وغيرها فقام رجل فقال: يا رسول الله إن لي عندك ثلاثة دراهم، قال: «**أعطه يا فضل**».

(١) رواه البخاري ١٩٨.

(٢) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٦١٨.

(٣) رواه البخاري ١ / ٦٢، وموطأ الإمام مالك.

(٤) رواه البخاري ٤٣٦.

(٥) رواه الإمام مالك في الموطأ.

ثم أوصى بالأنصار قائلاً ﷺ : **«أُوصِيكُمْ بِالأنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي[١] وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»**.

ثم قال ﷺ : **«إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَـــاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا فَعَجِبْنَا لَهُ وَقَالَ النَّاسُ انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ وَهُوَ يَقُولُ فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا فَكَانَ رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ»** [٢].

ثم قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُـحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلا خُلَّةَ الاسْــلامِ لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْــجِدِ خَوْخَةٌ إِلا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ»**[٣].

قَبْلَ الوَفَاةِ بِأَرْبَعَةِ أَيَّامٍ:

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال وقد اشـــتد به الوجع: هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ، - وفي البيت رجال- فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ حَسْـبُنَا كِتَابُ اللَّهِ فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَاخْتَصَمُوا فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ قَرِّبُوا يَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالاخْتِلافَ قَالَ رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ : **«قُومُوا عني»** [٤].

(١) يقصد بها: البطانة وموضع السر والأمانة، والذي يعتمد عليهم وقت الأزمات والشدائد.

(٢) رواه البخاري ٣٩٠٤ من مشكاة المصابيح.

(٣) رواه البخاري ٣٩٠٤.

(٤) رواه البخاري ٤٤٣٢.

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: «**بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، أما الثالث فنسيه الراوي، ولعله الوصية بالاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه، أو تنفيذ جيش أسامة أو هي كما عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ: الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى مَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ**» [1].

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم يوم الخميس، قبل الوفاة بأربعة أيام وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فَعَنْ أُمِّ الْفَضْلِ بِنْتِ الْحَارِثِ قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا، ثُمَّ مَا صَلَّى لَنَا بَعْدَهَا حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ[2].

وعند العشاء زاد ثقل المرض؛ بحيث لم يستطع الخروج من المسجد، فَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ[3]: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَلا تُحَدِّثِينِي عَنْ مَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: بَلَى، ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ قُلْنَا: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ قَالَ: ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ قَالَتْ: فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَلَ فَذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ ﷺ أَصَلَّى النَّاسُ قُلْنَا لا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ قَالَتْ فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ أَصَلَّى النَّاسُ قُلْنَا: لا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ أَصَلَّى النَّاسُ**» فَقُلْنَا: لا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلام لِصَلاةِ الْعِشَاءِ الاخِرَةِ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ رَجُلاً رَقِيقًا: يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ

(١) رواه ابن ماجة ١٦٢٥.

(٢) رواه البخاري ٤٤٢٩.

(٣) رواه البخاري ٦٨٧.

بِذَلِكَ فَصــَلَّى أَبو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ ١٧ صــلاة في حياته ﷺ وهي صــلاة العشـاء من يوم الخميس وصـلاة الفجر من يوم الاثنين وخمس عشـرة صـلاة فيما بينها[١].

وراجعت عائشــة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات ليصــرف الإمامة عن أبي بكر؛ حتى لا يتشاءم به الناس[٢]، فأبى وقال: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس**»[٣].

قَبْلَ الوَفَاةِ بِثَلاَثَةِ أَيَّامٍ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**» [٤].

قَبْلَ يَوْمَيْنِ مِنَ الوَفَاةِ:

ويوم السبت أو الأحد وجد النَّبِيّ ﷺ فِي نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ لِصَــلاةِ الظُّهْرِ، وَأَبو بَكْرٍ يُصَــلِّي بِالنَّاس، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ لا يَتَأَخَّرَ، قَالَ: «**أَجْلِسَــانِي إِلَى جَنْبِهِ، فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ**» قَالَ: فَجَعَلَ أَبو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَأْتَمُّ بِصَلاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيسمع النَّاسُ التكبير[٥].

قَبْلَ يَوْم:

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد- أعتق النبى ﷺ غلمانه، وتصدق بستة أو بسبعة دنانير؛ كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفى الليل أرسلت

(١) رواه البخاري ٤٤٤٨.
(٢) رواه مسلم ٤١٨.
(٣) رواه البخاري ٦٦٤.
(٤) رواه مسلم ٢٨٧٧.
(٥) رواه البخاري ٦٨٧.

عائشة بمصباحها امرأة من النساء، وقالت: أقطرى لنا فى مصباحنا من عُكَّتِك السمن، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعًا من الشعير.

آخِرُ يَوْمٍ مِنَ الحَيَاةِ:

روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَا هُمْ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الاثْنَيْنِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي لَهُمْ لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صُفُوفِ الصَّلاةِ ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الصَّلاةِ فَقَالَ أَنَسٌ وَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فِي صَلاتِهِمْ فَرَحًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**أَنْ أَتِمُّوا صَلاتَكُمْ ثُمَّ دَخَلَ الْحُجْرَةَ وَأَرْخَى السِّتْرَ**» [(١)].

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى دعا النبي ﷺ فاطمة فَسَارَّهَا بِشَيْءٍ فَبَكَتْ، ثُمَّ دَعَاهَا فَسَارَّهَا فَضَحِكَتْ قَالَتْ فَسَأَلْتُهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ سَارَّنِي النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَنِي: «**أَنَّهُ يُقْبَضُ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ فَبَكَيْتُ ثُمَّ سَارَّنِي فَأَخْبَرَنِي أَنِّي أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِهِ أَتْبَعُهُ فَضَحِكْتُ**» [(٢)].

وبشر النبي ﷺ فاطمة: «**بأنها سيدة نساء العالمين**».

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد، فَعَنْ أَنَس قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلام: وَا كَرْبَ أَبَاهُ فَقَالَ لَهَا: «**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهْ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلام يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ**» [(٣)].

(١) رواه البخاري ٤٤٤٨.

(٢) رواه البخاري ٣٦٢٦.

(٣) رواه البخاري ٤٤٦٢.

ودعا الحسن والحسين فقبلهما وأوصى بهما خيرًا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

وطفق الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخيبر حتى كان يقول: «**يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**».

وقد طرح خَمِيصَة له على وجهه؛ فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال - وهو كذلك- وكان هذا آخر ما تكلم وأوصى به الناس: «**لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ما صنعوا- لا يبقين دينان بأرض العرب**».

وأو صى الناس فقال ﷺ : «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**» كرر ذلك مرارًا (١).

اللَّهُمَّ الرَّفِيق الأَعْلَى:

واشتدت سكرات الموت بالنبي ﷺ ودخل عليه أسامة بن زيد، وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة فعرف أنه يدعو له، وأخذت السيدة عائشة رسول الله ﷺ بين سحرها ونحرها، فَعَنْ أَبِي عَمْرو ذَكْوَان مَوْلَى عَائِشَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تَقُولُ إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ فَقُلْتُ آخُذُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «**أَنْ نَعَمْ فَلَيَّنْتُهُ فَأَمَرَّهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ يَشُكُّ عُمَرُ فِيهَا مَاءٌ**

(١) الرحيق المختوم ٤٠٠ - ٤٠٣.

فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ[١] ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ» [٢].

وما عدا أن فرغ من السواك؛ حتى رفع يده أو أصبعه وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه فأصغت إليه عائشة وهو يقول: «**مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لى وارحمنى، وألحقنى بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**» [٣]، كرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، ومالت يده بالرفيق الأعلى.

عن عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَحِيحٌ: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرَ فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى فَقُلْتُ إِذًا لا يَخْتَارُنَا وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ قَالَتْ: فَكَانَتْ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى»** [٤].

وَهَكَذَا فَاضَتْ أَطْهَرُ رُوحٍ مِنْ أَطْهَرِ جَسَدٍ ﷺ :

توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١١هـ بعد الزوال، وله ثلاث وستون سنة، وكان أشد الأيام سوادًا ووحشة ومصابًا على المسلمين، ومحنة كبرى للبشرية كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس.

يقول أَنَسُ رضي الله عنه: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَلَمَّا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الأَيْدِي وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا[٥].

(١) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٦٢١.
(٢) رواه البخاري ٤٤٤٩.
(٣) الرحيق المختوم ص ٤٠٣.
(٤) رواه البخاري ٤٤٦٣.
(٥) رواه الترمذي ٣٦١٨.

ولما علمت فاطمة رضـي الله عنها بموته ﷺ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهْ مِنْ رَبِّهِ، مَا أَدْنَاهْ وَا أَبَتَاهْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، وَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، وَا أَبَتَاهْ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهْ، فلما دفن قالت فاطمة: يَا أَنَسُ كَيْفَ طَابَتْ أَنْفُسـُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ(١)؟!.

مَوْقِفُ عُمَر الفَارُوقُ رضى الله عنه:

لَمَّا توفى ر سول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن ر سول الله ﷺ قد تُوفِّيَ، وإن ر سول الله ﷺ ما مات، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسـى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، ووالله ليرجعن رسـول الله ﷺ كما رجع موسـى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات.

مَوْقِفُ أَبِي بَكْرٍ الصّديقِ رضى الله عنه:

وأقبل أَبُو بَكْرٍ من مسكنه بِالسُّنْحِ حتى نزل، فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى حبرة، فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، ثم قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ وَقَالَ: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، وَقَالَ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] (٢).

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية؛ حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها،

(١) رواه البخاري ٤٤٦٢.

(٢) رواه البخاري ٣٦٧٠.

قال ابن المسـيب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت؛ حتى ما تُقلُّنى رجلاى، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبى ﷺ قد مات(١).

اخْتِيَارُ الخَلِيفَةِ قَبْلَ دَفْنِ الجَسَدِ الطَّاهِرِ:

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار بين المهاجرين والأنصـار فى سـقيقة بنى سـاعدة، وأخيرًا اتفقوا على خلافة أبى بكر ر ضى الله عنه، وم ضى فى ذلك بقية يوم الإثنين، حتى دخل الليل، و شغل الناس عن جهاز ر سول الله ﷺ حتى كان آخر الليل ليلة الثلاثاء مع الصبح، وبقى جسده المبارك على فرا شة مغشى بثوب حَبرَة، قد أغلق دونه الباب أهله(٢).

وقد اهتم الـ صحابة باختيار الخليفة أولاً، حتى لا يجد الـ شيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، وليفارق رسـول الله ﷺ هذه الدنيا وكلمة المسـلمين واحدة وشملهم منتظم، وعليهم أمير يتولى أمورهم، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه(٣).

التّجْهِيزُ وَتَوْدِيعُ الجَسَدِ الشّرِيفِ إِلَى الأَرْضِ:

ويوم الثلاثاء غسـلوا رسـول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسـل العباس وعليًّا والفضـل وقثم ابنى العباس وشـُقران مولى ر سول الله ﷺ وأ سامة ابن زيد وأوس بن خولى فكان العباس والف ضل وقثم يلقبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعليٌّ يغسله، وأوس أسنده إلى صدره، وقد غسل ثلاث عسلات بماء و سدر، وغسل من بئر يقال لها: الغرس لسعد بن خيثمة بقباء، وكان يشرب منها.

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٦٨٩ - ٦٩٠.

(٢) الرحيق المختوم ص ٤٠٥.

(٣) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٦٢٤.

ثم كفنوه فى ثلاثة أثواب يمانية بيض ســـحُوليَّة من كُرســُف، ليس فيها قميص ولا عمامة، أدرجوه فيها إدراجًا.

واختلفوا فِي موضـع دفنه، أي: الْمَكَان الَّذِي يُحْفَرُ لَهُ فَقَالَ قَائِلُونَ: يُدْفَنُ فِي مَسـْجِدِهِ، وَقَالَ قَائِلُونَ: يُدْفَنُ مَعَ أَصـْحَابِهِ، فَقَالَ أَبو بَكْر: إِنِّي سَـمِعْتُ رَســُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلا دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ**» قَالَ: فَرَفَعُوا فِرَاشَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ عَلَيْهِ فَحَفَرُوا لَهُ تحته وجعل القبر لحدًا[١].

ودخل الناس الحجرة أرسالاً؛ عشرة فعشرة، يصلون على رسول الله ﷺ أفذاذًا لا يؤمهم أحد، وصلى عليه أهل عشيرته، ثم المهاجرون ثم الأنصار ثم الصبيان ثم النساء أو النساء ثم الصبيان.

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً، ومعظم ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي[٢] من جوف الليل وفي رواية من آخر الليل ليلة الأربعاء[٣].

(١) رواه ابن ماجة ١٦٢٨.

(٢) جمع مسحاة، ما يجرف به الطين.

(٣) الرحيق المختوم ص ٤٠٥.

البَيْتُ النَّبوِيُّ

أَوَّلاً: النَّبِيُّ ﷺ وَصِفَاتُهُ الخِلْقِيَّةُ:

كان رسـول الله ﷺ أزهر اللون(١)؛ واسـع الجبين أدعج العينين(٢) مفلج الأسـنان، كث اللحية، تملأ صـدره عظيم المنكبين، رحب الكفين والقدمين؛ ليس بالطويل البائن ولا بالقصـير المتردد، رجل الشـعر(٣)، يضـرب شـعره إلى منكبيه، إذا تكلم رؤى كالنور؛ يخرج من ثناياه.

ضخم الرأس والكراديس، فى وجهه تدوير ذا مشربة(٤)، إذا مشى تقلع كأنما ينحط فى صبب(٥)، يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر، حسن الصوت سهل الخدين، ضليع الفم سواء البطن والصدر، أشهر المنكبين والذراعين، وأعالى الصدر طويل الزندين، رحب الراحة منهوس العقبين(٦)، بين كتفيه خاتم النبوة كزر الحجلة وكبيضة الحمامة، وكان إذا مشى كأنما تُطوى له الأرض ويجدّون فى لحاقه وهو غير مكترث، وكان يسـدل شـعر رأسـه ثم فرقه، وكان يرجله ويسرح لحيته، ويكتحل بالإثمد كل ليلة فى كل عين ثلاثة أطراف عند النوم.

عن جابر بن سمرة قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه فاسـتقبله ولدان، فجعل يمسـح خدى أحدهم واحدًا واحدًا، قال: وأما أنا فمسـح خدى، قال: فوجدت ليده بردًا أو ريحًا؛ كأنما أخرجها من جُؤنَة عطار.

(١) أبيض مستنير مائل إلى الحمرة.

(٢) الدعج: شدة سواد العينين مع سعتها، وقيل: أكحل أهدب الأشقار أي: طويل الأشقار.

(٣) أي: فى شعره حجونة؛ أى: تثنٍّ قليل.

(٤) وهى الشعر الدقيق من الصدر إلى السرة كالقضيب.

(٥) أي: يمشى بقوة، والصبب: الحدور.

(٦) أي: قليل لحم العقب.

عن أنس قال: كان ر سول الله ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ، ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله ﷺ.

الصِّفَاتُ الخُلُقِيَّةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ :

كان النبى ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان وبلاغة القول، وكان الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدَّبه الله بها، وكان حليم قد عُرفت منه زلة، وحُفظت عنه هفوة، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا.

قالت عائشة: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرها ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها، وكان أبعد الناس غضبًا وأسرعهم رضًا، وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره كان يعطى عطاء من لا يخاف فقرًا، قال ابن عباس: كان النبى ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رم ضان فيدار سه القرآن، فر سول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذى لا يجهل، كان أشجع الناس حضر المواقف الصعبة، وفرَّ عنه الكمأة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة سواه، قال علي: كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه.

وكان أشد الناس حياءً وإغضاءً، وقال أبو سعيد الخدرى: كان أشد حياءً من العذراء فى خدرها، وإذا كره شيئًا عرف فى وجهه، وكان لا يثبت نظره فى وجه أحد، خافضِ الطرف لا يشافه أحدًا بما لا يكره حياء وكرم نفس، وكان لا يسمى رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه بل يقول: **«ما بال أقوام يصنعون كذا»**.

وكان أعدل الناس وأعفهم, أصـــدقهم لهجة وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه، وكان يســمى قبل نبوته الأمين، ويُتَحاكم إليه فى الجاهلية قبل الإسلام، وكان أشد الناس تواضعًا وأبعدهم عن الكبر؛ يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، وكان يعود المســاكين ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد ويجلس فى أصـحابه كأحدهم، قالت عائشــة: كان يخصـف نعله، ويخيط ثوبه ويعمل بيده أحدكم فى بيته، وكان بشــرًا من البشــر يفلى ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه.

كان أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم وأعظمهم شفقة ورأفة ورحمة بالناس، وأحسن الناس عشرة وأدبًا وأبسط الناس خلقًا، أبعد الناس من سوء الأخلاق لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا لعانًا ولا صخابًا فى الأسواق، ولا يجزى السيئة بالسيئة؛ ولكن يعفو ويصـفح، وكان لا يدع أحدًا يمشـى خلفه، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه فى مأكل وملبس، ويخدم من خدمه ولم يقل لخادمه: أُفٍّ قط، ولم يعاتبه على فعل شـــيء أو تركه، وكان يحب المســاكين ويجالسهم ويشهد جنائزهم، ولا يحقر فقيرًا لفقره.

وعلى الجملة فقد كان النبى ﷺ مُحَلّى بصــفات الكمال المنقطعة النظير، وأدَّبه ربه فأحسن تأديبه؛ حتى خاطبه مثنيًا عليه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤] وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس، وحببه إلى القلوب، وصــيره قائدًا تهوى إليه الأفئدة، وألان من شــكيمة قومه بعد الإباء؛ حتى دخلوا فى دين الله أفواجًا.

أَسْمَاءُ النّبِيِّ وَكُنَاهُ:

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رسـول الله ﷺ قال: **«إن لى أسماء؛ أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد" وقد سماه الله: رءُوفًا رحيمًا».**

وقال ابن مسعود: «**حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، وفى التوراة: أنه حرز للأميين وأن اسمه المتوكل، ومن أسمائة الأمين، وكانت قريش تدعوه به قبل نبوته، ومن أسمائه الفاتح وقثم**» [1].

وعن أبى موسى الأشعرى قال: كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء، فقال: «**أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر، ونبى التوبة ونبى الرحمة**» وفى حديث آخر: «**نبى الملاحم**».

ومما وقع من أسمائه فى القرآن بالاتفاق: الشاهد والمبشر النذير المبين الداعى إلى الله السراج المنير المذكِّر والرحمة والنعمة والهادى والشهيد والأمين والمزمل والمدثر، ومن أسمائه المشهورة: المختار والمصطفى والشفيع المشفع والصادق والمصدوق.

أما كنيته ﷺ فكان يكنى: أبا القاسم بولده القاسم[2].

ثَانِيًا: أَزْوَاجُ النّبِيّ ﷺ أُمَّهَات المؤْمِنِينَ

١- خَدِيجَة بِنْتِ خُوَيْلِد:

تزوجها النبي ﷺ قبل النبوة وهو فى خمس وعشرين من عمره، وهى فى الأربعين من عمرها ولم يتزوج عليها؛ حتى ماتت وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم، وهى التى آزرته على النبوة، وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها، وأرسل الله إليها السلام مع جبريل، وهذه خاصة لا تعرف لامرأة سواها، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين[3].

(١) قثم: المجتمع الخلق، وقيل: الجامع الكامل، وقيل: الجمع للخير كما في النهاية.

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ١٨ - ٢٥ باختصار.

(٣) المصدر السابق ص ٢٦.

٢ـ سَوْدة بنْتِ زمْعَة:

تزوجها ر سول الله ﷺ فى رمضان سنة عشر من النبوة، وهى أول امرأة تزوجها ﷺ بعد خديجة، دخل بها مكة وهاجر بها إلى المدينة، وكانت قبله عند السكران بن عمرو، فمات عنها فتزوجها النبى ﷺ، وهى التى وهبت نوبتها لعائشة؛ توفيت بالمدينة فى شوال سنة ٥٤هـ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان[١].

٣ـ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصّدّيق:

تزوجها رسول الله ﷺ فى شوال وعمرها ست سنين، وبنى بها فى شوال فى السنة الأولى من الهجرة، وعمرها تسع سنين [٢] عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال لها: «**أريتك فى المنام مرتين، أرى رجلاً يحملك فى سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عنها فإذا هى أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه**».

من فضلها أن النبى ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها، وكانت أحب الخلق إليه وكان الوحى ينزل عليه ﷺ وهو فى بيتها، وقد نزلت براءتها من السماء، وقبض الله نفس النبى ﷺ وهو بين سحرها ونحرها، ودفن فى بيتها[٣] وهى أفقه نساء الأمة، توفيت ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضت من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين، ودفنت من ليلتها بعد الوتر، وصلى عليها أبوهريرة ولها يومئذ ست وستين سنة[٤].

٤ـ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَر بنِ الخَطَّابِ:

تزوجها رسول الله ﷺ فى شعبان سنة ٣هـ، كانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمى، وعندما استخار أبو بكر الصديق ربه فى جمع المصحف بعد

(١) طبقات ابن سعد (٨ / ٥٧ - ٩٨ - ٦٣)، تراجم سيدات النبوة (عائشة عبد الرحمن ١٩٥).
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٢٦.
(٣) طبقات ابن سعد ٨ / ٧٠.
(٤) المصدر نفسه ٨ / ٨٧.

استشهاد كثير من حفظة القرآن فى حروب الردة، جمع نسخة كاملة من صدور الصحابة من حفظة القرآن وأوكل حفظها إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب، وهذا شرف وفخر لا مزيد عليه، وتوفيت فى شعبان سنة ٤٥هـ بالمدينة، ولها ستون سنة، ودفنت بالبقيع(١).

٥ـ زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ:

كانت زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو الهلالية امرأة ودودًا ذات قلب سليم مفعم بالإيمان؛ تعطف على الفقراء والمساكين، ولذلك لقبت بأم المساكين(٢)، كانت تحت عبد الله بن جحش فتزوجها رسول الله ﷺ سنة٤هـ، ماتت بعد الزواج بنحو ثلاثة أشهر فى آخر ربيع الآخر سنة٤هـ، فصلى عليها النبى ﷺ ودفنت بالبقيع(٣).

٦ـ أُمُّ سَلَمَةَ هِنْد بِنْت أَبِي أُمَيَّةَ:

أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة القرشية المخزومية، كانت عند أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى قبل النبى ﷺ، تزوجها النبى ﷺ فى شوال سنة ٤هـ(٤)، وكانت من أفقه النساء وأعقلهن، توفيت سنة ٥٩هـ، وقيل ٦٢هـ، ودفنت بالبقيع ولها ٨٤ سنة هـ(٥).

٧ـ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ:

ثم تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة، وهى ابنة عمته أميمة، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وبذلك كانت تفتخر على نساء النبى ﷺ وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجنى الله من فوق سبع سموات.

(١) الرحيق المختوم ٤٠٦، نساء حول الرسول.. السيد الجميلي ٦٨ - ٦٩.
(٢) مؤمنات لهن عند الله شأن ٢٣٥ - ٢٣٦.
(٣) الرحيق المختوم ص ٤٠٦.
(٤) تراجم ٢٦٥ - ٢٧٠.
(٥) الرحيق المختوم ص ٤٠٧.

وكانت أولاً عند زيد بن حارثة، وكان رســول الله ﷺ قد تبناه فلما طلقها زيد زوَّجه الله تعالى إياها؛ لتتأ سى به أمته فى نكاح أزواج من تبنوه، وخا صة وأن الإســلام أبطل التبنى بعد ذلك [١]، تزوجها رســول الله ﷺ فى الســنة الخامسة للهجرة على أرجح الأقوال [٢]، وقيل: سنة ٤هـ، وكانت أعبد النساء وأعظمهن صدقة توفيت سنة ٢٠هـ، ولها ٥٣سنة، وكانت أول أمهات المؤمنين وفاة بعد رسول الله ﷺ، صلى عليها عمر بن الحطاب، ودفنت بالبقيع[٣].

٨ـ جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الحَارِثِ:

لما غزا ر سول الله ﷺ بنى المصطلق غزوة المريسيع فى سنة خمس أو ست وســباهم، وقعت جويرية فى ســهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبته على نفسها، فأتت ر سول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها، فقضى ر سول الله ﷺ كتابتها وتزوجها، فأعتق المســلمون مائة أهل بيت من بنى المصــطلق، وقالوا: أصــهار رســول الله ﷺ فكانت أعظم النســاء بركة على قومها، توفيت فى شــهر ربيع الأول سنة٥٦هــ، وقيل: سنة ٥٠هــ، وهى يومئذ ابنة٥٦ سنة، وصلى عليها مروان بن الحكم[٤].

٩ـ أُمُّ حَبِيبَةَ رَمْلَةَ بِنْت أَبِي سُفْيَانَ:

كانت تحت عبد الله بن جحش فولدت له حبيبة، فكنيت بها، وهاجرت معه إلى الحبشــة فارتد عبيد الله، وتنصــر وتوفى هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فلما بعث ر سول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى بكتابه إلى النجا شى فى المحرم سنة ٧هـ، خطب عليه أم حبيبة، فزوجها إياه، وأصدقها من عنده

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٢٧.

(٢) تراجم سيدات بيت النبوة ص ٢٩٠.

(٣) الرحيق المختوم ص ٤٠٧.

(٤) نساء حول النبي.. السيد الجميلي ٩٨ - ١٠١.

أربعمائة دينار، وبعث بها من شــرحبيل بن حســنة، فابتنى بها النبى ﷺ بعد رجوعه من خيبر، توفيت سنة ٤٢ هـ أو ٤٤هـ أو ٥٠هـ.

١٠ـ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَىّ بن أخْطب:

حيى بن أحطب سيد بنى النضير من بنى إسرائيل، كانت من سبى خيبر فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، وعرض عليها الإسلام، فأسلمت فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧هــ، وابتنى بها بسد الصَّهباء على بعد ١٢ ميلاً من خيبر فى طريقة إلى المدينة، توفيت سنة ٥٠ هــ، وقيل: ٥٢هــ، وقيل: ٣٦ هـ، ودفنت بالبقيع.

١١ـ مَيْمُونَةُ بِنْتُ الحَارِثِ:

أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث، تزوجها فى ذى القعدة سنة ٧هــ، فى عمرة القضاء بعد أن حل منها على الصحيح، وابتنى بها بسرف على بعد ٩ أميال من مكة، وقد توفيت بسرف سنة٦١هــ، وقيل: ٦٣هــ، وقيل: ٣٨هــ، ودفنت هناك، ولا يزال موضع قبرها معروفًا.

هؤلاء إحدى عشرة امرأة تزوج بهن الرسول ﷺ وبنى بهن، وتوفيت منهن اثنتان، خديجة وزينب أم المساكين فى حياته، وتوفى هو عن التسع البواقى.

وأما الاثنتان اللتان لم يَبْن بهما فواحدة من بنى كلاب، وأخرى من كندة، وهى المعروفة بالجُونيَّة وهناك خلافات لا حاجة إلى بســطها، وأما الســرارى فالمعروف أنه تســرّى باثنين؛ إحداهما مارية القبطية أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم؛ الذى توفى صغيرًا بالمدينة فى حياته ﷺ.

والسرية الثانية هى ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصــطفاها لنفســه، وقيل: بل هى من أزواجه ﷺ أعتقها فتزوجها، والقول الأول رجحه ابن القيم، وزاده أبو عبيدة اثنتين أخريين: جميلة، أصابها فى بعض السبى، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش.

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيدًا أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء فى أواخر عمره، بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عامًا ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصرًا على زوجة واحدة؛ شبه عجوز خديجة، ثم سودة، عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بغتة فى نفسه قوة عارمة من الشَّبَق، لا يصبر معها إلا بمثل هذا العدد الكثير من النساء، بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذى يحققه عامة الزواج.

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة أبى بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة، وكذلك تزويجه ابنته فاطمة بعلى بن أبى طالب، وتزويجه ابنتيه رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان؛ يشير إلى أنه يبغى من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام فى الأزمات التى مرت به، وشاء الله أن يجتازها بسلام.

وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة، فقد كان الصهر عندهم بابًا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سُبَّة وعارًا على أنفسهم فأراد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سَوْرَة عداء القبائل للإسلام ويطفئ حدة بغضائها، كانت أم سلمة من بنى مخزوم - حى أبى جهل وخالد ابن الوليد- فلما تزوجها رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعًا راغبًا.

وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأى محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة، وكذلك لا نرى من قبيلتى بنى المصطلق وبنى النضير أى استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية، وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبى ﷺ كان مأمورًا بتزكية وتثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئًا من آداب الثقافة والحضارة والتقيد بلوازم المدنية والمساهمة فى بناء المجتمع وتعزيزه.

والمبادئ التى كانت أسسًا لبناء المجتمع الإسلامى، لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء، فلم يكن يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ، مع أن مسيس الحاجة إلى تثقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال بل كان أشد وأقوى.

وإذن فلم يكن النبى ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفى لهذا الغرض فيزكيهن ويعلمهن الشرائع والأحكام، ويثقفهن الإسلام فيكفين مؤنة التبليغ فى النساء.

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحواله ﷺ المنزلية للناس؛ خصوصًا من طالت حياتها كعائشة، فإنها روت كثيرًا من أفعاله وأقواله.

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلي متأصل، وهى قاعدة التبنى، وكان للمتبنى عند العرب فى الجاهلية جميع الحرمات والحقوق؛ التى كانت للابن الحقيقى سواء بسواء، وكانت قد تأصلت تلك القاعدة تجلب كثيرًا من المفاسد والفواحش التى جاء الإسلام؛ ليمحوها عن المجتمع.

وقدر الله أن يكون هدم تلك القاعدة على يدى رسول الله ﷺ وبذاته الشريف وكانت ابنة عمه زينب بنت جحش تحت زيد بن حارثة، الذى كان يدعى زيد بن محمد، ولم يكن بينهما توافق، وطلقها زيد فأوجب الله على نبيه هذا النكاح، وتولى الله ذلك النكاح بنفسه قائلا: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وذلك ليهدم قاعدة التبنى فعلا كما هدمها قولاً: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[الأحزاب: ٥] وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وكم من التقاليد المتأصلة الجافة لا يمكن هدمها أو تعديلها لمجرد القول، بل لا بد من مقارنة فعل صاحب الدعوة، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين فى عمرة الحديبية، عندما أمر النبى ﷺ أصحابه - بعد عقد الصلح- أن يقوموا

فينحروا هديهم لم يقم لامتثال أمره أحد؛ حتى أخذه القلق والاضطراب، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر ولا يكلم أحدًا ففعل، تبادر الصحابة إلى اتباعه فى فعله؛ فتسابقوا إلى نحر جزورهم، وبهذا الحادث يتضح جليًّا ما الفرق بين أثرى القول والفعل لهدم قاعدة راسخة.

وهكذا نرى أن زواجه ﷺ بهذا العدد الكثير من النساء كان لأغراض الدعوة، ولم يكن اتباعًا لهوى[1].

ثَالِثًا: أَوْلَادُ النَّبِيِّ ﷺ :

قال النووى رحمه الله:

كان له ﷺ ثلاثة بنين: القاسم، وبه كان يكنى، وُلد قبل النبوة، وتوفى وهو ابن سنتين، وعبد الله وسُمى الطيب والطاهر؛ لأنه ولد بعد النبوة، وقيل: الطيب والطاهر غير عبد الله، وقيل الصحيح: الأول، والثالث إبراهيم ولد بالمدينة سنة ثمان، ومات بها سنة عشر، وهو ابن سبعة عشر شهرًا أو ثمانية عشر.

وكان له أربع بنات:

زينب تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد الشمس، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد.

(١) الرحيق المختوم ٤٠٧ - ٤٠٩، باختصار.

وفاطمة تزوجها عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه.

ورقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان بن عفان، تزوج رقية ثم أم كلثوم، وتوفيتا عنده، ولهذا سُمِّيَ ذا النورين، توفيت رقية يوم بدر فى رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وتوفيت أم كلثوم فى شعبان سنة تسع من الهجرة؛ فالبنات أربع بلا خلاف، والبنون ثلاثة على الصحيح، وأول من وُلِد له القاسم، ثم زينب ثم رقية ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، وجاء أن فاطمة أسن من أم كلثوم.

وكلهم من خديجة إلا إبراهيم؛ فإنه من مارية القبطية، وكلهم توفوا قبله إلا فاطمة، فإنها عاشت بعده ستة أشهر على الأصح الأشهر[١].

* * *

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٢٨ - ٢٩.

الخَاتِمَةُ

أختم كتابي هذا بدعاء نبوي مبارك؛ ليكون خير ختام لصاحب السيرة العطرة، سائلة المولى - جل وعلا- أن يتقبل مني هذا العمل، فَمِنْ دُعَائِه ﷺ [(١)]: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلَامِي، وَتَرَى مَكَانِي، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي؛ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي، وَأَنَا البَائِسُ الفَقِيرُ، المسْتَغِيثُ المسْتَجِيرُ الوَجِلُ المشْفِقُ المقِرُّ المعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ؛ أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ المسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ المذْنِبِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الخَائِفِ الضَّرِيرِ؛ مِنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَبْرَتُهُ، وَذَلَّ لَكَ جِسْمُهُ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ شَقِيًّا، وَكُنْ بِي رَءُوفًا رَحِيمًا.. يَا خَيْرَ المسْئُولِينَ وَيَا خَيْرَ المعْطِينَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الإِخْلَاصِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بِالْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَفِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ؛ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَرِزْقًا طَيِّبًا وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**».

تَقَبَّل اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ صَالِحَ الأَعْمَالِ

الفَقيرَةُ إِلَى عَفوِ رَبِّها وَرحمتِهِ

مَنَار مَناع عَقْل

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

* * *

(١) (صحيح): سنن ابن ماجة ٢٩٨.

المَرَاجِعُ

١ - مختصر تفسير ابن كثير...........ابن كثير.

٢- مختصر سيرة ابن هشام........... لأبي عبد الملك بن هشام.

٣- الرحيق المختوم................ للمباركفوري.

٤- السيرة النبوية................. للدكتور علي محمد الصلابي.

٥- نساء حول الرسول............. للسيد الجميلي.

٦- تراجم سيدات بيت النبوة......... للدكتورة عائشة بنت عبد الرحمن.

٧- سيرة الرسول................. محمود المصري.

٨- طبقات ابن سعد.............. ابن سعد.

٩- فقه السيرة................... للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

١٠- مؤمنات لهن عند الله شأن........ للدكتور محمد بكر إسماعيل.

١١- المعجم الوجيز.

* * *

الفهرس

* * *